ثم يُنزل الله حكمه فى هؤلاء فيقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وهكذا أصدر الله حكمه فيمن أقدموا على الاستئذان ، فما دام الإنسان قد تردد بين أن يخرج للجهاد أو لا يخرج ، فهذا يكشف عن اهتزاز إيمانه، وهذا الاهتزاز يعني وجود شك فى نفسه ، فيما أعد الله له فى الآخرة ؛ لأنه إن كان واثقاً فى داخله يقيناً أنه سيدخل الجنة بلا حساب إنْ استشهد ، ما تردد ثانية واحدة ، ولا أدار الأمر فى رأسه هل يذهب أو لا يذهب ؟ فما دامت الجنة هى الغاية ، فأىُّ طريق مُوصل إليها يكون هو الطريق الذى يتبعه مَنْ فى قلبه يقين الإيمان ، وكلما كان الطريق أقصر كان ذلك أدعى إلى فرح الإنسان المؤمن ؛ لأنه يريد أن ينتقل من شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وحتى لو كان يحيا فى نعيم فى الدنيا ، فهو يعرف أنه نعيم زائل وهو لا يريد هذا النعيم الزائل، بل يريد النعيم الباقى الذى لا يزول .

والتردد والاستئذان هنا معناهما: أن الشك قد دخل فى قلب الإنسان، ومعنى الشك - كما نعلم - هو وجود أمرين متساويين فى نفسك لا يرجح أحدهما حتى تتبعه . والنسب الكلامية والقضايا العقلية تدور بين أشياء متعددة ، فأنت حين تجزم بحكم فلا بد أن يكون له واقع يؤيده ؛ لأنك إن جزمتَ بشىء لا واقع له فهذا جهل، والجهل - كما نعلم - أن تعتقد أن

شيئاً ما هو حقيقة ، وهو غير ذلك ولا واقع له . فإذا أنت على سبيل المثال قلت : إن الأرض مبسوطة ، ثم جاءوا لك بصورة الأرض كروية وأصررت على أنها مبسوطة ، فهذا جهل وإصرار عليه . وفرق بين الجاهل والأمى ، فالأمى الذى لم يكن يعرف أن الأرض كروية ، ثم علم حقيقة العلم وصدقها فهو متى عرف الواقع صدقه وآمن به . ولكن الجاهل يؤمن بما يخالف الواقع . فإن جئت له بالحقيقة أخذ يجادل فيها مُصراً على رأيه . ولذلك نجد مصيبة الدنيا كلها ليست من الأميين ، ولكن من الجهلة لأن الأمى يحتاج إلى مجهود فكرى واحد ، أن تنقل له المعلومة فيصدقها ، أما الجاهل فإقناعه يقتضى مجهودين : الجهد الأول : أن تخرج ما فى عقله من معلومات خاطئة ، وأوهام ليست موجودة فى الواقع ، والجهد الثانى : أن تقنعه بالحقيقة .

وإذا كان هناك واقع فى الحياة تستطيع أن تدلل عليه فهذا هو العلم . فإن لم تستطع التدليل عليه فهذا هو التلقين ، والمثال : أننا حين نُلقن الطفل الصغير أن الله أحد ، وهو لم يبلغ السن التى تستطيع عقلياً أن تدلل له فيها على ذلك . ولكنك قلت له : إن الله أحد ، وجزم بها الطفل ، وهذه حقيقة واقعة ، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليها . وهو فى هذه الحالة يُقلد أباه أو أمه أو مَنْ لقنه هذا الكلام حتى ينضج عقله ويستطيع أن يدلل على ما اعتقده فى صغره بالتلقين .

إذن : فالعلم يقتضى أن تؤمن بقضية واقعة عليها دليل ، ولكن إن كنت لم تصل إلى مرحلة الجزم ؛ تكون فى ذهنك نسبتان ؛ وليست نسبة واحدة . فإن لم ترجح نسبة على الأخرى ، فهذا هو الشك . وإن ظننتَ أنت أن إحداهما راجحة فهذا هو الظن ، فإن أخذت بالنسبة غير الراجحة فهذا هو الوهم .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ولو استقر فى قلوبهم الإيمان اليقينى بالله واليوم الآخر ، وأن مَردَّهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنهم سوف يحاسبون على ما قدموا ، واعتبروا أن تضحيتهم بالمال والنفس عمل قليل بالنسبة للجزاء الكبير الذى ينتظرهم فى الآخرة ، لو كان الأمر كذلك لما استأذنوا ، ولكن ما دام الشك قد دخل قلوبهم فمعنى هذا أن هناك ريبة فى أمر ملاقاة الله فى اليوم الآخر . وهل هذا الأمر حقيقة يقينية ؟ ولأنهم يرتابون فى هذه المسألة فهل يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل لا شىء، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

إذن : فالارتياب محله القلب ، والعلم أيضاً محله القلب ، ويمر كل من الارتياب والعلم على العقل ؛ لأن العقل هو الذى يُصفِّى مثل تلك المسائل بعد أن يستقبل المحسَّات ويناقش المقدمات والنتائج ، فإن صفَّى العقل هذه الأمور واستقر على الإيمان ، هنا يصبح الإيمان قضية يقينية ثابتة مستقرة فى القلب ، ولا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتُناقَش من جديد ، ولذلك سمَّوْها عقيدة ، أى عقدت الشىء حتى يستقر فى مكانه ولا يتزحزح .

إن الطفل - مثلاً - إنْ قرَّب يده إلى شىء مشتعل فأحس بلسعة النار . هنا يعرف أن النار محرقة ولا يحاول تكرار نفس التجربة ، ولا يناقشها فى عقله ليقول : لن تلسعنى النار فى هذه المرة ، بل تستقر فى ذهنه المسألة ، وتنتقل من قضية حسية إلى قضية عقدية لا تخضع للتجربة من جديد ولا يحتاج فيها إلى دليل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]

والقلب هو محل القضايا التى انتهت من مرحلة التفكير العقلى ، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد .

وقوله هنا ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه : أن الإيمان عندهم لم يصل إلى المرتبة التى لا يطفو فيها مرة أخرى للتفكير العقلى . . أيؤمن أو لا ؟ ، أى : لم يصل إلى مرتبة اليقين ، بل ما زال فى مرحلة الشك الذى يعيد القضايا من القلب إلى العقل لمناقشتها من جديد ، ولذلك يصفهم الحق سبحانه وصفاً دقيقاً فيقول : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى : أن الإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب ، فينزل إلى القلب ثم يطفو إلى العقل ليُناقَش من جديد ، ثم ينزل إلى القلب مرة أخرى ، وهكذا يتردد الأمر بين العقل والقلب ، ولا يستقر فى مكان ، وهم بذلك على غير يقين من الآخرة ، وما أعدَّ الله لهم فيها من جزاء . ويشكُّون فى لقاء الله فى اليوم الآخر . ويدور كل ذلك فى نفوسهم ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة اليقين .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لنا الصورة أكثر فيقول:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ففى ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد ؛ ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد والراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط ؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

ولقائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال في آخر لحظة ؟ نقول : لا ، فالذاهب إلى القتال لا يمكن أن يستعد في آخر لحظة . بل لابد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة وتأكد من صلاحية سلاحه للقتال ؛ ووجود الطعام الذى سيحمله معه ؛ وغير ذلك ، لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة ، بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعَدُّ كشفاً للخميرة المبيَّتة فى أعماقهم بألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع على نواياهم ، وما تُخْفِى صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا فى أنفسهم . لذلك يقول:

﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وسبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين فى احتياج دائم إليه سبحانه ؛ لذلك ثبط هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و « ثبطهم » أى جعلهم فى مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدانية. والتثبيط : عملية نزوعية.

وأضرب هذا المثل دائماً - ولله المثل الأعلى - أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإنْ مددتَ يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا ؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحوز وردة مثلها ، فإما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالشرع يتدخل - فقط - فى الأعمال النزوعية .

وكراهية الله لنزوعهم تجلّتْ فى تثبيطهم وخذلهم وردّهم عن الفعل ، وزيَّن لهم فى نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ ؛ وذلك

لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله في التخلف ، وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وإذا كان التثبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم: اقعدوا بإذن من الإرادة الإلهية . أو أن رسول الله ﷺ أذن لهم بالقعود والتخلف لمّا استشفّ تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحتْ لهم بالقعود ، فالحق هو القائل سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]

وهكذا نجد أن كلمة : ﴿ قِيلَ ﴾ قد بُنيتْ لما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون ، فالله بتثبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا، والرسول ﷺ قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود ؛ كأنهم قالوا لهم: اقعدوا . وقولهم بعضهم لبعض زيَّن لهم القعود ، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفي عطاءٌ عطاءً ؟ . لا ، بل كلها عطاءات تتناسب مع الموقف .

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والمقصود بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التي تفرض عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصح أن يرتضوها لأنفسهم . وفي موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٧]

وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال ، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال .

ونجد الشاعر العربى عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه، فقال :

وَمَا أَدْرِى وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي

أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ (١)

والقوم تُطلَقُ على الرجال دون النساء (٢). ثم يبين لنا الحق حكمة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة. وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه و تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والخبال مرض عقلى ينشأ معه اختلال موازين الفكر ، فتقول: فلان مخبول، أى: أنه يحكم فى القضايا بدون عقل ، إذن فقوله تعالى: ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أى: أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين

(١) البيت من قول زهير بن أبى سلمى
(٢) ويُفسَّر هذا قوله تعالى: ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] فلو كانت النساء من القوم لم يقل: ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾.

عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التي لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي : أنهم كانوا سيُحْدثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفساد ؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .

ولكن السؤال : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون في الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة "فيكُم" اعلم أنها تتعلق ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمظروف ، قال الحق :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

هل كان فرعون سيصلب السحرة في داخل الجذوع أم على الجذوع ؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضيناه في أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله في أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى «في» الظرفية ؛ ومعنى آخر في استخدام حرف "على" . ولو قال الحق سبحانه وتعالى : «لأصلبنكم على جذوع النخل» ، فإن لها معنى أن يكون الصَّلْب على الجذع ؛ أي : أنه صَلْبٌ عادي ، ولكن قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ معناه : أن

عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب فى المصلوب فيه ، أى: أن جنود فرعون كانوا سَيَدُقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل فى جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعة واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]

أى : أن سرعتنا فى العمل الصالح تنتهى بنا إلى المغفرة ، إذن: فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن فى المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

ولم يقل: يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أى سيزيدونه ؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شىء كأنه لم يكن فى بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ فى الخير ، فكأنك فى الخير أولاً ثم تزيد فى فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ نجد أن «أوضع» تعنى: أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : "أوضعت الدابة" ؛ أى مشتَ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة فى نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى

حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهم يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة في الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ؛ لأنهم كانوا سيهمسون في آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضي بُطئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولابد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن: فالحركة هنا تحتاج إلى البطء في الوسوسة ؛ وسرعة في الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل في عقول المؤمنين ؟ ويُفرِّقوهم جماعات ؟ الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي: يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية في أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزىء به ، وهذا أوضح ما يكون في مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون في هذه المجالس بالذنب الشديد ؛ إن وُجدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُخْرِوه بكل طريقة ؛ لكي يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيِّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه، ويدَّعُون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ،وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغرى الناس بالسرقة ، والمرتشي يحاول نشر الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السيء ؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركي الصلاة، تجدهم يحاولون السخرية منه ، فهذا يقول له خلني على جناحك ، وهذا يقول له مستهزئاً . يجعلنا الله من بركاتك. ويُبيِّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد في الأرض ، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حتْماً طال الوقت أو قصُر بتبعها عذاب في الآخرة . أما أهل الإيمان فهم يحشون الله في الدنيا؛ فيثيبهم الله في الآخرة ، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة .

إذن: فقوله تعالى :﴿ يَعْبَؤُكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي: إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى إيمانكم، يحاولون أن يفتنوكم في دينكم حتى تنزلو إلى مستواهم ، تماماً كأنماط السوك التي بيَّنَّاها من قبل

ثم يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيماني لن يكون في منَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين ،ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسمعتُ لفلان، أي: سمعتُ أدنى ما

قاله، وسمعت من فلان، أى. لصالح شخص آخر ، أى :من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتى بمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين مما يُحدث بلبلة فى فكرهم ، ومن هؤلاء المضللين للأفكار جواسيس لهم ينقلون إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم . وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذ أصيبوا بالخبل بدأوا فى نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت "اللام" فاصلة بين "سمعت له" أو "سمعت من غيره لصالحه" ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً فى قول الحق تبارك وتعالى .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فمحمد السطحى التفكير يقول " إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين ، خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم، أو أن يزدادوا فى إثمهم بسبب هذه الخصومة ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو . لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيماً ، أى لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لأن الذى كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم ؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التي ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من مؤامرات على الإسلام، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين، والتآمر على رسول الله ﷺ

وقوله تعالى ﴿ابتغوا الفتنة من قبل﴾ له ﷺ دليل على تلك الوقائع السابقة[1]. أما قوله تعالى ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ فتقليب هو جعل أسفل الشيء عاليه، وعاليه أسفله؛ حتى لا يستتر منه شيء. وهذا مظهر نراه في السوق؛ عندما تذهب عند الفاكهي وتجد ما هو موجود في أعلى الصفيحة مُنسقًى بعناية، فإذا اشتريتَ منه ملأ لك الكيس من النصف الرديء الذي أخفاه أسفل الصفيح. وهكذا يأتي لك بالأسفل أو بالشيء الرديء المكشوف عورته. والذي لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه لك[2].

وهكذا يفعل المنافقون حين يُقلِّبون الأمر على الوجوه المختلفة حتى يصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشيء. والمثال الواضح، عندما تآمرت قريش على رسول الله ﷺ، وجاءوا من كل قبيلة شاب ليضربوه ضربة رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل

لكن الحق سبحانه يأتي إلى كل هذه الفتن ويجعلها لصالح المؤمنين، ولذلك يقول جل جلاله:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١). أما القرطبي فقد قال في تفسير الآية (٤/ ٣٠٨٣): «أي لقد طلبوا الإفساد والاغتيال من قبل أن يظهر أمرهم، ويُنزل الوحي بما يفتضحون». وقال ابن جريج: «هم اثنا عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي ﷺ».

(٢) وقد جوع رسول الله ﷺ هند، وبينما أنه ﷺ مرَّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشَّ فليس مني». أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢) والترمذي في سننه (١٣١٥) عن أبي هريرة. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿ حتَّى جاء الحقُّ وظهر أمرُ اللهِ وهُمْ كارِهُون ﴾ فالتآمر على رسول الله ﷺ ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدي إلى هجرته ﷺ من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً في إظهار الحق وانتشار الإسلام ؛ لأن الله لايرسل رسولاً ثم يخذله ، فما دام قد أرسل رسولاً فلابد أن ينصره [1] ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبعوا الفتنة؛ لأن السابق من المتن انقلب عليكم وأدَّى إلى خير كثير للمؤمنين .

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ ولَقدْ سبقتْ كلمتُنا لعبادِنا المُرْسَلِينَ (١٧١) إنَّهُمْ لهُمُ المنصُورُونَ (١٧٢) وإنَّ جُندَنا لهُمُ الغالِبُون (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿ وإنَّ جُندَنا لهُمُ الغالِبُون ﴾ وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيتَ قوماً مؤمنين انخمروا بقتال قوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من جنود الله حقّاً ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد اختل . ولذلك علينا أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً في غزوة أحد ، عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه [2] ، هنا اختل شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ﷺ ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصرو ؟ لو حدث ذلك لَهانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين

(١) وفي هذا يقول عز وجل ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر ٥١]
(٢) عن البراء بن عازب قال « لقيَ المشركون يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال . لاتبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلاتبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، ولكنهم خالفوه ﷺ فوقع سبعون قتيلاً في المسلمين . والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٣) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٩٤) .

ويوم حنين حين اعتقد المؤمنون أنهم سيتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أن أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة ؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك إذا رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الحيدية الإيمانية قد اختل . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾ [آل عمران]

إذن : فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون ؛ أنهم عرفوا أن الذنوب يمكن أن تأتي إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث ولم ينتصر المؤمنون ؛ فمعنى هذا أن هناك خللاً في إيمانهم ؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتي حادثة كونية فتكذبها .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتني بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر -والعياذ بالله- ؟ إن كل ذلك وغيره - تجوز فيه الفتنة . والقول: ﴿ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ظاهره أنه أمر ،

ولكنه هنا ليس أمراً ؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر، بل هو دعاء أو رجاء. وإن جاء من المساوي يقال: «مساو به» ، أما إذ جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للفعل.

وكان الجد بن قيس -وهو من الأنصار قد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال. ائذن لي ولا تفتني ؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له فسيقع في فتنة مخالفة أوامر رسول الله ﷺ [1] .

وقيل : إن هذا الأنصاري لم يكن به جَلَدٌ [2] على الحرب وشدائدها وقيل: إنه كان على ولع بحب النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وخشي أن يُفتَنَّ بهنَّ ، خصوصاً أن المعركة ستدور على أرض الروم ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : ﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ أوقعه في الفتنة فعلاً؛ لذلك جاء قول الحق : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ وكان هذا الأنصاري سمياً، وشكا من عدم قدرته على السفر الطويل والحر ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرُّون فالنار أحقُّ بالفرار منها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

وفي آية أخرى قال سبحانه :

---

(١) انظر أسباب النزول للسيوطي (ص٩٤) وابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٢) وقد كان الجد بن قيس من أشراف بني سلمة

(٢) الجَلَد - الشدة والقوة والصبر على القتال .

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة]

إذن . فجحيم النار أشد قسوة وحرارة من نار الهتان [1] ، وحر الدنيا مهما اشتد أهون بكثير من نار الآخرة وهي تحيط بالكافرين.

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وما يزال الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى كيف حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مختلقة ، أراد سبحانه وتعالى أن يزيد الصورة توضيحاً في إظهار الكراهية التي تخفيها قلوب المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ والمقصود بالحسنة هنا هي : الانتصار في الحرب ، والنصر في الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر في حصول المؤمنين على الغنائم. وهذه مسألة تسوء المنافقين وتحزنهم ؛ لأن الهمّ الأول للمنافقين هو الذين ، وهم يريدون الحصول على أكبر نصيب منها . وبما أنهم لم يخرجوا للجهاد والتمسوا الأعذار غير الصحيحة للهروب من الحرب ؛ لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون ؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق في الغنائم . وفي هذه الحالة يقولون: يا ليتنا كنا معهم ؛ إذن لأصبنا الغنائم وأخذنا منها .

(١) وذلك قوله سبحانه ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ﴾ [التوبة ٨١]

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزِموا في الحرب ؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقين يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة، وسيقولون لأنفسهم لقد كنا أكثر رجاحةً في الفكر واحتطنا للأمر، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا مما أصابهم . والمصيبة في الحرب تكون في: الأرواح، والرجال والمال، ولعتاد بالإضافة إلى مرارة الهزيمة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ويتولَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا إنْ أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة، وهي هنا الهزيمة في الحرب . وسيقولون : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي : قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال، بينما لم يحتَطْ محمد وصَحْبُه وجيشه . ثم يديرون ظهورهم لِيُخْفُوا فرحتهم

وحين يقول الحق ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يوضح لنا أن أي نصر للإيمان يحزن المنافقين في نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تَحْزنهم الحسنة التي ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك داعياً لأن يقولوا : نحن لم نفرح ولم نحزن ؟

بالله حين يعاجتهم القرآن بالكشف عن خبايا نفوسهم بالقرآن ؛ ألم يكن ذلك داعياً لهدايتهم ؟

لقد عرف محمد ﷺ الغيب الذي في قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعه الحق على ذلك . ومع هذا أضمروا النفاق في قلوبهم و ينتظروا مَسَاءةً تَحل بمحمد ﷺ وصحبه .

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له . فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ؛ وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هي التقاء هدف بغية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بشر فهو سيئة . والمصائب نوعان مصيبة للنفس فيها غريم ، ومصيبة ليس فيها غريم . فإن اعتدى عليّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمي ، وتتولد في قلبي حفيظة[1] عليه ، وغيظ منه ، وأرغب في أن أرد عليه وأثأر لنفسي منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريمي في المرض ؟ لا أحد .

إذن فالمصائب نوعان ؛ نوع لي فيه غريم ، ونوع لا يوجد لي غريم فيه ؛ النوع الأول الذي يكون لي فيه غريم يمتلىء قلبي عليه بالحقد ، ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم ، فيقول :

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هي العفو ، والثالثة هي أن تحسن ؛ فترتقي إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون

---

(١) حفيظة : عقيدة وضغينة

وكذلك يقول الحق .

﴿ولمن صبر وغفر إنَّ ذٰلك لمن عزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]

أى من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التى تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم فهى لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا اللون من المصائب :

﴿ واصْبِرْ على ما أصابك إنَّ ذلك منْ عزْمِ الأُمُور ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

لأن العزم المطلوب هنا أقل ، وبذلك لم تستخدم «لام التوكيد» التى جاءت فى قوله تعالى :

﴿ولَمن صبر وغفر إنَّ ذلك لَمِنْ عزْمِ الأُمورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال:

﴿ والْكاظمين الْغيْظ والْعافين عن النَّاس واللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسنين ﴿١٣٤﴾﴾

[آل عمران]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث فى النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيمانى ، فيأتى العفو ، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

ثم تأتي المرحلة الثالثة :

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران]

أي : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزى عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان ؛ لأن العبيد كلهم عيال الله ، واضرب لنفسك المثل - ولله المثل الأعلى - هَبْ أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثاني ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت ؟ لابد أن يكون قلبك مع المضروب ، لدنك تُرَبِّتُ على كتفه وتصالحه ، وقد تعطيه مالاً أو تشترى له شيئاً لترضيه ، أى أنك تحسن إليه .

ومن هنا كلنا عيال الله ، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف في صف المظلوم إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك أفلا يستحق في هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه ؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم في هذه الحالة إنما يحسن أن يكون هو الذى حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير

والحق هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتي المصائب أن نرد على الكافرين ونقول :

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وهكذا تُرَدُّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ؛ فقد يحدث لي شيء أكرهه ؛ ولكنه في حقيقة الأمر يكون لصالحي ، فإن ضربني أبي لأنني أهمل مذاكرتي ، أيكون ذلك عقاباً لي أم لصالحي ؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذى سوف تحققه فى الحياة إن ذاكرت، فهذا العقاب لصالحك وليس ضدك ، وكذلك لابد أن نأخذ أحداث الله فى كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا فى معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير فى دينهم ؛ وإلى أنهم لابد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها ؛ فلهذا انهزموا .

ولله المثل الأعلى ، فنحن نجد الأستاذ- وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم - يعاقب للخطىء منهم، وفى هذا تربية للتلاميذ .

إذن : إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شىء مكتوب لنا لا علينا ، الذى كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل .

﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة]

إذن فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يربى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد فى فنائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق ؛ويبهم ابنه، فهو يتغاضى على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ؛ فهذا من عبثهم ؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير[1] ، ومن هنا كانت الآية

(١) عن صهيب الرومى قال رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٥٤)

الكريمة ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وما كتب الله للمؤمنين إنما هو في صالحهم

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً ؛ فيقول سبحانه: ﴿هُوَ مَوْلاَنَا﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى مَنْ والاه ، ثم يأتي الإيضاح كاملاً في قوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأن الله الذي آمنتَ به هو إله قادر حكيم ، فإذا جرتْ عليك أمور فابحثها ؛ إن كانت من فعل نفسك ، هنا عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطي الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطي المؤمن مقومات حياته المادية والمعنوية معاً وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما ، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يعطي المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه ، وفي هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه ؛ لذلك لا يقولن أحد: إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف في الإيمان وبالتالي فإنه ضعف في التوكل ولكن قل: إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتي المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك وما دام مولاك يحاسبك على أي خطأ ويُصوِّبه لك ، فثِقْ به سبحانه وتوكل عليه .

وعلى سبيل المثال: لنفترض أن إنساناً اتكل عليك في أمر من الأمور ، ثم أخطأتَ أنت في هذا الأمر ، لا بد أن يأتي لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفي هذه الحالة ستجد نفسك ممتلئة

بالثقة في هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال: الجوارح تعمل والقلوب تتوكل فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ، وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل في محصول وفير يهبه الزرع ، فلا تأتي آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتي دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك نتاج عملك

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون ؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الحي الذي لا يموت، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكْرِهُك أو يُذِلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون في مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو مرح أعبياء . فيأتي قوله الحق

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتي قول الحق سبحانه ليوضح إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم ولذلك قال ﴿ لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و"لنا" تفيد الملكية ؛ إما تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد ربح الباطل ، وكل ذلك لصالحنا

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم أما نهايتكم فاستدامة عذاب في الدنيا وفي الآخرة . وأسباب العذاب مجتمعة لكم في الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم في الآخرة ، وشجعة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا . إذن فنتيجة المقارنة ستكون في صالحنا نحن

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتي إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزي دائماً على أدنى خير

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بحسم مسألة الخيانة العظمى وهي الكفر والعياذ بالله ، وبيَّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أي عمل طيب ؛ لأن الكفر يُحبطُ أيَّ عمل ، وإن كان لعملهم خير يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً في الدنيا ، ولكن ليس لهم في الآخرة إلا النار[1] ، ويقول:

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ، ويجزى بها في الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » أخرجه مسلم في صحيحه (٧٨٠٨) وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣)

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إذن فشرط تقبُّل الله لأى عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس فى بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

[النور]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر فى قوله تعالى

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه فى قول الحق

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

فقد تساءل بعض من العلماء . أيجزى الحق سبحانه هؤلاء الكفار فى الآخرة أم فى الدنيا ؟ وقد ستغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ونقول : إن الحق يعطى فى الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطى فى الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفى قلبه الله . ولذلك فالذين يحسنون اتخاذ الأسباب المخلوقة لله بمنح الربوبية ينجحون فى حياتهم . والذين يتقدمون دنيوياً فى زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بها يعطيهم الله جزاء عملهم فى الدنيا، ولا ينقص منه شيئاً ؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً .

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذى يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه فى الآخرة [1] ؛ لأنه عَمِلَ وليس فى باله الله ، فكيف ينتظر جزاءه ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزى مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله وهذا أمر طبيعى ؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس فى بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود فى الدنيا، وهذا هو جزاؤك ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تجيء يوم القيامة تجد يد الله ممدودة لك بالخير الذى قدمته .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٤) وأحمد فى مسنده (٦/ ٩٣ ، ١٢٠) وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٧/ ٥-٤) من طريق آخر عن عائشة وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والطَّوْع. هو الفعل الذى تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا يجازى على خير فعلته بإرادتك ؟

ولا بد لنا أن نفرق بين «طوع» و«طائع» ، وكذلك نفرق بين هذا وبين الفعل الذى تقوم به حين يحمسك غيرك ويكرهك أن تفعله والأفعال كلها إما أن تكون بالطواعية وبالإرادة ، وإما أن تكون بالإكراه ولو كان الحق قد قال . أنفقوا ، طاعة لما قال : ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ؛لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا ﴿طَوْعًا﴾ يكشف أن ما ينفقونه هو أمر اختيارى من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفتضح نفاقهم ، وكان الواحد منهم يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة فى المسجد ، ويفعل ذلك طوْعَ إرادته ، خوفاً من افتضاح نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هى طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تنبع من طوع النفس فهى للمظهر وليست للعبودة

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هل هذا أمر بالإنفاق ؟ أو هل الله يريد منهم أن ينفقوا فعلاً، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم ؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول لإنسان :اصبر ، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فسترى منى هَوْلاً كثيراً . وهذا مثل قوله تعالى .

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الطور]

وقوله تعالى .

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت]

أى : أنكم إن صبرتم أو لم تصبروا فإن ذلك لن يغير شيئاً من الجزاء الذى سوف تلاقونه ، فالأمر سوء . ولو كان قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمراً لكان كل من عمل معصية داخلاً فى الطاعة ؛ لأن الله أمره أن يفعل ما يشاء ولكن هذا أمر تهديدى ، أى : افعلوا ما شئتم فأنتم عائدون إلى الله وسيحاسبكم على ما عملتموه . ولن تستطيعوا الفرار من الله سبحانه

وقوله تعالى : ﴿ أَنفِقُوا ﴾ هو -إذن- أمر تهديدي ؛ لأنه لن يجديكم أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً .

وكلمة ﴿ كَرْهًا ﴾ وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من سورة ، فهى فى سورة آل عمران ، وفى سورة النساء ، وفى سورة التوبة ، وفى سورة الأحقاف ، وفى سورة الرعد ، وفى سورة فصلت ، قد ذكرت ﴿ كَرْهًا ﴾ بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال البعض . إن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد . نقول لهم : لا ، إذ المعنى ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

فالكُره هنا ليس للحمل ولا للوضع ، ولكن للمشقة التى تعانيها الحامل أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن البعض يقول . إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج فى أن تحمل ولا أن تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها "سوف أحمل الليلة" ؛ لأن الحمل يحدث دون أن تَعِىَ هى حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل والمرأة والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة الولادة ، ولا تستطيع أن تقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم فكل هذا

يحدث إكراهاً بعبر اختير منها. ولذلك نقول لمن يقولون أن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد: لا؛ لأن "الكُرْه" بضم الكاف هو ما لا يريده الإنسان لأن فيه مشقة، و"الكَرْه" بفتح الكاف هو ما فيه إكراه من الغير. إذن فـ"كَرْهًا" بفتح الكاف تختلف في معناها عن "كُرْهًا" بضم الكاف[1]

الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ أي: لن يقبل الله منكم ما تنفقونه. ولكن ما الفرق؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منهم ولم يرفضها أدباً منه ﷺ، فكل عمل يؤدى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له بالغنى، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة، وحاول أن يتهرب من دفعها[2]؛ فنزل القول الكريم:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[التوبة]

---

(١) وإلى هذا ذهب الفراء حيث قال: إن الكَرْه ما أكرهت نفسك عليه، والكُرْه ما أكرهك غيرك عليه. نقله ابن منظور في لسان العرب.

(٢) وذلك أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. فقال ثعلبة: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأوتين كل ذي حق حقه. فقال ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً». وتدرج به الأمر حتى ترك الصلاة والجمعة ثم منع الزكاة وقال ما هذه إلا جزية. وبعد ما نزلت آية التوبة (٧٥) أتى ثعلبة رسول الله ﷺ يرجوه أن يقبل صدقته فقال ﷺ: «إن الله قد منعني أن أقبل صدقتك». فجعل يحثو التراب على رأسه. حديث طويل أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧٨٧٣) من حديث أبي أمامة. قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢): «فيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك». وانظر أسباب النزول للواحدي (ص ١٤٥).

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يقبلها منه . وعندما توفى رسول الله ﷺ جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه . ومات ثعلبة فى عهد عثمان [1]. هذا هو عدم القبول .

ولكن هناك فى عهد رسول الله ﷺ من دفع الزكاة من المنافقين وقُبِلَتْ منه ، ولكن الله لم يتقبلها منه . إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله . إذن فالآية معناها : أن الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم فى الخير ولو تقبله البشر

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فيقول

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وكما قلنا إن كلمة الفاسق مأخوذة من "فسقت الرُّطَبَة" أى انفصلت القشرة عن الثمرة وقشرة البلح مخلوقة لتحفظ الثمر . وعلمنا أن المعانى فى التكليف الشرعى قد أُخذت من الأمور الحسِّية ، ولهذا نجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين ينفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التى انفصلت عن سياجها

فالذى يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الزنا يُعاقب على معصيته ، أما إن كان الإنسان منافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهَبْ أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ، هنا نقول . لا شىء يجور على شىء ، إن له ثواباً إيمانه وعليه عقاب معصيته

---

(١) عندما ولى عثمان الخلافة ، أتاه ثعلبة فسأله أن يقبل صدقته ، فقال رسول الله ﷺ لم يقبلها ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها ؟! فلم يقبلها عثمان . انظر أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥ ، ١٤٦)

إذن: فالفسق في هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الطاعة. ولكنه فسق من نوع خاص؛ لأن هناك فسقاً محدوداً وهو أن يخرج الإنسان عن مجرد تكليف ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله. ولذلك جاءت الآية الكريمة التالية

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إذن: فالفسق نوعان. فسق عام، وفسق خاص. وقد يقول البعض: إنك إذ ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عباداتك لا تنفعك.

ونقول. لا مما دامت القمة سليمة؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً بالمنهج؛ فلكل عمل عبادي ثوابه، ولكل ذنب عقابه؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة، ولا يمكن أن يضيع كل الشرور في ميزان الإنسان. فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ جائزتها وثوابها، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف ينال عقابها

وقوله الحق هنا ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾، هذا القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم، وفي هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر، لا في خصوص لفسق، وحدد الحق ثلاثة أشياء منعت التقبل منهم: الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى، ثم الإنفاق بكراهية.

ونفهم لمنع على أنه رَدُّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو يلغيه ؛ كأن يريد إنسان القيام فتُقعده ، أى أنك رددت إرادة القيام إلى القعود ، وهو ما ينافيه ، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه . إذن فالمنع مرة يأتى للفاعل ومرة للمفعول فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعت المفعول، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذى يوجبه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك فى الإنسان وفى الزمان وفى المكان .

وإذا بحثت هذه المسألة فى الإنسان تجد أن حياته تقوم على النفس والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذى لا يصبر الإنسان على التوقف عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك ، وإن كتمت الزفير انتهت حياتك . وإذا منعت الهواء من الدخول إلى لرئتين يموت الإنسان ، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه . فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده ، رقلت له . سيأتى أنداده أو إخوته أو عائلته ويضربونك ، حينئذ يمتنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل . والعالم كله لا يمكن أن يعيش فى سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل[1] ؛ القوى يواجه قوياً ، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على لآخر ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش فى سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد العالم الساكن ؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ [الأنفال : ٦٠]

لا يأتى من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة . ولكن لو فرَّغْتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفزِّع الهواء من إناء مغلق فيتحطم

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ لا يعنى أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قوله اللسان وتصديق الجنان ، فالإيمان محله القلب ، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم ، وأعطاهم نفس الحقوق المادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " التى نطقوا بها ؛ ولأن باطنهم قبيح ، فالحق سبحانه يجازيهم بمثل ما فى باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً ويكروه باطناً وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً ، فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة ؛ ولأنهم لم يعطو باطناً طيباً ، فلم يُعْطِهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره

ونأتى إلى السبب الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى ﴾ والكسل . هو التراخى فى أداء المهمة . إذن فهم يصلون رياءً ، فإن كانوا مع المؤمنين ونُودى للصلاة قاموا متثاقلين . وإن كانوا حيث لا يراهم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلوكهم ملىء بالازدواج والتناقض .

والسبب الثالث : ﴿ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ والنفقه هى بذل ما عندك من فضل ما أعطاه الله لك ؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً

أم قوة ، وهذا ما يحقق التوزن في المجتمع ؛ لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد القوى والضعيف ، الغني والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك في حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى والعاجزون والفقراء . ولكن لابد أن يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من ناتج عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فأنت تأخذ حاجتك من ثمرة طاقتك ، ثم تنفق على غيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة في الحياة ، فالصحيح يعطي المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغني يعطي الفقير من ماله ما يعينه على الحياة والقدر على الحركة يعطي من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكامل

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع ؛ لأن الغني اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوي اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش في مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار وهذا هو التأمين الصحيح للقادر والغني ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا يشعل الفقير خوفاً من الأحداث المتغيرة ، وإن مات فلن يجوع عياله ، وإن افتقر الغني فسوف يجد المساندة ، وإن مرض الصحيح فسوف يجد العلاج .

إذن - فالنفقة أمر ضروري لسلامة المجتمع ، ونجد أن السوق توصف بأنها ناطقة ، وهي التي يتم فيها بيع كل السلع وشراؤها فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشتري اشترى ، إذن فالحركة فيها متكاملة وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشتري ، فإما أن تأخذ مالاً نقدياً مقابل ما بعتَ ، وإما أن تدفع مالاً ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السلعة بسلعة أخرى . وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشتري السلع بثمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتي له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمنافقين العذاب الباطني في الدنيا، والعذاب الواقع أمام الكل في الآخرة ، وبيَّن لهم أن إنفاقهم طوْعاً أو كَرْهاً لن يأتي لهم بالخير .

ولكن من ينظر إلى المنافقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا يلتفت الإنسان الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد يقول إنسان : إن الله قد قال .

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن]

والله يخاطب رسوله ﷺ، وهي على هذا الخطاب خطابٌ لجميع المسلمين، وهو يقول الحق سبحانه

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم تقولون كيف يكون عذابهم في الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعني استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكنك إن نظرت

بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً في عذابك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتفتاً إلى النعمة ويلهيانه عن المنعم وإن لم يلتفت الإنسان إلى المنعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد في الحياة الدنيا قد يكونان سببين في أن يخاف الإنسان ترك الدنيا فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله في الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذي لا يؤمن باليوم الآخر ؛ فالدنيا هي كل زمنه ؛ وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ،وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقال : لئن فاتتني الدنيا فلي عند الله خير منها ويريد الحق سبحانه أن يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التي تُلهي عن المنعم، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ والآية الكريمة تدلُّ على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب في نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة . ﴿ لا ﴾ فقال. ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾

وأفهمت الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافر أو انفق بالمال والولد ؛ فذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليعذبه بهما في الدنيا والآخرة . فقال . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾ ، واللام هنا في "لِيُعَذِّبَهُم " هي لام تدخل

على الفعل واسمها "لام لعاقبة" . وهي تعني أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذي قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذي قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً ؟ أم ليكون قرة عين لهم ؟

هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الذي حدث كان عكس ما قصدوه ساعة قيامهم بفعل الالتقاط ، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون ،بل كان سبباً في زوال مُلكه ، إذن هذه هي لام لعاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا في ظاهره رفعة في الدنيا ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة في التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله ، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق في العذاب . ولم يُرد الحق العذاب لهم، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أن يدخلوا في العذاب والعمل غير الشرعي في تنمية المال أو إرضاء لأولاد هو الذي أوصلهم إلى العذاب .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وأول ألوان العذاب، أن تلهيهم تلك النعم عن المنعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون في عداء مع المؤمنين بمنهج الله ، ويحاولون إعلان هذ العداء ؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول ﷺ في طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون

ويتساءلون [١] . هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله له بعض خبايانا ؟ وكانوا في خوف أن يفتضح أمرهم ، فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً : كانوا يحاذرون من أن يدخل الرسول ﷺ في حرب ؛ لأنهم ما دامو قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال ، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين ، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم : ما لنا نبذل المال ونضحي بالأولاد في سبيل ما لا نؤمن به وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يلبُّون نداء رسول الله طمعاً في الجنة أو النصر . وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب . عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات ، فهم يحافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبي النساء ، فيكونون في عذاب نفسي طوال الرحلة إلى الغزوة وفي أثناء الحرب

ولون ثالث من ألوان العذاب أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال ، لا يهمه من أين جاء المال ؟ ولكن يهمه أن يأتي ، والذي يكسب حلالاً يكون واضح الحركة في الحياة ، والذي يكسب حراماً هو لص يحاذر أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش في عذاب أليم دائم من أن يأتي يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه اختلس ، أو أنه زَوَّرَ وزيَّف . أو أنه فعل شيئاً يُحقِّره في أعين الناس أو يُعرِّضه للعقوبة ؛ كأن يكون قد تاجر في المخدرات أو في الأعراض أو في غير ذلك ، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش في عذاب دائم وصراع مستمر .

---

(١) قال تعالى ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ [التوبة ٦٤] قال مجاهد يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا وقال الحسن . كان المسلمون يسمون هذه السورة الحافرة ؛ لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين وأظهرته . انظر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٦) والقرطبي (٤/ ٣١٢١)

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل : أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك ، وصلتك منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث ولكن إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأتي في النهار ولا أمام الناس ، بل تأتي ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد ولا تدخل من باب الشقة ، بل تظل تدور وتخطط لتحدث منفذاً تدخل منه دون أن يراك أحد وتصبح خطة للسرقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد . فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تتزعج وتجري لتحتمي ء وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يربي أولاده من مال حرام لا يبارك الله له فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه في تربيته فيرسب في الامتحانات . ويُتلف المال في الإنفاق بلا وعي . فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه ، ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

وفي عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدواً لله ورسوله وكان ابنه حنظلة [1] مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلي بالغيظ ، وعندما تودى للقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته [2] فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة ، بل سارع إلى الحرب

(١) هو : حنظلة بن الراهب عبد عمرو بن صيفي الأوسي وكنية أبيه أبو عامر ، وحنظلة من أهل الصفة
(٢) جاء في مستدرك الحاكم (٣/ ٢٠٤) أن هذه كانت أول ليلة له مع زوجته ، وترك جنباً في أحشائها ولد عام ٤ هـ هو عبد الله ، أصبح من أعلام التابعين وشجعانهم ، ولاه أهل المدينة أمرهم فقاتل جيش يزيد ابن معاوية قتالاً شديداً حتى قتل عام ٦٣ هـ انظر الأعلام للزركلي (٤/ ٩٩)

مع رسول الله ﷺ واستشهد في المعركة . ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظله ، مع أن هذه المسألة تكون سراً بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد ؟ لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة ولما كان الشهيد لا يُغسل[1] ، فقد عرف الرسول ﷺ أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة ، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقبلَ الشهيد على الله وهو جُنُب ، رأى الرسول ﷺ ما حدث حنظلة ، وعندما عاد إلى المدينه بعث إلى زوجة حنظلة وسألها . ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت : إنه عندما سمع نداء القتال ، خرج بدون غُسْل[2] . وتأمل كيف تركت الملائكة لتغسل شهيداً هو ابن عدو الله ورسوله وكيف يكون هذا غَيْظاً في قلب الأب .

وقصة أخرى - سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ؛ والده عبد الله بن أبيّ كان زعيم المنافقين في المدينة ، وهو الذي انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة[3] . ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ ، يطلبون منه الإذن بقتل والده بن أبيّ ، انظروا إلى الإيمان . فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويقول له . يا رسول الله إن كنتَ آمراً

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في شهداء أحد . أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة وأمر بدفنهم في دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٤٣) وأبو داود (٣١٢٨) ، والترمذي (١٠٢٦) وابن ماجه (١٥١٤) والنسائي (٤/ ٦٢) في سننهم وقد أخرج أحمد في مسنده عن جابر أيضا (٣/ ٢٩٩) « لا تغسلوهم فإن كل جرح أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة وسم يصل عليهم »

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٥٧) والحاكم في المستدرك (٣/ ١٠٤) وصححه والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦) والبيهقي في سننه الكبرى (٤/ ١٥) أن رسول الله ﷺ قال . « إن صاحبكم يعني حنظله - لتغسله الملائكة . فاسألوا أهله ما شأنه » فسألت صاحبته فقالت خرج وهو جنب حين سمع الهائعة فقال ﷺ « لذلك غسلته الملائكة »

(٣) قال ابن إسحاق حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينه وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس ، وقال اتبعهم وعصاني (يقصد محمداً ﷺ) ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب انظر سيرة النبي لابن هشام (٣/ ٨)

بقتل أبي فأمرني أنا بقتله ؛ حتى لا ألقى قاتله من المسلمين وفي قلبي علٌّ عليه[1] وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون هو قاتله ، أليس هذا عذاباً في قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً في الدنيا ؟

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة، ولا إلى الجزاء الذي ينتظرهم في الآخرة ، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التي تؤكد أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون في خدمة هذا الخليفة ، أي أنه أقبل على عالم كامل من كل شيء ؛ معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي : « خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتُك من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

أي لا تشتغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة ، فيجد المائدة مُعدَّة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه ولا يسلم عليه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول انشغل بالنعمة ، والثاني: لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له .

ومثال آخر . إن الصحة هي من أثمن النعم. أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان ؛ لأن الصحة هي التي تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة ، أما المرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان

(١) أورده ابن كثير في تفسير آية ﴿ يَنْظُرُونَ الأَمْرَ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ [المنافقون ٨] بنحو ألفاظه وعزاه لابن إسحاق

يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون في معيّة النعمة ، يكون في معيّة المنعم وهو الله سبحانه . ولذلك يقول في حديث قدسي .

«عبدي فلان مرض فلم تَعُدْني فيقول له: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له: أما علمتَ أنك لو عُدته لوجدتني عنده »[1]

قولوا لي بالله: أيضيق أي مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله ومفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم ، وهو الله سبحانه وتعالى ؟ لا ، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأنسَ بالله يخفف عنه الآلام لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقي مع نفسه ، فالعالم خُلق من أجل الإنسان والإنسان خُلق ليعبد الله . ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التي خُلقت له . وقد كان من المنطقي أن ينشغل بما خُلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول . إن الزمن حاضر وأزلي وأبدي . والأزلي هو القديم بلا بداية والأبد هو المستقبل بلا نهاية والحاضر: هو ما نعيش فيه

والوجود الذي تراه أمامك خلقه الحق سبحانه و جبَّ الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود»: لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجود ممكن ، وسيأتي له عدم أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟» الحديث .

لا ينتهي أي: أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه وتعالى. ولذلك فهو وجود أزلي قديم بلا نهاية، وأبد باقٍ بلا نهاية. وبذلك فهو يخرج عن الزمن.

نأتي بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة، أي التي بها مُوجِدٌ، وهي كل ما في الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى، ومنها هذه الدنيا التي يعبدها بعض الناس من دون الله، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السماوات والأرض، أي ليس لها وجود بلا نهاية ولكن كان وجودها ببداية. إذن فهي ليست أزلاً، وهي ليست أبداً لأنها تنتهي يوم القيامة.

ولذلك لا يجتمع في قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا؛ لأن الله أزل وأبد، والدنيا لا أزل ولا أبد، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هي بمقدار عمره فيها وقبل ميلاده لا علاقة له بها، وبعد الموت لا علاقة له بها وحتى إذا أخذنا الدنيا في عمومها فإن لها بداية ونهاية، فكيف يمكن أن يجتمع في قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية، وحب من له بداية ونهاية؟ لا يجتمعان

ولذلك قال شيخنا الزمخشري(١) رضي الله عنه: ما دام هذا الكون فيه وجود، يكون الوجود: إما واجباً، وإما ممكناً. والوجود الواجب لله وحده. والوجود الممكن هو كل ما عدا الله، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا للحق سبحانه وتعالى

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة. ولد في زمخشر عام ٤٦٧ هـ. أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن - أساس البلاغة كان معتزلي المذهب. توفي ٥٣٨ هـ الأعلام للزركلي (٧/ ١٧٨).

فإذا قلنا: إن هناك وجوداً فيه أزل وليس فيه أبد ، نقول: إن هذا ممتنع عقلاً؛ لأن الذى لا تكون له بداية لا تكون له نهاية .أى يكون دائم الوجود

إذن. فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس له أزل. أى: له بداية وليس له نهاية. ونقول: إن هذا يجتمع فى اثنين ؛ الآخرة والإنسان ؛ الإنسان له بداية هى تاريخ خَلْقه ، وليس له نهاية ؛ لأنه بعد أن يموت يُبْعَثُ مرة أخرى ، إما أن يخلد فى النعيم ، وإما أن يُعذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإمّا يخلد – والعياذ بالله فى النار

وكذلك الآخرة لم يأت زمنها بعد . إذن فهى لم تبدأ بعد ، ولكنها هى بدأت فليس لها نهاية ؛ لأن هناك حياة أبدية فى الجنة أو فى النار . إذن: فالإنسان والآخرة اشترك فى شىء واحد ، ولابد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة ؛ فالذى يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذى يطيع منهج الله ويبعده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له . والذى عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذى سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الحقيقية .

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

نعرف أن الحياة الحقيقية هى فى الآخرة وليست فى الدنيا ؛ لأن الغايات فى أى شىء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً إذا أردنا أن نصنع كُرْسياً . فالغرض من الكرسى أن يجلس عليه إذن: فكل الكراسى مهما اختلفت أشكالها وألوانها لها غاية واحدة وهى أن يجلس عليها . والإنسان غايته

لابد أن تكون متساوية . وما دمنا أفراداً لجنس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هي ؟ أهي الصحة ؟ بعضنا مريض أهي القدرة ؟ بعضنا عاجز. أهي طول العمر ؟ بعضنا عمره في الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما في الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف إذن فلا بد أن نلتقت في حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية

والحق سبحانه وتعالى يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لم يقف عز وجل عند هذا الحد ، بل قال سبحانه . ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

و﴿ تزهق ﴾ أي تخرج بصعوبة ، لماذا ؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها فقط . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتي له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتي له الموت فهو يستبشر ؛ لأن الذي ينتظره خير يفوق كل الذي سيتركه كمثل إنسان يعيش في كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألا يكون سعيداً ؟ وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذي ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر أما صاحب الدنيا فمثل الذي يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعة الموت [1]

(١) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فقلت يا نبي الله أكراهية الموت ؟ فكلنا نكره الموت . فقال « ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٤) والترمذي في سننه (١٠٦٧) وقال حسن صحيح.

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن في الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد . والمثال: أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك ، وإنْ أردتَ أن تلبس فلا بد لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب . ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذي يزرع، والذي يحصد، والذي ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذي يطحن الدقيق أو ينسج القماش ، أما في الآخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك . أليست هذه حياةَ نعيم ؟

إذن : فالذي تتفرح أساريره ساعة الموت هو المؤمن [1] ، والذي ينقبض وجهه وينشج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصي ؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيا إلى عذاب رهيب .

وقد قيل للإمام علي رضي الله عنه : يا إمام، أريد أن أعرف نفسي أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام عليّ : الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندي وجعل جواب السؤال عندك أنت ، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة

أي : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة ؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك في الفانية ما يحصله لك أجراً في الآخرة التي تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه

(١) قال الحسن البصري : لا ترغبه للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت رغبته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وغبره وشرفه . (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥)

أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا ؛ لأن معطي الهدية يزيدك في دنياك . وما دُمْتَ تفرح بذلك أكثر من فرحك بالذي يزيد آخرتك فأنت من أهل الذنب.

ويقال : إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سمحة مستريحة يقول إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض فهو يتشبث بالأمل في أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع. لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتحلله وأنه ميت لا محالة، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة]

ويرى ما كان محجوباً عنه في الدنيا . حينئذ يستعرض أعماله . فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره [1] فيُقبضُ على هذا الوضع أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصي فوجهه يسوَدّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع . وهذا ما نسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ الخائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً، أما التلميذ المجتهد فيكون مُبتسماً مُنفرجَ الأسارير .

وفي ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أي شيء إلا صحيفة عمله ، فهي التي تبقى في بؤرة شعوره ، وبؤرة الشعور هي المكان الذي إن استقر فيه شيء فإنه لا يُنسَى أبداً فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة،

(١) الأسارير : هي الخطوط التي في الجبهة من التكسر فيها ، فإذا ضحك الإنسان انفرجت هذه الخطوط دليلاً على فرحه وسروره.

أن هناك سؤالاً سيأتي في جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر في شيء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجب الإجابة المتميزة ؛ لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير ، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة إذن فساعة الالتقاط هذه حيث لا شيء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتي خاطر آخر إليها إلا إذا تزحزح الخاطر الأول عنها

ولذلك إذا سمعتَ شيئاً وحفظتَهُ من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشيء. كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت في بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة ، وإذ كانت حياته خيِّرة أشرق وجهه وانفرجت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسودَّ وجهه والعياذ بالله

وقوله تعالى ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ يعطينا معنيين : المعنى الأول : أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتي ساعة الموت والمعنى الثاني. أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم ؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها نقمة عليهم ، وأراد الحق

سبحانه وتعالى أن يشحننا ضد المنافقين وأن يجعلنا نحذر منهم كل الحذر ، ويضرب لنا المثل باليمين ، واليمين لا يطلق به الإنسان عادة إلا بعد شبهة إنكار . فإذا جئت لإنسان بخبر وصدَّقه فأنت لا تضطر لأن تحلف له . ولكن إذا أنكره فأنت تحلف لتزيل شبهة الإنكار من نفسه ، ولذلك فأنت حين تروى الخبر لأول مرة لا تحلف ، فإن أنكره سامعك حلفتَ

ولكن لماذا يحلف المنافقون دون سابق إنكار ؟

إنهم يسمعون القرآن الذى ينزل من السماء مملوءاً بالعتب عليهم ، وهم يشعرون فى داخل صدورهم أن كل مسلم فى قلبه شك من ناحية تصرفاتهم ، فيبدأون كلامهم بالحلف حتى يُصدِّقهم المؤمنون [1] ، والمؤمنون قد متَّعهم الله بمناعة إيمانية ، فى صدورهم ؛ فلا يصدقون ما يقوله المنافقون ، حتى يأخذوا حذْرهم ويكونوا بمنجاة مما يدبره هؤلاء المنافقون من أذى ، ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديق كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .

ولو لم يُعْطِ الله المؤمنين هذه المناعة الإيمانية لصدَّقوا قولَ المنافقين بقداسة اليمين وتمادَى حلف المنافقون ؟ لقد حسبوا بأنهم من المؤمنين والحقيقة أنهم فى مظاهر التشريع يفعلون كما يفعل المؤمنون ، ولكن قلوبهم ليس فيها يقين أو صدق .

وما داموا على غير يقين وغير صدق ، فلماذا يحلفون ؟ نقول . إن هذا هو تناقض الذات ، وأنت تجد المؤمن غيرَ متناقض مع نفسه ؛ لأنه مؤمن بقلبه ومؤمن بذاته ، ومؤمن بجوارحه ، ولا توجد مَلَكَاتٌ تتناقض فيه ،

(١) وفى ذلك يقول عز وجل ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ [المنافقون ٢]
جنة أى وقاية

والكافر أيضاً غير متناقض مع نفسه ؛ لأنه يعلن صراحة أنه لا يؤمن بالله ولا برسوله ، فليس هناك تناقض بين ظاهره وباطنه . صحيح أن فيه ملكة واحدة ، ولكنها فاسدة ، ولكن ليس فيه تناقض بين ما يضمر ظاهراً وما في قلبه

أما المنافق فتتناقض ملكاته فهو يقول بلسانه : "أنا مؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" . لكن قلبه يناقض ما يقوله، فلا يشهد بوحدانية الألوهية لله ، ولا يصدق رسالة رسوله ﷺ.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة « المنافقون » :

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون]

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، مع أنهم شهدوا بما شهد به الله ، وهو أن محمداً ﷺ رسول الله ؟ نقول إن الحق أراد أن يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرة . وفضح الله ما في قلوبهم وأوضح أن ألسنتهم تكذب ؛ لأنها لا تنقل صدق ما في قلوبهم .

إذن : فالمنافق يعيش في تناقض مع نفسه ، وهو شر من الكافر ؛ لأن الكافر يعلن عداءه للدين فهو عدو ظاهر لك فتأخذ حذرك منه أما المنافق فهو يتظاهر بالإيمان ، فتأمن له ويكون إيذاؤه أكبر ، وقدرته على الغدر أشد . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء]

ونحن نعلم أن تناقض الذات هو الذى يتعب الدنيا كلها ، ويبين لنا المتنبى هذه القضية، ويشرح كيف أنها أتعبُ شىءفى الوجود ، فيقول .

وَمَنْ يَكِدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ انْ يَرَى

عَـدوّ له مَا مِنْ صَـداقته بُـدُّ

هذا هو تناقض الملكات حين تجد عدواً لك، وتحكم عليك الظروف أن تصادقه . وفى ذلك يقول شاعر آخر :

عَلَى الـذَّمِّ بِنَا مُجْمعِـينَ وحـالُنَا

مِنَ الخوْفِ حَالٌ المجْمِعين عَلَىَ الحمْدِ

وشاعر ثالث يريد أن يصور التناقض فى المجتمع الذى يجعل الناس يمجدون هذا وهم كارهون له ، فيقول :

كَفَـانَا هَـواناً مِـنْ تناقُـضِ ذَاتنا

متى تَصْدُقَ الأقوالُ بالألسُنِ الخوْفِ

إذن . فالمنافقون يحلفون بألسنتهم بأنهم من المؤمنين ، وهم كذلك فى ظاهر التشريع ، ولكنهم ليسوا منكم فى حقيقتهم ، فهم فى قلوبهم ليسوا منكم

ويكمل الحق سبحانه وتعالى الصورة بقوله .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ والفَرَق معناه : الخوف ، أى أنهم فى فزع دائم ، ويحاولون أن يُفتضَحَ أمرهم فيعزلهم مجتمع الإسلام ويحاربهم محاربته للكفار . ويُشرِّدهم ويأخذ

أموالهم ويسبى نساءهم وأولادهم. إذن: فالخوف هو الذى جعلهم يحلفون كذباً وخوفاً من افتضاح أمرهم؛ ولذلك قال الحق لرسوله ﷺ عنهم:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ... (٣٠) ﴾ [محمد]

وفى هذا القول دعوة لفحص ما يقوله أهل النفاق، حتى وإنْ بدا القول على ألسنتهم جميلاً (١)

ثم يقول الحق جل وعلا:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾

والملجأ: هو ما نلجأ إليه ليحمينا من الأذى مثل الحصون، وكذلك المغارة وهى الكهف فى الجبل. والمدَّخَل: هو شىء يشبه النفق تحت الأرض تدخل فيه بمشقة والتواء، إذن: فهناك ثلاثة ملاجىء يفرُّون إليها إنْ وُجدوا فى المعركة؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم. وهم يتمنَّوْن الذهاب إلى مكان بعيد؛ ليسنُّوا الإسلام على ما هم فيه من مشقة القتال، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أمام المسلمين؛ لذلك تجدهم فى حالة بحث عن مكان لا يسمعهم فيه أحد.

(١) وفى هذا يقول تعالى عن المنافقين ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ [المنافقون: ٤]
قال الكلبى: المراد عبد الله بن أبى وجد بن قيس ومعتب بن قشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة.
أما لحن القول المذكور فى آية سورة محمد، أى: لتعرفنهم يا محمد فى معنى الكلام وفحواه ودلالته غير الظاهرة.

﴿لو يجدون ملجئا أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون﴾ فالكلام إذن عن المنافقين الذين ذكر لحق أوصافهم ، وعهودهم التي نقضوها ، وحلفهم كذباً ، وما يعيشه كل منهم من تناقض ملكاته ، ذلك التناقض الذي يورثه الشقاء ؛ لأن كل واحد منهم يُظهرُ غير ما يبطن ويخاف من انكشاف أمره فيظل مضطرباً لأن ما بداخله يتناقض مع واقع حياته

إن هذه الحالة هي عكس حالة المؤمن الذي يعيش حياة منسجمة ؛ لأن ما في قلبه هو ما يحكيه لسانه ، فضلاً عن انسجامه بالإيمان مع الكون الذي يعيش فيه، وكذلك فحالة المنافق تختلف عن حالة الكافر ، فالكافر قد أعلن الكفر الذي في قلبه بلسانه أما المنافق فله قلب يكفر ولسان ينطق كذباً بالإيمان ولذلك فهو في تعب مستمر من أن ينكشف أمره ، أو يعرف المؤمنون ما في قلبه ؛ لأنه يُكِنّ الحقد لمنهج الله وإن كان يعلن الحب ظاهراً.

والإنسان إذا اضطر أن يمدح من يعاديه وأن يتظاهر له بالحب، فإن هذا السلوك يمثل ثقلاً نفسياً رهيباً يحمله على ظهره ، وهكذا نرى أن المنافقين يُتعبون أنفسهم قبل أن يُتعبوا المجتمع ، تماماً كالرجل البخيل الذي يتظاهر بأنه كريم، وكلما أنفق قرشاً ليؤكد هذا التظاهر فإن هذا القرش يذبحه في نفسه ويسبب له آلاماً رهيبة وحتى يرتاح الإنسان مع الدنيا لا بد أن يرتاح مع نفسه أولاً ويتوافق مع نفسه .

ومن هنا نجد المنافقين حين يريدون أن يُنفّسوا عما في صدورهم ، فهم يحتالون ببعضهم بعضاً بعيداً عن أعين وآذان المسلمين ؛ليُطهروا ما في نفوسهم من حقد وغلّ وكراهية لهذا الدين، ويبحثون عن ملجأ يكونون آمنين فيه ، أو مغارة في الجبل بعيداً عن الناس حتى لا يسمعهم أحد ،

أو مُدَّخلاً وهو المكان الضيق الذى لا تستطيع أن تدخل فيه إلا بصعوبة . هم إذن يبحثون عن مكان يغيبون فيه عن سَمْع المؤمنين وأبصارهم ليُخرجوا الكراهية المحبوسة فى صدورهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

و﴿وَلَّوْا ﴾ أى . انطلقوا إليه وقد شغلهم الإسراع للذهاب إلى المكان عن أى شىء آخر . ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ والجماح هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذى تركبه ، فلا تقدر على كَبْح جماحه أو التحكم فيه ، فينطلق بسرعة ، وحين يقال هذا عن الإنسان فهو يعنى الانطلاق بسرعة إلى المكان الذى يقصد إليه ولا يستطيع أحدٌ منعه ، وإنْ تعرض له أحد دفعه بعيداً لينطلق فى طريقه بسرعة

والآية هنا تعطينا صورة دقيقة لحالة المنافقين فى أى معركة . فمجرد نَدْء القتال تجدهم لا يتجهون إلى الحرب ، ولا إلى مبارزة [1] العدو ، ولا يطلبون الاستشهاد ، ولكنهم فى هذه اللحظة التى يبدأ فيها القتال يبحثون عن مكان آمن يهربون إليه ، أو مغارة يختبئون فيها ، أو مُدَّخل فى الأرض يحتمون فيه بصعوبة ليحميهم من القتال . فإذا انتهت المعركة خرجوا لينضموا إلى صفوف المسلمين ، ذلك أنهم لا يؤمنون . فكيف يقاتلون فى سبيل دين لا يؤمنون به ؟ ولذلك كنت تجدهم فى المدينة إذا نودى للجهاد فهم أول من يحاول الهروب ويذهبون للقاء النبى ﷺ طالبين التخلف عن المعركة ، ويقول الواحد [2] منهم

﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي... ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة]

(١) المبارزة هى تقاتل الفرسان وهم فوق جيادهم دون النزول إلى الأرض
(٢) هو جد بن قيس ، وقد سبق الكلام عنه فى تفسير الآية المذكورة

وفى الصدقة يحاولون التشكيك فى توزيع الصدقة وكيف يتم ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وإذا جلسوا مع بعضهم البعض تجدهم يحاولون النَّيل من رسول الله ﷺ بغرض إيذائه ولمزه، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

هذه بعض صفات المنافقين التى يفضحهم الله بها يكشفه للمؤمنين وقد جاء الحق سبحانه لنا بمزيد من الكشف لفضائحهم وفضائحهم . فقال فيهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة]

كلما أيضاً نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة]

فما هى الهُمَزة وما هى اللُمَزة ؟

«الهمزة» : هو من يعيب في الآخرين عيباً خفياً وسحر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه أو بأي حركة من جوارحه ، ومثال هذا حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ، ويحاول أحدهم النَّيْل من أحد الحضور خفية ، فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر ، أو يكون باللسان هَمْساً في أذن إنسان أو بأي طريقة أخرى ، المهم أن يُشَار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللُّمَزة فهم العيَّابون في غيرهم في حضورهم فهناك القوي الذي يكشف العيوبَ بشجاعة وصراحة وهو اللمَّاز ، أما الضعيف فهو يعيب خفية وهو الهمَّاز . واللمزة تطلق على من يعيب كثيراً في الناس .

وهمزة لمزة ، من صيغة لمالغة "فُعَلَة" وتدل على كثرة فعل الشيء فتقول "فلان أكَلَة" بضمة على الألف -أي: يأكل كثيراً . وفلان ضُحكة -بضمة على الضاد - أي: كثير الضحك .

إذن: فاللمزة هي كثرة العيب في الغير ، وهي تدل على ضعف من يقول بها ، ولو لم يكن ضعيفاً لقال ما يريد بصراحة .

والحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ ومنهم مَّن يلمزك في الصدقات ﴾ واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب ، وهو هنا مظروف في شيء هو الصدقات . وكان بعض من المنافقين يعتابون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أن يتعب لغني ويشقى في الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب ، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حثَّ الله للناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التي يتم

بها صرف الصدقة للفقراء، وأن بعضهم يُعطى كثيراً وبعضهم يُعطى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون في كل هذه الأمور أو بعضها.

إذن: فاللمز إما أن يكون في التشريع ، وإما أن يكون في كمية الصدقات أو في طريقة الصرف ، والحادثة التي وقعت ونزلت فيها هذه الآية الكريمة كانت في مصرف الصدقة ، فقد قام حرقوص بن زهير، وهو رأس الخوارج، وهو ابن ذي الخويصرة ، وقال . اعدل يا محمد . فقال رسول الله ﷺ: ويلك ! ومَنْ يعدل إنْ لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ

« دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية يُنظر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينُظر إلى نَضيِّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر في قُذَذه فلا يوجد فيه شيء. سبق الفرثَ والدم . آيتُهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة . أو مثل البضعة تَدَرْدَرُ ، يخرجون على حين فُرْقة من الناس » (١)

---

(١) لا يجاوز تراقيهم أي لا يجاوز حلوقهم وحناجرهم فلا يصل إلى قلوبهم والتراقي جمع ترقوة ، وهي العظم بين ثغرة النحر والرقبة

الرمية أي الشيء الذي يصاب بالسهم إذا رماه صاحبه

النصل الجزء الحاد في السهم نفسه

- الرصاف : مدخل النصل من السهم

- النضيّ السهم بلا نصل ولا ريش

- الفرث ما في داخل الكرش من فضلات

- البضعة قطعة اللحم .

- تدردر تتحرك وتضطرب .

قال أبو سعيد الخدري : فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه . فأمر بذلك الرجل -أي الرجل الأسود- فالتُمس فوُجد فأتي به ، حتى نظرتُ إليه على نَعْت رسول الله ﷺ الذي نعت [1]

ويقول الحق سبحانه موضحاً حال هؤلاء ﴿ومِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطَوْا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: أن هؤلاء الناس إنْ أُعطوا من الصدقة كانوا راضين مُهلِّلين ، وإنْ لم يُعْطَوْا منها ملأ قلوبهم السخط ، وبدأوا باللَّمْز . إذن فالكمية المعطاة لهم من الصدقة كانت هي أساس اللمز

ومثل هذا قد حدث في غزوة حنين . فقد وزع رسول الله ﷺ الغنائم على قريش وأهل مكة ، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً .

فلما لم يُدخل ﷺ الأنصار في هذه القسمة ، استاء بعضهم من ذلك، فجمعهم رسول الله ﷺ وقال لهم :

« ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله ؟ المحيا محياكم والممات مماتكم، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار » [2]

وهنا بكى الأنصار، وعرفوا أنهم سيعودون بما هو أكبر كثيراً من الغنائم؛ سيعودون بصحبة رسول الله ﷺ وقد يعطي رسول الله ﷺ حَديثَ عَهْد بالإسلام شيئاً من الصدقة ليربطه بهذا الدين ، وقد يعطي لتأليف القلوب ، وقد يعطي لفقير تأبى عزة نفسه أن يعترف أمام الناس بحاجته

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٦١٦٣ ، ٦٩٣٣) ، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة حديث (١٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري واللفظ لمسلم

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً كثيرة

ولذلك كانت لرسول الله ﷺ ملاحظ في توزيع الصدقات والغنائم ، قد لا يلحظها أحد وكان الواجب على المسلمين أن يقبلوا عمل رسول الله ﷺ؛ لأن سلوكه هو الحكم ، ولابد أن نقبله

ففي الحديبية مثلاً حيث حدث عهد بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش بألا يتعرض أحد منهم للآخر مدة عشرة أعوام [1] ، هذا الصلح أثار غضب عدد من المؤمنين وقالوا لرسول الله ﷺ. أنرضى بالدنية في ديننا؟ أي كيف نعطيهم هذه العهود وهي مجحفة بالنسبة لنا ؟ حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انفعل وأراد أن يقفز في الكلام وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ألستَ على حق يا رسول الله ؟ فقال له أبو بكر : الزم غرزك يا عمر -أي اعرف مكانك- إنه رسول الله [2]. وبعد أن مرت فترة من الزمن وعرف المسلمون الحكمة من صلح الحديبية ، وما أتاحه هذا الصلح للإسلام من انتشار وقوة أدت إلى فتح مكة ، قال أبوبكر رضي الله عنه . ما كان نصر في الإسلام أعظم من نصر الحديبية .

---

(١) لهذا الصلح شروط أخرى ذكرتها كتب السيرة والتفاسير

١- أن يرجع رسول الله ﷺ وأصحابه فلا يدخلون مكة معتمرين هذا العام

٢- يعودون العام التالي للاعتمار ولكن بدون سلاح لا السيوف في أغمادها فيقيم بمكة ثلاثاً ويخرج

٣- هدنة مدة عشر سنوات

٤- من ذهب إلى المسلمين من الكافرين مسلماً رجلاً أو مرأة رد إلى الكفار

٥- من جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردوه إلى المسلمين

وحديث صلح الحديبية حديث صحيح طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وأخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٥) من حديث سهل ابن حنيف

(٢) قال عمر بن الخطاب ، أتيت نبي الله ﷺ فقلت ألست نبي الله حقاً؟ قال ، بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى قلت ، فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصري قلت أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ وذهب عمر إلى أبي بكر فقال له نحو هذا، فقال ، أيها الرجل ، إنه لرسول الله ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق (فتح الباري ٥/ ٣٣٢) ، أي، استمسك بأمره واترك المخالفة له ﷺ

ولكن المسلمين فى هذا الوقت لم يُحطْ فكرهم بما بين محمد وربه؛ لأن العباد دائماً يعجلُون ، والله لا يعجل عجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُهدِّىء نفوس المؤمنين ، وقبل أن يصلوا إلى المدينة عائدين بعد صلح الحديبية ، نزل قوله تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح]

وهكذا أطلع الله المؤمنين على علّة قبول صلح الحديبية وعدم القتال مع المشركين فى هذا الوقت وذلك المكان ، فقد كان هناك مؤمنون فى مكة يكتمون إيمانهم ويعيشون فى مجتمع المشركين الذين يمكنهم البطش بهؤلاء المسلمين لو علموا بوجودهم . كما أن المسلمين القادمين مع رسول الله ﷺ لا يعرفون هؤلاء المؤمنين ، فإذا قامت المعركة فقد يقتل المسلم مسلماً ، لأن الذين قدموا من المدينة لو دخلوا مع أهل مكة فى قتال فقد يقتلون بعضاً من إخوانهم فى الإيمان الموجودين فى مكة ، فهم لا يعرفونهم . ولو كان المؤمنون فى ناحية والكفار فى ناحية لَعذَّب الحقُّ الكفار بأيدى المؤمنين عذاباً أليماً .

إذن : فقد علم رسول الله من ربه سراً ولم يُعْلِنْه إلا لوقته ، رغم تعجُّل من كانوا معه ﷺ

ومثل هذا يحدث فى حياتنا ، فقد نجد مؤمناً يدعو الله ولا تجاب دعوته وعلى هذا المؤمن ألا يحزن ، بل عليه أن يعلم أنه قد يكون فى عدم الإجابة خير لا يعلمه . وأن من رحمة الله أنه لم يُجبْ هذه الدعوة ، مثلما تحمى بنك الشاب من أن يحمل سلاحاً ؛ خوفاً من أن يتهور فى أى مشاجرة ، ويقتل أحداً ، رغم أن السلاح معه حماية له ، ولكنه أسلوب حماية قد يحمل الضرر ، وقد يؤدى إلى عواقب وخيمة .

وحين تدعو الله ولا يجيب دعاءك ، فَثِقْ أنه سبحانه يحميك من نفسك ؛ لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم ، فقد تدعو بشىء تحسبه خيراً والله سبحانه يعلم أنه شر . إذن فعدم إجابة هذه الدعوة هو عين الإجابة لها [1] .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾

والسخط هو : عدم الرضا فى القلب ، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان ، مثلما قال حرقوص بن زهير لرسول الله ﷺ . اعدل يا محمد . أى : أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً

وساعة يعرض الحق سبحانه لنا لداء فى المجتمع الإيمانى فهو جل وعلا يعطى الدواء الذى يحمى المجتمع من هذا الداء ، وهؤلاء الناس كانوا

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا إذاً نكثر قال الله أكثر أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٨) والحاكم فى مستدركه (١/٤٩٣) وصححه والطبرانى فى الصغير (٢/٩٢)

يعيبون تشريع الصدقة ، رغم أنهم إن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا سخطوا ، إذن فموازينهم مُختلة ، وليست موازين حق ثابت ، بل هي موازين هوى النفس ، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هي موازين ثابتة يعدل فيها الإنسان حتى مع ألدّ أعدائه [1]

ولكن هؤلاء الناس تختلف انفعالاتهم باختلاف مصلحتهم ، إذا أخذوا رضُوا ، وإذا مُنعُوا سخطوا ؛ لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل .

وهنا يأتي الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول جل جلاله :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ مَا آتَاهُمُ ﴾ مع أنهم لم يأخذوا شيئاً ، بل إنهم قد سخطوا ؛ لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

نقول : إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن به عطاء في المنع وعطاء في المنع . فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ ، وحرمان الحق سبحانه للبعض ، كل ذلك فيه عطاء من الحق جل وعلا ، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك ورسول الله ﷺ حين منع الغنائم عن الأنصار في حنين أخذوا المنعيه مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا أكبر وأسمَى من الغنائم ، وقال لهم رسول الله ﷺ:

(١) وفي هذا يقول سبحانه ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ [المؤمنون ٧١].

« المحيا محياكم، والممات مماتكم . لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْب الأنصار »[1] .

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم . إذن فقد يكون في المنع إيتاء

- الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وهو عز وجل المشرِّع ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلِّغ والمنفِّذ ، فإذا ما رَضُوا بقسمة الله ، فالرِّضاء عمل قلبي كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعي هو : ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ فكأن الرضا عمل القلب ، والتعبير عن الرضا عمل اللسان، وما دامرا قد احتسبوا الأمر عند الله ، فالله هو الذي يرعى، وفي عطائه خير وفي منعه خير . ولذلك نجد الطيبين من الناس إن غُلِبُوا على أمرهم يقولون : إن لنا رباً ، أي : إياك أن تفهم أنك حين منعتني أو أخذت مني بأن اعتديت عليّ ستمضي بهذا الفعل دون عقاب ؛ لأن لي رباً يغار عليّ ، وسبحانه سيُعوِّضني أكثر مما أخذت ، ويجعل ما أخذته مني قَسْراً ؛ نقمة عليك.

وبذلك فاهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن الصلة بالمنعم . وفي أن الله هو القادر على أن يُعوِّض أي شيء يفوت .

ويوضح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول : ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي سيعوضنا عنها بخير منها . وعطاء الله دائماً فضل ؛ لأنه يعطي الإنسان قبل أن يكون قادراً على عباده ، حتى وهو في بطن أمه لا يقدر على شيء ، فإذا كنت في الدنيا قد فكرت بالعقل الذي خلقه لك الله ، وعملت بالطاقة

(١) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً

التى خلقها لك الله ، وفى الأرض التى خلقها الله ، وإنك فى بطن أمك لم تكن قدراً على أى شىء. وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحيا فى كون ملىء بنعم الله ، لم تخلق فيه شيئاً ، ولم تُوجد فيه خيراً وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، وهى المطر؛ إن توقفت هلك كل من فى الأرض ونلمس أثر ذلك حين تأتى مواسم الجفاف فى أى منطقة من العالم ، ونرى كيف يهلك كل شىء؛ الزرع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا فى عالم أغيار ، فالقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً ، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً غداً ، والقوى يضعف ، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا ، ولكنها منحة من الله ؛ يأخذها وقتما يشاء ، ونرى القوى الذى كان يفتك بيده ويؤذى بها غيره ويُذلُّ الناس بها . يراه وقد أصيبت يده ، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتُشَلّ إذن : فقدرة أى إنسان ليست ذاتية فيه، بل هى من فضل الله سبحانه وتعالى ، وكل شىء فى الكون هو من فضل الله .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ويقال رغب فى كذا أى أراده، ويقال: رغب عن كذا ، أى ترك هذا الأمر . ويقال: رغب إلى كذا أى سار فى الطريق نحوه . وهنا قال الحق ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ومعنى ذلك إنا إلى الله راغبين ، كان يجب ألا نعزل عطاء الذنب عن عطاء الآخرة، فالذنب ليست كل شىء عندك؛ ما دُمْتَ راغباً إلى الله الذى سيعطيك نعيماً لا حدود له فى الآخرة . ولذلك فرغبتنا فى الله كان يجب ألا تجعلنا نسخط على نعيم فاتنا فى الدنيا ؛ لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا فى الآخرة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أن يبين مصارف الصدقة حتى نعرف هؤلاء الراغبون في متاع الدنيا هذه المصارف ويتعرفوا إلى حقيقة الأمر ، وليتبينوا هل هم يستحقون الصدقة أم لا ، فقال جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

وعندما نسمع كلمة ﴿ إنما ﴾ فافهم أنه يُرادُ بها القصر ، فإن قلتَ : إنما الرجل زيد ، أي . أنك قصرت الرجولة على زيد وإن قلتَ : إنما الكريم حاتم ، تكون قد قصرت الكرم على حاتم . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ معناها : أن الصدقات محصورة في هؤلاء ولا تتعداهم .

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة ؟ وما المراد هنا بالصدقة ؟ هل هي صدقة التطوع أو الزكاة ؟

نقول : ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهي الزكاة ، وللسائل أن يسأل : لماذا لم يَقُل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة ؟

ونقول : ألا ترى – في المجتمعات غير الإيمانية الملحدة – أن من الناس مَنْ يفكرون في إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء ؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزي خلقه الله فينا جميعاً ، ولذلك

كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة ؛ لأنها تأتي تطوعاً من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع ، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطي لغير القادر ، وهي غريزة وضعها الله في خلقه ليخفف من الشقاء في الكون

وهنا يقول الحق ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وقد اختار العلماء في ذلك ، فقال بعضهم إن الفقير هو الذي لا يجد شيئاً فهو مُعدم والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا في ذلك إلى نص قرآني في قوله تعالى :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. (٧٩)﴾ [الكهف]

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شيء يمكنونه . ولكن العائد الذي تأتي به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لا يملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذي يجد الكفاف . وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول في هذا الجدل به فائدة ؛ لأن الله أعطى الاثنين . الفقير والمسكين . وكلمة "فقير" معناها الذي أتعبت الحياةُ فَقَار ظهره أي فقرات ظهره ، وحاله يغني للتعبير عنه ، والمسكين هو الذي أذهلته المسكنة .

ثم يأتي بعد ذلك : ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي . الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها في بيت المال ، ونلاحظ هنا أن ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ جاءت مطلقة ؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان

يجمعها وهو فقير ، أو مَنْ كان يجمعها وهو غير محتاج ويقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولوقلنا . إن غير المحتاج ويعمل فى جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوناً من التفضل ، وما دام العمل تفضُّلاً فلن يكون بنفس الكفاءة التى يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر . وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقه دكى نشيط ، لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً يكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتى إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالى الذى يوزعها وفى هذا مصلحه لمجتمع المسلمين كله خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذل أحد أمام أحد ، وفى هذ حفظ لكرامة المؤمنين ؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعانى من انكسار يده السُّفْلى .

ومن يعطى بغير بيت المال قد يكون فى عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غنى ليأخذ منه الصدقة ويُصَاب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغنى هذا الفقير وهو يأتى إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة ؛ فَتتعالَوْنَ على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلاف بين غنى وفقير فلن يقول الغنى للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا، أو يقول أولاد الغنى لأولاد الفقير . لولا أبونا لَمُتُّمْ جوعاً .

إذن . فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطى ، ويمنع أيضاً – ذلة السؤال . فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطى . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالى فلا غضاضة ؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسئولون منه

ثم يأتي الحق إلى فئة أخرى فيقول . ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم من يريد الإسلام أو يستميلهم ، أو على الأقل أن يكفوا أذاهم عن المسلمين . وكان المسلمون في الزمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدرون على حماية أنفسهم . وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة ، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة ؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحي الإيمان ؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب في فئات الزكاة [1] .

وقول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يثير سؤالاً . هل يُؤلَّف القلب ؟ . نقول : نعم ، فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السَّوي ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوي ، فلا يعتدي على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

ثم يقول الحق سبحانه ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ومعناها العبيد الذين أُسروا في حرب مشروعة . وكانت تصفيه الرق من أهداف الإسلام ؛ لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد وبعض من الناس يدَّعُون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول لم يأت الإسلام بالرق ؛ لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعتق ليصفي الرق ، فجعل من فَكِّ الرقبة كفارة لبعض الذنوب [2] . وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة .

---

(١) أسقط عمر سهمهم في الصدقات لما رأى من إعزاز الدين وهو أيضاً قول الحسن البصري والشعبي وغيرهم وقال الزهري لا أعلم سبباً في ذلك وقال ابن العربي قد قوي الإسلام والحمد لله ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١٠٦)

(٢) وهذا مثل قتل المؤمن خطأ ، قال تعالى ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . ﴾ [النساء ٩٢] وكذلك كفارة اليمين قال تعالى . ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ... ﴾ [المائدة ٨٩]

وكان من المعتاد في تلك الأيام أن المدين الذي يعجز عن سداد ما عليه من دَيْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .

وإذا فُعلتْ جناية ، فالجاني يأخذ العفو من المجني عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرق شيء فإن السارق لا يعاقب ، بل يعطى أحد أولاده عبداً للمسروق منه . وكان الأثرياء يستعبدون الضعفاء ؛ فيحطمون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم في سوق الرقيق ، وهكذا كانت منابع الرق في العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .

وقد كان الرق موجوداً في أوروبا وفي آسيا وفي أفريقيا ووُجد أيضاً في أمريكا . إذن : كانت هناك منابع متعددة للرق ؛ ومصرف وحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق يتزايد ، وجاء الإسلام والعالمُ غارق في الرق ، لماذا ؟

لأن الرق في ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صنابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء]

ثم حرمها تحريماً قاطعاً (١)

---

(١) مر تحريم الخمر بثلاث مراحل

١ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]

٢- ﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء]

٣ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ . المائدة]

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولي الأمر أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دَيْن أو غير ذلك ، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد ، بل جعله مصارف متعددة ؛ فالذي يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها ؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يريد من أجره عند الله ؛ أعتق رقبة [٢] .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [البلد]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهي في سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنهي الرق فعلاً ، وإنْ لم يُنْهِه شكلاً .

فإذا كان عند أي سيد لون من الإصرار على أن يستبقي عبده ، فلا بد أن يُلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يطعم ، فإن كلّفه يعينه[١] . وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده .

وحين ألغتْ بعض الدول الإسلامية الرقَّ بالقانون ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا نعيش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن

(١) وفي بعض الحق يقول ﷺ « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه » متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩)

(٢) عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال « هم إخوانكم خولهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه » متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم في صحيحه (١٦٦١) .

حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة . وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوى شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ..﴿٣٦﴾﴾ [النساء]

نقول : افهم عن الله ، فهذا الأمر لا يسرى إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة فى الحرب ، أى كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت فى الأسْر ، والذى يسرى على الرجل فى الأسر يسرى عليها ، ثم من أى مصدر ستعيش وهى فى بلد عدوة لها ؟ إنّ تركها فى المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها . كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكْبتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمَة فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحراراً [1] ، وفى هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقى الزكاة : ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ والغارم : هو من استدان فى غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بدَيْنه . ولم يمهله صاحب الدَّين كما أمر الله فى قوله تعالى .

﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ..﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دَيْنه ، وفى هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّين . لكن لماذا هذ التشريع ؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذى لا يجد ما يسد به دَيْنه حتى لا يجعل الناس يقبضون عن الكرم وعن إقراض الذى يمر بعسر ، وبذلك يبقى اليُسْر

(١) وهى ما يسمى فى الشرع « أم ولد » ، وهى الأمة تصير حرة إذا ولدت من سيدها ، وله أن يستمتع بها ما دام حياً ، فإذا مات فهى حرة . انظر نيل الأوطار (٦/ ٩٦ ، ٩٩) .

فى المجتمع ، وتبقى نجدة الناس للناس فى ساعة العسرة ، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان فى عسرة ؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة . أو : أن الغارم هو الذى أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفضّ الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته ؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية ، فنقول له . خذ من بيت المال حتى يشيع فى النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس . إذن فالغارم هو المستدين فى غير معصية ولا يقدر على سداد الدين ، أو المتحمِّل لتكلفة إصلاح ذات البَيْن بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

ويقول الحق سبحانه . ﴿ وفى سبيل الله ﴾ يقول جمهور الفقهاء: إنها تنطبق على الجهاد [1]، لأن الذى يضحى بماله مجاهداً فى سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضَحَّى بماله ، وعندما يضحى بالمال أو النفس فى سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت ولو لم تكن على ثقة بذلك إذا أنفقتَ المال جهاداً فى سبيل الله دخلتَ الجنة ما أنفقت

والإسلام بهدف إلى أمرين : دين يبلِّغ ومنهج يُحقِّق ، والمجاهد فى سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين . والأسوة فى الإسلام هى التى تُقوِّيه وتُثبِّته فى النفوس ؛ لأنها الإعلام الحقيقى بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت .

(١) قال القرطبى من المفسرين (٤/ ٣١١٠) « ﴿وفى سبيل الله﴾ هم الغزاة وموضع الرباط ، يعطون ما يتقوون به فى غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء وهذا قول أكثر العلماء وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعمار »

﴿وفي سبيل الله﴾ أيضاً كل ما يتعلق بمصارف البر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات[1] .

ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والزكاة : ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا دمهوري وهذا طنطاوي ، إلى آخره حسب البلد الذي هو منه . ولكن لنفرض أن إنساناً مشى في الطريق في غير بلده فإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده ؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح . ابن السَّبيل ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لابد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإنْ وجد الإنسان مَنْ يعينه في هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفر الشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافر ليزداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر للتجارة، وقد يكون غنياً ولكنه قد يفقد ماله في الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أي مفاجأة قد تجعلهم في عسر ، فالذين سافروا سياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يُوفَّقوا أوجب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا في الأرض ليروا آياته ، وليبتغوا الرزق ، إذن . فابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة، ولا يجد ما يعود به إلى بلده.

ثم يقول الحق سبحانه ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفي الرِّقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل .

(١) قال الزبيدي في شرحه لإحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٠) « فيخرجها فيما تعلمه مكارم الأخلاق من غير اعتبار صنف من أصناف المخلوقين ، بل ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان بل لكل حيوان حتى الشجرة يراها تموت عطشاً ، فيكون عنده بما يشتري لها ما يسقيها به من مال الزكاة فيسقيها بذلك ، فإنه من سبيل الله »

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، والله هو واجب الوجود وخالقه ، خلق الإنسان وكرَّمه فجعله خليفة في الأرض . وقبل أن يخلق سبحانه الإنسان أعدَّ له الكون الذي يعيش فيه ؛ الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم . ثم جاء الإنسان إلى الكون ؛ ليجد كل شيء قد أعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان ، فلا الأرض إذا رُوِّعَتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذي سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبى عليه ؛ فالحمار تُحمِّله البغال والقاذورات فلا يرفض ، وتنظمه وتجعله مطيَّة تنقلك من مكان إلى آخر فلا يتأبى عليك .

وما دام سبحانه الذي خلق ، فهو أدرى بمن خلق ، وبما يصلحه وما يفسده ولله المثل الأعلى نحن نعرف أن المهندس الذي يصمم آلة إنما يضع لها قانون صيانتها فما بالنا بخالق الإنسان المتعدد المشاعر والأطوار ؟ إن خلق الإنسان لا يقتضي علماً فقط ، ولكنه يقتضي أيضاً حكمة ؛ لأنك قد تعلم ، ولكنك لا تستخدم العلم فيما تفعل ، كأن تعلم قانون صيانة آلة معينة ثم لا تطبقه وتحاول أن تأتي بقانون من عندك ؛ لذلك فلا بد مع العلم من حكمة لوضع الشيء في موضعه السليم . ولذلك قال الحق سبحانه . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ونحن نعلم أن الصدقات تقتضي مُتصدِّقاً وهو المعطي ، ومُتصدَّقاً عليه وهو مستحق الصدقة أو الذي يأخذها ، ومُتصدَّقاً به وهو الشيء الذي تتصدق به . إذن فهناك ثلاثة عناصر المتصدِّق ، والمتصدَّق عليه ، والمتصدَّق به

قد يتساءل بعض الناس : لماذا خلق الله الإنسان الخليفة في الأرض وجعل بعضهم قادراً وبعضهم عاجزاً ، وهذا يعطي وهذا يأخذ ، ولماذا لم يجعل الكل قادرين ؟

نقول . إن مفردات التقابل في الأشياء تجعلها تتكامل ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار ؟ لا ؛ لأن الليل مُكمِّل للنهار، والنهار مُكمِّل لليل ولو لم يُخلقا معاً متكاملين ؛ لاختلَّ التوازن في الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن: فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَم الإنسان ويستريحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متصادين . كذلك الرجل والمرأة وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون: لا بد أن تساوى المرأةُ الرجلَ ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان ، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، ويتضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الليل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل]

كأن الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساندان متكاملان، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

أى كُلٌّ له مهمة فى الحياة ، واقتضتْ حكمته سبحانه فى خلق الكون أن يجعل كل شىء يخدم الإنسان ؛ الجماد يخدم الإنسان ، وكذلك النبات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستجيباً لمنهج الله ولعبادته . وكذلك اقتضتْ الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تستجيب للإنسان ؛ حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذَلَّلاً بمقدراتهم هم ، بل بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]

فتجد مثلاً الجمل بضخامته يقتل لطفل صغير ؛ بينما الثعبان الصغير على دقَّة حجمه لا يجرؤ الإنسان أن يقترب منه

وفى الوقت نفسه ، فإن هذه الحكمة تقتضى أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من ذات الإنسان . ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرون على الكسب ، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هى هبة من الله ، وليست فى ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية فى الإنسان ما وُجد عاجز ولا بد أن يمهم كل قوى أن قوته هبة من الله يمكن أن تسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القدر على الكسب ، والكسيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون فى الكون ليلفتوا الأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يغتر الأصحاء والأقوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصى ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين، فمن الذى يقوم بتنظيف الشارع ؟ ومن الذى يقوم بتسليك البالوعات؟ ومن الذى يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء ؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرضى أحد أن يقوم بالأعمال البسيطة والمزعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك أحد بمكنسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد فى إصلاح المجارى ؛ لذلك قد ترى مَنْ يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسَدُّ المجارى ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة ؛ لأن رزقهم يأتى من هذا العمل

ولكن أيسعى هذا الحمار على ما هو عليه ؟ لا ؛ لأن الأيام تُداوِلُ بين الناس ، وكل واحد له عُرْس وله مَأْتم . وتأتى أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هى مصدر الرزق الوفير ، وهى التى يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا فى الجامعات وأهّلوا للمناصب ، لكنهم أقل دخلاً وأقل ورقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى المواهب المتعددة التى تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبنى بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن لإنسان أن يملك هذه المواهب كلها فى وقت واحد . فلا بد أن نتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش بل ونجد أن الإنسان قد يتخصص فى عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال " باب النجار مخلّع " ؛ لأن الأبواب الأخرى التى يصنعها مرتبطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صنعتها ، أما بابه هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيانته .

ولا بد أن يعرف الإنسان أنه ليس أصيلاً في الكون ، بل مستخلف فيه ؛ لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً في الكون وإياك أن تفهم أن المعْطى مُفضَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُفضَّل على المعْطى ، بل هما متعادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر إما أنك في نعمه فتشكر وإما أنك في محنة فتصبر . وعندما نتأمل العبء المستخلَف في النعمة نجد أنه قد أخذ النصف الذي يخصه كشاكر ، وحُرِم من النصف الآخر الإيماني وهو الصبر ؛ ولذلك يأتي الإسلام له بتشريع يأخذ منه بعضاً من ماله الذي حصل عليه بعرقه وعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر ؛ لأنه يعطي بعضاً من فائدة عمله للعاجز عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره ، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته . وهكذا نجد أن الاثنين إذا طبَّق منهج الله أخذا نصف الصبر ونصف الشكر .

وعلى العاجز عن الكسب ألا يغضب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجد الغني وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسأل عن الفقراء ليعطيهم

وكثيراً ما ترى إنساناً عزيزاً في أزمة ، ويجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه وتعالى قال .

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة]

ومع أن المال مال الله فقد احترم سبحانه عمل الإنسان لذي يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطي بعضاً منه أحياناً للمحتاج ؛ ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر

سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأن الذى يعطى المال للمحتاج يقرض الله ، وله المثل الأعلى ؛ كالأب الذى يعطى مصروفاً لأولاده ، فيضعه كل منهم فى حصالته ، ثم تأتى للأب أزمة مالية ، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما فى حصالاتهم ، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك نجد الأب قد احترم ما وهبه من المال لأولاده ؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله ، وطلب منه أن يقرضه .

وفى هذا ميّزة للغنى والفقير ، فالغنى يأخذ ميزة وشرفَ أنه أعطى لله ، والفقير أخذ ميزة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير فالغنى ليس له ركن فى إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركن من إيمان الغنى والغنى حين يعطى جزءاً من ماله فهو يستغنى عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغنى عن الشىء وتستغنى بالشىء . والحق سبحانه وتعالى مستغن عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى الغنى صفة من صفات الحق ؛ لأن الله مستغن عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان

والمثال الذى أقربه دائماً ، يوضح ذلك لنفرض أن رجلاً عنده جبل من ذهب وتاه فى صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فما هى فائدة جبل الذهب هذا ؟ إنه لا يساوى شيئاً . إذن فالمال ليس غاية فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يمنع الغنى ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ؛ فهو قد أعد إلى المال وظيفته فى أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ؛ فعليك أن توظفه فى أكمل ما ينفعك ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة في العمل ؛ حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛ لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجد فائض من مال للزكاة.

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذي يكسبه الإنسان في الذنب مال الإنسان ؛ حتى يعمل كل منا على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله وعندما يريد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لا تحب أن يفارقك المال الزائد، وفي الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال في خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك.

إذن : فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لتحسّن آخرتك والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليعيش. فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل.

وعلى سبيل المثال : إن عشر الإنسان على كنز فزكاته عشرون في المائة [1] . وإذ زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هي عشرة في المائة [2]، أما إذا كان ورق الإنسان من عمل يومي كالتجارة ، فالزكاة هي اثنان ونصف في المائة ، ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان في عمله قلّتْ الزكاة وكلما قلّ عمل الإنسان فيما يكسب ؛ زادت الزكاة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك.

(١) زكاة الكنز هو ما يسمى بزكاة الركاز ، وقد قال ﷺ : « وفي الركاز الخمس » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٥٥) ومسلم (١٧١٠) عن أبي هريرة والركاز هو ما ركز في باطن الأرض من معادن وأحجار وغير ذلك

(٢) في هذا تفصيل ، فالقدر الذي يجب إخراجه يختلف باختلاف السقي، فما سقي بدون استعمال آلة كمطر وغيره ففيه عشر الخارج (أي ١٠ ٪) أما إن سقي بآلة أو بماء مشتري، ففيه نصف العشر (أي ٥ ٪). ودليل هذا قول رسول الله ﷺ « فيما سقت السماء والعيون، أو كان عثريا العشر، وفيما سقي بالنضح نصف العشر » رواه البخاري (١٤٨٣) عن ابن عمر.

فالذى يبنى عمارة - مثلاً - إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

إذن: فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن فى مال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذى يأتى بالمال ، وينسون أن الله هو الذى ييسره لهم ، ويُمكّنهم منه . ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتى آفات تتلف الزرع وتُضيّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْى ؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شىء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها

وسبحانه وتعالى حين يقضى بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة أخرى فيبارك فى زرع فى بلد آخر أو مكان آخر ، فربما هلك محصول القمح فى دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشترى هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التى جاءها محصول وفير إلى الدول التى هلك فيها الزرع كمعونة أو إعانة ، وبذلك تتعادل سنن الحياة

ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطى القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى . فالقدرة المطلقة هى لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّرُ بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعين إنساناً آخر فى حَمْل شىء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله .

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك ، وبين أن تهبَ الغير هذه القوة . فالبشر يعطى أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء .

المال – إذن –لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال . إذن . فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم. ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب في أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقي الأيام. أما إذا كان المصروف في كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم في كل يوم

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما في صدور الناس ؛ ولذلك يُلهمُ القادر إلى ضرورة أن يُخرجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب.

ونحن نعيش في عالم أغيار ، ومن الممكن أن يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً ولذلك تجد القادر يمتلىء بالقلق إذ رأى عاجزاً. وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راضٍ ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة]

إذن : فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التي قد تصيبه، وتُزكّي الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نمواً وزيادة وإن بدت في ظاهرها على أنها نقص فالمائة جنيه [1] تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهي عكس الربا الذي قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ،

(١) هنا مثال فقط ، وليس معناه أن من معه مائة جنيه تجب فيها الزكاة، فزكاة المال لها نصاب محدد قدره العلماء بما يعادل ثمن ٨٥ جراماً من الذهب ويحول عليها الحول

ولكنه يمحق كل خير ، وظاهر الزكاة أنها نقص ، ولكنها في حقيقتها نماء . ولنماء أن يترقى الشيء في مراتب الكمال : فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها ؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، فقصير ولا بد أن يأتي يوم تفارق فيه هذا المال بالموت في هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت في سبيل الله ، أي أن ما أنفقت هو ما يبقى لك في عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله ﷺ « يقول ابن آدم : مالي مالي . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ »[1]

إذن : فالذي يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود في الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال – إذا أراد أن يبقيه – عليه بالصدقة .

ولنا الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضي الله عنها : « تصدقي بلحمها ». وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقت قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٤ ٢٦) والترمذي في سننه (٢٣٤٢) والنسائي في سننه (٦/ ٢٣٨) عن عبد الله بن الشخير .

والسلام . وعندما عاد رسول الله ﷺ ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت : تصدقت به كلها وأبقيت كتفها . فقال : « بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها »[1]

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشه هو الباقى . وما أبقته لهما هو الذى سيفنى وهكذا سمى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذى يحب صحة ماله فى الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج . ليبارك الله له فى الذى ، ويجزيه خير الثواب فى الآخرة وقد سأل رجل الإمام على رضى الله عنه : أريد أن أعرف هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ قال الإمام على كرم الله وجهه : اجلس عندك أنب ، لا عندى ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؛ أيهما تحب ؟ إذ كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيلك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً

ونقول للذى يحب المال اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هى المقياس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن لك خيراً فى الآخرة

ويذيل الحق الآية بقوله . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى . أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء فى موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال هذا حديث صحيح وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ « ما بقى منها ؟ » قالت ما بقى منها إلا كتفها قال « بقى كلها غير كتفها »

وأما الحكمة فيدبر بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غني وفقير . وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط في الذهب ، لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قصاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فمنح كل واحد منا في شيء ؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقي ، وغيري يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقي فأكون في حاجة إلى عمل غيري ، وغيري يحتاج عملي ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .

إذن فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخلق بقدر ما تتطلب الخلافة في الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا: إن مجموع كل إنسان يساوي مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة ، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة في الرزق وغير ذلك

إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ تجد أن مجموع كل إنسان في النهاية يتساوى مع مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء ولكن إذ عادت نعمة القادر الغني على من لا نعمة عنده ، وهذا يجعل العاجز الفقير مُحباً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِمَ الغنى

القوة ، حُرم العاجز الفقير من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطى الغنى للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله فى تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها.

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغنى، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى أن يقتله أو يتآمر على قتله.

إذن فالزكاة فى المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها وهى ضرورة من ضروريات الحياة. ولذلك رأينا القادرين فى المجتمعات التى لا تؤمن بدين وهم يتطوعون لإقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك تجد فى معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم.

على أن قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ معناه: أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء، والذى فرضها هو الحق سبحانه بقوله. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.

وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرور عن المجتمع ، ولكن هذا لايحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول : لكى تأمنوا شرهم لابد أن نعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر.

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتى إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته

فى الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء ولذلك شرع الدين ورتَّب أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسيه قبل أن تقع.

وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها . « السورة الحافره » ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه ولله المثل الأعلى فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير.

فقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي ..(٤٩) ﴾ [التوبة]

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .. (٧٥) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨) ﴾ [التوبة]

ولذلك يسموها " مَنَاهِم التوبة ". وهنا يبين الحق صورة جديدة لمنافقين وتصرفاتهم فيقول:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

وتعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا . إن كان هذا الحق من عندك فاهْدِنا يدرب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

وهنا يقول الحق سبحانه [1]:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم السادة ، وهم أصحاب العهود الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبي بنفوذهم ، وثرواتهم ، وما أخذوه ظلماً من الضعفاء . والضعفاء - كما نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم . وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً ، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل : أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣١١٧) « هذه الآية نزلت في عتاب بن بشير ، قال . إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له وقيل هو نبتل بن الحارث قاله ابن إسحاق »

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة، أما قبل الرسالة فكان في نظر الجميع هو: الأمين والصادق والمؤتمن.

ومن العجيب أنهم، بعد أن نزل الوحي، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً ﷺ فإذا كان هناك شيء ثمين عند الكافرين المعارضين، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده. وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم في أخلاق ﷺ ورغم ذلك كانوا في غيظ وكمد؛ لأن القرآن قد نزل عليه. والحق هو القائل عما جاء على ألسنتهم

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد ﷺ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم [1] ورد الحق سبحانه عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

وفي هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه، فهو لم يوكلهم في اختيار من ينزل عليه رحمته، ورسالته، ولكنه سبحانه هو الذي يختار. وهو الذي قسم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد، أو غير ذلك، فهذا ليس من قدرات البشر أو من قواتهم، ولكنه نعمة من الله.

(١) القريتان هنا مكة والطائف. وقد اختلف العلماء في تحديد الرجل العظيم المقصود. فمن مكة الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة ومن الطائف عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٢٧): « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان ».

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبىَ ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر في المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعي أن يكون للنبي أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبىٍ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ... ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه في ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له لا تتزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له ﷺ في عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ ويَقُولُون هُو أُذُنٌ ﴾

وللإنسان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة . فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هي التي يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمي الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمي الرجل

الذى يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمى اللص الذى يتعدَّى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الضمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات ، وتحررها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلْقه ، فيقول :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن تشكره عليها ؛ لأنها أعطتك العلم الحسى بعد أن كنت لا تعلم شيئاً.

وإذا أُطلقَ على الإنسان اسم جارحه من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هى العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف نفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يُصدِّق كل شىء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يحص القول الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامية « فلان ودَنى» أى يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدى أهل الأرض ، إذن : فهو خير للناس كلهم وحتى إذا

أخذنا كلامهم في أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحي ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُساوٍ له ، وإن كان علمه من الله فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله في حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التي استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض.

فإذا كان المنافقون قد قالوا (هُوَ أُذُنٌ) فقد قال سبحانه : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذي تعنونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويغفر عنكم

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفي اللغة ما يسمونه "القول بالموجب" ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلتُ عليك ، ويرد عليه أنت أثقلتَ كاهلي [1] بأياديك ، أي أن أفضالك عليَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : "أنا طولت عليك" ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت عليَّ ، أي : أعطيتني نعمة بأنك أسعدتني بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال.

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم في كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به. وإن سمع شيئاً ينغصه يتقلب موقفه من

(١) الكاهل : هو ما بين كتفي الإنسان

النقيض إلى النقيض وحاولوا أن يدَّعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط لما يسمعه من يبلغه ، وقالوا . إنه ﷺ ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ؛ لأن "أذن" عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التي أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض المتحيين . إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمحيص والاختيار لكن لتلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطبَّقه ، وما سمعه من الناس ؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج قبله ، وإن تعارض مع المنهج رفضه إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتي من رسالته إلا الخير لمن اتبعه

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى . أذن خير للمؤمنين ، وقال ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّت المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار . فكان رسول الله ﷺ لا يفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء .

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد في سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس أما الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً ؛

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصبحوا خير عميم من اهتدائهم لدين الحق إذن . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف لرسول أنه أذن سَمَّاعة والله يقول : إنه أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه في اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب " ، أي أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير والمثل أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرِج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم . ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أي : أن تتفق مع من يقول ، وتقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل تماماً كما يأتي الحارس لسجين يشعر

بطماً شديد ويُلِحُّ فى طلب كوب ماء فيقول له الحارس سأحضر لك كوب الماء. وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج. ويفرح السجين ويظن أنه سيبال ما يريده، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين، حتى يفرغه على الأرض، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يريد ذلة المنافقين، فوافقهم على أن رسول الله ﷺ "أُذُن" ثم جاء ينقيض ما كانوا يقصدونه فقال

﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم.

إذن: فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ. أنه يؤمن بالله ويتقد منهجه. ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وبين قوله عز وجل: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء فى قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام فى قوله: ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

بعض الناس يقولون. إن هذه مترادفات؛ لأن معنى ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى: يصدق بوجوده، والمنافقون كفرة بالله، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين. أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم. ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا يبون الإيمان فعلاً.

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً وإذ فكر أحدهم فى ترك النفاق إلى الإيمان، لوجد صعوبة شديدة فى ذلك؛ لأن أحداً لن

يصدقه . ولكن أراد ﷺ أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷺ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون

﴿ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أي صدقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعني أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها ، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أي صدقتهم لأنهم مؤمنون

ومادة "أمن" تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتي مرة لازمة ومرة متعدية . فمثلما تقول : "أمنت الطريق" أي : اطمأننت إلى أنه لن يصيبني فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

أي : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخي يوسف ، وهذه من اللازمة . أما المتعدية فهي التي يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ... ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

والخوف متعدد فى أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه فى الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة .

وقوله تعالى . ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات ، وإيمان بالمنهج ، وإيمان بسع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثانى . وقوله سبحانه ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال "أمتى أمتى" .(١) وهو رحمة لهم فى الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذى يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتى بالخير ، والرحمة إنما تأتى بانتفاء الضرر .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]

الشفاء يعنى أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتى المرض ، فكأن رسول الله ﷺ يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر فى الدنيا ولا نار فى الآخرة

ويتساءل بعض الناس . لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم فى جهنم .

(١) حديث الشفاعة حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٤) من حديث أبى هريرة أنه ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله ثم يقال ، يا محمد ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول يارب أمتى أمتى

ثم يقول سبحانه وتعالى

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله ﷺ من المنافقين في قلوبهم وفيما بينهم في مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون في الصدقات ، ويقولون : إنه أذن ، ويحلفون له كذباً ليصدقوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتي الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ "يحلفون" ، ولم ترد مادة "يحلف" في سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفي سورة النساء مرة ، وفي سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما في سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفي سورة القلم جاءت "حلاف" ، حتى إن سورة التوبة سميت "سورة يحلف" [1] ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿يحلفون﴾ في القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه .

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ وفي هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

(١) هذه السورة لها أسماء كثيرة فهي براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين . وقال حذيفة هي سورة العذاب وقال ابن عمر كنا ندعوها المثقشقة وقال الحارث بن يزيد كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها المسورة ، ويقال لها البحوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٦٩/١) .

وأيضاً يقول الحق .

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [التوبة]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة . أي في المستقبل ، أي . أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة . ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكنا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا وكلمة "حلف" هي القسم أو اليمين . وحين نتمعن في القرآن نجد أن الحنث لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ في سورة المائدة :

﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة]

وما دامت هناك كفارة يمين ؛ يكون الحلف كذباً ؛ لأن لدى يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل "حلف" في القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسم لكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ، وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أي . أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ إذن . فهم يحلفون لترضوا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو

لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرضى الله في كل معاملة له مع البشر ؛ ويبتغي رضاه ويخاف من غضبه ؛ ذلك هو المؤمن الحق

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال ﴿ واللهُ ورسُولُهُ أَحَقُّ أن يُرْضُوهُ ﴾ وكان القياس اللغوي على حسب كلام البشر أن يقول. والله ورسوله أحق أن ترضوهما. وشاء الحق أن يأتي بها ﴿واللَّهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أن يُرْضُوه ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتي بالقرآن من عنده ، ولكنه وحي من عند الله . ورضاء الرسول هو اتباع المنهج الذي فيه رضا الله . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح]

ويقول سبحانه

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء]

إذن فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ واللَّهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أن يُرْضُوهُ ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضي الله يُرضي الرسول ﷺ ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول [1]

(١) وقد جاء هذا في حديث متفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله » أخرجه البخاري (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥)

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، في أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد. فقال له رسول الله . « وقعت على الخبر »[1] انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذي يثني على رجل يقول أمامه : إني لا أتوب إلى محمد ، وإنما أتوب إلى الله.

وقول الحق سبحانه : ﴿ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً.

إذن فنحن لا نطلب لرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله. ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلِّغ عنه رسوله ﷺ رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ولم يقل يرضوهما[2]

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

---

(١) عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ أتي بأسير فقال . اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ « عرف الحق لأهله » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٣٥) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٩) « وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح» وقد ضعف الحافظ العراقي إسناد هذا الحديث في تخريجه للإحياء (١/ ٢٢٠)

(٢) لأهل اللغة هنا تقديرات كثيرة لتوجيه إفراد الضمير هنا ، ذكر منها القرطبي ثلاثة تقديرات ثم قال « وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه في رضاه ، ألا ترى أنه قال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله. ﴾ [النساء ٨٠] وكان الربيع بن خيثم إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : عرف رأيه عرفه مرضي إليه فلا يأمرنا إلا بخير » . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٦١٩)

إذا سمعت ﴿ ألم ﴾ ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحادث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه وهذا استنكار لتخلُّف هذا الإنسان عن العلم

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً وسبق أن قلنا إن الاستفهام فيه نفي ، والهمزة همزة استفهام ولم تأت للنفي ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفي يكون استنكاراً فإن قلت لإنسان ألم أكرمك ؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ ما معنى يحادد ؟ نجد في الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذي يفصل بين حق وحق ويسمونها حداً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله في جانب وهم في جانب ، وبذلك لا يعيشون في معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطفون سهجه بل يجعلون حداً بينهم وبين ما أمر به الله

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا : ﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعني : يعادي ، وقالوا : بمعنى يشاقق ، أي يجعل نفسه في شق والله ورسوله ودينه في شق الخر أو : يحارب دين الله فيكون هو في وجهة ودين الله

في وجهة أخرى [1] ومنك علاقة بين كلمة "يحارب" وكلمة "حد" ، فحدُّ السيف هو الجزء المقطع منه الذي يفصل أي شيء بقطعه إلى جزءين ؛ فكأن الذي يحارد هو من يحارب منهج الله ورسوله فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليحعل خلق الله يكفرون أيضاً

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً في جنب الإيمان ، ولا يقيموا حداً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أي : أن كل حكم قد وضع ليحدد حداً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهي ، لأن منهج الدين كله في "افعل" و "لاتفعل" ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تلك حُدُودُ الله فلا تقْرَبُوها ...(١٨٧) ﴾ [البقرة]

ويقول :

﴿ تِلْكَ حُدُود اللَّه فلا تعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللفظين ﴿ تعْتَدُوهَا ﴾ و﴿ تَقْرَبُوهَا ﴾ ونقول : إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهٍ فلا تقترب من المنهي عنه

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل . لا تأكلا من الشجرة ، من قال :

﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ولاَ تَقْرَبَا هـذه الشجرة ... (١٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) وقد جمع ابن كثير هذه المعاني كلها في تفسيره للآية فقال : « أي شاقق وحاربه وخالفه وكان في حد والله ورسوله في حد » انظر تفسير ابن كثير (٢/٣٦٦)

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمر الجنة ، ولكنه أمر ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تعريهما رائحتها ، وقد يغتهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أي : لا تقرب أي مكان فيه خمر [1] ؛ لأن وجود الإنسان في مكان فيه خمر قد يوحي إليه بتناولها ، وقد يجد من الجالسين من يحاول إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن . فالحق سبحانه يريد أن يقي النفس المؤمنة من أن تغرى بالمعصية فتقع فيها

ويقول سبحانه في أدب الاعتكاف :

﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ... (١٨٧) ﴾ [البقرة]

المنهي عنه هنا هو المباشرة ، أي إن تواجدت الزوجة مع زوجها في المسجد ، فليس في هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج [2] ، ثم

(١) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » . أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) وأبو داود في سننه (٣٦٧٤) والحاكم في مستدركه شاهداً وقال ولم يخرجاه والطبراني في الصغير (١/ ٢٦٩)

(٢) « لأمر المنهي عنه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه المباشرة ما دام معتكفاً في مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه » انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٤)

بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال :

﴿ فلا تقْرَبُوهَا ... (١٨٧) ﴾ [البقرة]

إذن : فيما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ، مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أى : لا تكن أنت ونشىء الذى نهى الله عنه فى مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان ؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها

أما فى الأوامر ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فلا تعْتَدُوهَا ﴾ . وعلى سبيل المثال . إن نشأ خلاف بين لزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فإنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فلا تعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

إذن : فمى الأوامر يقول الحق ﴿فَلاَ تعْتَدُوهَا﴾ ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ فلا تقْرَبُوهَا ﴾

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يذكر الحق سبحانه وتعالى الذين يحدون الله ورسوله فيقول :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ من يُحَادِدِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذلك الْخِزْىُ الْعَظِيمُ ﴾ والإنذار هنا يتمثل فى أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الحسى فقط ، ولكنه عذاب فيه خزى وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك

فالعذاب الذي يعدهم الله به في الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزي وهوان ويتمثل الخزي في أن المتكبر في الدنيا يأتي إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفي خزياً أن يكون في النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم في الدنيا يعيشون في نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة

ثم يفضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال : يقال لمن يسافر في طريق مخوف بالأخطار . خذ حذرك وأنت تسير في هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع الطرق . إذن فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لنزول هذه السورة ؟

نقول إن هذا استهزاء منهم ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه في نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما في نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يحشون أن يخرج ما في بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب - كما نعلم - محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضي أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتي في المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن في القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث في الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب في القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ ، مثل قوله سبحانه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص]

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ وما كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[القصص]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضي ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود]

وكشف الله سبحانه وتعالى - أيضاً - لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل ، فقال :

﴿ سيقولُ السُّفهاءُ من النَّاس ما ولاَّهُمْ عن قبلتهمْ . (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة [١] ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً مال الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل .

﴿ سيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أي جمع هذا ؟ [٢]

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت يا ربي ﴿ سيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) في أدْنَى الأرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) في بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

أي : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ

(١) قال الزركشي : « السين هنا للاستمرار ، لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم : (ما ولاهم) ، فجاءت السين إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال » . انظر : البرهان في علوم القرآن (٤/ ٢٨٠)

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره ، عزاه لابن أبي حاتم (٤/ ٢٦٦) عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ سيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ قال : قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي جمع يطلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ .

سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث فى أعماق النفس . وما يدور فى صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سرك الذاتى مفضوح عند الله ، والمثل على هذا قول الحق سبحانه :

﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول . ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

هم قالوا فى أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ عما قالوه فى أنفسهم وأعلموا أنه كذب . ولكنهم لم يكذّبوا رسول الله فيما أبلغ عن الله . وهذا يدلنا أيضاً على أن المنافقين كانوا فى حذر ، وكان يغلب على ظنهم صدق رسول الله

والمثل هو قول الحق هنا . ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعى أن نتكلم حتى لا ينزل فينا قرآناً ، فالحق يبلّغ رسوله أن يرد عليهم : ﴿ قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله: هل تناولتم الإسلام بسوء أو عيب فى مجلسكم ، فسوف يقولون : إن كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له[1] .

والخوض أن تُدخلَ نفسك فى سائل ، مثل الذى يخوض فى الماء أو يخوض فى الطينَ ، وقد أطلق على كلّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض فى الباطل ، أى : أن المسألة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب

ويقول الله لرسوله ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى : إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب ؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، قل . ألس عندكم إلا الاستهزاء بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت ؟ فهل فى هذه المسائل خوض ولعب ؟

ثم يعطيهم الله الحكم.

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعنى: أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم ؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان.

---

(١) وذلك أن رجلاً من المنافقين فى غزوة تبوك قال : ما رأيت مثل قراء لنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عناء الطريق . انظر أسباب النزول للواحدى ص ١٤٤ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه - جَلَّ وعلا - لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما في نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التي ستتوب توبة صادقة ، والتي لم تشترك في هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْ على نفاقهم وإجرامهم والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أي قطعتها ، وسمي إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل - أي الذين قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ... ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى:

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ... ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]

أما باقي الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث في الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السَّتْر في الذكورة . ولكنه كان لابد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . ولذلك كان لابد من النص على المنافقات

وقول الحق سبحانه : ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أي : لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر في الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الله خصالهم في قوله تعالى ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون في سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أي أهملهم ، فمن يبعد عن الله يرده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . . ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

وإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً .

ثم يعطي الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة « منافق » - كما نعرف - مأخوذه من نافاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن في الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً في الأرض ؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثاني ، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛ وهو مأخوذ من « فسقت الرطبة »

أى انفصلت القشرة عن الثمرة والقشرة كما نعلم - محلوقة لصيانة الثمرة ؛ فإذا فسقت عنه تلفت الثمرة . والإنسان إذ فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتى الله بما أعدّه للمنافقين فيقول.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال . « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان تستخدم كلمة « وعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس . وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ . ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلى ويشوى وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى.

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾

[النساء]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى، وقد يسأل سائل كيف يكون ذلك؟

ونقول: إن الكافر بكفره قد أعطاك مناعه؛ فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فأمناه، ويستطيع أن يلحق بنا شراً رهيباً؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا، وقد تكون طعنته قاتلة

والعدو الخفي كما نعلم شر من العدو الظاهر؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر، لكنا لا نأخذ الحذر من العدو الخفي، وهو يعرف ما في نفسي، ويعرف كل تحركاتي، ويستطيع أن يغدر بي في أي وقت دون أن أكون متنبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا، فكيدهم يفشل؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم، فهم يُجنِّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا في هذا الدين، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم، هي القاتلة وهي المؤثرة

هنا نلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً في النار إلا في ثلاث آيات فقط في القرآن الكريم.

في قوله تعالى : ﴿ إلاَّ طريق جهنَّم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً (١٦٩) ﴾ [النساء]

وقوله عز وجل ﴿إنَّ اللَّه لَعَنَ الْكَافِرِين وأَعدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فيها أبداً لاَ يجدُون ولِيًّا ولا نصيراً (٦٥) ﴾ [الأحزاب]

وقوله جل جلاله: ﴿ومَن يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَإنَّ لَهُ نار جهنَّم خالدين فيها أبداً (٢٣) ﴾ [الجن]

و لكنه ذكر الخلود في الجنة أبداً مرات كثيرة [1].

ونقول: إن الجنة هي تُشرى النعيم للمؤمنين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذي ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهي دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود في النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا في ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ خَالِدِين ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت في النار ؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدي . وفي نفس الوقت تأبى رحمته سبحانه وتعالى أن يكون ذلك في كل آية تُذكر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، علَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فأمَّا الَّذينَ شَقُوا فَفي النَّارِ لَهُمْ فيهَا زَفِيرٌ وشَهِيقٌ (١٠٦) خالدين فيها مَا دامَت السَّمـوَاتُ والأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ ربُّكَ إنَّ ربَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وأَمَّا الَّذين سُعِدُوا ففي الْجَنَّة خَالدين فيهَا مَا دامت السَّمـوَاتُ والأَرْضُ إلاَّ مَا شاءَ ربُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود]

---

(١) ذكر الخلود في الجنة أبداً في ٨ مواضع من القرآن الكريم [النساء ٥٧ ، ١٢٢] ، [المائدة ١١٩] ، [التوبة ١٢ ، ١٠٠] ، [التغابن ٩] ، [الطلاق ١١] ، [البينة ٨]

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتي في هذه الآيات ويستثني ويقول: ﴿إلاَّ ما شاء ربُّك﴾ والاستثناء وارد على المؤمن و لكافر ؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فيُعذَّب في النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قَدْر سيئاته . والذي يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن فالمؤمن العاصي لا يخلد في النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إلاَّ ما شَاء ربُّك﴾ لأنه لن يبقى في النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده في النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة.

أما الكافر والمنافق فهما خالدان في النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصي. وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق.

وإذ جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أي منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذي غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصي ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه

إذن ، فالمؤمن العاصي خلوده في النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً. وكذلك يفقد الخلود في الجنة فور انتهاء خطة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة [1].

وقول الحق عن خلود المنافقين في النار ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتي إنسان قوي ويقول لك اتركه لي ، أنا وحدي كفيل أن أؤدبه ، فتقول : هذا حسبه ، أي يكفيه هذا ، لتتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أي : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كاف جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات.

ثم يقول الحق : ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يتُبْ في الدنيا هو عذاب مقيم في الآخرة.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦) « هذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصاري معنى جميلاً في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » ص ١٩٥ فقال « هو استثناء من الخلود في عذاب أهل النار ، ومن الخلود في نعيم أهل الجنة ، لأن أهل النار لا يخلدون في عذابها وحده ، بل يعذبون بالزمهرير ، ونوع آخر من العذاب ، وهو أشد من ذلك ، وهو سخط الله عليهم وأهل الجنة لا يخلدون في نعيمها وحده ، بل ينعمون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك »

كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعانى ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوان هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التى تصيبه بعذاب نفسى أكثر من العذاب البدنى ، فقد تأتى لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه ، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه .

وهون الحق سبحانه وتعالى ﴿ عذابٌ مُقيمٌ ﴾ أى : عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار .

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التى صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعدائه منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله ﷺ. ولنقرأ قول الحق جل جلاله

﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ⑧ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭ ﴾
[الفجر]

ونحن هم نشهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله . ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ ، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التي لم يصل إليها أحد وقد يتساءل بعض الناس أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ من حضارات اليوم ؟ . ونقول إن هناك أسراراً لله في كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعطها لأحد حتى الآن

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً بعد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم في القرآن بقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾. والأهرامات أوتاد ، والمسلات أوتاد ، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن ، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن ، مثل سر التحنيط وبناء الأهرام ؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التي ارتفعت ويمسك بعضها البعض ، دون أية مواد مثبتة ، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنياً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أي مواد

مشيئة ، ومع ذلك فهؤلاء المرعنة لم يستطيعوا أن يسردوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ؛ بل أخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن نكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها . وإذا بالعالم كله يأتي ليشاهد حضارة القراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقي في العلم . فإذ كانت هذه هي حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التي لم يُخْلَق مثلها في البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة في باطن الأرض . ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها في زمن قادم يراد فيه بُعْد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كما تقدم في الحضارة يبتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن في الكون ، مسيطر عليه ؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة ﴿ إرم ذات العماد ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوى شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم .

وإن سأل سائل . أين هي حضارة ﴿ إرم ذات العماد ﴾ ؟ نقول له إنها في وادي الأحقاف [1] ولهيّة الواحدة من الرياح في هذا الوادي تستر قافلة بأكملها ؛ أي إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تدارى لطريق وحده ؛ ولكنها تدارى القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذي كانت تغطته ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فأخفتْ حضارتهم ؟ لابد إذن من حفريات على مستوى عميق جدّاً نعثر على تلك الحضارة ؛ لأنك تعلم وترى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تتراكم فوق

(١) الأحقاف هي صحراء مترامية الأطراف بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها والأحقاف في اللغة هي ما اعوج من الرمال واستطال

الآثار بل إننا نرى البيوت القديمة في القرى ، لابد أن تنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية في وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير في أزمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث معطى بطبقة من التراب ، فإن عُدْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ أي . أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضارياً كان ضعيفاً .

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل . كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكتشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول: لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها ؛ لأنك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم في حجرة ، يقال عنهم . « كثير » . فإذا أخذت كل واحد منهم ووضعته في مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العالم في الماضي مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم في حيزهم الذي يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التي كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ،أي أن نصيب الفرد كان أكبر ،وكذلك الأولاد

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ والخلاق هو النصيب أو الحظ الذى يصيب الإنسان من أى نعمة ، ويقول سبحانه .

﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [البقرة]

أى : ليس له فى الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولم يكن فى بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم فى الدنيا ، ولكن من يعمل وفى باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره فى الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين فى الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم فى بعض البلاد يُلْقون بالفائض فى البحر ، بينما نجد المسلمين يعيشون فى حضارة مادية متدردة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التى أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب" و "عطاء للإله" . فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذى خلق وربَّى ، وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقى لها التقاوى ويرعاها ، لا تفرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطى كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبدة يجزى به الإنسان فى الآخرة ، والذى

يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستعمل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وقفاً لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم في الآخرة

والأسباب في الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على المطيع والعاصي ؛ لأن هذا عطاء ربوبية . من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]

لماذا ؟ لأنك عملت للدنيا وحدها . وكنت تعمل لتنال إنك مخترع أو مكتشف . أو لتحصل على الأموال أو الأوسمة أو النفوذ والجاه في الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفي بالك الله .

وبعض الناس يأتي يقول لك : هل الذي اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب في النار ؟

نقول له : نعم ؛ لأنه فعل هذا وليس في باله الله وإنما فعله وفي باله الحصول على المجد أو المال أو النفوذ في الأرض ، ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس في المدارس ، وأعطوه الباشا وأطلقوا اسمه على الشوارع والمدن .

فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره في الدنيا ، ولكن الذي عمل وفي باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ في الآخرة من المسبب مباشرة ؟ فالإنسان قد ارتقى حضارياً ، حتى إنك الآن في بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطي لك القهوة أو الشاي ،

وآخر يعطيك الصعام.. نقول . إن هذا كله متاع الأسباب ، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر ، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام ، والآلة أوصلته إليك

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجياً فلن يأتي اليوم الذي يجعل الشيء يخطر ببالك فتجده أمامك.. ولكنك في الجنة بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك [1] ؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء مسبب .

فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب في الدنيا ، ولكن في الآخرة يأتي لك الشيء بلا عمل ، مختلفاً في مذاقه ورائحته عن الدنيا

إذن . فالذي يعمل وفي باله الأسباب فقط يعطى في الدنيا ، والذي يعمل وفي باله خالق الأسباب يعطى في الحياتين ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ... (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب الذي تمشي له متخيلاً أنه ماء وإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً ، هكذا الكافر يوم القيامة ، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه الذي لم يؤمن به ، ويطلب من الله الأجر فيقال له : أجرك ممن عملت له . وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر في الآخرة ؛ لأن الله هو الذي يجزي في الآخرة

(١) ورد في هذا حديث عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « إنك لتظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » أخرجه البزار (٣٥٣٣ - كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠٤) ضعيف ولكن قال الذهبي في الميزان (٢/ ١٣٧) متروك فالحديث ضعيف .

وهنا يقول الحق سبحانه ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ أي : أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا ، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب ؛ لأن النصيب في الآخرة يأتي بـ « افعل » و « لا تفعل » في التكليف ، فإذا فعلت الاثنين ترتقي ، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب ، ولم ينسوا المسبب بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب في « افعل » و « لا تفعل » ؛ فملكوا الدنيا ألف سنة ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة ، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسياً ، فقد بقي دينهم في نفوسهم ، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام فقد بقي منارة هادية ، رغم ضعف المسلمين سياسياً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ أي . خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب ، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان ؛ لأن عمر الفرد في الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها ؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتي من بعدك . وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله . هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام ؟ إذن : عمرك في الدنيا مظنون موقوت ، بعملك لأسباب الدنيا محدود المدة ، بمقدار عمرك في الدنيا

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهي حتماً

ويقول الحق سبحانه : ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ أي . أنتم تبعتموهم ومشيتم على أثرهم ، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً ، وهم خاضوا في الأنبياء ، وأنتم خضتم أيضاً في الأنبياء ، فأنتم شركاء لذين ذهبوا من

قبلكم فى أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم فى الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً فلكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل إذن ، فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج

﴿ أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ أى : فشلت وضاعت أعمالكم فى الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم فى الدنيا وكانوا قسمين ، قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً ، وقسماً لم ينله قتل فأفلت بدنياه ، ولكنه خرج منها دون أن يفعل شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً فى الآخرة

فالذين حبطت أعمالهم فى الدنيا هم الذين قُتلوا وأُسروا وشُردوا وغنمت أموالهم بأيدى المؤمنين ، فكأنهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متعها شيئاً ،وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أى الخسران المحيط بطرفى الزمن ؛ الدنيا والآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق في الآية السابقة القضية العامة في قوله ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ جاء في هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وساعة يقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فهنا همزة الاستفهام، ولام النفي، والهمزة تنفي هذا النفي، أي أتاهم نبأ هؤلاء. وحين ينفي النفي في أمر فالمراد إثبات الأمر، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكاري، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو: «نعم»، فحين تقول لإنسان: أنت تحلبت عني في محنتي. فيقول: ألم أزرك في يوم كذا؟ ألم أعطك كذا؟ ألم أصبح مع ابنك كذا؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شيء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقياً.

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ولم يقل: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ»، فسبحانه يخاطبهم ترفيقاً لهم، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون. وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله ﷺ في غيبتهم، فهو ﷺ حريص على هدايتهم.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والنبأ هو الخبر الهام. ونحن لا نقول عن كل خبر: نبأ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ، والنبأ أصله من النبوة، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة؛ ولذلك فكل شيء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة.

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التى كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التى تكلم فيها عنهم غيباً كقضية خاصة .

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى رداً على من سخروا من نوح :

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود]

أى أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما سوف يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هى من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أى قوم لوط ومعنى المؤتفكات أى المنقلب وقد جعل الله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم]

أى : كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحقاف]

أى . لتصرفنا عنهم

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى.

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ المرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مُؤيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته. وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات فى أول الخلق ؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض فى زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة فى مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية فى ثوان ، وربما فى نفس الوقت الذى تحدث فيه ؛ إن كان الحدث مُعداً له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر فى نفس اللحظة التى نزل فيها.

وعندما كان العالم يعيش فى انعزال ، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتى ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود فى بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد فى بيئة أخرى

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر فى أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جداً يظهر فى أوروبا أو فى مصر . ولذلك كان لابد أن يأتى رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله ﷺ رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة.

وحين يقول سبحانه: ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فالبينات هي الشيء الذي يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التي صاحبت الرسالات السماوية بيَّنتْ وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها ولذلك كان كل رسول يأتي بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتي شيء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنه معجزة . فعندما اخترع الفانوس السحري ، قال بعض الناس . إنه شيء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر ولكن معجزات الرسل لابد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذي لم يقرأ حرفاً في حياته ؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوي الذي يمضي حياته كلها في الصحراء ، لا يعرف شيئاً ولم يَعِشْ حضارة ولم يدرس علماً

إذن . فالمعجزات لابد أن تكون واضحة لكل المستويات ؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة . والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لنواميس الكون ولا يمكن أن يأتي به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان

ويقول الحق عنهم ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأيُّ حق ذلك الذي نقلته إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الواجب الإيمان به وعبادته

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجله ويحرمها من نعيم دائم وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور[1] ؛ هذا الذى يبصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يصونه ؛ لأنه يريد أن يسقطه فى نظر الناس . وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شهد الزور حين أعان إنساناً على خصمه ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصف فيها المنافقون فى قوله تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبى بكرة قال قال النبى ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ (ثلاثا) قالوا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئا فقال - ألا وقول الزور قال فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧) .

يمدح محبوبته فيقول:

فالوجهُ مثلُ الصبح مُبيضٌّ ... والشَّعْر مثل الليل مُسْوَدُّ

ضدَّان لما استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظهر حُسْنه الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحثهم فيما يحقرون ، وحثهم فيما يعاهدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات لكن التقابل هنا اختلف في شيء ؛ لأنه سبحانه قال في المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾، وحين تكلم عن المؤمنين قال

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أي أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً. وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول ردَّهم عن انفاق ، بل هم يعضون في تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاتباع وعلى الخير فإن وُجد في مؤمن شر ؛ فقربه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن النفس البشرية بها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله في كل شيء بل هناك خصلة ضعف في كل نفس بشرية فإن وُجدَ في المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويُبصِّره ، وهكذا نجد أنه في المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر في نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعطه ، ليكتمل بمدد الجميع ، ومَنْ يقصر في شيء يجد القريب منه ؛وهو يسد الثغرة الطارئة في سلوكه.

أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْن عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لم نبين لك من المولى ومن الموالى ، فكل مؤمن هو ولى وهو موال ؛ لأن الولاية مأخوذة من « يليه » ، أى صار قريباً ، وضدها عاداه أى بَعُدَ عنه وتركه إذن : فالموالاة ضدها المعاداة وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه .

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما ، فأخى المؤمن ينصرنى فيه وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالِى

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

ولو قيل « وصَّوْا » لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ومعناه أن كل مؤمن عليه أن يوصى أخاه المؤمن فإن كان عندى نقطة ضعف فأنت بوصيني وتقول . اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن

إذن : فكل واحد منا مُوصٍ ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت ولىى ، أى قريب منى تنصرنى فى ضعفى ، وأنا وليُّك ، أى قريب منك ، أنصرك فى ضعفك لأننا أبناء أغيار ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر

والولاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له اعدل وهكذا يتكامل الإيمان ؛ ولذلك تجد كلمة الولاية بمعنى القرب والنصرة فى قول الحق فى ذاته :

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . (٤٤)﴾ [الكهف]

أى : أن النصر الحقيقى والقرب الحقيقى لله ؛ لأننا نعيش فى عالم أغيار ، فقد تطلب لنصر عندى فتكون قوتى قد ذهبت ، أو يكون مالى قد فنى ، أو يكون نفوذى قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوى دائماً ، والغنى دائماً ، لذى يُغيِّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقى الدائم لا نصر الأغيار .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول . ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس]

أى أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (٢٥٧)﴾ [البقرة]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره ويقول تعالى :

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾ [محمد]

أى إذا تقربت إلى الله بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك فى أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية فى الأصل هى القرب والتناصر ، ومادام هناك تناصر فلابد أن تكون هناك نقطة ضعف فى مؤمن ، ونقطة قوة فى مؤمن آخر ،

ولكن مَن الذى سيكون فى ضعف دائماً ، أو فى قوة دائماً ؟ لا أحد إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يعين البعض ؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكى يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

[الزخرف]

إذن . فقد اعترف الكفار بصدق القرآن وعجازه ولكنهم لا يؤمنون ؛ لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ، ولم ينزل على أحد من زعماء قريش ، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... ﴿٣٢﴾ ﴾

[الزخرف]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم لساده والعبيد ، ويجعل منكم لأغنياء والفقراء ، وذلك فى أمور الدنيا ، فإذا كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذى قسمها بينكم ، وحياتكم فى الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التى هى حق لله سبحانه وتعالى وحده.

ونلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾

مسهمة ، فإن كلاً منا مرفوع ومرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب ولكن كلاً منا متميز في ناحية وغير متميز في ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم في الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان مرفوعاً عليه في شيء فلابد أن يسأل نفسه : في أي الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفي أي الأشياء الناس أحسن مني ؟

ونقول له . أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن في باقي الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك إذن : فأنا في الشيء الذي لا أجيده مرفوع عليّ ، وفي الشيء الذي أجيده مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد في كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض ﴾

ولكن الآفة أننا لا ننظر في الرفعة إلا إلى مجال واحد ؛ هذا غني وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة في الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضنا إذا أخذ درجة عالية في زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً في زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان في نهاية الأمر يساوي مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك في شيء ، فإياك أن تحسده ، ولكن اسأل نفسك في أي مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك

إذن فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولابد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه

لنفسه انظر إلى النجار مثلاً تجده يتقن عمل الأبواب و لنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب لذى يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً.

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس نجد أن اليد اليمنى تؤدى الأعمال بسهولة ، و ليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهوله ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر فى قص أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوى مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهى يتدخل هنا ، فنجد - على سبيل المثال - لرجل الغنى الذى يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، ثم يأتى عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . ونجد من يسرف فى الطعام ؛ لابد أن يأتى عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ، لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته فى أن يُحرم والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع ؛ لكى يلتحم الجميع فأنت تحتاج لى فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا صحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذى يعالج المريض ؟ ومن الذى يحفر لأرض ؟ ومن الذى يحمل الطوب ؟ ومن الذى يعطف الطريق ؟ إننا لو تشابهنا فى الموهبه

أو لثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لابد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لي . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتعقل بين الناس .

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ فإذا فعل مؤمن منكراً ؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهي عن منكر

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو وأنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون في يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التي في يده ، لايمكن إذن أن تنهى عن منكر وأنت تفعله ؛ والذي يأمر بمعروف لابد أن يكون فاعله ، والذي ينهى عن المنكر لابد أن يكون بعيداً عنه[1] فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف. وناهٍ عن المنكر .

ويصف الحق وصفاً للمؤمنين ﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ وإقامة الصلاة هي إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها والمؤمنون أولياء بعض ، ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولي الأعلى الذي لا يستغني عنه جميعاً.

(١) عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) أقتاب بطنه أمعاؤها

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا.

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ... ﴿٧﴾ ﴾ [محمد]

إذن . فلابد أن تتجه جميعاً إلى الوالي[1] الكبير فهو سبحانه فوق أسبابنا ، وفوق قوتنا وهو الذي ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فلجأ للولي الكبير وما دمت الولاية لله الحق ، فلابد أن نستديم في ولائنا له سبحانه وتعالى واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة وساعة تسمع المؤذن يقول : « الله أكبر » تسرع إلى الصلاة . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة ، فلابد أن تجيب الدعوة[2]

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون في معية الله دائماً فافعل ، بعد أن تكون قد أديتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات في اليوم الواحد ، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففي هذا صلاح الإنسان وأنت إنْ جئتَ بأي آلة وجعلتَ المهندس الذي صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً.

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإنه العطب لا يدخل إلى نفسه والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان باكتشاف نقص في الوصلات الكهربية أو كسر في أي شيء ، فالمادة تصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه

---

(١) الوالي من أسماء الله عز وجل وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها قال ابن الأثير وكان الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل

(٢) عن أبي هريرة قال أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له فلما ولى دعاه فقال « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ » قال نعم قال « فأجب » أخرجه مسلم في صحيحه (٦٥٣)

عيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالعيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر أى كان هذا الأمر فوق طاقته – قام إلى الصلاة [1] ؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يملك الحل ولذلك كان ﷺ يقول لبلال . أرحنا بها يا بلال [2] كأن الراحة بها ، أى : اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة

لذلك كان لابد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ لأن الصلاة استدامة لولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون مرصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه لنا باب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت

ولكى تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شىء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . فإذا قلت : إنك ستتكلم فى كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له فى أى وقت تشاء ، وفى أى مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لا ينهى المقابلة أبداً ، أنت الذى تنهى المقابلة مع ربك .

(١) عن حذيفة قال « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩)

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة

ويقول رسول الله ﷺ : « لايمل الله حتى تملوا »[1].

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده في وقت واحد ، ويستمع إليهم في وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون في وقت واحد

ويقول سبحانه : ﴿ ويُقيمُون الصَّلاة ويُؤتُون الزَّكاة ﴾ والصلاة تأتي مع الزكاة باستمرار ؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطي ، وفي الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه ليستبقي له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتي بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفي الصلاة ضحيت بوقتك في أوقات محددة.

وفي الأوقات التي تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذي سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلاة ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : ﴿ ويُقيمُون الصَّلاة ويُؤتُون الزَّكاة ويُطيعُون اللَّه ورسُولَهُ ﴾. وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه . ﴿ ويُطيعُون اللَّه ﴾ ؟

نقول : الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣) ومسلم في صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها

رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان ليست هى كل الإسلام . بل هى القواعد التى بُنى عليها الإسلام ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « بنى الإسلام على خمس »[1] . إذن : فهذه هى الأعمدة أو الأسس التى بُنى عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقى . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التى وضعت ، ولكن لابد من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به فى كل حركة الحياة

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشىء الذى تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهى وضع خميرة فى عجينة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أن أحدهما جيلاً عن جيل ، والذى بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة فى العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء فالبنسلين على سبيل المثال – اكتُشف نتيجة خطأ وقاعدة أرشميدس التى سميت عليه نظرية لعواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس وحين يأتى ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدى خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم

ومثال آخر : ما الذى جعلك تفهم أن اللحم حين يضح على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذى جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى . كل هذا هدانا إليه الله

(١) متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما

﴿الذى خلق فسوى ﴿٢﴾ والذى قدر فهدى ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]

إذن : فكل ما تنتفع به فى حركة الحياه ، قد أتانا من أجيال مضت ؛ ولذلك من يأتى ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]

نقول : سوافقك على انقطاعك للصلاة و لصوم فقط . ولكنك لكى تصلى ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلى وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتى بهذا الرغيف ؟ من المخبز . ومن أين أتى به المخبز ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح ؟ من الزارع . والزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكى يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكى يسقى .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عباده ، وكل حركه فى الحياة تعينك على أداء العبادة هى عبادة .

ومثال اخر : لكى تصلى لابد أن تستر عورتك فى الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتى به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع لنسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُلِبَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويبقى القطن من الآفات . كل هذه هى من حركات الحياة التى مكَّنتْكَ أن تستر عورتك فى الصلاة ، وكل منها عبادة .

إذن . كان من الضروري أن يقول ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ . بعد ﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله في الإسلام الذي بني على هذه الأركان .

ثم يقول الحق . ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال . ﴿ سيرحمهم الله ﴾ لأن السين تهتك ستار الزمن ؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً في رحمة الله التي لا تنقطع

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم]

أي أن الود سيكون مستمراً ، حتى من استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً يتمتع بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء بـ ﴿ ولسوف يعطيك ﴾ لترى عطاء الحق مستمراً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول . سأنتقم منك ، أي : أن الانتقام سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ سيرحمهم الله ﴾ تعطى أن صفة الرحمة في حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة في المخلوق ؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التي لا تناهى ولا تنتهى . ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي تشقى الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر وهناك سلامة ليست من أول الأمر ومن عنده خصلة سيئة وهي داء يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهي ألا يأتي داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع ؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم ، لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة وهناك عزيز بلا حكمة ، تعزيه عزته أن يصغى لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية .

ويأتي بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم في الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ، خشية أن تصيبه . متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم في صحيحه (٢٧٥٢)

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

والوعد بشارة بخير يأتي زمانه بعد الكلام. والوعيد إنذار بسوء يأتي بعد الكلام.

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل ؛ حتى يتحقق له الخير الذى وُعد به والوعيد يعطى السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال.

﴿ وعد اللهُ المُنافقين والمُنافقات ﴾ ثم ذكر العذاب الذى ينتظرهم ؛ وبعد ذلك قال :

﴿ وعدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات ﴾ ثم وصف النعيم الذى ينتظرهم ، مع أن الشائع فى اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب فى عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين » ؛ لأن الذى سيأتى بعد ذلك عذاب ونار وشر ، وأن يقول فى المؤمنين : وعد اللهُ لأن الذى سيأتى بعد ذلك جنة ونعيم وخير

ولكن لأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشرى ، فجاء بكلمة « وعد » ، وهى تقال دائماً للخير فى حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ،

واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشرى ؛ لأنه وعد بخير.

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد » مكان « أوعد ».

فالذى يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تقس كلام الله على كلام البشر ؛ لأن البشر يفوتهم فى كلامهم ملاحظ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون فى الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد

فلماذا جاء سبحانه - إذن - بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد » ؟ نقول. إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جرائمهم إن أصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق محفة العذاب الذى ينتظرهم ؛ علَّهم يقلعون عن النفاق ويصرفون إلى الخير من الإيمان.

إذن فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل فى دروسه : سترسب إذا أهملت دروسك . فتكون بذلك قد حدمت إقباله على المذاكرة وأوصلته بالوعيد إلى أن يتحب الأمر الذى أوعدته ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أى . فأى نعم ربك تكذب ؟ نقول . نعم إنه نعمة ؛ لأن

الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك: إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تجتنب طريق النار وتختار طريق الجنة

إذن . فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذي ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إن اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفي هذا خير عميم . ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذي أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والوعد كما قلت بشارة بخير مستقبلي ، والوعيد إنذار بشرٍّ يأتي في المستقبل ، والوعد والإبعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحس الناس جميعاً أن يصدو إلى الخير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله ؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ؛ استقام ميزان الحياة

ولذلك نقول للذي يذاكر إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذي يؤهلك لدخول الكلية التي تختارها ، وإن أهملت دروسك ورسبت وفُصلتَ من التعليم ضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد. إن وفَّيتَ ما وعدت ووقيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم

وإن وعدت من يحصل على ٩٠٪ مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على ٧٠٪ واستُبعدَ الحاصل على ٩٠٪ بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد في حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لايكون لكلامه وزن في حركة الحياة .

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ؛ لأننا أهل أعيار ، فقد أعد بخير لا أستطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ بدل . ولكي تستقيم حركة الحياة ، لابد أن يأتي الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوي دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شيء يمكن أن يجعله لا يفي بوعده أو لا يُتمُّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

[المسد]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص [1] وغيرهم ؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم وجاهدوا في سبيل

(١) أسلم خالد بن الوليد في العام السابع من الهجرة بعد عودة خيبر . أما عكرمة فقد أسلم عام فتح مكة سنة ٨ هـ . أما عمرو بن العاص فقد أسلم قبل الفتح في صفر سنة ٨ هـ . انظر : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢/٩٨) ، (٤/٢٥٨) ، (٥/٢) .

الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ نقول: إن هذا ليس حكم رسول الله ﷺ ، ولكنه حكم الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشكَّ في هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شيء قدير

بذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها في المصحف الشريف في سورة الإخلاص:

﴿ قُلْ هو اللَّهُ أحدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ ﴾ [الإخلاص]

وما دام الله أحداً فأمره ماضٍ حتى في الأمور الاختيارية في الحياة ، وإذا قال الله . ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ وإذا وعد بخير فإنه سيأتي لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً

إذن : فلكي تستقيم موازين الحياه ، كان لابد أن يأتي الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأنه لا أحد يشارك الله في مُلْكه ، ولا يوجد قوى إلا الله ، ولا غالب إلا الله ؛ لأنه هو الله أحد

وقد يأتي الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريَّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهي لا تعطيك شيئاً.

إذن . فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذي يجدُّ في زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذي لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه

لا يحصل على ثمرة واحدة منها ولو اختلف لأمر ووحدنا من زرع وحرث وسقى لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير فى الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه.

إذن فنكى تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد و الوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا فى كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها فالذى يجتهد ينجح ، والذى لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يختل ميزان الحياة ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر ينجح ومن يذاكر يرسب ؛ اختلت حركة الحياة المثمرة الناجحة

إذن . فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد ؛ أى كوفىء الذى لا يعمل وعوقب الذى يعمل فسد الكون لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب النفع لنفسه ، ولا يختلف فى ذلك مؤمن أو عاص أو كافر ، ولكن العاصى و الكافر يحدد نفسيهما حباً أحمق ؛ فيحققان لها نفعاً قليلاً زمنه محدود ؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر ؛ لذلك فهو حرم نفسه من متعة عاجلة فى زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر فى زمن لا ينتهى.

ولقد ضربنا مثلاً لذلك ولله المثل الأعلى فقلنا لك إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلى ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه . والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ،

فيخرج ليتسكع في الشوارع ، وحين تُحدثه نفسه بأى متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة.

إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة فى سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثانى فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوى شيئاً فى المجتمع.

إذن: فكل من يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هى التى تختلف. فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيتحمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومن من يعطى نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً

والعجيب أنك تجد أن هذه هى سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح فى حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه فى سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة فى أولها ليشقى بقية عمره

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حصه من الحياة مرتين أبداً ، فالذى يتعب فى أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره والمثل الشائع يقول من جار على شابه ، أى : ضيَّعه فيما لا يفيد ، جرت عليه شيخوخته . والقائمون على الأمر عليهم أن يبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع وعلى كل ولى أمر ؛ فى أى مكان ؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أسائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر

حتى ينجح ، بل لابد من الوعد لكي يتم الاجتهاد ولابد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يزكيان حركة الحياة

ولكن إذا رأيت في مجتمع ما أن الذي يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذي لا يعمل يأخذ كل شيء ، تعرف أن مقاييس العمل قد اختلت وأن المتاعب قد بدأت في المجتمع ؛ لأن الذي يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شيء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله في النفاق والرياء ، وقلب الحقائق وإرضاء الذي يملك الأمر وتكون النتيجة هي فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً في النفاق والرياء وضياع الحق

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة في الوعد والوعيد ، فلا تُعْطِ حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجهود ؛ ولكنك إذا نظرت الحوافز على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدمونك في بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذي يعمل في جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة في المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هي حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أجر مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه ، فإن أصبْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذي خسر

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف -- ومعنى الكهف مغارة في جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف - حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن

ذى القرنين قال

﴿ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف]

فما هو الذكر الذى يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يُدخل نفسه فى متاهة السؤال عمَّن يكون ذو القرنين ، هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نستمع إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله فى الأرض (١) وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله فى الأرض ؛ فى أى زمان ، وفى أى مكان. ومهمة من يمكنه الله فى الأرض ألا يكتفى بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لقوله تعالى

﴿ إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا ﴿٨٤﴾ فأتبع سببا ﴿٨٥﴾ ﴾

[الكهف]

مهمته إذن - أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴿٨٦﴾ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ﴿٨٧﴾ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن فى الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو محاربة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفى هذا

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠١) « قوله ﴿إنا مكنا له فى الأرض﴾ أى أعطيناه مُلكاً عظيماً مُلك فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات وبهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها »

إصلاح لحركة الحياة في الدنيا ، أما في الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيشون فساداً في الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد في المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوي به المجتمع كله

إذن ؛ فلا بد أن نُعجِّل لهم بالعقوبة في الدنيا ، لنحمي المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله في الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح في المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلابد أن نجازيه خيراً ونشجعه. هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هي معاييره.

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أمَّا التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار لذلك يطلب منك الحق أن تقول " إن شاء الله " حين تعد بشيء لتكون صادقاً. ويقول سبحانه

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و: إن شاء الله سأفعل كذا في العام القادم ؛ لأن الذي تَعِدُ به ، قد يأتي وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله.

فإذا قلت – مثلاً – لإنسان : ستقابل غداً في مسجد السيدة زينب رضي الله عنها ونتكلم في موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد ؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد ؟ أو أملك أن يظل سبب البقاء موجوداً ؟ يجوز أني كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ،وجاءني مال في أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيي .

إذن . فبدلاً من أن تقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله " ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل.

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كي تفعله ، وقد يتغير السبب

إذن فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذي يملك أن يبقيك لغد ، أو يُبقي السبب أو يُبقي القدرة هو الله ، إذن . فكل شيء تقوله لا بد أن تقول . "إن شاء الله" ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذي يملك عناصر الفعل.

ولكن إذا كان الذي وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد.

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

بذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن﴾

إذن . فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهذا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب

إذن ، فعندنا جنات ، وهي لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أي مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب في هذه المساكن ؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص في هذا المكان مأوى طيباً خاصاً به

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ومساكن طيبة﴾ أي : ليس فيها ما يسيء أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة وكلمة "جنة" هي المكان الذي فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تستر وتحميك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ "جنة" على بساتين الأرض ، فقال :

﴿أيودُّ أحدُكم أن تكون له جنةٌ من نخيل وأعناب ... (٢٦٦)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً .

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة .. (١٧)﴾ [القلم]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة في الآخرة ؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول لوجود المعروف في الكون هو الوجود الذي نراه أو تسمعه ، وفي هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك مستمع الذي رآه غيرك حين يقصه عليك إذن فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك فأنت إذ قلت إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك وأما الأشياء التي لا تخطر على بال بشر ، فهي أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

والكلمات توضع لمعانٍ معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعان مرت على العين ، أو مرت على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أن يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك في اللغة ما يعبر عن شيء غير موجود ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشيء وهذه مهمة المجامع اللغوية في العالم فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء

ولكن الجنة في الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما في جنة الآخرة ، وإذا أضفنا إلى ذلك "ولا خطر على قلب بشر" تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما في جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التى وعد بها المتقين فهو يوضح أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما فى جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصوره فلا يقول الجنة ، وهو يقول :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... ﴿١٥﴾﴾ [محمد]

أى أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود فى الجنه .

وهو يقول سبحانه : ﴿وعد اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ و ﴿جَنَّاتٍ﴾ جمع "جنة" . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام]

يعنى ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كسرت ولمت وتزعرعت بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً فى كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها ؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيره من النعم التى أنعم الله بها عليه

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضي القسمة لآحاد ، فيكون المعنى أن الله وعد كل مؤمن جنة ، ووعد كل مؤمنة جنة ، والأفراد ستتكرر

إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمتها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، تماماً مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه : أخرجوا كتبكم و" أخرجوا " أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أي أن يخرج كل تلميذ كتابه وقول المعلم " أمسكوا أقلامكم" يعني . أن يمسك كل تلميذ قلمه

إذن فقول الحق سبحانه ﴿ وعد اللهُ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أي . أن لكل واحد جنة . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]

وهنا لا بد أن ننتبه لمعطيات الألفاظ في سياقها ومقامها ؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط ، وإنما تتكلم عن الإنس والجن فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ(١) مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ [الرحمن]

وكذلك قوله جل جلاله :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ (٣١) ﴾ [الرحمن]

إذن " فيكون للإنس جنة وللجن جنة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى " ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]

---

(١) الصلصال الطين اليابس الذي يصل من جفافه أي يُصدر صوتاً المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد

من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .

ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد جنتين ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أزلاً ما سيصير إليه أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنات تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً[1] ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ بقيت الجنات التي خلقت ولم يدخلها أحد ؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوريثها على المؤمنين أصحاب الجنة ؛ مصداقاً بقوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أي . أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها ؛ لأن أصحابها من أهل النار[2] .

ونريد الأمر هنا توضيحاً ، فالقرآن الكريم له أسلوب مميز ؛ لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتي مطابقاً للمعنى تماماً وفي اللغة ، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك . فإذا قلت لإنسان مثلاً . أحضر لي كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

---

(١) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ . « لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكرا ، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٦٩) وأحمد في مسنده (٢/ ٥١٢) والجنة والنار موطنان باختيار الأعمال

(٢) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا له منزلان . منزل في الجنة، ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ، ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾» أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٤١) . قال البوصيري في زوائده « إسناده صحيح على شرط الشيخين »

إذن . فالمحاطب توجد المعاني أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهمت معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً في اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم . ولعل هذا هو أكبر دليل لغوي ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود في كل لغة ؛ وبما أن المعنى في اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن ، فقولك " إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : "الله " ، ووجد لفظ الجلالة في لغتك؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره ؛ ولذلك سمي الكفر ستراً لوجود الله . والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن فالذي كفر ، ستر موجوداً ؛ فأعطى دليل الإيمان ؛ لأنك أيها الكافر – والعياذ بالله – تعرف لفظ الله في لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وُجد لفظ «الله »سبحانه وتعالى في اللغة .

إذن فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هي دليل على وجود الله ؛ لأنك لا تستر إلا ما هو موجود

ولفظ الجنة في القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، في قوله تعالى

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾

وقوله جل جلاله :

﴿ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل ...(٣٢) ﴾ [الكهف]

إذن فالجنة أطلقت في القرآن على المكان الذي فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذي في داخله من الحاجة للخروج إلى مكان آخر ؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشيء في الآخرة ، لا بد أن يشبهه لنا بشيء نفهم معناه في الدنيا ؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقتها معان حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن جنة الدنيا هي جنة الآخرة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذي تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

ولكن من أين نأتي بالألفاظ التي يمكن أن تعبر لنا عن ذلك ؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتي بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ؟ مستحيل ؛ لأن المعنى غير موجود .

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبياً حتى نستطيع أن نفهمه ؛ فيقول سبحانه وتعالى .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ...(٥) ﴾ [محمد]

أي : أنها ليست هي ، ولكنه مثل فقط ؛ يقرب المعنى إلى ذهنك . خذ صورة من المجتمع الذي تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة ، ثم بعد ذلك

يرداد الرقى ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص (فيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقى . إذن : فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوى إليه فقط ، بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيت فى الحياة . فتحقق لك المتعة فى الإيواء ، وهذا موضوع آخر

وبهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أى : هناك جنات وهناك مساكن ؛ لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه ، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل ؛ مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ، ونجلس معاً ، فكأن الجنات هى للرفاهية الزائدة ؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس ؛ تتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهى للخصوصية فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله

إذن فالجنات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هى من صناعة المسبب جل وعلا

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى ، قد نجد أن للبيت حديقة ؛ يشرف عليها بستانى متمكن من عمله ؛ ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات لبشر ، فكيف بهذه الحدائق التى صُنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إن الذى وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وأزهار وأشكال ؛ تسر العين بجمالها ، وتمتع

اللمس بنعومتها ، وتملأ الأنوف برائحتها الزكية ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجرى من خلالها ، ولكنها لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ، ومنابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومنابعها ذاتية ، أى ينبع من نفس المكان [1] . وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار ؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كنا فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطئ ؛ وإنما يمسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض [2] ، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى ؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء ، ونهر الخمر [3] ، وكلها تجرى فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطيه سبحانه وتعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً ؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة ؛ كأن تصاب بكارثة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت .

---

(١) ورد فى القرآن قوله تعالى : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ ٣٥ مرة ، وورد قوله تعالى ﴿ تجرى تحتها الأنهار ﴾ مرة واحدة فى [التوبة ١٠٠]

(٢) وذلك مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج ٦٥]

(٣) سبق أنهار أربعة نهر لبن فى غاية البياض والحلاوة والنعومة ، ونهر عسل فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ونهر ماء غير آسن أى غير متغير الرائحة ، ونهر خمر لا يغتال العقول قال صاحب كتاب « هادى الأرواح » (ص١٧١) « تأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التى هى أفضل أشربة الناس ، فهذا لشربهم وطهورهم ، وهذا لقوتهم وغذائهم ، وهذا لذتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومنفعتهم »

ولكنك في جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ، ويريدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك ؛ لأنه ليس هناك أغيار ، وليس هناك موت.

وكل إنسان في الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتهم ومقاماتهم ، فقد تكون من الفلاحين ؛ وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، ولثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على قدر إمكاناته في الدنيا ، ولكنك في الآخرة تتمتع كلك على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعا بقدرة لا تفوقها قدرة ، ويكون الجزاء بقدر ما عملت من خير في الدنيا ، واتبعت منهج الله

إذن : فأنت الذي تحدد المساحة التي لك في الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك

ثم ما الذي يهددك في نعيم الدنيا ؟

الذي يهدد الناس في الدنيا أحد شيئين : إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . ولذلك يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس [1] .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى في وصف الخلود فقال : ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لا تنتهي . وسبحانه حين تكلم

---

(١) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ « ينادي منادٍ : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » فذلك قوله عز وجل ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف ٤٣] أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٩٩) (٣/ ٣٨ ، ٩٥) والترمذي في سننه (٣٢٤٦) .

عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه و تعالى .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ... ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]

أيُّ سماء وأيُّ أرض تلك التي تحدَّث عنها الحق سبحانه وتعالى ؟ هل هي السماء التي نراها ؟ إننا نعلم أن الأرض التي نعيش عليها ستبدل وأن السموات ستمور [1] ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للآخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين ؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]

إذن : فما دامت السموات والأرض ستتبدل ، فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض في الآخرة ؛ غير حديثه عن السموات والأرض في الدنيا ولكن بعض السطحيين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين في الجنة ما دامت السموات والأرض ؛ ثم يقول .

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير]

فكأن هذه الأرض التي نعيش فيها ، والسماء التي تظلنا ستُدمَّر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . . ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]

---

(١) وذلك من قوله تعالى ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ [الطور ٩] ومعنى تمور أي تدور وتتحرك وتموج في بعضها البعض

فأين هو الخلود إذن ؟

نقول لهؤلاء : قرأوا القرآن كله لتعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

إذن . فهذه الأرض هي أرض معاش وما فوقها من سماء هي سماء معاش ؛ ستتبدل بأرض مَعَاد ؛ لأن الأرض التي نعيش عليها فيها مقومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتصنع . أما في الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب منك ؛ ولذلك ساعة يخطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحرث أو تزرع أو تتحمل أي مشقة . أما هنا في هذه الدنيا ، الأرض أرض المعاش تنعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن تصل إلى أنك يخطر على بالك الشيء فتجده أمامك . وسبحانه يقول

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فكأنه استثنى بعض الناس من الخلود .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود]

أي : أن الجنة والنار لهما خصان ، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذي يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً . وأما إن كان الذي يُحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة

إذن : فالذي دخل النار أولاً حالتان : حالة أبدية وهم المنافقون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود في النار بالنسبة

لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداء وخلوداً ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبالوا جزاءهم من العقاب . وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين في الجنة ناقصاً من البداية ؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم في النار ناقص من الآخر ؛ لأنهم لم يخلدوا فيها .

ويقول سبحانه ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي أن مساكن المؤمنين في الجنة ستكون أيضاً جنات خاصة بها ، وكلمة ﴿ عدن ﴾ ؛ مادتها العين والدال والنون معناها الإقامة و« عَدَنَ في المكان » ، أي أقام فيه بإذن . فهي جنات إقامة ، لأن هناك فارقاً بين أن تسكن في فندق مثلاً ، أو في مكان مؤقت ، وبين أن تقيم خالداً .

وحين يعطي الحق سبحانه للمؤمن بُشْرى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا تنسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشيء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله . فالرجل الفقير حين يبني مسكناً يكون المسكن متواضعاً ؛ مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبني قصراً كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذي صنع ، فكل شيء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته ؛ فهو الذي يمسك الأمور كلها ، ويأتي تنفيذه لأي شيء وفق ما يريد

إذن . فالخلود في جنات عدن خلود دائم ، وهي جنات يعلو فيها التنعيم بدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً ؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا ينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه ، فلو كان ما في جنات عدن مما يُزهَدُ فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف

ولكي يصل الإنسان إلى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمُنْعَمُ عليهم بالنعمة ،

وهم المؤمنون والمؤمنات ومن أطاع الله طمعاً في الحصول على نعيم الله في الآخرة ، يأخذ هذا النعيم . والذي أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة و للقاء بالمُنعِم.

إذن - فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً في لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد، وتقرأ القرآن وتصلي والناس نيام ، وتتقن العمل الذي ترتقي به حياتك وحياة غيرك ، وتفعل ذلك محبة في الله الذي يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهي أن تكون في معيّة الله ويقول سبحانه [1]. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً [2] ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : « يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون :

---

(١) انظر إلى جمال هذا الموقف ، المؤمنون قد تنعموا بنعيم الجنة في قصورها وبساتينها وأنهارها وفاكهتها ولحوم طيرها ، ولبنها وعسلها وخمرها وحمرها ، حتى أنك ترى في وجوههم أثر هذا النعيم ، فها هي ذي وجوههم مضيئة تتلألأ بهاء وجمالاً وصفاء ، وهم على هذه الحالة ينظرون إلى وجه الرحمن سبحانه خالق الخلق ، مالك الملك ، يفيض عليهم من نوره ، وبهاء ورحمانه ورضوانه ، كل الوجوه ناظرة إلى الله ، عبدوه سبحانه ولم يروه ، ولما هم يرونه ، فسبحان المنعم الوهاب

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « وإن أفضلهم منزلة لينظر إلى وجه الله كل يوم مرتين » أخرجه أحمد في مسنده (١٣/٢) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨٧/٥) وأخرجه أحمد أيضاً (٦٤/٢) والترمذي في سننه (٣٣٣٠) بلفظ « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » قال الترمذي حديث غريب .

بارب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[1]

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التى فى جنات عدن أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله فى قوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فالذى عمل للجنة نعطيه الله الجنة ، ولذى عمل لذات الله يعيش فى معية الله سبحانه .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله:

﴿ ذلك هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم ؟ لقد تقدمت أشياء كثيرة : تقدمت جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ، ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيها هو الفوز العظيم ؟

نقول كلها فوز عظيم ، فالذى فاز بالنعيم الأول فى الجنة أحد فوزاً عظيماً ، والذى فاز بالمساكن الطيبة فى جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ، والذى أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم

ونلحظ أن القرآن حين يعرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء فى باب منفصل ، والمنهج فى باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء وبين الوعد والوعيد ؛ لأنه ساعة يصف لى الجنة وما فيها من نعيم ، لابد أن ينبهنى إلى المنهج الذى يوصلنى إليها وحين يعطينى صورة من المنزلة العالية التى تنتظر المؤمن فى الآخرة ، لابد أن ينبهنى أيضاً إلى العذاب الذى ينتظر المنافق والكافر ؛ حتى أتجنب الطريق الذى يؤدى بى إلى النار والعياذ بالله .

---

(١) متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن جنته ورضوانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن فبعد أن ذكر الحق لنا الجنة وما فيها ، وما يجعل النفس مشتاقة إلى الجنة ، فهو يُذكِّرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله - ولله المثل الأعلى - مثلما تقول لابنك : عندما تتخرج طبيباً ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى ، وترتقى معه فيما ينتظره من مستقبل كبير ، وتُذكِّره بضرورة أن يجتهد فى المذاكرة حتى يصل إلى ما يتمناه . وبذلك تكون قد حبَّبته فى الغاية التى سيصل إليها ، ثم انتقلت لتحببه فى الوسيلة التى ستوصله إلى هذه الغاية .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ والحق جلَّ وعلا يخص رسوله ﷺ بالتكريم والتعظيم ، فلم يُناده باسمه ، بل قال[1] : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ وفى مواقع أخرى يناديه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾.

ولكن النداء من الحق لباقى الأنبياء ، يكون مثل قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

(١) ورد نداء رسول الله ﷺ بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ٣ مرة فى القرآن ، أما نداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ فقد ورد مرتين فقط

ونادى الحق إبراهيم:

﴿ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات]

ونادى الحق موسى:

﴿ يَا مُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [طه]

وخاطب الحق سيدنا عيسى:

﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة]

فكل رسول ناداه الحق سبحانه وتعالى باسمه ، إلا رسول الله ﷺ فقد ناداه بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، و ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ تكريماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفعاً لمقامه عند ربه

وهنا يطلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين [1].

ونحن نعلم أن السماء لا تتدخل لإرسال رسول إلا إذا فسد المجتمع فساداً عاماً ، ونعلم أن النفس الإنسانية فيها قد فُطرتْ على محبة الخير ، فإن لم يحكمها هواها فهي تفعل الخير وتحبه ، فإنْ حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبواب الشر ، وقد يطيع الإنسان هواه في أمر من الأمور ، ثم يفيق ؛ فتلومه نفسه على ما فعل ، هذه هي النفس اللوامة ، التي تلوم صاحبها على الشر ، وتدفعه إلى الخير . ولكن هناك نفس تتوقف فيها ملكات الخير فتفعل الشر ، ولا تندم عليه ، ثم ترتقي النفس في الشر فتصبح أمَّارة بالسوء ، وتأبى ألا تكتفي بفعل الشر ، بل تأمر به الناس وتُحبِّبه لهم . إذن : فمراحل النفس البشرية كثيرة ، فهناك النفس التي تطمئن لمنهج الله وتطيعه . وهذه هي النفس المطمئنة ؛ التي يقول فيها الحق

---

(١) قال ابن عباس في تفسير هذه الآية « أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ » انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١٢٩)

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَادِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر]

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أن المجتمع بخير ؛ لأن النفس المطمئنة تطيع ، وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على الشر ، ولكل مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن ، يسرع له أخوه المؤمن ليلومه على ضعفه ، ويصحح له مساره ؛ ولأن نقط الضعف مختلفة ، نجد أن المجتمع يستقيم كلما وُجد من يلفت النظر إلى المنكر وينهى عنه ، وهؤلاء هم الذين يقول الحق عنهم :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

ولكن عندما تصدأ النفوس جميعاً ، ولا يصبح هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، بل تجد من ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ، حينئذ لا بد أن يتدخل الحق سبحانه ليعيد للحق مكانه فى الدنيا

إذن . فرب العزة لا يتدخل فى حالة وجود نفوس مطمئنة تطبق منهج الله وتأمر بطاعته ، أو وجود نفوس لوامة ، سواء فى ذات النفس البشرية أو فى المجتمع تراجع من يرتكب الإثم وتلومه ، ولكن إذا عَمَّ الفساد فى المجتمع ، ولم يصبح هناك من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، وأصبح أهل الخير فيه عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً ، جاءت الرسل لتعيد منهج الحق لينظم حياة هذا المجتمع .

وحين يأتى الرسول فهو يعلم أنه ما أُرسل إلا بعد أن عَمَّ الشر فى الكون ، وأن أهل الفساد هم الأغلبية ، وهم أصحاب النفوذ والسلطان ، وينتفعون بالفساد والانحراف المستشرى فى المجتمع . وهؤلاء إذا سمعوا

بصيحة الحق ؛ فلن يقفوا متفرجين ، بل سيحاربون كل من يحمل منهج الحق إليهم ولابد للرسول من أن يصمد أمامهم ، وأن يجاهدهم

و« جاهد » من « فاعل » ، مثل : « شارك » ، فأنت تشرك فلاناً ، ومثل : « قاتل » فأنت تقاتل فلاناً ، إذن : فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ومن اتبعوه ، وبين أئمة الكفر والفساد في المجتمع

ولابد أن يستعد الرسول والمؤمنون بمنهجه لتحمُّل الإيلاء من غير المؤمنين بالمنهج ؛ لأن الكفر منتفعون بالفساد ، ولكي يستمر هذا الانتفاع ، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق ، وأن يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التي يعطيها لباطل لهم . وينبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد ، وأنهم سيحاربونه ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : اتحد معهم ، ولكنه قال : ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ، أي اصمد أمامهم في المعركة ، وجاءت الكثير من الآيات التي يأمر فيها الله رسوله والمؤمنين بالصبر على الجهاد ، والجهاد يقتضي المواجهة ، لذلك قال سبحانه : ﴿اصْبِرُوا﴾ .

ولكن لنفرض أن عدوّي صبر أيضاً في الحرب ، إن أنا صبرت وعدوي صبر تساوت الكفتان ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ... ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران]

أي : إن واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكن صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمل ، فقف صابراً في مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك ، فمعسكر الإيمان لابد أن يواجه معسكر الكفر والنفاق ، والكافر هو الذي جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو من كفر في باطنه وبطن الإيمان في ظاهره . وهذا هو الذي يجب أن نحذر منه أشد الحذر ؛

لأننا لا نعرفه فنتقى شره مثل الكافر ، فقد يطعنًا المنافق من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون إليه ، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة .

ويوضح الحق لرسوله ﷺ : إن العداوة التى سيواجهها وهو يُبشِّر بمنهج الله ستأتيه من اثنين : من كافر أو منافق ، أى من مجاهر بعدم الإيمان ، أو ممن كفر بقلبه وتظاهر بالإيمان بلسانه . أما المنافق فإنه علو صعب ؛ لأنه يعيش فلا نأمنه ، رغم أن النفاق فى حد ذاته بالنسبة لمنهج الله هو دليل قوة هذا المنهج ؛ لأنه لا ينافق إلا القوى ، أما الضعيف فلا ينافقه أحد .

ولذلك لم يكن هناك منافقون أثناء وجوده ﷺ فى مكة قبل الهجرة ؛ لأن المسلمين كانوا فى ضعف ، وكانوا مُعذَّبين مضطهدين . ولم يكن هناك ما يغرى أحداً بنفاقهم ؛ لأنه لا توجد استفادة من هذا النفاق ، بل سيتعرض من يتعاطف معهم للتعذيب والاضطهاد . والمنافق فى إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية .

واختلف الحال بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وظهر المنافقون بعد أن أصبح للإسلام دولة وقوة . والمنافق فى هذه الحالة إنما يعلن إيمانه رَيْثما ، ليستفيد من قوة المسلمين لصالحه . إذن . فالنفاق ظاهرة مرضية فى المنافق ، ولكنها دليل قوة للمؤمن الذى ينافقه .

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قد قدَّم فى هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين . وقدَّم فى آيات أخرى المنافقين على الكفار[1] . والصدام - كما نعلم - قد حدث أولاً مع الكفار ، فهى أول الدعوة لم يوجد هذا الصنف المنافق ، بل كان هناك مؤمنون وكفار ، وجهاد الكفار جاء على مراحل ،

(١) وذلك من نحو قوله تعالى ﴿إن الله جامعُ المنافقين والكافرين فى جهنم جميعًا﴾ [النساء ١٤٠]. وكذلك قوله ﴿وعد اللهُ المنافقين والمنافقات والكفارَ نار جهنم﴾[التوبة ٦٨]

وليس على مرحلة واحدة ، وكانت أولى مراحل الجهاد هى الجهاد بالحجة ؛ لأن المؤمنين فى أول الأمر كانوا فئة ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المد الكبير من الكفار . وكان رسول الله ﷺ يعرض قضايا الإيمان بالحجة لإقناع العقل ؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنوا بمنهج الحق . فيسألهم مثلاً عمَّنْ خلق السموات والأرض ؟

وحين يفكر الكافر فى عقله لا يجد أن أحداً ادعى - أو يستطيع أن يدعى - أنه خلق السموات والأرض ، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى[1] ، لماذا ؟ لأن الإنسان فى تكوينه قد يدعى أشياء ليست له ، ولكنه لا ينفى أمراً هو صاحبه فمخترع أى شىء أو صانعه لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يحب أن تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع ؛ ولهذا فأنت لاتجد شيئاً ينتفع به فى الكون مهما كان تافهاً إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومن الذى اخترعه أو اكتشفه أو صنعه ، والمثال هو ما درسناه فى المدارس عن الذى اكتشف الكهرباء ، والذى صنع المصباح الكهربائى ، ومن الذى طوره . وكذلك اختراع الطائرة ، ومعروف لنا كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس ؛ الذى حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة ، وهكذا كانت البداية .

إذن : فكل شىء نافع فى الكون معروف من الذى اكتشفه أو صنعه أو اخترعه . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون ؟ وحين نسأل من الذى أوجد الشمس ؟ ألا يستحق خالقها أن نعرف من هو ، خصوصاً ونحن نعرف من الذى اخترع مصباح الكهرباء وأوجده فى حياتنا ؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذى ينير حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا نستحق أن

(١) ومصداقاً لقوله عز وجل ﴿ولئن سألتهم مَّنْ خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان ٢٥]

نعرف من الذى أوجد الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة ؟ هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ، ولم تطفىء مرة واحدة ، ولا احتاجت لطعمة غيار طوال هذا العمر الطويل ، ولابد أن يكون لها صانع ؛ تناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز لدى نراه سواء فى الضوء ، أو فى خصائص هذا الضوء ، أو فى دقة الصنع ؛ فهى لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ، ولابد أن يكون صانعها له من القوة ما يناسب مع عظمة هذا الخلق.

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أن يكون صادقاً ؛ فنسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد ، وإما أنه غير صادق ، فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدعى أنه هو الذى خلقها

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل القضية محسومة له سبحانه وتعالى [1] . وإلى أن يأتى من يدعى أنه خلق الشمس ، ولن يأتى ؛ فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى ، ولا يوجد هناك منازع.

ويأتى رسول يقول : إن خالق الأرض والشمس والسموات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، فلم يأت أحد ويدّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، ممّن يؤكد أن من أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود ، وهو الأحق بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة التى يدعونها

وتبقى الدعوة بالمنطق ليسألهم من الذى خلقهم ؟ مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى

---

(١) حتى أن محاولة ومحاجة إبراهيم عليه السلام للنمرود لم تكن فى خلق الشمس ، إنما كانت فى الإتيان بها من مكان غير الذى تأتى منه ، فقال تعالى . ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة ٢٥٨]

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور]

فإذا كان الجواب : لا هذا ولا هذا ، إذن فلابد أن هناك خالقاً وموجداً لنا ، فإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله ، فلا بد أن نصدقه ؛ لأنه لم يدّع أحد ولا يستطيع أن يدعي أنه خلق هذا الكون أو خلق نفسه ، تماماً كما تكون قد جلست في مكان . وبعد أن انصرفت ، وُجدت حافظة نقود ، فجاء صاحب المكان وسأل كل الذين كانوا حاضرين ، فنفوا جميعاً ملكيتهم لحافظة النقود ، عد واحداً ، حينئذ تكون حافظة النقود ملكه ؛ لأنه هو وحده الذي ادعاها ولا يوجد معارض .

وفي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان لا يجرؤ بشر أن يعارض الحق سبحانه وتعالى ؛ ويدعي أنه خلق إذن : فالقضية محسومة تماماً لله . هذا هو جهاد الحجة حيث يقتنع العقلاء بالمنطق ، أو يقتنع من يستمع إليه فيفهمه ، فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد ، يمكننا أن نتساءل : من الذي يضع المنهج للإنسان على الأرض ؟ لابد أن نُقدِّر أن من يضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده ، تماماً كما نثق أن صانع أي آلة هو الأقدر على وضع أسلوب عملها ، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها .

والمثال : أن الإنسان ما يعطي ساعة يده لمن تخصص في إصلاح الساعات ، ويستدعي المتخصص في إصلاح الثلاجة إن أصابها عطب ، ويستدعي الإنسان كل متخصص لإصلاح الآلة التي درس تفاصيلها ، وكل متخصص يعود إلى كتاب التصميم الذي وضعه مَنْ اخترع الآلة ، وبيَّن فيه ما يصلحها وما يفسدها ، ولذلك فأنت لن تستدعي نجاراً ليصلح التليفزيون

إذن : هب دام سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً فلا بد أن نتبعه ؛ لأنه هو موجد هذا الكون وموجدنا ، ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا

فإن مثل جهد الحجة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ وربما يغلظ رسول الله ﷺ عليهم ؟ إنه يغلظ لإيضاح المصير الذى ينتظرهم ، وكل كافر هو عابد للدنيا ويخاف أن تضيع منه الدنيا لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فأنذره بالآخرة ، وأنذره بالعذاب الذى ينتظره ، وقُلْ له : أنت لست خالداً فى الدنيا ، وما ينتظرك فى الآخرة هول كبير .

ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا وراءها آخرة وجنة ؛ وبذلك وجدنا المؤمن الذى يقول لرسول الله ﷺ فى الحرب دع لى يا رسول الله لأستشهد ويقول آخر : أليس بينى وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى ؟ فيقول له رسول الله ﷺ . نعم ، فيلقى الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد

هذا هو معنى الإيمان ، ولو لم يكن المؤمن واثقاً تمام الثقة أنه سيذهب إلى نعيم ليس بعده نعيم ، لما انطلق إلى المعركة طالباً الشهادة .

إذن : وهم يُقْدمون على الشهادة بهذه الشجاعة تملىء أعماقهم بالإيمان وبأحكام الله فيه ، وتدفعهم القناعة التامة بأن هناك حقه فى الآخرة إلى الاستشهاد ، وفى المقابل نعرف أن الذى ينتظر الكفار هو النار وهكذا نفهم قوله الحق : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أى : أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى ينتظرهم علَّهُمْ يفقهون والشاعر يقول

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عنك وَعيداً ... فبادِرْ إذا لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزائمه

وَمَا هُوَ إلاَّ السيفُ أو حَدُّ طَرْفِه ... يقيمُ زِيَاه أخْدَعَ كُلَّ مَائِلِ

فَهذا دَوَاءُ الدَّاءِ منْ كُلِّ جاهِلٍ ... وذَاكَ دَواءُ الدَّاءِ منْ كُلِّ عَاقِلِ [1]

---

(١) عز الدين الوعيد إنذاره فيمن يستحقونه زياه طرف السيف أخدع الأخدع عرق فى العنق فكأن عنده مائل عن اتباع الحق

فمن امن بالمنطق آمن ، ومن لا يؤمن نقول له : دع كلمة الحق تُعلَنُ على الناس جميعاً ، وأنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ، وإنْ أردتَ الحياة في كنف الأمة الإسلامية فأهلاً بك ، ولا يهم أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ لأن الحق قال :

﴿فمن شاء فَلْيُؤْمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

واعلم أنه يشترط في كل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين ، ومقتنعاً أيضاً بأنه الدين الحق.

والذي لا يؤمن ، يعيش في كنف الأمة الإسلامية وله حريته الكاملة في اتباع عقيدته ، ولكن منهج الحياة وحركتها لابد أن تسير وفقاً لمنهج الله، وما دام الإيمان هو الذي يسيطر على حركة الحياة ﴿فَمَن شاء فَلْيُؤْمِن ومن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ؛ فذلك لا يؤثر في حركة المجتمع المؤمن ؛ ما دام المجتمع كله سائراً بالمنهج ، وتسير الحياة كما أرادها الحق سبحانه وتعالى

والله هو خالق الإنسان ، وهو الذي جعله خليفة في الأرض ؛ وهو يغار على خلقه ؛ تماماً كما تأتي لشيء جميل صنعه فنان أو عامل ، وتحطم أنت هذا الشيء أمام صانعه . إن قلب الصانع - في هذه الحالة - يمتلىء بالغضب، ويسرع بعقابك.

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى إنساناً يفسد صنعته في الكون ، ويحاول أن يحطمها ، فسبحانه يغار على صنعته ؛ لأن الله خلقنا مختارين ، ولكي يكون الحساب عَدْلاً ، لابد من البلاغ أولاً ، وأن تصل الدعوة إلى آذان الناس ، فمتى وصلت الدعوة فهذا تمام لرسالة أمة محمد ﷺ ، ثم يختار الإنسان من بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن ، لذلك طلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ، وأن تكون الدعوة أولاً بالبرهان و لإقناع . فإن لم يأت البرهان بنتيجة ، وحاول أحدهم أن يقاوم

الدعوة بالسلاح فَلْيُردع بالسلاح.

لذلك يقول الحق سبحانه . ﴿واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تأخذك بهم رأفة ؛ لأن الرأفة قد تعرى بالذنب ؛ والمثال : حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يعريه ذلك ويغرى غيره على السرقة . ولكن تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة ، إنما يمثل رادعاً وحماية للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ، وأنت حين تأتى بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أى إنسان أن يفكر فى القتل ، أو أن يقتل

إذن . فنحن نلعقوبة نحمى المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم .

وبعض السطحيين يقول لك . هل مَنْ يسرق تُقطع يده ؟ نقول لهم : نعم ؛ لأننى لو قطعت يد فرد لمنعت جريمة السرقة فى المجتمع ، فليس الهدف أن أقطع يداً ولكن الهدف هو ألا يسرق أحد ، وأنت حين تأتى بالعقوبة وتتأكد من الجريمة ؛ إياك أن تأخذك الرحمة فى تنفيذ العقاب . فلو أخذتك الرحمة فى هذه اللحظة فأنت تشجع الجريمة . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى [1] :

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور]

---

(١) الجلد هو حكم من زنى وهو بكر لم يتزوج ، أما من تزوج ووطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ثم زنى فحكمه الرجم بالحجارة ، وفى هذا قال عمر بن الخطاب : إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٨٢٣) ومسلم (١٦٩١) وأما الموجب للحد هو تغييب حشفة الرجل أى رأس ذكره فى فرج محرم مشتهى بالطبع ، من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال ويشترط فيه رؤية أربعة شهود عدول بهذه الهيئة من الجماع المحرم انظر « فقه السنة » للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٠٠)

ولكن الحوار حول العقوبات[1] في الإسلام لا يتوقف . ونقول لهؤلاء : هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر إلى المجتمعات غير الدينية ، ألا توجد بها جرائم وعقوبات ؟ إن كل مجتمع إنما يحمي نفسه بتوصيف الأفعال التي تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص

إذن . فكل دولة وكل مجتمع لابد أن تكون فيه عقوبات ، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش في أمان فإذا كان حاكم أي دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى أنه جرائم ، وأن يُشرِّع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها ؛ فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدي من أن تمتد إلى مال الغير

ولذلك يجب ألا تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ؛ لأن الذي يتعب الناس في الذنب ، هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى الناس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعت العقوبة فور حدوث الجريمة ؛ لما طلب أحد الرأفة بالمجرم .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد عرفنا كيف يكون الجهاد مع الكافرين ، فماذا يكون الجهاد مع المنافقين وهم الذين يتظاهرون بالإيمان ؟

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هي جرائم الحدود ، وهي الزنى ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكر ، والمحاربة ، والردة ، والبغي وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحي الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها انظر تفصيل هذا في كتب الفقه (أبواب الحدود)

نقول : إن الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم [1] ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ، ويسألهم رسول الله ﷺ ، فينكرونه ، فيصفح عنهم ، ويوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ : اغلظ عليهم إذ ارتكبوا إثماً ، وقد وجدنا في سورة التوبة أن المنافقين يحلفون كذباً في كثير من الأمور ، فيذكر الحق سبحانه .

﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ... (٥٦) ﴾ [التوبة]

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ... (٧٤) ﴾ [التوبة]

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ... (٦٢) ﴾ [التوبة]

وفي سورة المجادلة يقول سبحانه :

﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون (١٤) ﴾

فكأنما كلما حلفوا صدّقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، ففضحهم الله بأنهم كاذبون ، وطلب من رسوله ﷺ أن يُغلظ عليهم في العقوبة . ولكن هل غلظة الرسول ﷺ معهم تعفيهم من عقاب الآخرة ؟ نقول : لا ؛ لأن الغلظة عليهم في الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، وليعلم كل منافق أنه مفضوح من الله . ولكن هذا لا يعفي من عقاب الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ والمصير هو المرجع الأخير لأي شيء ، وكل عقوبة يكون لها مظنة ألا تمتد إلى الفترة المقررة لها ، فالذي عاقب قد يعفو ، وقد يخرج الإنسان قبل انتهاء مدة العقوبة ؛ كأن يكون هناك إفراج صحي ، أو بقضاء ثلاثة أرباع

(١) قال الحسن البصري في معنى هذه الآية بالنسبة للمنافقين : « جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان ، وكانوا أكثر من يصيب الحدود » . وقد رد أبو بكر بن العربي على هذا « بأن العاصي ليس منافقاً ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كاملاً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين » انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١٢٩)

المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفى هذا ترهيب منها ؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف تخشى الإقدام على الجريمة .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى عن الحلف والكذب الذى كان يفعله المنافقون ؛ فيقول سبحانه:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

وفى هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حقيقة الحلف بالكذب للمنافقين ؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عرضة لأيمانهم ؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلامٌ مُدَّعَى

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها فى غزوة تبوك التى حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة فى فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد فى هذه الفترة يفضل الجلوس فى الأحياف [1] ، أى الحدائق

(١) الأحياف فى اللغة : أماكن وسط بين مجرى السيل فى الجبل ، وبين صخوره ، تنبت فيها الحشائش . انظر لسان العرب (مادة : ح ى ف)

الصغيرة ، ويجلسون تحت الحيل والشجر فى جو رطب ولا يرغبون فى القيام من الظل

وعندما دعا رسول الله للجهاد فى سبيل الله ، والذهاب إلى قتال الروم ، تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد ؛ فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد . والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدقاً فنحن شرٌّ من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صدق رسول الله ﷺ وأنتم شر من الحمير . وأنت يا جلاس شر من الحمار . وهنا قام عدد من المنافقين ليفتكوا بعامر بن قيس الأنصارى ؛ لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله ﷺ ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث . وتركه رسول الله ﷺ بعد أن حلف بالله . وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء ، وقال اللهم إنى أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد ﷺ تصديق الصدق وتكذيب الكاذب فقال رسول الله ﷺ « آمين »[1] ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحى يقول الحق جل جلاله. ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾.

وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب ، فيما رواه عامر بن قيس وأنكره الجلاس

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله ﷺ ؛ فقال سبحانه ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ ذلك أن الله تبارك وتعالى

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١ - ٣٧٣)

أراد أن يُعلم المنافقين أن سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط فى حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد- عليه الصلاة والسلام - إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر ، وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تآمروا على حياة النبى ﷺ واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة ، والعقبة هذه هى مجموعة من الصخور العالية التى تعترض الطريق ، فيتحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أماكن منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون [1] أن يدفعوا رسول الله ﷺ من أعلى الصخور ، فيسقط فى الوادى ، ولكن حذيفة بن اليمان الذى كان يسير خلف ناقة رسول الله ﷺ تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم ينالوا ما يريدون ، مثلما لم ينالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدون العُدَّة ليجعلوا عبد الله بن أبىّ ملكاً عليهم ، ولكن مجىء رسول الله ﷺ لم يُمكنهم من ذلك

وقيل : إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس ؛ لأنه أبلغ رسول الله ﷺ ما قاله الجلاس بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا .

---

(١) كانوا اثنى عشر رجلاً مأئوا محاربين لله ورسوله عن حذيفة بن اليمان قال كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوقه حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكباً ، قد اعترضوه فيها ، فأتيت رسول الله ﷺ فهم ، فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لى رسول الله ﷺ هل عرفتم القوم ؟ قلنا لا يا رسول الله ، كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب ، قال ، هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا لا قال : أرادوا أن يسيروا رسول الله ﷺ فى العقبة ، فيلقوه منها قلنا ، يا رسول الله أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال لا ، أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يفتنهم ، ثم قال ، اللهم ارمهم بالدبيلة قلت يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك ، أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠ ، ٢٦١) وفيه عنعنة ابن إسحاق

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ و ﴿ نقموا ﴾ تعني : كرهوا ، ولعني - كما نعلم - أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف في حكمهم ؛ لأن الغنى والأمن الذي أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية بل كان من الطبيعي أن يولد حباً وتفانياً في الإيمان.

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد ؟ وماذا تكرهون فيه ؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى ؟

وقبل أن يأتي رسول الله ﷺ ، كان الذين كرهوا مجيء الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما ماقفوا ودخلوا في الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأغناهم الله [1] ؛ بل إن الحلاس بن سويد لما قُتل له غلام دفع له رسول الله ﷺ اثني عشر ألف درهم دية إذن فقد جاء على يد الرسول ﷺ الغنى للجميع ، فهل هذ أمر تكرهونه ؟ طبعاً لا ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم في الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناكم بمجيء رسوله ؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله ﷺ ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا في الإيمان به ونصرته.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من فضله ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الله ورسوله ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال « الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : ﴿ من فضله ﴾ لأن الله لا يُثنّى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله

ولذلك عندما سمع رسول الله ﷺ خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد نجا ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله ﷺ . بئس خطيب القوم أنت ؛ لأن الخطيب جمع جَمْعَ ثنية بين الله ورسوله.

---

(١) قال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي ﷺ في ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ؛ فلما قدم عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم ؛ ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣١٣٢) .

وهنا توقف الخطيب وقال. فماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ قل ومَنْ يعْصِ الله ورسوله فقد هدك [1]، ولا تقل عصاهما ، لا تجمع مع الله أحداً ولا تُثنِّ مع الله أحداً ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يَقُلْ « أغناهم الله ورسوله من فضلهم » ، ولكنه قال : ﴿ من فضله ﴾ لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله ﷺ فضل ؛ فهو من فضل الله

وعلى أية حال فالله لا يُثنّى معه أحد ؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم:

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (٦٢) ﴾ [التوبة]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد في الرضا ؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله ﷺ يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثنّى معه أحد.

وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما في قلوبهم ؛ لم تتخلّ رحمته عنهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾ ، وفتْحُ باب التوبة رحمة حركة الحياة كلها ؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره لعذاب مهما فعل ، فلا بد أن يستشري في الذنب ، ويزداد في الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أي إنسان يخطىء أن باب التوبة مفتوح ؛ فهو لا يستشري في الإثم ، ثم إن الذي يعاني من الشرور والآثام جميعة هو المجتمع ككل ، فإذا وُجد لص خطير مثلاً ؛ فالذي يعاني من سرقاته هو المجتمع وإذا وُجد قاتل محترف فالذي يعاني من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع.

---

(١) عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال رسول الله ﷺ « بئس الخطيب أنت قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » أخرجه مسلم في صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٥٦ ، ٣٧٩) وأبو داود في سننه (١٠٩٩)

إذن: ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع ؛ لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء في إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، هدله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق ، وبيّن للرسول ﷺ وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يحفرونها ؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لصادقٌ فيما قاله عني وتاب الجلاس وحسُن إسلامه[1] .

أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه :

﴿ وإن يتولَّوْا يُعذِّبهمُ اللهُ عذاباً أليماً في الدُّنيا والآخرةِ وما لهُمْ في الأرْضِ من وَلِيٍّ ولا نصيرٍ ﴾ . إذن . فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم ، لا في الآخرة فقط ، ولكن في الدنيا والآخرة . وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة في الدرك الأسفل من النار .

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وما لهُمْ في الأرْضِ من وَلِيٍّ ولا نَصيرٍ ﴾ قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب في الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض في الدنيا ؛ وأرض في الآخرة هي أرض المعاد[2] ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يومَ تُبدَّلُ الأرْضُ غيرَ الأرْضِ والسَّمواتُ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

إذن . فكلمة ﴿ الأرْضِ ﴾ تعطينا صورتين في الدنيا وفي الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ يوضح لنا أن الوليّ هو القريب منك الذي تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد

---

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (ترجمة ١١٧٢)

(٢) قال أبو يحيى الأنصاري في فتح الرحمن (ص١٧٠) : لما كانوا لا يعتقدون الروحانية ، ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولي والنصير مقصوراً على الدنيا ، فعبر عنها في الأرض أو أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة .

إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك، أما النصير فهو من تطلب منه النصرة ـ وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن: فلا الوليّ القريب منك ، ولا الغريب الذى قد تفزع إليه ينصرك يستطيعان أن يفعلا لك شيئاً ، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين ؛ فيقول:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ومِنْهُم﴾ أى من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم فى هذه السورة الكريمة، فقال ﴿ومِنْهُم﴾ ، و ﴿وَمِنْهُم﴾ و ﴿ومِنْهُم﴾ ، واختلفت روايات المفسرين و لرواة فى مدلول قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ اللَّهَ﴾ فقال بعضهم إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون . إنه مُعَتِّب بن قشير ، وقال رأى ثالث: إنه الجد بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبى بلتعة . كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة [1] ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

ولم يقل الحق : « فلما آتيته من فضلت بخل به » بحيث ينطبق على حالة واحده ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٤) هذه الروايات ، ورجح أنها نزلت فى ثلاثة من المنافقين بدل أبى الحارث ، زيد بن قيس ، ومعتب بن قشير . أما كونه ثعلبة بن حاطب فقد رفضه القرطبى ؛ لأنه شهد بدراً ، أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقد فرق بين الذى شهد بدراً وغيره . انظر الإصابه فى تمييز الصحابة (ترجمة ٩٢٤)

إذن: فهناك جمع والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة في أن الآية الكريمة نزلت في أفراد متعددين ، وسبحانه يقول :﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عاهد الله﴾ فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله ؟ نقول : لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : أعاهد الله على كذا وكذا ؛ تماماً كما يأتي الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التوجد في الصف الأول للمصلين ، فهل معه لفاق من الصلاة ظاهراً ؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه

وقصة الآية [1] : أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال . إني فقير مملق أي شديد الفقر - فادع لي الله يا رسول الله أن يوسع عليّ دنياي . وفطنة النبوة قال ﷺ : إن قليلاً تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاوده وقال ادع الله لي أن يوسّع عليّ . فدعا له فوسّع الله عليه

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق ؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه ؛ فكيف يجيب الله رسوله في طلب منافق مثله ؟

ونقول : ربما كان ذلك ؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أجيب ؟

فلما دعا رسول الله ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعْلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله ؛ وإن دعا لأي أحد يُجِبْه الله ، فتكون هذه للنبي ﷺ.

فلما دعا رسول الله لثعلبة ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبي بلتعة ؛ استجاب الله لدعاء رسوله ؛ وأعطى مَنْ سأل الدعاء مالاً وفيراً ، وقالوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من الأغنام قد تناسلت

(١) سبق تخريج هذه القصة عند تفسير الآية ٥٣ من سورة التوبة

حتى ضاقت بها شعاب المدينة ؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامتلأت ، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة . وأصبح لا يذهب للصلاة إلا في يوم الجمعة ؛ فلما كثرت كثرة فاحشة ؛ شغلته أيضاً عن صلاة الجمعة . وفي ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له . إذن : فكل الأمر إنما جاء تأييداً لنطق الرسول معهم ؛ حتى يُسعفهم في أنهم ناقشوا في الإسلام

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله ﷺ ، فقالوا . إنه في الشعاب شغله ماله . فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة [1] ؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فذهب عامل الصدقة إليه، فلما قال له: هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك . قال : أهي أخت الجزية [2] ؟ وذكّره عامل الصدقة : أنت الذي عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فما لك لا توفي بالعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة : اذهب حتى أرى رأيي

إذن : هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه في قوله . « قليل تؤدي شكره ، خير من

(١) وذلك حينما نزلت آية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة ١٠٣] فثعلبة مما كان قد عاهد الله لئن رزقه وأعطاه ليتصدقن ، ولم تكن محددة عندما نزلت آية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [التوبة ١٠٣] وفرضت الزكاة وفرض إنفاذ ما عاهد عليه الله . وهذا نظير ما حكاه رب العزة عن بني إسرائيل ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة ٢٤٦]

(٢) الجزية - هي مبلغ من المال يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، وقد فرضها الإسلام عليهم في مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن المسلمين وحمايتهم في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها ، وهي تجب على من كان ذكراً ، مكلفاً ، حراً. ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب. انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧)

كثير لا تطيقه » ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله برد ثعلبة قال ﷺ. ويح ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرآناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ ، وعرض عليه الزكاة ، فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أراد ﷺ بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله في غنى عن مالك يا ثعلبة

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبي بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفي أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبي بكر وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك في عهد عثمان.

﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، وكلمة ﴿ لَئِنْ ﴾ قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال . أقسم بالله إن آتاني الله مالاً لأفعلنَّ كذا . وقد فهمنا أنه قَسَم من وجود اللام في جواب القَسَم ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ و«الصدقة» هي الصدقة الواجبة أي الزكاة ، و﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: نزيد في التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح .

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولله عطاءان : عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . و«عطاء الأسباب» يتمثل في أن يَجدَّ الإنسان في أي عمل من الأعمال ؛ فيعطيه الله ثمرة عمله ؛ مؤمناً كان أو كافراً ؛ طائعاً أو عاصياً ؛ لأن الإنسان قد أخذ

الأسباب وأتقنها ، ولذلك تجد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون في سعة ؛ لأنهم يحسنون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذي استدعاهم للوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضنّ عليهم ؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصي ، والمطر ينزل على الأرض وكذلك كل شيء في الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب.

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل في عطاء الأسباب ، كمن يسير في طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يأتي عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول ويبارك له الحق سبحانه في بيع محصوله ، ويبارك له في رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله وهذا كله اسمه عطاء الفضل وعطاء الأسباب عامٌّ للناس جميعاً . أما عطاء الفضل فهو خاص بأولياء الله الذين أخلصوا عملهم لله طاعة وامتثالاً

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فلمّا آتاهم مّن فضله ﴾ دليل على أن الورق الذي جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله . فالتكاثر الذي حدث في أغنام تعبة لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ، بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتي بأكثر من وليد ، والعشب الذي ترعاه يُدِرّ كمية كبيرة من اللبن .

﴿ فلمّا آتاهم مّن فضله بخلوا به ﴾ ما هو البخل ؟ هناك في اللغة أسماء للامتناع عن العطاء ، فهناك بُخْل ، وشُح ، وكزازة ، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شيء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف ؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطي إلا من سأله ؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطي كل

من سأله ، بل يعطي من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول : ولدي مريض ، أو احترق بيتي ، فالسائل هنا لا يسأل فقط ، ولكنه يجيء بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطي بغير سؤال .

هي إذن ثلاث مراحل للعطاء ؛ واحد يعطي من يراه هكذا ؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، يسير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هي يد الله عند خلق الله . بل إن هناك أناساً يحاسبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة ؛ كالرجل الذي ذهب فطرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئاً من مال وأعطاه للسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذي أعطى مالاً رجع يبكي فقالت له : وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه ؟ فقال : يبكيني أنني تركته ليسألني ، أي . أنه يبكي لأنه لم يملك فطنةً تجعله يستشفُّ مسائل الناس من حوله ليعطي لمحتاجين بغير سؤال .

إذن . فواحد يعطي عن مسألة ؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطي من غير مسألة ، بل يعطي عن فضل عنده ، أي : يملك الكثير ويعطي منه وثالث يعطي نصف ما عنده ؛ يقاسمه فيما يملك . أو يعطي أكثر ما عنده حسب ما ينقدح في ذهنه من حاجة الإنسان المعطى .

هي إذن ثلاث مراحل . رجل يعطي من غير سؤال ، ورجل يعطي بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة ، ورجل يعطي بمجرد السؤال.

فمن هو البخيل ؟

أفظع درجة للبخل ؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبَّبة بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ واحد من هؤلاء لم

يحل فقط ، بل انصرف عن الذى يسأله ، مثل الذى انصرف عن العامل الذى جاء يأخذ الصدقة ، وقد كان عليه - مثلاً - أن يُجْلس العامل ، ويقدم له التحية الواجبة ؛ ثم يقول له سنرى رأينا ، ولكنه تولَّى وأعرض عنه.

وتأتى الحق هنا بعقاب من يسلك مثل هذا السلوك فيقول:

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقوله سبحانه. ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أى جعل العاقبة لهذا التصرف ؛ أن جعل فى قلوبهم النفاق ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أى إلى يوم القيامة وما دام الله قد قال هذ فمعناه أن الذى عمل مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها وبخل وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أخلفوا لله ما وعدوه فقال سبحانه: ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : ﴿ كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً فى أنه قال: أمى أخت الجزية ؟ مع أنه يعرف أن الزكاة عن المال هى ركن من أركان الإسلام.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذى لم يكن معروفاً قبل ذلك ،

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ فيه همزة الاستفهام ؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾ [الفيل]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب له عدة صور : الصورة الأولى : أن يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا الخبر » والصورة الثانية . أن لا يخبر المتكلم مخاطبه بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقول الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك ؟ وكان في استطاعته أن يقول « أنا أحسنت إليك » ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطي للخبر قوة ، فجعل الكلام من المستفهَم منه ، وكأنه عرض الأمر متعرض السؤال في معرض النفي ، ثقة في أن المخاطَب لن يجد إلا جواباً واحداً هو : نعم أحسنت إليّ

إذن: فالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفي ، أو خبراً معه النفي ، أو خبراً معه الاستفهام . وأقوى أنواع الإخبار . الخبر الموجود معه النفي ، والموجود مع النفي الاستفهام ؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً . ولكن الاستفهام يقتضي جواباً من المخاطَب ، ولا يجيب المخاطَب إلا بما كان في نفس المتكلم ؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطَب قد ينكر فلن يسأله. أو يقول لإنسان أنا راضي ذمتك ، وهذا القول يعني أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدبر الكلام في عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما هو السر ؟ ومن هي النجوى ؟ السر : هو ما تكتمه في نفسك ولا تطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسِرُّ به للغير ، لأن هذه هي النجوى ، وأصل النجوى البُعْد

ويقال . فلان بنجوة عن كذا ، أى بعيد عن كذا . وأصل النجوى أيضاً المكان المرتفع فى الجبل ، فكأن المرتفع بالجبل بعد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب إنسان أن يكلم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ؛ فهو يستأذنه فى الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذى يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر [1] ، ولذلك سموها المناجاة ؛ وهى كلام لا يسمعه القريب ؛ لأنك خفضت صوتك خَفْضاً يخفى على القريب ، فكأنه صار بعيداً

إذن ، فالسر هو ما احتفظت به فى نفسك ، والنجوى . هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك.

والذين منعوا الصدقة ، لابد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكتموا فى هذا الأمر منع الصدقة بعد أن صاروا أغنياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهروا فى إسلامهم مظهراً يصوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً فى الصفوف الأولى للصلاة كى يستروا نفاقهم.

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسرّوا فى نفوسهم كلاماً ؛ فهذا الإسرار فى النفس حين يُخبر به الله ؛ هو هتك لحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله ﷺ بما دار فى هذا الإسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضى . وذلك فى الأمور التى لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأها فى كتاب لأنه أمّى ، فأخبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه.

---

(١) وقد ورد النهى عن مناجاة اثنين دون الثالث فعن عبد الله بن مسعود قال قال ﷺ « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) وأحمد فى مسنده (١/ ٤٣) والترمذى فى سننه (٢٨٢٥) وقال حديث صحيح

إذن من أين جاء بذلك ؟ أعلمه به الحق سبحانه الذى يعلم خُبْأة [1] السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل ؛ علم ﷺ الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ ملكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث . وهذا هو هَتْكُ حجاب لزمن المستقبل ؛ وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان ﷺ يخبرهم عن شىء فى نفوسهم ، فقد أوحى له الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء لما قاله فى نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن الذى هتك الحجاب لرسول الله ﷺ ؟

إن الذى هتك الحجاب لرسول الله هو من يعلم السرّ وأخفى ؛ فلا توجد حجب عائبه عن الله ؛ لأن حجب الغيب إنما تكون على البشر ؛ حجب ماض ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ى ، أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل علم الله سرّهم ونجواهم ؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب ؛ يعلم عيب هذا ، وعيب هذا ، وعيب هذا ، وعيب هذا ، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد

إذن ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ تعنى أنه يعلم حتى ما حاولتَ كتمه وستره ، فقد قال سبحانه :

﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ... ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان]

---

(١) الخبأة و الخبء : كل شىء خاف مستور ويقول تعالى فى سورة النمل : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النمل ٢٥] وقال ابن أسلم : هو ما جعل فيهما من الأرزاق ، المطر من السماء ، والنبات من الأرض (انظر ابن كثير ٣/ ٣٦٢)

إذن: فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شيء.

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين.. فقال جل جلاله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

واللمز معناه العيب، ولكن بطريق خفي، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك إذن فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون في المطوِّعين جمع الزكاة من المؤمنين، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول، ومن يعيب بالفعل، ومن يعيب بالإشارة، والمطوِّعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله

فالله فرض مثلاً خمس صلوات، وهناك من يصلي خمس صلوات أخرى تطوعاً، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً، وفرض الحق صيام شهر رمضان، وهناك من يصوم فوق ذلك كل اثنين وخميس. وهذا ما نسميه دخول المؤمن في مقام الإحسان؛ بأن تتقرب[1] إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك، من جنس ما فرضه الله.

---

(١) عن أبي هريرة قال قال ﷺ «إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦)

وأنت إن أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن فرائض الإسلام ثم قال : لا أزيد ولا أنقص ، فقال لرسول الكريم : « أفلح إن صدق »[1].

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرض يكون لها ملحظان .

الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ؛ لأنه كَلَّفَ دون ما يستحق

والملحظ الثاني هو أن عمل الطاعة قد خفف على المؤمن فاستراح بها ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة « أرحنا بها يا بلال »[2].

إذن : فالمطوِّع هو الذي يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله ؛ وهؤلاء هم المحسنون ؛ الذين قال الحق عنهم في سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

فالمنهج لا يلزمنا بأن ننام قليلاً من الليل ونقضي بقيته في الصلاة ، ولم يلزمنا أحد بالاستغفار في الأسحار[3] ولم يقل الله سبحانه في هذه الآية إن في المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطي بأكثر مما فُرض. وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلمز ؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر ؟ ولكنه اختلال موازين المنافقين في

---

(١) عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا ؛ فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ « خمس صلوات في اليوم والليلة » حتى ذكر صيام رمضان والزكاة قال طلحة . فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص قال رسول الله ﷺ . « أفلح إن صدق » . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦) ومسلم (١١)

(٢) سبق تخريجه

(٣) الأسحار جمع سحر وهو آخر الليل قبيل الصبح

الحكم على الأشياء لذلك اعتبروا الخمسة نقيصة ، تماماً كالذي يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه « إبه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله في المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَفَنِيَ ، بينما تصدق هو به فأبقاه

وقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك في مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه في ماله .

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار [1] : أقاسمك مالي قال بارك الله لك في مالك ، دُلّني على السوق وذهب إلى السوق . وبارك الله له في تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقى لأهلي أربعة ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت ». وحينما مات عبد الرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف في تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « تماضر » بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أي : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً . وكان عبد الرحمن لا يتاجر إلا في ماله

---

(١) أخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجي الأنصاري انظر سيرة النبي لابن هشام (٢/ ١٢٥)

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا : ما تصدق عبد الرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده ؟ وجاء عاصم بن عدى ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بماله حملٌ من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد بتُّ ليلتى أعمل ، وأخذت أجرى صاعين من التمر ، احتفظت لأهلى بصاع وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غنى عن صاعك يا أبا عقيل

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدىّ قالوا يرائى بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غنى عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى لكثير ، وسخروا ممن أعطى لقليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم ؛ لأن كلاً منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ، قلَّ أو كثُر [1] .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيىء الذى تمثل فى مقابلة السلوك الإيمانى بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً . والسخرية هى الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوى للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

(١) عن أبى ذر قال قال لى النبى ﷺ « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٧٣)

فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء ؟

هناك جزاء من الله . وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذى يملكونه ؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطيَ صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم فبدا أضافنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذى سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

وقلنا من قبل : إن الذى يخطىء فى حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذى يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذى ينتقم ويرد على من أخطأ فى حقه ، إنما يأخذ على قدر قوته ، وأما الذى يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذى وقع الاعتداء عليه ، لأن الحق سبحانه وتعالى رب لاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته

ولكن خير من ذلك أن تحسن أن الذى أساء إليك فى حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك ؟ إن قلبك يكون مع الذى اعتدى عليه وأسيء إليه فتحاول أن ترضيه ، وتأتى إليه بهديه أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل . من آداب دينك - الإسلام - أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك ؛ لأنه

يقدم معروفاً دون أن يقصد ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمت فعل البشر ، فحين يقول سبحانه : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وحين يقول : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر.

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتي لك بزهرة ، فيسقط في الحفرة وتتكسر عظامه.

إذن : فأنت قد كدت له كيداً خفياً . والكيد والمكر لا يدلان على القوة ؛ إنما يدلان على الضعف ؛ لأن الشجاع القوي هو الذي يجاهر بعدائه ؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذي يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوي لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسأتي بك عندما أريد ، لا يوجد مكان تهرب فيه مني ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضي عليه تماماً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر.

ولذلك قال الشاعر:

وَصَعِيفَةٌ فإذَا أصَابَتْ فُرْصة ... قتلتْ كذلكَ فُرْصَةُ الضُّعفَاءِ

أما القوى فإنه يقدر ويعفو ؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء.

والأصل في المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدورة ؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التي تراها من أي فرع نبتت ، فيلتبس عليك الأمر ، كذلك المكر يختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً ؛ لأن مكرك مفضوح عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً عما أعدَّه الله لك.

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ في الأمور العلمية في المعارك ، ونصره أيضاً في كل أمر مكروا فيه وبيَّتوه له . وعلى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله ﷺ ليقتلوه في ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تَخْشَ مكرهم ، فخرج ﷺ ليجدهم نياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج ﷺ من وسطهم ويأخذ التراب ، ويلقيه عليهم وهو يقول: «شاهت الوجوه»[1]

وعندما يبتعد ﷺ عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أفلت منهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيْل من رسول الله ﷺ ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز

---

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا في حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد في مسنده (١/ ٣٦٨) ، وكذلك في غزوة حنين في صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد في مسنده (١/ ٢٨٩) والدارمي في سننه (٢/ ٢١٩) من حديث أبي عبد الرحمن الفهري

في فعله أكثر من العيب في غيره ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب ولذلك قال الحق سبحانه. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التميُّز في فعل الله عن فعل البشر، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلقه جميعاً، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم.

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً، وهناك عذاب عظيم، وعذاب مهين، وكلها صفات للعذاب، فالعذاب هو الإيلام، ولكن هناك من يصرعه الألم فيصرخ وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ، وفي هذه الحالة يكون عذابه مهيناً؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم؛ فيُهَانُ في كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً.

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً، وهناك عذاب عظيم في الإيلام وعظيم في الإهانة. والعذاب العظيم في الإيلام؛ أي مبالغ فيه من ناحية الألم والعذاب العظيم في الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة والعذاب العظيم في الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن، ولذلك يقال عنه «عذاب مقيم» أي يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين. ومع أن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد]

أي بمجرد نظر رسول الله إليهم، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة « منافق » وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد]

وبمجرد أن ينطقوا بعرفهم ﷺ من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر [١] ، بدون انقباض عن أحد ، حتى يتجلى نوره على الجميع ، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم .

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، كان سيُتوَّج ملكاً على المدينة [٢] . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج ؛ فوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله ﷺ فقد ضاع منه الملك . وكان لعبد الله بن أبيّ ولد أسلم وحَسُنَ إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ . وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ حين علم أنه ﷺ سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه قال في غزوه من الغزوات [٣] . ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ..﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

وكان ابن أبيّ يعني بـ « الأعز » المنافقين في المدينة ؛ وبـ « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدَّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يحب هذا ، حتى إنه أوصى أصحابه فقال « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث . أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩٦) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٢) أورد ابن إسحاق في السيرة أن قوم عبد الله بن أبي كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوِّجوه ثم يعدكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله ورهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلب ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مضمراً على النفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

(٣) هي غزوة بني المصطلق ، وقد كانت في شهر شعبان سنة ٦ هجرية . انظر سيرة النبي لابن هشام (٣/ ٣٣١)

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذى سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة .

ولما علم عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أن رسول الله ﷺ سيأمر بقتل والده عبد الله بن أبيّ ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وقال . يا رسول الله إن كنت ولابد آمراً بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ لأنى أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً .[1]

وهكذا نرى قوة وصدق لإيمان ، وأراد رسول الله ﷺ أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك[2] قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبى ، أى : اطلب له من الله المغفرة ؛ ولأنه ﷺ يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين ؛ لذلك طلب المغفرة لعبد الله بن أبيّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله مؤمناً بكافر فأدخل النار . فقال ﷺ . « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » انظر تفسير ابن كثير (٤ ، ٣٧٢)

(٢) وذلك عندما توفى عبد الله بن أبيّ ، وأراد ابنه من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه ، فاعترض عمر ابن الخطاب ، فأعطاه قميصه ليكفنه فيه وصلى عليه انظر الحديث لأبى بعد فى البخارى (٤٦٧٠) ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر

ووقف العلماء في هذه الآية عند شيء اسمه مفهوم المخالفة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستغفار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله ﷺ الذي أرسلَ رحمة للعالمين ؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُددت بسبعين مره فلأزيد على السبعين قليلاً[1] وبذلك علّم الرسول الكريم جانب الرحمة ، وجانب الإكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبي الذي أسلم وحَسُنَ إسلامه.

وكانت السبعة دائماً هي نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتي عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل في العدد هو مكررات الواحد ، أي أن الواحد أصل العدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركنا الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هي : اثنان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هي : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمفرد والمثنى والجمع.

ولذلك كانوا إذا أرادوا الزيادة على سبعة فلابد أن يأتوا بحرف العطف. ونجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف]

ولم يقل : ثامنهم كلبهم ، بل جاء بواو العطف ؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر[2]

---

(١) قال ﷺ «إنما خيّرني الله تعالى فقال ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ وسأزيد على سبعين» أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٧٠) ومسلم في صحيحه (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر.

(٢) انظر تفسير القرطبي (٥/٤١١٣) في تفصيل هذه المسألة ، بين من قال إن نهاية العدد عند العرب هو العدد ٧ ومنهم من قال إن هذا تحكم لا دليل عليه. ومنهم من سمى الواو بين السبعة والثمانية واو الثمانية

وحين سمع رسول الله ﷺ « السبعين » ؛ قال . نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، الذى طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا: كيف يغيب عن رسول الله ﷺ وهو الذى يقول عن نفسه « أنا أفصح العرب بيد أنّى من قريش»[1] ، أن عدد السبعين يُقصد به لكثرة مهما بلغت ، والشاعر القديم يقول :

* أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة *

أى. افعلى ما تشائين

فكأن الحق سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ شاء أن يأتى بمضاعفات العدد النهائية وهى السبعون ليحسم الأمر.

وجاء قول الحق سبحانه ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . (٦) ﴾ [المنافقون]

أى مهما استغفرت بأى عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم.

ونقول إن الأمر هنا له شقان ؛ الشق الأول: أن يغفر الله. والشق الثانى: هو معاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين. وفى استغفار رسول الله ﷺ إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد معاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين ؛ لأنه ﷺ يعلم أن استغفاره من أجل منافق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. ولكن ألا توجد دائية بلا أب؟

---

(١) قال السيوطى فى « اللآلئ المصنوعة » « معناه صحيح . ولكن لا أصل له ، كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وأورده الصحاب لغريب ، ولا يعرف له إسناد » انظر كشف الخفاء (١/ ٢٣٢) والأسرار المرفوعة (ص ٧٠ ، ٧١)

نقول : إن التاريخ يقول إن عبد الله بن أبيّ نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

وجزاء العمل يُعطى للبعض في الدنيا ، ويُعْطى للبعض في الآخرة ؛ مصداقاً بقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

[الشورى]

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن أبا لهب يُخفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين » ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ [المسد]

ولماذا يُخفَّف العذاب عن أبي لهب يوم الاثنين ؟ لأن هذا اليوم هو الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وقد سُرّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية التي بشّرته ميلاد الرسول ؛ ومن هنا يُخفَّف العذابُ عن أبي لهب يوم الاثنين جزاء عمله.

كما أن عبد الله بن أبيّ كان له موقف يحسب له في واقعة الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة ، وصدهم الكفار عن بيت الله الحرام ، وانتهت بصلح الحديبية وهي أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله ﷺ وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما في يوم الحديبية من عطاءات الله ؛ من اعتراف كفار قريش بمحمد وبالمسلمين حين وقعوا معاهده بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وتفرغ نبيّ الكريم للدعوة في الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد وتم فتح مكة.

نعود إلى قصة عبد الله بن أبيّ يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن في نفسه شيئاً من رسول الله ﷺ ؛ لأن مجيء الرسول ﷺ مع تتويج عبد الله بن أبيّ ملكاً على المدينة وكانو يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً ، فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة في نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكننا نسمح لعبد الله بن أبيّ ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبد الله بن أبيّ وقال : إن لي في رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله ﷺ . وهذا موقف يُحمد له .

كذلك كان له موقف آخر في غزوة بدر ، حينما أسر العباس عم رسول الله ﷺ . وكان العباس طويل القامة وثيابه تمزقت في المعركة ، فلم يجدوا طويلاً مثله إلا عبد الله بن أبيّ ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم ينسَ رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله ؛ لأن هناك محصاب للذنب ، فمن أذنب عليه أن يأتيك أولاً يا رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، فسبحانه القائل .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء]

فالذي يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهم لا يستغفرون ، وهكذا نعلم أن عبد الله بن أبيّ لم يعطِ إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن

يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وحين ينفى الحق سبحانه وتعالى الهداية عن إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق الله لم يَهْدِنى فماذا أفعل ؟ ويُحمِّل المسألة كلها لله . بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِكَ ؟ لأنك فسقت .

إذن ، فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أحدثت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ، ليست هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر ، فمنهج الله الذى يُبلِّغ للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التى يعطيها الحق لمن دخل فى رحاب الإيمان وآمن وحَسُنَ عمله ، وتتمثل فى قوله الحق .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

إذن ، فكل مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفى المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ ﴾ [الأحقاف]

وكذلك قوله سبحانه ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة]

وأيضاً قوله الكريم ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون ؛ لأن الله لم يَهْدِهم ؛ لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

واقرأ إن شئت قول الله عز وجل :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[فصلت]

فمادا صنعوا في هدايته لهم :﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ، أى : أن الحق سبحانه بيَّن لثمود طريق الخير ، ولكنهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فيقول :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والفرح هو السرور من فعل تشتهيه النفس مه والمخلَّفون هم الذين أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله ﷺ في المدينة وذهب إلى الجهاد بعد أن جاءوه بالمعاذير الكاذبة التي قالوها ، وقد تركهم رسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

ومن لا يريد أن يجاهد في سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضدك وليس معك . وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة ويبحث عن معارة أو حجر يحتمي خلفه إذن : فهو ليس معك ولكنه ضدك ؛ لأنه لن يقاتل معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفي نفس الوقت هو يضر بالمسلمين ، ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة

ويُبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أذن لهؤلاء بعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب ؛ فجاء قوله ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ والمقعد هو مكان القعود . والقعود رمز للبقاء في أي مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان إلى مكان آخر ، والذين غزوا مع رسول الله ﷺ قاموا واستعدوا للقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا ولم يقوموا رغبة في البقاء في أماكنهم.

ويقول تعالى : ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وحين نسمع كلمة ﴿خِلَافَ﴾ نعرف أن مصدرها خالف خلافاً ؛ ومخالفة ؛ كما تقول : قتل قتالاً ومقاتلة . وهي إما أن تكون مخالفة في الرأي ، كأن تقول : فلان في خلاف مع فلان ، أي : أن لكل منهما رأياً وإما أن تكون في السير ، كأن تقوم أنت لتغادر المكان ؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ، أو تقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشي.

والخلاف من ناحية الرأي هو عملية قلبية ، والخلاف من ناحية الحركة يشترك فيها القالب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله ﷺ والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى في نفوسهم وارتاحوا لها . وبذلك خالفوا شرط الإيمان ؛ لأن الذين يحق لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة]

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة]

أى : أوضحت لهم أمك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال [1]. وقد بيّن لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة]

إذن : فهؤلاء الذين تخلفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع ؛ لأنهم حُرِموا ثواب الجهاد فى سبيل الله [2]. أما الذين يفرحون بالتخلف عن الجهاد فهم منافقون

وقوله سبحانه : ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نجد فيه أيضاً أن كلمة ﴿خِلَافَ﴾ تستعمل أيضاً بمعنى «بعد»، أى بعد رسول الله ، فما أن ذهب رسول الله ﷺ للغزوة قعدوا هم بعده ولم يذهبوا وجلسوا مع الضعيف و المريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجد رسول الله ﷺ لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم مَنْ تخلفوا . وبيّن الحق سبحانه سبب تخلف المنافقين فيقول . ﴿ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يُثبِّطوا المؤمنين ويُكرِّهوهم فى القتال فى سبيل الله ﴿ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزى ، بل أخذوا فى تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه الغزوة «غزوة تبوك» فى أيام الحر وكانت المدينة تمتلىء بظلال البساتين وثمارها ، بينما الطريق إلى

---

(١) سيأتى سبب نزول هذه الآيات عند تفسير الآيتين ٩١ ، ٩٢ من سورة التوبة

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ . « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم فى الأجر حبسهم المرض » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩١١) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٠٠) وابن ماجه فى سننه (٢٧٦٥)

الحدود مع الروم طويلة . إذن فهى عروة كلها مشقة [1]

وقال المنافقون للمؤمنين ﴿ لا تنفروا ﴾ ، والنفور هو كراهية الوجود لشيء ما . ويقال فلان نفر من فلان ، أى : يكره وجوده معه فى مكان واحد ويقال : فلان بينه وبين فلان نفور ، أى يكرهان وجودهما فى مكان واحد والذى يخرج للحرب كأنه نفر من المكان الذى يجلس فيه داعماً إلى مكان القتال . ويكون القتال والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أى : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد ؛ لأن الجو حر وفيه مشقة . ولكنهم أغبياء ؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته ؛ وجلسوا فى الظل ومتعته ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير والإنسان إن بُشِّر بأشياء تسره عاماً أو أعواماً ، ثم يأتى بعدها أشياء تسوؤه وتعذبه ، فهو بمعرفته بما هو قادم يعانى من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالحاضر ؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل ؛ ليؤمِّن مستقبله ولذلك تجد من يعمل ليلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف تتحمل هذا الشقاء ؟ يقول : لأؤمن مستقبلى إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة

(١) وقد سميت أيضاً بعروة لعسرته ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ﴾ [التوبة ١١٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٩٦/٢) « قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم منها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشتركان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأنعم عليهم من عودتهم » . ولكن المنافقين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ابتداء

فيها سوء وعذاب ، فماذا عن خلودهم في النار ؟

ولكن هل قالوا : ﴿لا تنفروا في الحر﴾ في خواطرهم دون أن ينطقوا بها ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً ؟ ومن الذي أعلم رسول الله ﷺ ما قالوه ؟ نقول . قد يكون ذلك هو ما دار في خواطرهم . وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في نفوسهم وشاء أن يفضح ما في سرائرهم ، لعل هذا يُدْخل الخوف في قلوبهم ، من أنه سبحانه مطلع على كل شيء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنع المشركين من حج بيته الحرام قال ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ... ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج ينعشون اقتصاد مكة ، وكان الخير يأتي من كل مكان إلى مكة في موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت في ثياب عصيتم الله فيه ، وكأن التقوى تملأ نفوسهم ! وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ، ومن لا يملك المال يطوف عارياً

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة ؛ يربحون خلاله ما يكفي معيشتهم طول العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالخاطر الذي يأتي في النفس البشرية ؛ وكيف سنعيش ؟ . هذا هو أول خاطر يأتي على البال ؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، والذي حلقهم عليم بما يدور في خواطرهم وإن لم يجر على ألسنتهم ، حينئذ جاء قول الحق سبحانه : ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ... ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة]

إذن : فالله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور فى خواطرهم ، فرد عليه قبل أن ينطقوه .

كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ والفقه هو الفهم الدقيق . فأنت حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته ، ولكنك إن عرفته بكل معطياته الخفية تكون قد فقهته . وأنت إذا دعيت للجهاد فى الحر قد تتعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتك أكبر وتعبك أشد .

إذن : فعلمك بشىء وهو الحر الذى ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا يسيئك ما عاب عنك ، وهو أن تكوص الإنسان عن الجهاد يدخله ناراً أشد حرارة ، يخلد فيها . ومعنى ذلك أنه لم يفقه ؛ لأنه عدم شيئاً وغاب عنه أشياء .

ومن هذا المنطق القرآنى ، رد الإمام على كرم الله وجهه على القوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف » ثم قال : « وإذا أمرتكم بالمسير إليهم فى أيام الحر قلتم : حمارة القيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالمسير فى البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القر ، كل ذا فراراً من الحر والقر . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله فى السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال » انظر خطبته كاملة فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيق : عادل أبو المعاطى . نشر دار الروضة القاهرة

(١) من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار ، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف » ثم قال : « وإذا أمرتكم بالمسير إليهم فى أيام الحر قلتم : حمارة القيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالمسير فى البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القر ، كل ذا فراراً من الحر والقر . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال » انظر خطبته كاملة فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيق : عادل أبو المعاطى . نشر دار الروضة القاهرة

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أى أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا فى الحر ، فهم سوف يندمون كثيراً على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

والضحك هو انفعال [1] غريزى فطرى ، يحدث للإنسان عندما يقابل شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو انفعال غريزى أيضاً تجاه أحداث تدخل الحزن أو الشجن ، وهو تذكر ما يحزن بالنسبة للإنسان ، وكلتاهما ظاهرتان فطريتان ، أى أنهما تحدثان بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسى وبكاء أمريكى ، أو ضحك روسى وضحك إنجليزى ، أو ضحك شرقى وضحك غربى . ذلك أن الضحك والبكاء انفعال طبيعى موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس . وقد أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يحيى ، وهو سبحانه وحده الذى يميت . فهو سبحانه وحده الذى يضحك ، وهو سبحانه وحده الذى يبكى . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ ﴾ [النجم]

---

(١) هناك فرق بين الانفعال والاتصال ؛ لأن الانفعال فطرة والاتصال صنعة ، فالانفعال الذى يظهر على وجه الإنسان سواء كان سروراً أو حزناً أو اهتماماً بشىء هو أمر غريزى فطره الله عليه استجابة لمؤثرات خارجية ، أما الاتصال فهو اصطناع الانفعال كأن يتكلف السرور فى مقام لا يقتضى هذا.

ولذلك فالضحك والبكاء يأتيان بلا مقدمات ، لا أقول لنفسي : سأضحك الآن فأضحك ، ولا أقول . سأبكي الآن فأبكي ؛ لأن هذا انفعال عربري لا دخل للإرادة ولا للاختيار فيه . ولكنك أحياناً تلجأ إلى التضاحك أو إلى التباكي وهو مجرد ادعاء بلا حقيقة . ويكون ظاهراً فيه الافتعال . فحين يروى لك إنسان نكتة سخيفة ، والمفروض أنه قالها لتضحك ، ولكنها لا تضحكك ، وفي نفس الوقت أنت تريد أن تجامله فتفتعل الضحك ، أي تضحك بافتعال وكذلك البكاء فيه افتعال أيضاً مثل بكاء النادبة التي تجلس وسط أهل الميت وتبكي . وقد تضع بعض نقط الخلسرين في عينيها لتفتعل الدموع ، وهذا كله افتعال . أما الضحك والبكاء الحقيقي ، فأمران بالفطرة يملكهما الله سبحانه وتعالى وحده .

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ جاء بعد قوله ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي أنهم فرحوا عندما بقوا هم في المدينة ، وخرج المؤمنون للجهاد جلسوا في حدائق المدينة وهم فرحون في راحة وسرور يضحكون ؛ لأنهم يعتقدون أنهم قد فازوا بعدم اشتراكهم في الجهاد ولكن هذا الضحك هو لفترة قليلة . وسيأتي بعدها بكاء وندم لفترة طويلة وأبدية ، عندما يدخلون جهنم والعياذ بالله

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ ولم يقل سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً ، لماذا ؟

نقول : عندما يُسند الفعل إلى المخلوق الذي يعيش في عالم الأغيار ، والمختار في عدد من أفعاله ، يُحتمل أن يحدث أو يجوز ألا يحدث ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ أي : أمر بالضحك ، ثم يجيء في البكاء ويقول ﴿ وَلْيَبْكُوا ﴾ أي : ابكوا . والأمر بالضحك والبكاء هو أمر اختياري من الله سبحانه وتعالى ، تجوز فيه الطاعة وتجوز فيه المعصية ؟

إذا كان كذلك ، فهل سيطيع المنافقون أمراً اختيارياً لله ؟ ونقول : إن ذلك أمر غير اختيارى ؛ لأن الحق سبحانه هو وحده الذى يصنع فى النفس البشرية انفعال الضحك أو انفعال البكاء للأحداث . وكما بيَّنا فإن الإنسان لا يستطيع الانفعال بالضحك أو البكاء.

والحق حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ﴾ معناها : أن انفعال الضحك قضاء عليهم لابد أن يحدث وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ فلا بد أن يبكوا ؛ لأن انفعال البكاء مكتوب عليهم من الله ، وكما يقولون إن الذى يضحك أحياناً يضحك كثيراً ، وكذلك الذى يبكى أحياناً يبكى كثيراً .

إذن . فالأمور كلها مرهونة بالخاتمة . فقد يأتى للإنسان حادث يسرّه ، ثم تأتيه ساعة بؤس تمحو هذا السرور كله ، والعكس صحيح وإذا كان هؤلاء المنافقون قد ضحكوا قليلاً فى الدنيا . فعمر كل منهم فى الدنيا قليل ؛ لأنه حتى وإن عاش فى الدنيا ضاحكاً طوال عمره فكم سيضحك ؟ أربعين سنة ؟ خمسين سنة ؟

إن كلاً منا له فى الدنيا مدة محدودة ، فأنت إذا نسبت الحدث إلى الدنيا على إطلاقها فهو قليل . وإذا نسبته إلى عمرك فى الدنيا فهو أقل القليل ، ثم تأتى للآخرة بالخلود الطويل الذى لا يتنهى ، ويكون بكاء المنافق فيه طويلاً طويلاً.

ولذلك فلا بد لكل إنسان أن يضع مع المعصية عقوبتها ، ومع الطاعة ثوابها ؛ لأن الإنسان قد يرتكب المعصية لإرضاء شهوات نفسه ، وساعة ارتكاب المعصية فهو لا يستحضر العقوبة عليها ، ولو أنه استحضر العقوبة لامتنع عن المعصية فالسارق لو استحضر ساعة قيامه بالسرقة ، أنه قد

يضبط ، وقد يحاكم وتقطع يده ، لو تأكد من هذا فلن يسرق أبداً . ولكنه يقوم بالسرقة لأنه يعتقد أنه سيفلت من العقاب . وما من لص خطط لسرقة وفي باله أنه سيضبط ، بل يكون متأكداً أنه سيسرق ويفلت .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[1]

لأنه ساعة يزني لو تخيل أو تأكد أنه سيُلقى في النار جزاء ما فعل ، فلن يقدم على الزنا أبداً . وكذلك شارب الخمر لا يمكن أن يضع الكأس في فمه إذا تخيل النار وهو يُعذَّب فيها . ولكن الغفلة عن الإيمان تحدث لحظة ارتكاب المعصية ؛ لأن الإيمان يقتضي أن نستحضر العقوبة ساعة تُقدم على المعصية ، وأن نعلم يقيناً أن كل ما نفعله سنُحاسب عليه في الآخرة ، وسيكون هناك جزاء .

فإذا ضحكت من مطلوبات الإيمان فلابد أن تبكي في الآخرة . فإن فرحت - مثلاً - بترك الصلاة أو الزكاة ، واعتقدت أنك قد غنمت في الدنيا ، فلا بد أن تندم ويصيبك الغمُّ في الآخرة . وإذا تنعمت بمال حرام فلا بد أن تُعذب به في الآخرة . والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المطففين]

هكذا يعطينا الله عدة صور من السخرية التي يتعرض لها المؤمنون في الدنيا ، وأولى هذه الصور هي ضحك المنافقين والكفار من المؤمنين ، كأن يقول أحدهم لإنسان مؤمن يقوم إلى الصلاة : خذنا على جناحك في الآخرة . ثم بعد ذلك يأتي الغمز واللمز ، ثم إذا ذهب المنافق إلى أهله

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ومسلم في صحيحه (٥٧)

أحد يسخر من الطائفين ويقول . لقد فعلت كذا وكذا لإنسان منذين . وسخرت منه ولم يستطع أن يرد . ويشعر بالسرور وهو يحكي القصة فرحاً بما عمل . ويبدو أنه قد ارتكب ثلاثة جرائم جريمة العمل ، وجريمة الفرح بالعمل ، وجريمة الإخبار بالعمل . فلو أنه سخر من المؤمن ، ثم ندم بعد ذلك ، ربما كانت عقوبته هيّنة . ولكن ما دام قد فرح بذلك تكون له عقوبة أكبر ، فإذا انقلب إلى أهله يروى لهم ما حدث ، وهو محور مسرور تكون له عقوبة ثالثة .

وليتهم توقفوا عند ذلك بل اتهموا المؤمنين بالضلال ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴿٣٢﴾ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴿٣٣﴾ ﴾ [المطففين]

أي : أنهم زادوا على كل هذا باتهام المؤمنين بالضلال . هذا ما صنعوه في الدنيا . وهي فانية وعمرها قليل ثم يأتي سبحانه وتعالى بالمقابل في الآخرة ؛ فيقول : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴿٣٤﴾ على الأرائك ينظرون ﴿٣٥﴾ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

فكما ضحك الكفار من المؤمنين في الدنيا ؛ سيضحك المؤمنون من الكفار في الآخرة ، وسيجلس المؤمنون على الأرائك في الجنة وهم ينظرون إلى الكفار وهم يُعذَّبون في النار ، أي أن الله جزاهم بمثل عملهم مع الفارق بين قدراتهم المحدودة وقدراته - سبحانه - التي لا حدود لها

ولم يقل الحق سبحانه وتعالى : « سيضحكون » كالكلام الخبري ، يجوز أن يحدث أو لا يحدث ، بل جاء به مؤكداً وقوله هنا في المنافقين ﴿ فليضحكوا ﴾ . يعني : أن الضحك لابد أن يحدث ؛ لأن هذا كلام من الله سبحانه وتعالى .

فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعطينا العلة أو السبب في أن ضحكهم سيكون قليلاً ، وبكاءهم سيكون كثيراً ؛ لأن هذا جزاء ما فعلوه في الدنيا . لقد فرحوا بالفرار من الجهاد وسُرّوا بالراحة في المدينة، فلابد أن يُلاقوا في الآخرة جزاءهم عن هذا العمل ، كما سيُثاب المؤمنون على ذهابهم للجهاد في الحرّ.

إذن : فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل أعطاهم جزاء ما عملوه . كما قال ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكلمة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ هنا لها ملحظ لا بد أن نُنبِّه ، فقد كان من الممكن أن يُقال "جزاء ما كانوا يعملون" ، أو "جزاء ما كانوا يفعلون" ، فلماذا جاء الحق بـ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ، وما الفرق بينها وبين "ما يفعلون" و "ما يعملون" ؟

نعلم أن لكل جارحة من جوارح الإنسان مجالَ عمل ؛ فالأذن تسمع ، والعين ترى ، واليد تمسك ، والقدم تمشي ، والأنف يشمّ ، والأنامل تلمس . إذن فكل عضو له مهمته. فإن كانت المهمة هي النطق باللسان سميها القول وإن كانت مهمة من مهام باقي الجوارح عدا اللسان نسميها الفعل فاللسان وحده أحدث القول ، وكل الجوارح أحدثت الفعل . والقول والفعل معاً نسميهما عملاً.

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى "يفعلون" يكون ذلك مقابل يقولون ؛ لأن الإنسان قد يقول بلسانه ولا يفعل بجوارحه . وتوضيح ذلك الآية الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف]

ولكن إذا اتحد القول والفعل يكون هناك عمل . وكل شيء لا يتسق منطقياً مع قيم المنهج يكون فيه افتعال ، فالكسب عمل ، والاكتساب افتعال لكسب ؛ لأن الكسب عمل طبيعي ، والاكتساب هو افتعال الكسب . وسبحانه يقول :

﴿ لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ ...﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

لأن الاكتساب بالحرام فيه افتعال يتعب النفس ، ولا يجعلها منسجمة مع جوارحها ، فالرجل مع زوجته في البيت مستقر الجوارح لا يخشى شيئاً. لكنه مع زوجة غيره يهيج جوارحه ، فيقفل النوافذ ويُطفىء الأنوار . وإنْ دقَّ جرس الباب يصاب بالذعر والهلع ؛ لأن ملكات النفس ليست منسجمة مع العمل

أما إذا اعتادت النفس الإثم مثل من اعتاد الإجرام ، فلا يهيجها الحرام . وفي هذه الحالة تنقلب عملية الاكتساب إلى كسب ، وتعتاد النفس على المعصية وعلى الإثم ، ويصبح جزاؤها عند الله أليماً وعذابه عظيماً.

ويقول الحق سبحانه في هذه الآية : ﴿جزاءً بما كانُوا يكْسِبُون﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال : " جزاء بما كانوا يكسبون " لأن هذه عملية فيها إثم وفيها معصية ، فلا بد أن يكون فيها افتعال ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية ، وعاشوا في الكفر ، فأصبحت العملية سهلة بالنسبة لهم ، ولا تحتاج منهم أي افتعال .

واقرأ قول الحق : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ...﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة]

والسرقة ليست أمراً طبيعياً ، لذلك يقوم بها السارق خفية ويُبيِّت لها ويفتعل ؛ ولذلك كان من المنطقي أن يقال "اكتسبوا" لكن شاء الحق أن نعرف أن السرقة قد أصبحت في دم هؤلاء ، ومن كثرة ما ارتكبوها فهي بالنسبة لهم عملية آلية سهلة . وقد وضع التشريع لها نطاقاً وهو ربع دينار مثلاً[1] . والذي يسرق دون هذا النطاق لا يُطبق عليه حَدُّ قطع اليد . لماذا ؟ لأن ربع الدينار في ذلك الوقت كان يكفي لقوت أسرة متوسطة العدد لمدة

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقطع السارق في ربع دينار فصاعداً » أخرجه مسلم (١٦٨٤) وأحمد (٦/٣٦) والترمذي (١٤٤٥) وقال : حسن صحيح .

يوم واحد . فإذا سرق أى إنسان ما يكفى قوت أسرة لمدة يوم واحد ، يقال . ربما فعلها لأن أسرته لا تجد ما تأكله ، فإذا أخذ أكثر من الضرورة ، يكون قد أخذ أكثر مما يحتاج إليه ، وتكون لسرقة قد حدثت ويُقام عليه الحد [1] .

ونحن نعلم أن العقل البشرى وظيفته الاختيار بين البدائل ، ومفروض أن يُقَدِّر الإنسان العقوبة ويستحضرها ساعة وقوع المعصية ، وأن يستحضر الثواب ساعة القيام بالطاعات ترغيباً للإنسان فى الطاعة . ونحن نأتى للطالب المجتهد ونطلب منه أن يُخفِّف من المذاكرة ، لكنه لا يترك الكتاب لأنه استحضر النجاح ؛ وما سيحدث بعد النجاح من دخوله الكلية التى يريدها ، أو بعد تخرجه من الجامعة إن كان قد وصل إلى مرحلة التخرج ، وكذلك استحضر نظرة أهله وأساتذته وزملائه إليه ، وهو يستحضر كل ذلك ؛ مما يدفعه لقضاء ساعات طويلة فى المذاكرة دون أن يشعر بالتعب .

إذن : فالذى يُحبِّبك فى الطاعة هو استحضار لذة الثواب القادم . والذى يُكرِّهك فى المعصية هو استحضارألم العقاب الذى لابد أن يحدث .

ولكن هؤلاء المنافقين والكفار قد اعتادوا المعصية والكفر ؛ حتى أصبح سلوكهم المخالف للإيمان بما يحدث منهم دون أن يستحضروا عقوبة المعصية ، فهم يرتكبون المعاصى وهم فرحون . ولو قال الحق كلمة : "يقولون" لكان كلامهم بغير فعل . ولو قال . "يفعلون" لكان فعلاً

---

(١) السرقة نوعان . نوع يوجب التعزير ، ونوع يوجب الحد . فالذى يوجب التعزير هى التى لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، مثل سارق الثمر على الشجر ، أما التى يجب فيها الحد فهى التى تتوفر فيها ثلاثة شروط

١- أخذ مال الغير بما لا يقل عن ربع دينار

٢- أن يكون هذا المال فى حرز كحزينة أو بيت أو مسجد .

٣ أن تتم السرقة على هيئة الاختفاء والاستتار وبهذا لا يعتبر النهب أو المختلس أو الخائن (أى . النصاب) سارقاً يجب فيه قطع اليد وإذا ثبتت جريمة السرقة بكل هذه الشروط فتقطع يد السارق اليمنى من مفصل الكف ، فإذا سرق ثانياً تقطع رجله انظر تفاصيل إقامة هذا الحد فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٦١ - ٤٧٦) .

لا يشترك فيه اللسان بالقول . ولو قال "يعملون" لكان فعلاً وقولاً فقط . ولو قال " يكتسبون" لفهمنا أن المعصية تثير انفعالاً وتهيجاً في داخلهم ؛ لأنهم لم يعتادوها . ولكن جاء قوله تعالى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ليعطينا المعنى الصحيح في أنهم قد اعتادوا المعصية ؛ حتى أصبحوا يفعلونها بلا انفعال.

ويأتي الحق سبحانه وتعالى ليُريا حكمه في الدنيا على هؤلاء المنافقين الذين فرحوا بتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله ، فيقول :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ : عندما تنتهي الغزوة وتعود إلى المدينة ، فهناك حكم لابد أن تطبقه مع هؤلاء المنافقين ؛ الذين تخلفوا وفرحوا بعدم الجهاد.

وقوله : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾ كلمة "رجع" من الأفعال ، وكل فعل يجب أن يكون له فاعل ومفعول ، فلا يمكن أن تقول : "ضرب محمد" ثم تسكت؛ لأنه عليك أن تبين من المضروب . ولا يمكن أن تقول " قطف محمد " ، بل لابد أن تقول ماذا قطف ؟ وهكذا يحتاج إلى مفعول يقع عليه الفعل ولكن هناك أفعالاً لا تحتاج إلى مفعول كأن تقول : "جلس فلان" والفعل الذي يحتاج إلى مفعول اسمه « فعل مُتعدٍّ » أما الفعل الذي لا يحتاج إلى مفعول فاسمه « فعل لازم » . إذن : هناك فعل متعد وفعل لازم

وهنا فى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ فإن رَّجَعك اللَّهُ ﴾ والحق سبحانه هو الفاعل ، والكاف فى ﴿ رَّجعكَ ﴾ هى المفعول به. ولكن لأنه ضمير ملتصق بالفعل يتقدم المفعول على الفاعل . إذن . ﴿ فإن رَّجَعكَ اللَّهُ ﴾ رجع فعل متعد ، والفاعل لفظ الجلالة . والمفعول هو الضمير العائد على رسول الله ﷺ ؛ أي : أن الله رجعك يا محمد

ولكن هناك آية فى القرآن الكريم تقول :

﴿ ولمَّا رجع مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غضبَانَ أَسِفًا ... ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

فى الآية التى نحن بصددها ﴿ فإن رَّجَعكَ اللَّهُ ﴾ الفاعل هو الله ، أما فى قوله الحق : ﴿ ولَمَّا رجع مُوسَىٰ ﴾ نجد أن موسى هو الفاعل ولا يوجد مفعول به ، إذن فـ" رجع " يمكن أن يكون فعلاً لازماً[1] ، كأن تقول . "رجع محمد من الغزوة" . ويمكن أن يكون فعلاً متعدياً كقوله سبحانه : ﴿ فإن رَّجَعكَ اللَّهُ ﴾ أى: يا محمد من الغزوة . إذن " فرجع تستعمل لازمة وتستعمل متعدية ولكن فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ؛ عندما ألقته أمه فى البحر والتقطه آل فرعون ؛ ومشت أخته تتبعه ؛ ثم حرَّم الله عليه المراضع ليعيده إلى أمه كى يريل حزنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه]

ما هو الفرق بين الآيات الثلاث ؟ ولماذا استعمل فعل « رجع » لازماً ومتعدياً ؟

---

(١) الفعل المتعدى هو الذى ينصب بنفسه مفعولاً به أو اثنين أو ثلاثة دون أن يحتاج إلى مساعدة حرف جر أو غيره أما اللازم فهو الذى لا ينصب بنفسه مفعولاً به أو أكثر ، وإنما ينصبه بمعونة حرف جر وهناك نوع يصح أن يكون النوعين معاً مثل شكر ، ونصح وفعل رجع المذكور فى الآية من هذا النوع الأخير

نقول : إنه في قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ولما رجع موسى إلى قومه﴾ هنا هيىء لموسى من ذاته أن يرجع ، أي أنه قرار احتيازي من موسى ، أما قوله تعالى : ﴿فرجعناك إلى أمك﴾ ، فموسى في هذه المرحلة ، كان طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يرجع بذاته ، ولا بد أن يهيىء له الحق طريقة لإرجاعه ، أي : من يحمله ويرجعه أما قوله تعالى : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ فقد كان من الممكن أن يقال : " وإذا رجع إلى طائفة منهم " مثلما قال في موسى عليه السلام ﴿ولما رجع موسى ﴾ ولكن الحق استخدم ﴿ رجعك ﴾ ليدل على أن زمام محمد عليه الصلاة والسلام في الفعل والترك ليس بيده .

وكأنه سبحانه وتعالى يوضح . إياكم أن تنسبوا الأحداث إلى بشرية محمد ﷺ ، فإن محمداً إذا ذهب إلى مكان فالله هو الذي أذهبه إليه وإن عاد من مكان فهو لا يعود إلا إذا أرجعه الله له . كما كانت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بأمر من الله ، فقبل أن يأذن الله له بالهجرة ، لم يكن رسول الله ﷺ ببشريته يستطيع أن يهاجر إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد أن نعرف دائماً أن ذهاب محمد ﷺ ورجوعه من أي مكان ، ليس بشرية رسول الله ﷺ ، بل بإرادة الحق سبحانه .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾ وكان من الممكن أن يقول " فإن رجعك الله إليهم " أو " فإن رجعك الله إلى المدينة " ؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الحديث هنا عن الطائفة التي حدثت منها المخالفة ، فهناك من بقوا في المدينة رغماً عنهم ولم يكن لديهم ما ينفقونه أو لم يكن لدى رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه . وكذلك المرضى وكبار السن الذين لا يستطيعون قتالاً وهؤلاء حَسُنَ إسلامهم وقَبِل الله ورسوله أعذارهم .

ولكن الحق سبحانه يتحدث هنا عن الطائفة التي تخلفت عن الجهاد وهي نادرة ، والتي امتنعت عن الخروج ، وهي تملك المال والسلاح وكل مقومات الجهاد ، هذه الطائفة هي التي فرحت بالتخلف عن القتال . أما الطوائف الأخرى ؛ فكانت عيونها تفيض بالدمع من الحزن على عدم اشتراكهم في الجهاد .

إذن . فالحق يقصد هنا طائفة المنافقين الذين استمروا على نفاقهم ، فمن تاب منهم قبل نزول هذه الآية قبلت توبته ، ومن مات منهم قبل نزول هذه الآية فإنما حسابه على الله وبقيت طائفة المنافقين الذين فرحوا وضحكوا عندما بقوا في المدينة ، وكان عقاب الله لهم بأن مسح أسماءهم من ديوان المجاهدين في سبيل الله ، ومنعهم الثواب الكبير للجهاد

ويقول سبحانه : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ فكيف استأذنوا أو الأمر للقعود وتحايلوا عليه ، وكيف يستأذنون الآن للخروج ؟ نقول : إنهم عندما رأوا المؤمنين وقد عادوا بالغنائم ، كان ذلك حسرة في قلوبهم ؛ لأنهم أهل دنيا وحينئذ طلبوا الخروج حتى يحصلوا على الغنائم والمغانم الدنيوية ولكن الحق سبحانه وتعالى طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام ألا يأذن لهم بالجهاد مع المسلمين ، فقال: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أي : أن أسماءكم قد شطبت من ديوان المجاهدين والغزاة ، ولهذا قرر الحق سبحانه وتعالى ألا يعطيهم شرف الجهاد وثواب الخروج مع رسول الله ﷺ ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

ولكن الحق يقول أيضاً هنا : ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ وهذا أمر لا يحدث إلا في الغزوات ، فما هو موقفهم إذا حدث اعتداء على المدينة ؟ وبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألا يقبل منهم قتالاً حتى في هذه الحالة ، فطلب

من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم بذلك ، ويقول لهم : ﴿ ولن تقاتلوا معي عدوًا ﴾ إذن . فقد حسمت المسألة ، فلا هم مسموح لهم بالخروج في الغزوات ، ولا بقتال لأعداء إذا هاجموا المدينة ؛ لأنهم أُسقطوا تماماً من ديوان المجاهدين ، ولا جهاد لهم داخل المدينة أو خارجها ؛ ما دامو قد فرحوا بالقعود ، ورفضوا أن يشتركو في الجهاد وهم قادرون ؛ لذلك حكم الحق أن يبقوا مع الخالفين

وما معنى خالفين ؟ المادة هي " خاء" و"لام" و"فاء" ، فيها "خلف" و"خلاف" و "خلوف" وغير ذلك و"خالفين" إما أن يكونوا قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، وإما أن يكونوا خالفوا الرسول بأنهم رفضوا الخروج ، وإما أن يكونوا خلوفاً . ويقول ﷺ في حديث عن الصائم « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك »[1]

والخلوف هو تغير الرائحة ، وتغير الرائحة يدل على فساد الشيء ، فكأنهم أصبحوا فاسدين ومخالفين تعني فاسدين لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله ﷺ ، وتعني أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، ولم يقتصر جزاء هؤلاء المتخلفين فقط أن تشطب أسماؤهم من سجلات المجاهدين ، بل هناك جزاء آخر يبينه قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

وصلاة رسول الله ﷺ على ميت هي رحمة له ، وغفران لذنوبه ؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة ، وأن تطلب له من الله أن

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ومسلم في صحيحه (١١٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه

يُلحقه بالصالحين . وإذا قال رسول الله ﷺ هذا الكلام ، ودعا بهذا الدعاء ، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله . وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان في أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ [1]

وقول الحق لرسوله : ﴿ ولا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ معناه نهي عن فعل لم يأت زمنه . وقوله تعالى ﴿ولا تقم على قبره ﴾ أي : لا تذهب إلى قبره وتطلب له الرحمة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال . ﴿ ولا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ مع أن النهي عن المستقبل ، أي : من مات بعد نزول هذه الآيات ، فلماذا لم يقل الحق "يمت" أو "يموتوا" واستخدم الفعل الماضي ﴿مَّاتَ ﴾ ؟ ونقول لأن الموت عملية حتمية مقررة عند الله ومُقدَّرة ، فموعد الموت مكتوب ومعروف عند الله ، وهو شيء لا يقرره الله مستقبلاً ، بمعنى أن موعد الموت لا يحدد قبل حدوثه بليلة أو ليلتين ، ولكن الموعد قد حُدِّد وانتهى الأمر .

أما قوله الحق ﴿ولا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ فهو يدلنا على أن هذا الأمر ليس خاصاً بسبب ، ولكنه عموم حكم ، فهناك : سبب للحكم ، وهناك عموم حكم . وسبب الحكم مثل الآية التي نزلت في زعيم المنافقين عبد الله ابن أبيّ ، فعندما مرض عبد الله بن أُبيّ مرض الموت ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، وطلب منه أن يعطيه قميصه يُكفَّن فيه أباه، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ويستغفر له [2] . وذهب رسول الله ﷺ مجاملة لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ الذي أسلم وحَسُن إسلامه .

---

(١) حياة البرزخ هي حياة بين الموت والبعث ، ومنه قوله عز وجل ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ [المؤمنون ١٠٠] والبرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين ومنه قوله تعالى ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ [الفرقان ٥٣]

(٢) سبق تخريجه عند تفسير الآية ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم ... ﴾ [التوبة ٨]

وعندما وقف رسول الله ﷺ بجوار عبد الله بن أبيّ ، قال له « أهلكك حب يهود »[1] ؛ لأن بن أُبيّ كان يجامل اليهود ويعاونهم ، ونفاقه في الإسلام كان مجاملة لليهود وكان يُظهر أمام اليهود الكفر ، ويُظهر أمام المسلمين الإيمان وهنا قال ابن أبيّ : يا رسول الله ، بما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبني .

فاستغفر له الرسول ﷺ ، وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة]

وطلب عبد الله بن أبيّ من رسول الله ﷺ أن يهبه ثوبه لكي يُكفَّن به ، فلما ذهب رسول الله ﷺ إلى بيته ، أرسل له الثوب الأعلى . وقد كان ﷺ يلبس ثوبين ، ثوباً يلي جسده وثوباً فوقه . فلما جاء ابن أبيّ الثوب الأعلى ، قال : أنا أريد الثوب الذي لامس جسد رسول الله ﷺ .

انظر إلى زعيم المنافقين والذي كان يمثّل الكبرياء في حياته ، كيف يذل على المؤمنين ؛ ما هو ذا يطلب كل هذه الطلبات ساعة احتضاره . فماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ أرسل له القميص الذي لامس جسده الشريف . وكان كل هذا إرضاء لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ .

ولم يتقبل هذا الفعل عدد من المؤمنين ولم يشعروا بالارتياح ، فعندما مات ابن أبيّ جاء ابنه عبد الله ، وطلب من رسول الله ﷺ أن يصلي عليه .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٧٩) من مرسل قتادة وقد أورده ابن حجر في الفتح (٨/ ٣٣٤) وعزاه لعبد الرزاق والطبري عن قتادة قال ابن حجر هذا مرسل مع ثقة رجاله ، ويعضده ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس بنحوه

وعندما هَمَّ النبي أن يصلي عليه ، وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الرسول وبين القبلة [1] . وهنا حسم الحق سبحانه وتعالى الموقف ونزلت الآية الكريمة : ﴿ ولا تُصلِّ عَلَىٰ أحدٍ مِّنْهُم مَّات أبدًا ﴾ فقد أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على ابن أُبيّ ؛ لأنه رسول رحمة للعالمين . ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقف بينه وبين القبلة حتى لا يصلي ، فأنزل الحق قوله : ﴿ ولا تُصلِّ عَلَىٰ أحدٍ مِّنْهُم مَّات أبدًا ﴾ وقالوا : تلك من الأمور التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ومن المسائل التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام . فقد كان عمر يرجوها ، وكان يقول لرسول الله ﷺ يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى [2]

ومن هذه الأمور أيضاً رأيه في أسرى بدر ، وأن من الواجب قتلهم ، وكان رأي أبي بكر أن يقوم الأسرى بتعليم المسلمين القراءة والكتابة ؛ أو يؤخذ فيهم الفداء ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنفال]

بعض الناس يتساءل . كيف يستدرك عمر على رسول الله ﷺ ؟ نقول : لأن الرسول ﷺ لن يُحلَّد في أمته ؛ لذلك أراد أن يعطيهم الأسوة بأنه ﷺ متى رأى رأياً حسناً نزل عليه وبعض المستشرقين يقولون : إنكم تقولون دائماً عمر فعل كذا ، ولماذا لا تقولون لنا محمد فعل كذ ؟ ونقول . إذا فعل محمد فهو رسول الله ، أما غير الرسول عندما يفعل فهو دليل على أن الفطرة الإسلامية من الممكن أن ترى شيئاً يتفق مع ما يريده الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٧١) وأحمد في مسنده (١/ ١٦) والترمذي في سننه (٣٠٩٧) والنسائي (٤/ ٦٧) قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤٨٣) عن أنس ، وقد ذكر فيه موافقة الوحي لعمر في ثلاث تحويل القبلة ، وحجاب نساء النبي ﷺ ، ومعاتبة نساء النبي

وبعد أن نزل قول الحق . ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ صار لحكم عاماً في ألا يصلي رسول الله على المنافقين لكن من أراد من الناس أن يصلي فيُصلِّ وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكرم كل مسلم بالصلاة عليه ، فلما نزلت هذه الآية امتنع عن الصلاة على المنافقين.

كذلك امتنع ﷺ عن الصلاة على الميت وعليه دين ، فكان يسأل أهل الميت هل عليه دَيْن ؟ فإن قالوا : نعم سأل : هل ترك ما يسده ؟ فإن قالوا لا ، قال : « صلُّوا على صاحبكم »[1] ، وامتنع هو عن الصلاة.

ولكن ما دين من عليه دين حتى يُحرَم صلاة رسول الله عليه ؟ لقد الإجابة في قوله ﷺ :

« مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[2].

فمن كان هذا الميت المدين ينوي سداد دينه لأعانه الله على أن يُسدِّده ، أما إذا ترك ما يفي بهذا الدين من عقارات أو أراض أو أموال في التركة فلا يكون مديناً

ويقول الحق سبحانه هنا : ﴿ولا تقم على قبره﴾ ونحن نعلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى قبر حمزة رضي الله عنه ، ويقف على قبور المؤمنين ويقول « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »[3] ومعنى الحق

---

(١) اتفق عليه أخرجه البخاري (٢٢٩٨) ومسلم (١٦١٩) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى ، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٨٧) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٦١ ، ٤١٧) وابن ماجه في سننه (٢٤١٠) عن أبي هريرة

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٧٥) وابن ماجه (١٥٠٦) والنسائي (١/ ٩٤) من حديث أبي هريرة

من ذلك العمل على قبور المنافقين[1] ويعطينا الحق سبحانه العلة في ذلك فيقول ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وعرفنا كيف كفروا بالله ورسوله ، لكن ماذا عن قوله الحق . ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . فهل ماتوا وهم خارجون عن المنهج ؟ نعم ، تماماً مثلما نقول : فسقت الرطبة ؛ لأن البلح في نضجه يكون أحمر اللون أو أصفر وتلتصق قشرته به ، فإذا رطب انفصلت القشرة عن البلحة ، بحيث نستطيع أن ننزعها بسهولة ، فكأن منهج الله بالنسبة للمؤمن لا بد أن يلتصق به كقشرة البلحة الحمراء ، وإذا انفصل عنه مثل قشرة الرطبة يُصَابُ بالفساد .

ولكن هنا نتساءل : أليس الكفر أكبر مرتبة من الفسق ؟ لأننا نعلم أنه ليس بعد الكفر ذنب ؟ فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ مع أنهم كفروا ، والكفر أكبر الذنوب ؟

ونقول : إن الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله وعدم الدخول في الإسلام ، ولكن الفسق هو عدم الالتزام بأية قيم ، ذلك أن الدين قد أوجد في النفوس عامة قيماً معروفة يتبعها حتى الذين كفروا ، فمثلاً عندما أرادوا بناء الكعبة قبل الإسلام ، قالوا : نريد أن نبنيها بمال حلال ، لا يدخل فيه مال بَغِيّ[2] . وكانوا في الماضي يُحضرون البغايا ، ويُقيمون لهن الرايات ، ويأخذون من أموالهن . لم يكن الإسلام قد جاء بَعْد ، ولكن كانت هناك قيم من مناهج السماء التي جاءت قبل الإسلام . وجاء الإسلام موافقاً لبعضها .

---

(١) ومما ورد في سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة ٨٤] أنه لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، وإنك لم تأته لم تزل تُعيِّر بهذا ، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته فقال : « أفلا قبل أن تدخلوه ؟ » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من فرنه إلى قدمه وألبسه قميصه . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٧١)

(٢) وذلك أنه عندما أرادت قريش أن تبني الكعبة قام أبو وهب بن عمرو بن مخزوم وتناول من الكعبة حجراً ، فرمت من يده ، حتى رجع إلى موضعه فقال : يا معشر قريش ، لا تُدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس . انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٤)

إذن : فقوله الحق : ﴿كفروا بالله ورسوله﴾ ، أى : لم يكونوا مسلمين ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أى لم يلتزموا بأيه قيم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ونعلم أن الحق قال فى آية سابقة :

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ (١) أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]

والنص القرآنى إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول : إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن ينظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ، فقد تحمل آيتان معنى عاماً واحداً ، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء ، ولنأخذ مثالاً من قوله الحق

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ... ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن فى القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح ؛ لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء وخصوصية العطاء فى الآية توفق مقتضى كل حال . ففى قوله

(١) زهقت نفسه : خرجت ومات ، وزهق الباطل : زال وبطل فهو زاهق وزهوق . قال تعالى ﴿وتزهق أنفسهم﴾ أى : تخرج ؛ ليموتوا

سبحانه عن رزق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدرى لآيتين بل التفتوا إلى عجُز الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء فى البيان العربى .

ولك أن تسأل هؤلاء المستشرقين الذين يثيرون مثل هذه الأقاويل : هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى ؟ ولن نجد إجابة عندهم ؛ لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربى ونقول لهم أنتم إن نظرتم إلى عَجُز كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقتضى أولها ، وإلا لما استقام المعنى ، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُلْ فى الآيتين : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم مِنْ إملاقٍ ﴾ وإنما قال : ﴿من إملاقٍ ﴾ وقال : ﴿ خشية إملاقٍ ﴾ ، ولم يقل فى الآيتين : ﴿نحن نرزقهم وإياكم ﴾ بل قال : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم﴾ و قال : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ .

إذن: فبداية الآيتين مختلفة ؛ الآية الأولى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم مِنْ إملاقٍ ﴾ . والإملاق هو الفقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى . ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ ﴾ ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن الإنسان قد يخشى أن يأتى الفقر بمجىء الأولاد .

إذن: فالآية الأولى تخاطب الفقراء فعلاً، والآية الثانية تخاطب غير الفقراء الذين يخشون مجىء الفقر إذ رُزقوا بأولاد ؛ والفقير - كما نعلم - يُشغل برزقه أولاً قبل أن يُشغلَ برزق أولاده . ولذلك يطمئنه الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول . ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ أى : اطمئن أيها الفقير على رزقك فلن يأخذ أولادك منه شيئاً ، لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك أيضاً .

أما غير الفقير الذى يخشى أن يجىء الولد ومعه الفقر فقد يشغل بأن المولود الجديد سيأتى ليُحوِّل عناه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى أن رزقهم يأتى من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تخشوا الفقر وتقتلوا أولادكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار .

كذلك فى الآية التى نحن بصددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد وردت فى نفس السورة، نقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر ؛ فأين الاختلاف فى الآيتين ؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين ؟ الآية الأولى نقول

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة]

والآية الثانية التى نحن بصددها تقول

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [التوبة]

أول اختلاف نجده فى بداية الآيتين ؛ ففى الآية الأولى : ﴿ فلا تُعْجِبْكَ ﴾ ، والثانية : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ .

ففى الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء . والفاء تقتضى الترتيب إذن فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهى قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [التوبة]

فكأن هذه حيثيات كفرهم ؛ فهم لا يُصلُّون إلا نفاقاً ، ولا ينفقون مالاً في سبيل الله ,لا وهم يكرهون ذلك.

والمتعة في المال أن تنفقه فيما تحب ، فإذا أحببت طعاماً اشتريته ، وإذا أحببت ثوباً انتعته [1] وتكون في هذه الحالة مسروراً وأنت تنفق مالك ، ولكن هؤلاء ينفقون المال وهم كارهون .

والمؤمن عندما ينفق ماله في صدقة أو زكاة فهو يعمل ذلك إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه أضعاف أضعاف الأجر في الدنيا والآخرة إذن. فحين ينفق المؤمن ماله في الزكاة ، يكون فرحاً لأنه عمل لدنياه ولآخرته.

أما المنافق الذي يضمر الكفر في قلبه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ولا يعرف البركة في الرزق ، فكأنه أنفق ماله دون أن يحصل على شيء ، أي أن المسألة في نظره خسارة في المال ولا شيء غير ذلك . وإن أنفق الإنسان وهو كاره ، فالمال الموجود لديه هو ذلة وتعب ؛ لأنه حصل على المال بعد عمل ومشقة ، ثم ينفقه وهو لا يؤمن بآخرة ولا بجزاء

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن رزقه لهؤلاء الناس هو سبب في شقائهم وإذلالهم في الدنيا فيجعلهم يجمعون المال بعمل وتعب ثم ينفقونه بلا ثواب ، أي يخسرونه . والواحد منهم يذهب إلى الحرب نفاقاً ، فينفق على سلاحه وراحلته [2] ، ولا يأخذ ثواباً ، ويُربِّي أولاده ثم تأتي الحرب ، فيذهبون نفاقاً للقتال ؛ فيموتون دون استشهاد إذ كانو منافقين مثل آبائهم وهكذا نجد أن كل أموال المنفق الذي يتظاهر بالإسلام ، وهو كافر ، تكون حسرة عليه

---

(١) ابتاع . اشترى

(٢) الراحلة كل بعير قادر على مشقات السفر أو الجهاد .

ومن هنا فإياك أيها المؤمن أن تعجبك أموالهم ؛ لأنها ذلة لهم فى الدنيا ؛ فهم يبذلونها نفاقاً ، فإذا امتنعوا عن الإنفاق وعن الجهاد وهم يتظاهرون بالإسلام ؛ فكأنهم قد أعلنوا أنهم منافقون ، وهكذا نجد إنفاقهم كرهاً هو إذلال لهم ، وإن لم ينفقوا فهذا أمر يفضحهم ، فكأن الأموال والأولاد عذاب لهم ، وهذا أمر لا يقتضى الإعجاب ، وإنما يقتضى الإشفاق عليهم.

ولا تظن أنك حين حذفتهم من ديوان الغُزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا معك عدواً ، أن فى أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجب فإنها عقاب وفضيحة وإذلال لهم.

ولكن فى الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ لماذا ؟ لأن منهم من له مال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عِزْوته ، ومنهم من له المال والولد.

إذن: فهم مختلفون فى أحوالهم، لذلك جاء القول ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ ليؤدى المعانى كلها . ولتشمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد.

أما فى الآية الثانية التى نحن بصددها

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

إذن - فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أعطاهم المال والولد للعذاب ولكن هناك من يقول . ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فهل المال والأولاد علة للعذاب ؟ وهل لأفعال الله علة ؟ ألا يقول المسلمون إن أفعال الله لا علة لها ؛ ونقول لقد قالوا مثل ذلك القول فى قوله الحق:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة في الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق ؛ لأن في العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شيء يزيد في ملكه ولا شيء ينقصه . أو هي لام العاقبة. ومعنى « لام لعاقبة » أن تعمل شيئاً فتأتي العاقبة بغير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق .

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدواً ؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين [1] ؟ لقد التقطوه ليكون قرة عَيْن لهم ، ولكن النهاية جاءت بغير ما قصدوا ؛ فأصبح الذي التقطوه ليكون وُلْداً ونصيراً لهم هو الذي جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لقتله ، وشاء الحق أن يخفى عنه العيب ليقوم هو بتربية من سيقضي على مُلْكه ، تماماً كما تُدخل ابنك إلى المدرسة فيفشل ، وتنفق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب ؟ طبعاً لا .

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب في ذلك هو حُبُّهم للمال والمتعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً في عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عِزْوة لهم ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأبناء في الدنيا فالمال يجمعه المتعة من حلال ومن حرام ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة تصيبه ، وإما أن يفارق هو

(١) قرة عين : مصدر سرور وفرح وسعادة قلبه

لمال بالموت ، وإما أن تكون هذا المال عذاباً له ؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيهم ويتعب فى تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين ؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم.

فكأن قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد ؛ ولكنها ليست خيراً لهم، بل هى عذاب لهم ؛ لأنهم بإبطانهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان ؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحينئذ تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شىء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبنائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً.

أما الآية الثانية

﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنما يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فهى حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، فهم فى خوف من ضياع المال أو فقد الولد ؛ لذلك يعانون من العذاب وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون فى الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم ؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن افتقاد الابن إنما يسد طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له فى الآخرة ، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]

وفي هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا في خوف وحسرة وفي هذا عذاب . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال]

أي أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة في نفسه حين يرى المال الذي أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هي انتصار الدين وانتشاره.

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذه هي الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولا يجد له رصيداً في الآخرة إلا النار ، لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ، يُلْقَى في النار محسوراً على ما تركه في الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نقرأ قول الله .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنفال]

وهكذا يذوقون العذاب.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين في قوله.

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وهكذا شاء الحق أن يفضح المنافقين ، هؤلاء الذين استمرأوا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، بينما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾ هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم ؛ ولذلك جاء قوله الحق : ﴿ أن آمنوا ﴾ أي : اجعلوا قلوبكم صادقة مع ألسنتكم ، فالله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقوله الحق : ﴿ وجاهدوا مع رسوله ﴾ أي. انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو التعبير العملي عن الإيمان ، ولاتفرحوا بتخلفكم عن القتال في سبيل الله ؛ لأن الجهاد والقتال في سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم وامتناع إنسان عن الجهاد هو تنازل عن خير كبير ، فالحق سبحانه يعطي جزيل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقياً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ﴾ و«استأذن» من مادة استفعل ، وتأتي للطلب ، كأن تقول : « استفهم » أي : طلب أن يفهم ، و« استعلم » أي : طلب أن يعلم . إذن : فقوله ﴿ استأذنك ﴾ أي . طلبوا الإذن ، ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ، تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا في ذلك فرصة لإعلان توبتهم ؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من نفاق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالقعود .

ومن الذي طلب الإذن ؟

إنهم أولو الطَّوْل و« أولو » معناها أصحاب القوة والقدرة . و«الطَّوْل» هو أن تطول الشيء ، أي : تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه ؛ يقال: إن هذا الشيء يدك لم تَطُلْه ، أي . لم يكن في متناول يدك.

و﴿أولو الطول﴾ أي : الذين يملكون مقومات الجهد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجولة وليس صبياً صغيراً ؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبي الصغير لا يملك جَلَداً على الحرب . وأيضاً نجد المريض الذي قد يعوقه مرضه عن الحركة

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلغوا سن الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى.

إذن : فعندما تنزل اية فيها الجهاد ، فالذين يستأذنون ليسوا أصحاب أعذار - لأنهم معذورون- لكن الاستئذان يأتي من المنافقين الذين تتوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون في القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يحسرنا الحق به . ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والقاعد مقابله القائم والقيام - كما نعلم - هو مقدمة للحركة فإذا أراد الإنسان أن يمشي ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشي والحركة ، ومن القيام أخذت مادة (القوم) [1] أي : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن في القوم ، مصداقاً لقول الحق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات]

---

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم ليشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور في اللسان (مادة قوم) . « وربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبي رجال ونساء » . والقوم يذكر ويؤنث ؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث . قال تعالى ﴿وكذب به قومك ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام] ، فذكر . وقال تعالى ﴿ كذبت قوم نوح ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء] ، فأنث .

إذن: فالقيام يقابله القعود، والقوم يقابلهم النساء. والقعود هو مقدمة للسكون، فمنذ خلق الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون. وقعود المنافقين وتخلفهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حَطٌّ من شأنهم.

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى:

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

و﴿الخوالف﴾ ليست جمع «خَالِف» ولكنها جمع «خالِفة»؛ لأن «خَالِف» لا تجمع على «فواعل»، وإنما «خالِفة» هي التي تُجمَعُ على «فواعل»[1]. وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذي يُطبق على النساء

وبذلك كانوا ﴿ لا يفقهون ﴾ لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجال وفرحوا بهذا الوصف دون أن يتنبهوا لما فيه من إهانة لهم؛ لأنهم يهربون من القتال كما تهرب النساء. والمنافق - كما قلنا - له ملكتان. ملكه قوليه، وملكه قلبيه فقول المنافق إعلان بالإيمان، أما قلبه فهو ممتلئ بالكفر، وفي هذه الحالة تتضارب ملكاته.

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم: سوف نعاملكم في الدنيا بظاهر كلامكم، ونعاملكم في الآخرة بباطن قلوبكم، وسوف نطبع على هذه

---

(١) لا يجمع "فاعل" صفة للمذكر العاقل على «فواعل»، إلا في أمثلة قليلة اعتبرها الأقدمون شاذة عن القاعدة مثل: (فارس، فوارس) - (هالك، هوالك) - (ناكس، نواكس) وقد وصل بعض المعاصرين إلى أكثر من ثلاثين مثالاً، وإن كانوا قد قالوا: لأفضل الالتزام بالقاعدة، وهي «لا تجمع صيغة فاعل على فواعل إذا كانت وصفاً لمذكر عاقل» انظر في هذه المسألة النحو الوافي لعباس حسن (٤/٦٥٣ - ٦٥٥) ولابن منظور في هذا كلام في مادة (فرس)

القلوب ؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، وبذلك قال الحق سبحانه هنا ﴿ وَطُبِعَ [1] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وقد قال الحق سبحانه

﴿ خَتَمَ [2] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ۝٧ ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ . ۝٩٣ ﴾ [التوبة]

وما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه ؛ ما هو خارجه من إيمان ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ؛ فيظل ما في داخله كما هو ، وما في خارجه كما هو . ويطبع الله على قلبه ؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما في خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم ، أي : لا يفهمون ما حُرِموا منه من ثواب ونعيم الآخرة ؛ لأنهم قد فرحوا بتخلفهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خير لهم ولكنه شر لهم

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة في نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفزعوا ؛ لتخلف هؤلاء القادرين عن القتال وزعم أنهم أصحاب الطَّوْل الذين يملكون الأموال والأولاد ويريد الحق أثر ذلك من نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه :

---

(١) الطبع لا يفك أبداً ، فالذي طبع على قلبه ليس له قبول لأنه غير عدل ولا مقبول .

(٢) الختم قد يفك ، وقد يكون له مدة معلومة وقد يقبل مع التوبة الخالصة

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أى : إياكم أن تحزنوا على هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم عن الجهاد معكم ولا تقولوا . نحن خسرناهم فى قتالنا ؛ لأن الحق لا يحتاج إليهم ولا إلى جهادهم وسبحانه القائل : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه :

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد]

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

إذن : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال وإحجامهم عن الجهاد ، يجب ألا يشيع الفزع أو الحزن فى نفوس المؤمنين ؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم

الخيرات ، أي : لهم كل ما يطلق عليه خير [1] : ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والمفلح : هو الفائز الناجي المستفيد بثمرة عمله ، وأصلها فلح الأرض أي: شقها ؛ لأن الزراعة تقتضي أن تحرث الأرض أولاً ، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الزرع . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة]

ونحن حين نحرث الأرض نهيجها ، وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس ؛ فتخلصها من أي ماء راكد في داخلها ، وبذلك يتوافر للأرض الهواء اللازم لنمو جذور النبات ؛ لأنك إذا وضعت الحبّ في أرض غير محروثة ، فالزرع لا ينبت ؛ لعدم وجود الهواء الذي تتنفس منه الجذور . ولكن إذا حرثت الأرض ؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح ؛ وتبخر الماء المخزون ؛ ليدخل الهواء بدلاً منه ؛ فتستطيع جذور النبات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نُسمِّيه فَلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسّي ، الذي نراه كل يوم وهو الفلاحة .

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معنويّاً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسّة من الذي نراه أمامنا ؛ حتى نستطيع أن نُقرِّب المعنى إلى الأذهان ؛ خصوصاً في الغيبيات التي لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يُقرِّبها إلى أذهاننا ؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسيّة . والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبذر فيها الحب ، نعطيه محصولاً وفيراً . وكذلك فإن كل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نسميه فلاحاً

(١) الخيرات : جمع خير ، فالمعنى : لهم منافع الدارين ، وإن كان قد قال الحسن : الخيرات : النساء الحسان ، ودليله قوله عز وجل : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن : ٧٠] . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١٤٩)

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل عما نراه كل يوم ؛ لنقرب إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة [1] ، ومضاعفته لنا الأجر ، فيقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ... ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها في الأرض تنبت سبعمائة حبة ، وإذا كنت الأرض ، وهي مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشيء الواحد سبعمائة ضعف ، فكم يعطي خالق الأرض ؟ وكم يضاعف ؟

إنها صورة مُحَسَّة للجزاء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع الأرض لا تقول : إن أنقصت المخزون عندي كيلة [2] من القمح أو إردباً [3] من القمح ؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح ؛ لتزرعه في الأرض . ولكنك لا تنظر إلى الإردب الذي أخذته من المخزون عندك ، بل انظر إلى ما سوف يجيء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك الزكاة . إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدي الزكاة ، ولكن انظر إلى كم سيضاعف الله لك هذا المال .

وقد ضرب الحق مثلاً بشيء مُحَسٍّ يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه أمامنا لعلهم ما ينتظرنا ، فإذا كانت الأرض - وهي المصدر الأول للاقتيات [4] - تُنمي فيها الحبة الواحدة ، فتعطي لك سبع سنابل في كل

---

(١) الصدقة . ما يخرج من المال على وجه القربة إلى الله تعالى . ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة]

وتصدق . أخرج الصدقة . ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة] بحذف إحدى التاءين

واصدق . أخرج الصدقة وصدقه . أمن بكلامه - والصَّدُقَة : صداق المرأة ومهرها لا تدل على صدق الرغبة . وفي مادة الصدقة صدق مع الله وصداقه مع الناس وصداقة مع النفس . وأما الزكاة فهي ما فرض بمقدار ونصاب محدد

(٢) الكيلة وهذه تكال به الحبوب ، ومقداره الآن ثمانية أقداح . والجمع كيلات

(٣) الإردب مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، أو ست ويبات والجمع أرادب .

(٤) الاقتيات القوت والرزق

سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض للمخلوقة لله تعوضك عما وضعت فيها بسبعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟

إذن : فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب. ولذلك يبشر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله

﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهذا جزاء المؤمنين فى الدنيا ، ولكن هناك جزاءاً آخر فى الآخرة . وفى هذا يُبشِّرنا الحق سبحانه فى قوله :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنات و لأنهار ، وهنا يوضح لنا الحق الخير الذى يخلد فيه المؤمنون .

ولماذا سمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك . إذن : ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة - فى الوقت نفسه - ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج منك أى تعب أو عمل أو اجتهاد ، بل يأتيك الشىء بمجرد أن يخطر على بالك ، وهذا لا يحدث إلا فى الآخرة وفى الجنة وهذا هو الفوز العظيم ؛ لأنه دائم وبلا نهاية

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

والحديث هنا عن المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسمَّون «الأعراب» ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقي المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ [1] ... ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا يأتي الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون في البوادي التي حول المدينة وهم الأعراب.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ٱلْمُعَذِّرُونَ ﴾، وهناك « مُعْذِرون » و «معتذرون» ، والمعذِّرون هم المعتذرون ؛ فالمعتذر جمعه معتذرون بفتحة فوق التاء ، لكن إذا وُصِفَتْ الفتحة فوق العين فالحرف الذي بعدها يُسكَّن ، وعندما يُسكَّن ما بعد العين ، فهنا يعني أن هناك اعتمالاً.

إذن : فالمعذِّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة [2]. وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقي ويقال : « المعذرون» ، و« المعَذِّر» ، و«أعذره» أي: أذهب عذره ، مثل: « أعجم الكتاب » أي : أذهب عُجْمَته

---

(١) النفاق أن يظهر الإنسان بخلاف ما يبطن ، وأصل " المنافق" في صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأضمر الكفر ، والنفاق مصدر نافق ومردوا على النفاق ، عتدوا عليه وتمرسوا به ، وكأنه أصبح حرفة لهم

(٢) المُعذِر الذي يعتذر وله عذر حقيقي ، المعتذر : مثله المُعذِّر " الذي يعتذر وليس له عذر ، بل يفتعله ويختلقه

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول في الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا في الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أو لاستأذنوا رسول الله في القعود .

ثم يقول الحق . ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر - كما نعلم - هو ستر الإيمان . والمنافقون من الأعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلىء بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ قَالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

أي أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان.

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذي ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول . ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب في القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطي رخصة للذين لا يقدرون على القتال ولهم العذر في أن يتخلفوا عنه ؛ فقال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعني الحق المرضى من القتال ؛ وهم من أصيبوا بعاهة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقون ؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة - كما نعلم - هي أن تقدر أن تعول نفسك في الذهاب والإقامة مدة الحرب والعودة . وكان على كل مجاهد أن يُمدّ مطلوبات الحرب . فالله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم الجهاد ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ أي ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على الجهاد ؛ ليُحَمِّسوهم على القتال ، ثم يكونون في عون أهل المجاهدين [1] ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التي يطلقها المنافقون في المدينة ؛ للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخرِسوا ألسنة السوء .

ثم يقول الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والسبيل هو الطريق ، ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : « ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ » ؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا ينتهي إليهم بلوم ؛ لأن هناك فارقاً بين أن يمر عليهم وأن ينتهي إليهم ، فالمرور أمر عادي ،

---

(١) عن زيد بن خالد الجهني أن رسول الله ﷺ قال « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا » متفق عليه . أخرجه البخاري (٢٨٤٣) ومسلم (١٨٩٥) قال النووي في شرحه لمسلم « هذا الأجر يحصل لكل خالف له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو مساعدتهم في أمرهم » .

وليس هو الغاية ؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجد سبيل إليهم ولا إلى عتابهم ؛ لأنهم أدوا كل ما تطلبه الجهاد منهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى ميدان القتال ؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ، وفعلوا كل ما يتطلبه الإيمان .

أما إذا كان المجاهد لديه ما ينفقه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبها ، فعليه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسول الله ﷺ . ﴿ لا أجدُ ما أحملكُمْ عليه ﴾ فهذا إذن بالقعود ، وفي هذا يقول الحق سبحانه .

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

إذن فالمعفوّن من الجهاد هم : الضعيف والمريض ، والذي لا يجد قوتاً ، ولا يجد راحلة ؛ فيطلبها من رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله (١) ﴿ لا أجدُ ما أحملُكُمْ عليه ﴾ ومن في مثل هذه الحالة يحزن مرتين ولا يفرح ؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين في ذلك الوقت أن يمكنوا ما ينهض بنفقات المقاتلين أو أن يجهزوا لهم وسائل الانتقال إلى ميدان القتال ، والحزن الثاني : بسبب عدم تواجده في ميدان القتال مشتركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد في ميدان القتال

إنه جهاد حماية القاعدين من إشاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محاربة الإيمان ، بل سيرجعون بنقل الأخبار الكاذبة إلى أهالي

---

(١) قال القرطبي : روى أن الآية نزلت في عرباض بن سارية . وقيل : نزلت في عائذ بن عمرو وقيل : نزلت في بني مقرّن . وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبي ﷺ ، وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٥٣)

المقاتلين ، وهم من نسميهم فى الاصطلاح الحديث "الطابور الخامس" ، وهم من يُثبِّطون همم ومعنويات أهلى المقاتلين . إذن فمن قعد عن القتال بسبب عذر حقيقى فله جهاد آخر فى حماية الجبهة الداخلية من أهلى المقاتلين فى مواجهة حرب الإشاعات التى يقودها المنافقون .

وهكذا نجد الجهاد [1] فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير المسلمين تكون لأمرين : الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأن يقفوا فى سبيل الداعى ليمنعوه عن الدعوة إلى الله ، والأمر الثانى : أن ينتشر المسلمون فى الأرض ليُعْلنوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، والسيف الذى حُمل فى الإسلام ، لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان فى أن يختار الدين الذى يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان : إنما ينشأ بإزاحة العقبات التى تعرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها ، فيختار بحريه الدين الذى يرتضيه .

إذن : فالإسلام لم يعرض بالسيف ، ولا فمن الذى عرض الإسلام على الذين سقوا إليه حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمى من دخل فيه ؟!

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما فرض عين - إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية - إن قام به البعض سقط عن الباقين . ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف : الضعفاء شيخوخة أو صغر ، والمرضى أصحاب العاهات ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفقه على نفسه ،

(١) الجهاد يكون فرضاً عيناً إذا حصل الاعتداء من الأعداء واحتلت البلد ويكون فرض كفاية إذا حدث اعتداء ولم تحتل البلد ، وكذلك لنشر دعوة الله يكون الجهاد بالإشاع والدليل ، لأن الإسلام لا يعرف السيف إلا عند الاعتداء ووقوع الظلم على المسلمين من الغير

وتسم لا يجد ما ينفقه على الحرب ، أى لا يجد أدوات القتال أو الراحلة التى يركبها .

ورفع الحق سبحانه الحرج عن هؤلاء ، ووظّمهم سبحانه فى وظيفة إيمانية تحدم الجهاد بأن يكونوا فى عون أهل المجاهدين ، ويقمعوا المرجفين الذين يريدون السيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليهم ، ويخرسوا ألسنة السوء ، هذ بالنسبة للذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك [1] .

أما الذى يجد ما ينفق ، ولا يجد الوسيلة التى تنقله إلى ساحة القتال ؛ فعليه أن يذهب إلى ولى الأمر ليسأله الراحلة ، وكان رسول الله ﷺ هو قائد الجهاد فى حياته ، فإن قال لأحد . ليس عندى ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفى لرفع الحرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله فى حب الجهاد ، وحزنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : ﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ وكلمة " تفيض أعينهم " توضح ما فى قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هى ماء حول العين ؛ يهيجه الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن وتفد الدمع وجمدت العين عن البكاء ؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال . " بكيت دماً " .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : " فاضت دموعهم " ، ولم يقل : "بكوا دماً بدل الدموع " ، وإنما قال : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ ، فكأن العين

---

(١) وذلك بالإعلام الدينى وتهجيم الإشاعات الكاذبة .

ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يجد إلا أن تفيض لعين على الخد ، وذلك بظهار لشدة الحزن فى القلب ، وهذا المجاهد لا لوم عليه ولا ذنب ؛ لأنه فعل ما فى وسعه وما فى طاقته وعبر عن ذلك بحرقة مواجيده على أنه لم يكن من أهل الجهاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هناك قال سبحانه : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ الذين كانت لهم أعذارهم فى التخلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين فى تخلفهم هذا فقال تعالى : ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ . إذن . فعلى من يكون السبيل ؟

وهنا تأتى . جابة الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

أى . أن طريق الإثم واللوم والتعنيف والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوا فى أن يقعدوا عن القتال ، ونعلم أن الغنى إذا أطلق ينصرف إلى غنى المال ، ولكن الغنى إذا جاء بالمعنى الخاص ، يكون معناه ما يدل عليه النص . فالذى لا يجد ما ينفقه أعفى . إذن . فمن يجد ما ينفقه فهو غنىّ بطعامه والضعيف قد أعفى ، إذن : فالقوىّ غنىّ بقوته . والمريض أعفى ، إذن . فالصحيح غنىّ بصحته ومن لا يجد ما ينقله إلى مكان الجهاد فقد أعفى ، إذن : فمن يملك راحله فهو غنىّ براحلته

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة « الغنى » على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد ؟ إذن . فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وعليوا أن يقعدوا عن الجهاد .

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأذنون وهم أغنياء ؟

نقول : لأنهم منافقون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ ومن يَرْضَ أن يكون وضعه مع الخوالف ، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهمة ؛ فهم رضوا أن يعاملوا معاملة النساء ، والخوالف - كما سلم - جاءت على مراحل ، فهم قالوا :

﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة]

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة ؛ لأن الرجل قَيِّم على أهله . والقعود للنساء ، والخوالف ليست جمع خلف ، وإنما هي جمع « خالفة » ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة « القواعد » يقول سبحانه :

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور]

أي أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة ؛ فتنازلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول :

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

أي : « القوم » في مقابل « لنساء » .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقابهم ، فيقول : ﴿ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفى الآية السابقة يقول سبحانه : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... (٨٧) ﴾ [التوبة]

ما الفرق بين التضمين ؟

إذا رأيت فعلاً تكليفياً مبنياً للمجهول ، كقوله تعالى . ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ . (١٨٣) ﴾ [البقرة]

قد يقول قائل كان المفروض أن يقال : « كتب الله عليكم القتال » و « كتب الله عليكم الصيام » ، لأنه صار أمراً لازماً معروضاً ، فكان الأولى أن يقول : كتب الله ، أى أن الذى يفرض هو الله ، رغم أن الحق سبحانه هو الذى يكلف . إلا أن كل التكليفات تأتى بصيغة المبنى للمجهول كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه . ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ (١٨٠) ﴾ [البقرة]

والسبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأى تكليفات إيمانية ؛ فسبحانه لم يكلف بأى حكم من أحكام الإيمان إلا من آمن به وأسلم له ؛ لذلك عندما يخاطب سبحانه بالتكليف يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ومن هنا نعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسان يدخل فى الإيمان باختياره ، فإذا دخل فى الإيمان كتب الله عليه . إذن فالإيمان هو مدخل الفريضة . وما دُمْتَ قد آمنتَ فقد أصبحتَ طرفاً فيما فرضه الحق سبحانه وتعالى عليك ؛ لأنك لو لم تؤمن

فليست عليك فرائض ، إذن : فأنت الذى ألزمتَ نفسك بحكم الله ؛ لأنك آمنت به إلهاً حالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت ؛ فرض الله عليك ، فأنت طرف فى كل فريضة عليك . وزعم أنه سبحانه وتعالى هو الذى فرض ، فقد أحبَّ فيك أنك دخلتَ فى نطاق التكليف بإيمانك ؛ فبنى الفعل للمجهول

وإذ حئنا إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ نجد أن الحق يلفتنا هنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبع على القلوب ؛ لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ، ثم أخذوا يتحدثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله ؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : مادمتم قد خترتم النفاق والكفر فى قلوبكم ؛ فسنطبع على هذه القلوب ، ونختم عليها حتى لا يخرج الكفر منها ولا يدخل إليها الإيمان

فسبحانه وتعالى - إذن - هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا ، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم ؛ ولهذا جاء الفعل مبنياً للمجهول ، فهم مشتركون فيه

أما الآية التى نحن بصددها فيقول تعالى:

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة يسند الطَّبْع إلى الله يكون أقوى طبع على القلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم نهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد لا يفهم شيئاً ، أى . لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه.

لذلك نفى الفقه أو الفهم لا ينفى العلم ، ولكن حين ينفى العلم فهو ينفى الفهم عن الذات ، وينفى الفهم عن لغير ، ولذلك حين يقال : ﴿ لا يفقهون ﴾ أى : لا يفهمون بذواتهم ، ولكن قد يتعلمون العلم من غيرهم . أما إذا قلنا : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمقصود أنهم لا يفهمون ولا يتعلمون إذن نفى العلم ينسب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفى الفقه فينسب نسبة عامة للفعل المبنى للمجهول

فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى الفقه عنهم بالفعل المبنى للمجهول أوضح أنهم بذاتهم لا يفقهون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم ينف احتمال أن يتعلموا من غيرهم فى المستقبل ولكن عندما قال الحق : ﴿ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قد نفى عنهم أيضاً العلم بذواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون الطبع على قلوبهم أقوى ؛ لأنهم رفضوا العلم من ذواتهم ورفضوه من غيرهم .

ولذلك تجد ﴿ لا يفقهون ﴾ فى موضع ، وتجد ﴿ لا يعلمون ﴾ فى موضع آخر ، وكلٌ تناسب موقعها الذى قيلت فيه

ثم يقول سبحانه :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ومعنى «يعتذر» أى : يبدى عذراً عن شىء يُحرجه من اللوم أو التوبيخ ، ويقال : « اعتذر فلان » أى : فعل شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه

والحق هنا يقول : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وفي آية سابقة يقول مخاطباً النبي ﷺ.

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين نسب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ . وعندما نسبه إلى رسول الله ﷺ قال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ مما يدلنا على أن زمام محمد ﷺ بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق . ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ويأتي بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين في الاعتذار : ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا ﴾ ، وفي هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً في أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً . ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألاَّ وجه للمعذرة.

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله ﷺ والمؤمنين ؛ وتهيأوا للاعتذار ؛ وقبل أن ينطقوا بالعذر ؛ أوضح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام. لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدائهم للعذر ثم فاجأهم بالحكم في قوله تعالى . ﴿ لن نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ومادة «آمن» تدور حول عدة معان ، نقول: «آمن » أي . اعتقد وصدق مثل قولنا . « آمن بالله » ، ويقال « آمن بالشيء » أي : صدَّقه ، و « آمن بكذا » أي : صدَّق ما قيل والحق هو القائل :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ . . ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

وقال إخوة يوسف لأبيهم:

﴿ وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف]

أي لن تصدقنا . وآمن إذا تعدَّتْ بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإن تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى:

﴿ فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ ﴿٣﴾ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

وتجيء أيضاً « أمن » و « أمن » بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب :

﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبلُ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

إذن : « آمن » إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيماني ، وإنْ تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّت بنفسها إلى الفعل فهي إعطاء الأمن والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً ؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق:

﴿ ومنهم مَنْ إن تأمنْهُ بدينارٍ لا يُؤدِّهِ إليك إلا ما دُمْتَ عليه قائماً... ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران]

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ قُل لا تعتذِرُوا لَن نُّؤمن لكُمْ ﴾ أي: لن نصدقكم فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله ﷺ يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم . لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبره بكل شيء ؛ حتى بما في قلوبهم

قبل أن ينطقوه ، ولو امتلكوا ذرة من فطنة لرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا في الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً في قوله سبحانه ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ فكأن المسألة ليست فراسة استنتاج ، ولكنها وحي من الله.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾

ما هو العمل الذي سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبره بما يُخفونه من كذب في صدورهم ؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يغلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتيقنوا أن رب محمد ﷺ لا تخفى عليه حتى نواياهم وما دُمْتم قد علمتم صدق محمد ﷺ في كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم إذن - أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان ؛ وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد اختلفت أعمالكم من النفاق إلى الإيمان ، أما إنْ أصررتم على ما أنتم فيه ، فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التي أنبأ الله فيها رسوله بكذبكم.

إذن : فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانتهزوا هذه الفرصة ؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم في المستقبل ؛ وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم [1] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أولى أنه عليم بعالم الشهادة .

---

(١) الأنباء : الأخبار الهامة قال الحق ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام] - وأنبأه بالشيء ونبأه به أخبره ، وذكر له قصته .

والعيب - كما نعرف - هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً ولكن إنْ غاب عنك ولم يغبْ عن غيرك فهو غَيْبٌ نسبى ؛ لأن هناك حجباً منعت عنك العلم ، والمثال : إن سُرق منك شيء فأنت لا تعرف السارق ؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف والذى أخفى السارق عنه المسروقات يعرف .

إذن فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما الغيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدّعون قراءة الأفكار ، ويسمونهم المرّمين المغناطيسيين ، ويطلب المنوّم من أى واحد أن يُخرج ما فى جيبه من نقود وأن يقوم بعدّها ، ثم يخبره بعددها ، وإن أردت أن تكشف الأغبياء ؛ ضع يدك فى جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها ، واسأله عن هذا المقدار فلن يعرف ، لماذا ؟ لأنك نقلت المسألة من غيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق

إذن فالغيب [1] المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعطيت ابنك تمريناً هندسياً ليحله ، فالحل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستخدم المقدمات والنظريات حتى يصل إلى الحل ، فكأن هناك أشياء لها مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً ؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذى اكتشف تفتيت الذرة أنهما علما الغيب . فقد كانت هناك مقدمات فى الكون أوصلتهما إلى كشف بعض القوانين الموجودة بالفعل ، لكنّا لم نكُنْ نعرفها

---

(١) الغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر قال تعالى : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ﴿٣﴾﴾[البقرة].
والغيب هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة وإبليس ، وجمعه غيوب قال تعالى ﴿إنك أنت علامُ الغُيوب ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة] وهذا هو الغيب المطلق
أما الغيب النسبى فهو الذى يغيب عنك ولم يغب عن غيرك ، وقد تعرفه عند الإذن بجلائه

وفي بعض التدريبات ، نجد من يضع المسألة المطلوب حلّها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها ؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح.

ولذلك إذا أردت أن تحلّ شيئاً في الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل ؛ كأن يُطلب منك - مثلاً - إثبات أن الخطين متوازيان ، وفي هذه الحالة يجب أن تكون كل زاويتين متناظرتين متساويتين ، وكل زاويتين متبادلتين متساويتين . إذن : فأنت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك في تساوي ضلعي المثلث أو أضلاعه ؛ يكون إثباته بتساوي الزوايا . فهل في هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب ؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج ؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، تقول : إن هذا يساوي هذا حسب النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت في براهينك إلى نظرية رقم واحد فهي النظرية التي لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بديهية.

وهكذا نجد أن كل علم في هذا الكون بُني على نظريات أو مقدمات بديهية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله في كونه من أسرار[1] . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : ﴿ عالم الغَيْبِ والشَّهادَةِ ﴾ أي أنه سبحانه عالم بالغيب المطلق ، الذي لا توجد له مقدمات توصلنا إليه ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق ؛ لأنه ليس معروفاً

(١) هذه الاكتشافات التي عرفت من المقدمات والنظريات والتجارب لا يطلق عليها أنها غيب ، وإن كانت عادية قبل التعامل مع المقدمات أو التجارب ، فهذا جهلنا بالتعامل مع العلم ، وأن ميلاد ظهورها لم يحن بعد ، فهذا بتقدير العزيز العليم

عند البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه ؛ لأنه الغيب الذى ينفرد به الحق عزّ وجلّ .

ونجد الحق سبحانه يقول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن الغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور :

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذى يشاؤه لذلك ، وكل شيء فى الكون له ميعاد ميلاد ؛ مثل : الكهرباء ، والذرة ، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أى اكتشاف إلا بإذن الله حين يلفتهم إلى هذا السرّ ؛ إما بالبحث العلمى ، وإما أن يتم معرفته صدفة .

وهكذا نجد أن البشر يُحَاطون علماً بهذه الأسرار بعد مقدمات وبإذن من الله .

وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب ، فيكون سبحانه عالماً بالشهادة[1] من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه إن جلس فى مكان معزول مستور

---

(١) الشهادة خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شُهَّد (كراكع ورُكَّع) وجمع الجمع شهود أو شهود : جمع شاهد ، مثل : ناعد وقعود والشهادة بمعنى ما يشاهد بالمدركات والوجدانيات للوصول إلى الأخبار ، ذلك عند الإنسان ، أما بالنسبة لله سبحانه فهو عالم الغيب والشهادة فهو (عَلاَّم الغيوب) لأنه خالقها فهو أعلم بغيبها وظاهرها

ويفعل ما يريد ، فمن يشهده الله ؟ لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقي ؛ لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه في هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه

وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فلا بد أن يأتي بعدها ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يخبركم مقدماً بجزاء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لو علم أن فعله يؤدي إلى الشر لما فعل ، وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه ؛ لأن الله أبلغه بالجزاء ، فيكون الجزاء عدلاً لا ظلماً

ولذلك يقول الحق سبحانه.

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فأنت الذي تحكم على نفسك.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

وكلمة ﴿ سيحلفون ﴾ فيها سرّ إعجازي من الله ؛ لأن حرف « السين » هنا تدلنا على أنهم لم يحلفوا بعد ، أي أن الآية نزلت وتُرتلت وسمعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتلى وتُقرأ في الصلاة ، ولا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة.

ولو كان للمنافقين قدرة على التدبر لما جاءوا وحلفوا ولقالوا . إن رسول الله ﷺ قال في قرآن يوحى إليه : إننا سنأتي ونحلف ، ونحن لن نأتي ولن نحلف ؛ ولكن لأن الله هو العالم وهو الخالق وهو القاعل ، فقد شاء أن تعيب العطة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قبل :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية[1]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ والانقلاب معناه لتحول من حال إلى حال ومعنى الانقلاب في هذه الآية مقصود به العودة إلى المدينة مقر السلام والأمن بعد الحرب ، فكان الاعتدال في القتال والانقلاب هي العودة إلى المدينة . ولكن لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي . لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعنيفهم ؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم.

فقال الحق . ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي أعفوهم مطلوبهم من الإعراض ولكنه لون آخر من الإعراض ، فلا تلوموهم ولا توبخوهم ولا تؤنبوهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة، لا إعراض صفح ومغفرة[2] ، جزاءً لهم على ما فعلوا ؛ لأن التأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل في المخالف ليعود إلى الصواب . فأنت إن لم يذهب ابنك إلى المدرسة مثلاً تُوبِّخه وتُعنِّفه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل في أن يتصلح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذا الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل في إصلاحه

---

(١) لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل وما فيها ومن فيها

(٢) إعراض الصفح والمغفرة قد ورد في القرآن الكريم في قوله سبحانه في سورة يوسف من قول العزيز ليوسف ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف ٢٩] أي . اصفح يا يوسف عما حدث وانتهتك به المرأة ولا تذكره لأحد ـ

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين لو أن التوبيخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً فى الإصلاح ، وهم لن يصلح حالهم ، وهم فى ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبيخ من إخوته فى الإيمان ، وفى هذا إيلام له . والمؤمن عرضة أن تصيبه غفلة فيرتكب إثماً ، فإذا حدث بعد هذا الإثم إيلام له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين ، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول به إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم التوبيخ أو الإيلام النفسى ؛ لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر فأعرضوا عنهم ؛ لأنهم لا يستحقون حتى اللوم ، فالتوبيخ جزاء على ذنب قد يُقلع عنه من ارتكبه ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، ولعله يأتى بها القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أى هم الخباثة بذاتها ، ويقول العلماء : أى أن فيهم خبثاً وقذارة . وأقول : إن الرجس هو القذارة نفسها ، فلا نقول إنهم قذرون ؛ لأنه إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهُرٌ أصابهم قذر ، وهم ليسوا كذلك ، إنهم «قذر» فى حد ذواتهم ، ولا يطهرهم شىء ؛ لأن الذى يخرج من القذارة يكون مثلها ؛ فهم خباثة لا يطهرها لوم أو توبيخ وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (١) ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ولم يقل : « نجسون » بل هم أنفسهم نجس

---

(١) نجس ينجَسُ نجسا فهو نجسٌ لحقه نجس أو نجر ، وهو فى المحسوس حقيقة وفى المعنوى مجاز ، ويوصف بالمصدر للمبالغة فيستوى فيه المفرد وغيره ، قال تعالى ﴿ إنما المشركون نجس (٢٨) ﴾ [التوبة] والنجاسة هنا معنوية فهو الكفر و الضلال

والرجس يطلق أيضاً على الشيء القذر حسياً : مثل الميتة ، والحق سبحانه يقول . ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام]

إذن ميتة قذارة حسّية ، كذلك الخمر التي يقول فيها الحق

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ... ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة]

فالخمر نفسها رجس ، أي . قذارة حسّية ، وعطف عليها الحق- سبحانه الميسر والأنصاب ، والأزلام [1] ، وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا يفهم أن الخمر رجس حسّي ، بينما الأنصاب والأزلام والميسر رجس معنوي

وهناك أيضاً الرجز ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول-

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ... ﴿١١﴾﴾ [الأنفال]

إذن فالرجس له متعلقات ؛ معناه هنا الكفر ، والكافر هو قذارة في حَدِّ ذاته لا أنه إنسان أصابته قذارة .

ويقول الحق- ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والمأوى : هو المكان الذي يؤويك من شر يلحقك ، ويقال: « آوى إلى كذا » أي : هرب من شر يُراد به ، فإذا كان المأوى الذي يفرعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أن يدخلوا جهنم ، وهي بطبيعة الحال بئس المصير

---

(١) الأزلام : سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها « افعل » وعلى البعض الآخر « لا تفعل » فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى سادن الكعبة فقال « أخرج لي زلماً » ، فإن خرج ما « افعل » فعل ، وإن كانت « لا تفعل » لم يفعل

وهل ذلك افتئات [1] عليهم أم جزاء ؟ يقول الحق : ﴿ جزاءً بما كانوا يكسبون ﴾ ونعرف أن الحسنة يقال عنها : « كسب » ، والسيئة يقال عنها « اكتسب » [2] ، والحق هو القائل:

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

وذلك لأن عمل الحرام للمخالف لمنهج الله لابد أن يشوبه الاغتمال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطري لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتنازع فيه مَلَكَات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألفونها إلْفاً بحيث تصبح سهلة ؛ فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئة كسباً ، كأن تأتي لإنسان ، فيحدثك بمغامراته في الخارج ، ويروي عن رحلاته في باريس ولندن ، وما فعل فيهما من منكرات هو يظن أنه يحكي عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكي عن مصائب وقع فيها باختياره

من هذا الإنسان يفعل السيئة ، وهو معتاد عليها ؛ فتصير كَسْباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية ؛ فظل يبكي ويبكي ويبكي ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويندم عليها [3] . فالأول فرح بخطاياه ومعاصيه واعتبرها كسباً ، وصارت له دُرْبة وله رياضة وله إلْفٌ بتلك المعاصي .

وهنا يقول الحق سبحانه .

---

(١) الافتئات الاختلاق والقول بالباطل

(٢) تعتبر السيئة كسباً عند هؤلاء لأنها أصبحت عادة عندهم

(٣) عن عبد الله بن مسعود قال . « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرت على أنفه فقال به هكذا » أي « بيده أو دونه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨) وأحمد في مسنده (١/ ٣٨٣) والترمذي (٢٤٩٧) قال ابن حجر في الفتح (١١/ ١٠٥) « بعد شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة ، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيء »

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفعٌ ؛ فحين أقول : أنا راضٍ بالشيء الفلاني ، فمعنى هذا أن كمية النفع التي آخذها منه تكفيني . ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بنفع ما ، وعند غيرك ما هو أحسن منه لكنه غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل ما يجري عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضى به ؛ لأن مجريه رحيم وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُضَنّ عليه بمال ؛ لأنه سبحانه لو زَوَّده بالمال فقد يبعثره على أولاده ، ويصبح المال وسيلة انحرافهم [1] ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر أساؤه من فترة المراهقة ، ثم ينعم ربنا عليه بالمال بعد أن وصل الأبناء إلى النضج ، وضنّ الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : «إذا لم يكُنْ ما تريد، فَلْتُرِدْ ما يكون».

ولماذا يحلف المنافقون [2] ؟ وتأتي الإجابة من الحق: ﴿ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ وماذا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المنافقين ؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف رضاء رسول الله ؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه ؟

إن ما يُفرح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم ؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضا ربه ، فالرضا الحق هنا هو

---

(١) قال الشيخ الشع من الله عين العطاء ، وقد يكون العطاء نقمة .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/٣١٥٦) «حلف عبد الله بن أبي ألا يتخلف عن رسول الله ﷺ بعد ذلك ، وطلب أن يرضى عنه».

رضا الله ، فإياكم أن يخدعوكم بمعسول الكلام ، وزيف الأساليب ؛ كي ترضوا عنهم.

ثم يقول الحق. ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ .

أي لم تحقق هذا الرضا منكم عنهم ، فهو رضاً بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله ، ولا من باطن رضا الله ؛ لذلك يُنهي الحق الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ وإن لم يَرْضَ الله فرضاكم لن ينفعهم ، وطلبهم الرضا منكم عساه ينفعهم ، فإن رضاكم عنهم لن يقدم ، ولن يؤخر ، إلا إن كان من باطن رضا الله ، ورضا رسوله.

وهنا ملحظ. هم فاسقون أم كافرون ؟ نقول: إن الحق سبحانه أوضح لنا :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء]

أي أن مكان المنافق في النار أسفل من مكان الكافر. وكيف يكون المنافق فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً؟ فالمؤمن قد يفسق بأن يرتكب كبيرة من الكبائر ، وسبحانه يقول.

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة]

فالمؤمن قد يسرق ، وقد يزني أيضاً فسبحانه يقول:

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ... ﴿٢﴾ ﴾ [النور]

وما دام سبحانه قد جرّم الفعل ، ووضع له عقوبة ؛ فمن الممكن أن يرتكبه المؤمن ، ولكن علينا أن نُفرّق بين الفاسق والعاصي ، فمن يرتكب

الكبائر فهو فاسق ، ومن يرتكب الصغائر فهو عاص . فكيف يصف الله المنافقين بالفسق [1]؟ ولنذكر ما نقوله دائماً من أن الكفر ، إنما هو كفر بمحمد وبالإسلام ، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام ، لكنه الخروج عن الطاعة حتى في الأديان التي يتبعها أي قوم ، فالأديان كلها تضم قدراً من القيم ، وأتباعها محاسبون على القيم التي في أديانهم ، لكنهم أيضاً يفسقون عنها

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

وقد تكلم الحق من قبل عن المنافقين من غير الأعراب ، وهم العرب الذين نزل فيهم وللناس كافة منهج الله ، وها يتكلم سبحانه عن الأعراب ، فما الفرق بين العرب و لأعراب ؟

العرب هم سكان القرى المتوطنون في أماكن ، يذهبون منها أو فيها إلى مصالحهم ؛ ويأوون إليها ؛ وهذه مظهرها البيوت الثابتة ، والتأهيل المستقر ، لكن الأعراب هم سكان البوادي ، وليس فيهم استقرار في مكان ، إنما يتتبعون مواضع الكلأ ؛ وليس لهم توطُّن ، ولا أنس لهم بمقام ولا بمكان.

ومعنى ذلك أن كلاً منهم ليس له سياسة عامة تحكمه في تلك البادية ، وكل واحد منهم- كما يقال - صوته من دماغه ، أو من دماغ رئيس القبيلة ، وما داموا بها الشكل ، وليس عندهم توطن ؛ يوحي بالمعاشرة

(١) النفس إذا تعلق بالعقيدة فهو كفر ، لكل ما يعمله فهو فسوق أي خروج عن أمر الله ومراده ، وفسق المؤمن مبوط نفس مؤقت له التوبة، يقول الحق ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء]

التى تقتضى لين الجانب وحسن التعامل ؛ لذلك يقال عن كل واحد منهم «مستوحش» أى. ليس له ألفة بمكان أو جيران أو قانون عام.

أما الذى يحيا فى القرية ويتوطنها فله جيران ، وله قانون يحكمه ، وله إلف بالمكان ، وإلف بالمكين ، ويتعاون مع غيره ، ويتطبع بسكان القرية ويألفهم ويألفونه ومع الإلف والائتلاف يكون اللين فى التعامل ، عكس من يحيا فى البادية ، فهو يمتلىء بالقسوة ، والغلظة ، والشراسة ؛ لأن بيئته نضحت عليه [1] والوحدة عزلته .

وقد سمعت « أعراب » فاعلم أنهم سكان البادية المشهورون بالغلظة ؛ لأنه لا يوجد لهم تجمع يوحى لهم بلطف سلوك ، وأدب تعامل ، وكلمة «الأعراب» مفردها « أعرابىّ » . وهناك أشياء الفرق بين مفردها وجمعها التاء ، مثل « عنب » و « عنبة » هى المفرد ، وقد يفرق بين الجمع والمفرد « ياء» مثل « روم » والمفرد « رومى » .

و « أعراب » - إذن - هى جمع « أعرابى » وليست جمع عرب. وهؤلاء مقسومون قسمين : قسم له إلف بالحضر ؛ لأن كل أهل حضر قد يكون لهم بادية يلجأون إليها ، أى أن الأعرابى حين يذهب إلى البادية فهو ينزل ضيفاً عليهم ، ويسمون « المعارف » ، وكل واحد فى البادية قد يكون له واحد فى الحضر ، إذا اضطر للذهاب للمدينة أو للقرية فهو ينزل عنده وهناك قسم آخر لا بادية لهم ولا حاضرة.

وبعد أن تكلم الحق عن العرب ونفاقهم، يتكلم هنا عن الأعراب فيقول :

---

(١) ومن أمثلة غلظتهم أن أبا هريرة قال : قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالساً ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٧) ومسلم فى صحيحه أيضاً (٢٣١٨)

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ولماذا هم أشد كفراً ونفاقاً ؟ لأنهم بعيدون عن مواطن العلم والدعوة[1] ، وعندهم غِلْظة ، وعندهم جفاء ، وقوله سبحانه .

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعني : أحق ألا يعلموا حدود ما أنزل الله [2] ؛ لأن عرفان حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، يأتي من التواصل مع العلم ، وهذا لا يتأتَّى بالتنقل من مكان إلى آخر ، بل لا بد من الاستقرار . والعلم - كما نعرف - ألا تغيب عن العالم قضية من قضايا الكون ؛ وكل واحد مما يعلم علماً على قدر تجربته ومراسه في الحياة ، وعلى قدر جلوسه إلى العلماء ، لكن الله وحده يعلم علم الجميع .

والعلم عند البشر قد يوظَّف ، وقد لا يوظَّف ، وكثير من الناس عندهم العلم لكنهم لا يُوظِّفونه ، ومن لا يُوظِّف علمه يصير علمه حُجة عليه أما من يُوظِّف علمه ، ويضع الأمر في محله ، والنهي في محله ، والحلال في محله ، والحرام في محله ، والمشتبه يضع له حكماً مناسباً ، فهو يوصف بالحكيم ؛ لأنه وضع كل شيء في محله .

---

(١) قد يقول قائل : كيف هذا ونحن نستشهد بأشعارهم ولغاتهم ، وعلماء اللغة من الأصمعي وغيره كانوا يجوبون قبائل الأعراب لتعرف لغاتهم . يقول أبو يحيى الأنصاري في فتح الرحمن ص (١٧٢) : « وصمهم بالجهل إنما هو في أحكام القرآن ، لا في ألفاظه . ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام ، بل في بيان معاني الألفاظ ؛ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم » .

(٢) ومن طريف ما يروى في هذا عن إبراهيم النخعي قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني . فقال زيد : ما يريبك من يدي إنها الشمال ، فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال . فقال زيد بن صوحان : صدق الله ورسوله ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ [التوبة : ٩٧]

فإذا شرع الله أمراً ، فسبحانه قد شرع عن « علم » وعن « حكمة » ، وما دام قد شرع يجب ألا نخالفه ؛ لأن كل تشريع يتزله الله على رسوله إنما هو لتنظيم حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه هو لدى خلق الحياة وخلق كل المخلوقات ، وإياك أن تدس أنت أنفك فتشرِّع ما يغصب الحق ؛ لأن فساد الكون كله قد جاء من الذين أرادوا أن يُقَسِّموا للحق ، رغم أنهم لم يخلقوهم . ونقول لهم دعوا التقنين لمخلق لمن خلق الخلق ، فهو الصانع العالم بحدود ما صنع ووضع قوانين صيانة ما خلق ، وهو سبحانه الذى يمكنه أن يصلحها إن أصابها عطب أو فساد.

ومن هؤلاء الأعراب - الذين هم أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله - قوم آخرون يقول عنهم الحق:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلى سبيل المثال : إذا ذهب إليهم داعية من الدعاة ، وقال لهم فكرة عن الإسلام . فالواحد من هؤلاء الأعراب يدَّعى فى ظاهر الأمر أنه يتبع الإسلام ، وإن عُلِمَ أن فى الإسلام زكاة فهو يعتبر عامل الزكاة النصاب المقرر عليه ، ويعتبر ما دفعه « مغرما » أى غرامة ؛ لأنه أعطى النصاب وهو كاره . ومادُمْتَ كارهاً فأنت لا تؤمن بحكمته ، وتظن أن ما دفعته مأخوذ منك وتقول : « أخذوا عرقى» و« أخذوا ناتج حركتى » وأعطوه لمن لم يعرق ولم يتحرك فى الحياة ، متناسياً أن هذا الأخذ هو تأمين لحياتك ؛ لأنك حين تعجز ستجد من يعطيك ، والإسلام يأخذ منك وأنت قادر ، ويعطيك إذا عجزت ، وفى هذا تأمين لحياتك .

وأنت تعلم أن الأشياء أعراض في الكون ؛ القوة عرض ، والمرض عرض ، والصحة عرض ، والعجز عرض ، وأنت عُرْضة إن كنت قادراً أن تصير عاجزاً ، وإن كنت صحيح الجسد فأنت عرضة لأن تمرض ، فإذا ما طمأنك المشرع على أن أخاك العاجز حين عجز أخذنا منك له حين قدرت ؛ وبذلك تواجه أنت الحياة برصيد قوى من الإيمان والشجاعة ، ويبين الحق لك أنك لا تعيش وحدك ، ولكنك تعيش في مجتمع متكافل ، إن أصابك شيء من عجز ، فقدرة الباقي هي المرجع لك .

وكان لواحد من هؤلاء الأعراب يؤدي نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها مَغْرماً ، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المسلمين كارثة ؛ حتى لا يأخذوا منه الزكاة ، وهكذا كان الواحد منهم يتربص بالمسلمين الدوائر ، مصداقاً لقول الحق . ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ . أي يتمنى وينتظر أن يصيب المسلمين كارثة ؛ فلا يأخذ منه الزكاة التي اعتبرها مغرماً .

ولماذا قال الحق : ﴿ الدَّوائر ﴾ ؟ نعلم أن الخطبَ الشديد حين يصيب الإنسان أو القوم إن كان فظيعاً وقوياً يقال : « دارت عليهم الدوائر » . أي أن المصيبة أحاطت بهم ؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه ، وكان بعض من الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر ؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويظنون أنها غرامة ، ولا يستوعبون أن الزكاة تُكْتب في الميزان ، وأنها تطهير ونماء للمال ، وأنها حمل لعجز العاجز ، إن عجز الواحد منهم ؛ فسوف يجد من يحمله .

والذي يتربص بكم الدوائر ، ولا يفطن إلى حكمة الأخذ منه ، هو الذي تأتي عليه دائرة السوء مصداقاً لقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ لأن أيّاً منهم لم يفطن وبنته بقيمه الوجود في

المجتمع الإيمانى الذى يعطى له الزكاة إن عجز ، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك ، ولم تفطن إلى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك ؛ فسوف تأتى الدائرة عليك

وقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ تبدو كأنها دعوة ، ومن الذى يدعو ؟ إنه الله . وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر ، وبين أن يدعو قادراً . إن كان ربنا هو من يقول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة .

وينهى الحق الآية ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فسبحانه يسمع كلماتهم حين يأتى عامل الزكاة ليأخذ نصاب الزكاة ، وكيف كانوا يستقبلونه بما يكره ، وقد يكرهون فى طى نفوسهم ولا يتكلمون ، فإن تكلموا فالله سميع ، وإن لم يتكلموا . وكتموا الكراهية فى قلوبهم ، فالله عليم ، إذن : هم محاصرون بعلم الله وسمعه .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه للصف الثانى ، وهم من لهم قليل من إلف ، فإن كان من البادية فله أهل من الحضر ، أو كان من الحضر فله أهل من البادية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

ومن هؤلاء من يؤمن بالله ، ويؤمن باليوم الآخر ، وما ينفقه من زكاة أو صدقة فهو يتخذه قربى إلى الله الذى آمن به ، وكنزاً له فى اليوم

الآخر ، و" قربى" : أي " شيء يقربه إلى الله ؛ يدخره له في اليوم الآخر ، وقوله الحق : ﴿ وصلوات الرسول ﴾ أي : يجعل ما ينفق قربة إلى الله وكذلك طلباً لدعاء الرسول ؛ لأن الصلاة في الأصل هي الدعاء ، فساعة يصل إلى رسول الله ﷺ نفقة للمسلمين الضعاف ممن يعتبرهم قربة ، فهو ﷺ يدعو له .

وقد قال ﷺ : « اللهم اغفر لآل أبي أوفى ، وبارك لهم »

وقد دعا بذلك حين جاءه ما تركي وتصدق به بنو أبي أوفى ، ودعوة الرسول مجابة إلا ما قال الله إنه سبحانه لا يجيبه [1] لحكمة .

ولقائل أن يقول ألا يعلم من يقدم الزكاة والصدقة قربى ، أنه سبحانه غير مستفيد من هذا العمل ؟ ألا يعلم أنها قربى له شخصياً ؟ نعم إنه يعلم ، ويعلم أن الله يثيبه على أمر ينتفع به الفقراء ، وفي هذه إشارة إلى أن كل تكليف من الله إنما يعود نفعه إلى المكلَّف لا إلى المكلِّف . وما دام العائد إلى المكلَّف ؛ فالله يدعوك لصالح ذاتك وإلى خير لك .

ومن اعتبرها قربى إلى الله بأت لهم القول الحق : ﴿ ألا إنها قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وقد قال ذلك للأعراب الذين أنفقوا قربى لله ، وطمعاً في دعوات الرسول ﷺ ، فأوضح لهم سبحانه أنها قربى لهم ؛ لأنهم المنتفعون بها ، وأنه سيدخلهم في رحمته ورحمة الله هي نعيم مقيم ، وهي دائمة وباقية ببقاء الله الذي لا يُحَدّ ، أما الجنة فباقية وخالدة بإبقاء الله لها . إذن . فدخولك في رحمة الله أعلى من دخولك جنته

فحين يقال : " دخل في الرحمة " فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى ما لا نهاية

---

(١) وذلك من نحو قوله تعالى ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ [التوبة: ٨٠]

وحينما يسمع أي أعرابي قول الحق ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته ﴾ ؛ فعندما سمع الأعرابي هذه الآية جلس يحدث نفسه بالعطاءات الإلهية . فيكبح جماح خطرات السوء في نفسه ، أو بالزلات أو بالهفوات التي قد ينطق بها ، وقد يقول الأعرابي لنفسه : إني أخاف ألا يغفر الله الخطرات أو السيئات والهفوات ، فتأتي الآية مطمئنة له ما دام قد فعل السيئة بغفلة أو بسهو ، وعليه أن يعلم أن الله غفور رحيم ، ولا ندعي أن يعكر على نفسه بالظن بأنه لن يدخل في رحمة الله [1] .

لذلك جاء سبحانه بالقول ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ لعل واحداً ممن يسمع هذا ؛ يظن أن الجزاء والقرب والدخول في رحمة الله خاص بمن لم يذنب ذنباً أبداً ، فيوضح له القول : اطمئن . إن كانت قد حصلت منك هفوة أو غفلة ، فاعلم أن الله غفور رحيم ، فلا يعكر عليك ذنبك إيمانك بأنك سوف تدخل في رحمة الله

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة . أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)

و " السابق " هو الذى حصل منه العمل - بصدد ما هو فيه - قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون ، ومن آمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك كلهم مؤمنون ، لكنْ هناك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع ؟ إن سبق الزمان يتحدد فى الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، فإن ظن ظان أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : ومن ذا نحن وقد جئنا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إن السبق يعتبر من معاصر ، أى كان معهم أناس غيرهم رهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء القول : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن الذين هاجروا مع الرسول لم يكن كل مسلمى مكة ، وجاء قوله ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ وأيضاً لم يكن كل الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين

وينحصر المعنى فى الذين سبقوا إلى الإيمان فى مكة ، وسبقوا إلى النصرة فى المدينة ، هؤلاء هم ﴿ السَّابِقُونَ ﴾

وفى سورة الواقعة يقول الحق ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ﴾ [الواقعة]

ثم يأتى من بعدهم فى المرتبة ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٧ ﴾ [الواقعة]

ثم يحدد لنا هؤلاء فيقول . ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ ﴾ [الواقعة]

ولذلك حينما يأتى من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد ﷺ تأخر عن عصر محمد ﷺ أن يصل إلى منزلة الصحبة ؛ لأن الله قال:

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ ، نقول له : لا ، بل اقطن إلى بقية قوله سبحانه : ﴿ثُلَّةٌ من الأولين . وقليلٌ مِنَ الآخرين﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله ﷺ سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة مَنْ يصل إلى منزلة الصحابة .

وقد طمأن النبي ﷺ لناس الذين لم يدركوا عهده حين قال:

« وددت أنّي لقيت إخواني » فقال أصحاب النبي ﷺ : أو ليس نحن إخوانك ؟ . قال « أنتم أصحابي ، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني »[1] .

وهذا قول صادق من المصطفى ﷺ ؛ لأن منّ من تحصر أمنيته في أن يحُجَّ ويزور القبر الشريف . ويضيف النبي ﷺ في وصف أحبابه.

« عمل الواحد منهم كخمسين » قالوا: منهم يا رسول الله أم منا ؟ قال: بل منكم ؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً »

وهذا ما يحدث في زماننا بالفعل .

ولكن من هم السَّابِقُون المقصودون في الآية التي نحن بصددها ؟

﴿ والسَّابِقُون الأَوَّلُون مِن المُهاجِرِين ﴾ ونعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة في الإسلام ؛ مع أنهم خرجوا من المدينة ، لا ليشهدوا حرباً ، ولكن ليتعرضوا عيراً تحمل بضائع ، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التي صمَّتْ العير

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٥٥) عن أنس بن مالك وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٦٦) « في إسناد أحمد جسر وهو ضعيف » .

والحراس والرعاة [1] ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من مكة ، وهم صناديد قريش [2] . وهكذا كانت منزلة أهل بدر ، أنهم من سبقوا إلى الجهاد في أول معركة للإسلام.

ولذلك حين وشى حاطب بن أبي بلتعة بغزوة رسول الله ﷺ إلى مكة ، فجاء به ﷺ وقال له : ما الذي حملك على هذا ؟ وكان ﷺ يريد أن يفتح مكة دون أن يعلم أحد ؛ حتى لا يقاتل المسلمون القادمون بعضاً من المؤمنين الموجودين في مكة ولم يعرفهم أحد ؛ لذلك أراد ﷺ المفاجأة في الفتح ؛ حتى تهبط الشراسة الكفرية ، لكن حاطب بن أبي بلتعة كتب خطاباً إلى بعض أهل قريش ، فأخبر الله نبيه ﷺ ، فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه ومن معه : اذهب إلى مكان اسمه « روضة خاخ » في الطريق بين مكة والمدينة ، ستجد ظعينة (مسافرة) معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته في عقيصتها [3] .

فلما ذهب علي - رضي الله عنه - ومن معه يبحثون عن المرأة في الموضع الذي ذكره لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ، فأخرجته من عقيصتها ؛ فوجده من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من مشركي قريش وعاد به إلى النبي ﷺ ، فأحضر النبي ﷺ حاطباً ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ قال له: يا رسول

---

(١) وذلك أن أبا سفيان قد أخذ طريق الساحل بالعير ، فقد قال له أحد عيونه رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شن لهما ، ثم انطلقا فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيريهما ، ففتته ، فوجد فيه النوى فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجه عيره عن الطريق ، فساحل بها ، وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى أسرع انظر سيرة النبي لابن هشام (٢/٦١٨)

(٢) الصناديد هم العظماء الأشداء ، وهم هنا أبو جهل و أمية بن خلف وغيرهما من كبار كفار قريش

(٣) العقيصة هي نوع قريب من ضفيرة المرأة لشعرها قال الليث العقص أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها

الله : أنا لصبق [1] بقريش ولي فيها أهل ومال ، وليس لي بها عزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً [2] عند قريش يحرمونها لي ؛ فيحافظوا على أهلي وعلى مالي ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعني ولا يضرك ، قال صدقت. صدقت. وأراد عمر - رضي الله عنه أن يزل عليه بسيفه ، فقال النبي ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله طلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [3]

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عُدَّة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال : أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم كل ما تفعلونه من السيئات.

إذن. فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدُّوا مع رسول الله ﷺ عن العمرة ، ثم عقد النبي ﷺ مع القرشيين المعاهدة.

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبي في مكة ، وأعطوا له العزوة وأعطوا له الأمان والعهد ، وكانوا اثني عشر في بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسبعين في العقبة الثانية [4]. هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أي : من يأتي من بعدهم.

---

(١) اللصيق : هو الرجل يقيم في الحي وليس له بهم صلة نسب أو قرابة ، وهذا كان حال حاطب وقد جاء به الحديث

(٢) يداً : أي فضلاً عليهم يحرمونه لي عند غزو المسلمين لمكة

(٣) متفق عليه - أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣ ، ٤٨٩٠) ومسلم في صحيحه (٢٤٩٤) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

(٤) انظر عدد من بايع رسول الله ﷺ من الأنصار في البيعتين الأولى والثانية في سيرة النبي ﷺ (٢/ ٤٣١ ، ٤٥٤) أما عند بدء عرض الإسلام عليهم فقد كانوا ستة من الخزرج ، ولكنهم لم تكن بيعة

وسيدنا عمر له وقفة في هذه الآية ، فقد كان رضي الله عنه يقرأها هكذا « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أي : يعطف كلمة الأنصار على « السابقون » وكنت قد نزلت ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ ويكمل سيدنا عمر بعد « والأنصار » « الذين اتبعوهم بإحسان » أي أنه جعل « الذين اتبعوهم » صفة للأنصار.

وجه زيد بن ثابت ليقول لسيدنا عمر « قرأتها على غير هذا الوجه يا ابن الخطاب » . قال . فماذا ؟ قال . ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم﴾ .

فقال عمر . ابعث إلى أبيّ بن كعب ، وكان ابن كعب حجة في القرآن[1] فقال أبي هكذا سمعتها - كما قال زيد - من رسول الله ﷺ وأنت تبيع القَرَظ[2] في البقيع أي أن أبيّ بن كعب كان ملازماً لنبي ﷺ بينما عمر يبيع القرظ ، فضحك عمر وقال. لو قلت شهدت أنت وغبنا نحن ، وقرأها عمر من بعد ذلك كما نزلت[3] .

﴿ والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ خصوصاً أن سيدنا أبيّاً ليصير بالقرآن حاء بأكثر من دليل من غير هذه الآية فقد قال الحق

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ... ﴿٣﴾﴾ [الجمعة]

---

(١) كان أبيّ بن كعب الأنصاري من أصحاب العقبة الثانية وشهد بدراً والمشاهد ، قال له النبي ﷺ «ليهنك العلم أبا المنذر » أخرجه مسلم في صحيحه (٨١٠) وأحمد بنحوه (٥/ ١٤٢) وقال له : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك » قال آلله سماني لك ؟ قال الله سماك لي قال فجعل أبي يبكي » متفق عليه أخرجه البخاري (٤٩٦٠) ومسلم (٧٩٩) وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويقول اقرأ يا أبي انظر الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ١١) ترجمة : ٣٢ .

(٢) القرظ ورق شجر كانت تدبغ به الجلود في أرض العرب .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٣) والقرطبي (٤/ ٣١٦٤) .

وقوله الحق في سورة الحشر:

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر]

وهي معطوفة أيضاً (١).

وهنا في الآية التي نحن بصددها يقول الحق:

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة]

وفي هذا القول ما يطمئن أمة محمد ﷺ ، فلم يأت لنا فقط بخبر الفئة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً أوصلوا لنا جمال هذا الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

أوضح سبحانه: وطّنوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التوطين يعطي مناعة اليقظة ؛ حتى لا يدس واحد من المنافقين على أصحاب العقلة الطيبين من المؤمنين ، فينبههم

(١) وقد استشهد أبي بن كعب أيضاً بآية : ﴿والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ..﴾ [الأنفال ٧٥]

الحق . انتبهوا فأنتم تعيشون فى مجتمع محاط بالمنافقين والتطعيم ضد الداءات التى تصيب الأمم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك مادياً حين نسمع عن قرب انتشار وباء ، فأحد المصل الواقى منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض.

وهكذا يربى الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهجم المؤمنون عن غفلة ، فيقول. ﴿ومِمَّنْ حولَكُم مِّنَ الأعْرابِ مُنافِقُون ومِنْ أهْلِ المدينةِ مَرَدُوا على النِّفاقِ﴾ و «مرد» يمرد أى : تدرب وتمرن ، وبقى الأمر عنده حرفة ، وكأن الواحد منهم يجيد النفاق إجادة تامة . وكل ذلك ليوجد مناعة فى الأمة الإسلامية ؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة فى مواجهة أى شىء ، فإذا رأى أى سلوك فيه نفاق اكتشفه على الفور . واليقظة تدفع عنك الضر ، ولا تمنع عنك الخير

وافرض أن واحداً قال لك: إن هذا الطريق مَخُوف لا تمشِ فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشينا فيه ولم يحدث شىء ، فلو أنك احتطتَ وأخذت معك سلاحاً أو رفقاً فقد استعددت للشر لتوقاه ، فَهَبْ أنه لم يحدث شىء، فما الذى خسرته ؟ إنك لن تخسر شيئاً

وهذه قصية منطقية فلسفية يُردّ بها على الذين يشككون فى دين الله ، مثل المنجِّمين ، ومَن يدَّعون العِسفة ، ويزعمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر:

زَعَم المنجِّم والطَّبيبُ كلاهما ... لا تُحْشَرُ الأجساد قلتُ إليكُما

إنْ صَحَّ قولكُما فَلَسْتُ بخاسرٍ ... أوْ صَحَّ قولِى فَالخسار عليكُما

أى: إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث – والعياذ بالله – فلن أخسر شيئاً ؛ لأنى أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هناك بعث – وهو

حق - فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ، وبذلك لم أخسر ، بل كسبت . لكن افرضوا أنكم عملتم البشر كله وجاء البعث وأنتم الخاسرون . والقضية الفلسفية المنطقية هنا هى : إن لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إن لم تخسروا فلن تكسبوا

والحق فى هذه الآية يقول:

﴿وممنْ حولَكُم مّنَ الأعْراب مُنافقُونَ وَمِنْ أهْلِ المدينة مردُوا على النّفاق .﴾ وكلمة ﴿ ومِمَّنْ حولكُم ﴾ تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بينكم فى المدينة ، وهم من تدربوا على النفاق حتى صارت لهم ألفه به

وهذه الآيات - كما نعلم - قد نزلت تحكى حال المنافقين . والنفاق تتعارض فيه ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر فى القلب ، بينما توجد ملكة إيمان فى اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما فى قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم

أما الصنف الثالث - وهم الذين نطقوا بالإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء هم المنافقون .

وهو لفظ مأخوذ من « مافقاء اليربوع » ، وهو حيوان صحراوى يشبه الفأر ، ويخدع من يريد صيده ، فيجعل لبيته أو جحره عدة فتحات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه ظاهرتان - ظاهرة مَرَضيّة فى المنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق ؛ ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة

ومن العجيب أن ينشأ النفاق في المدينة التي آوت الإسلام وانتشر منها ، وانسياح إلى الدنيا كلها ، ولم يظهر في مكة التي أرادت أن تطمس الإسلام ، وحارب سادتُها وصناديدُها الدعوةَ.

إذن: فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين الظاهرة الأولى وهي الظاهرة المرضيّة ، حيث قال الحق.

﴿في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... (١)﴾ [البقرة]

أما الظاهرة الثانية فهي الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قويّاً بالمدينة غيره عند بدء الدعوة في مكة إنما يُنَافَق القوي (١) ؛ لأن المنافق يريد أن ينتفع بقوة القوي ، كما أن المنافق يعرف أنه لن يستطيع مواجهة القوي ، أو أن يقف منه موقف العداء الظاهر.

إذن: فالنفاق حين يظهر ، إنما يظهر في مجالات القوة ، لا في مجالات الضعف ، فالرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوي ينافقه الناس إذن. فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية في المنافَق.

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون عليهم ، أي يتخذون مسلك اللصوص ؛ في أنهم لا يُواجهون إلا في الظلام ، ويحاولون أن يدخلوا من مداخل لا يراهم منها أحد ، ويتلمَّسون تلك المداخل التي لا تظهر ، ويُخفون غير ما يظهرون.

أما مواجهة الكافر فهي مسألة واضحة ، صريحة ؛ فهو يعلن ما يبطن ، ويواجهك بالعداء . وأنت تواجهه بجميع قوتك وكل تفكيرك ؛ لأنه واضح الحركة أما المنافق الذي يُظهر الإيمان وفي قلبه الكفر ، فهو

(١) لأنها بين طبيعة نفسه ، فهذه النفس تنافق الأقوياء لضمان النفع ، ولا نفاق لفقير أو ضعيف لأنهما ليسا مصدرين لمنافع فلا ينافقهما أحد

يتلصص عليك ، وعليك أن تحتاط لمداخله ؛ لأنه ينتظر الفرصة التى يطعنك فيها من الخلف

وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمنون الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، وعدم الانخداع بمظاهر تلك الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق ؛ كشف منافقى المدينة حيث يوجد مافقون وغير مافقين ، ومافقى الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعلّم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم.

وسبحانه القائل عن المنافقين. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... ﴿٣٠﴾﴾ [محمد]

ولكنّ هناك لون من النفاق ، نفاق فنى دقيق ، يخيب على فطنة المتفطن ، وعى كياسته . ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلكم إلى فطنتكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أنا أعلمه وأنتم لا تعلمونه ، لأنهم قد برعوا فى النفاق ﴿ لا تَعْلَمُهُم نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ورغم فطنة رسول الله ﷺ وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيغيب عنه أمرهم ، لأنهم احتاطوا بقية النفاق فيهم حتى لا يظهر.

لقد عبّر القرآن التعبير الدقيق ، فقال . ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ والمادة نفسها فى كلمة ﴿ مَرَدُوا ﴾ هى من مرد ، يمرد ، مروداً ، ومارداً ، ومريداً ، هذه المادة تصف الشىء الناعم الأملس الذى لا تظهر فيه نتوءات ، ومنه الشاب الأمرد ، يعنى الذى لم ينبت له شعر يخترق بشرته ، إذن . المادة كلها تدل على الثبات على شىء ، وعدم وجود شىء فيه يخدش هذا الثبات.

ويوضح سبحانه : تنبَّهوا ، فممَّن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ يشعرُ بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق ؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمَّ الفساد في بيئة.

ونعلم أن الحق قد جعل في النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن ألحَّ الباطل عليها فترة ، تتنبه النفس إليه وتطرده[1] . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتردعهم إذن: فالردع إما أن يكون ذاتياً في النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التي لا يأتيها الردع من الذات ، فهي نفس أمَّارة بالسوء ، وهي لا تأمر بالسوء مرة وتنتهي ، بل هي أمَّارة به ، أي : اتخذت الأمر بالسوء حرفة ؛ لأن صيغة « فعَّال» تدلنا على المزاولة والمداومة.

وإذا كانت المناعة في النفس فهذا أمر يسير ويأتي من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذي حول الإنسان هو الذي يردع النفس إن ضعفت في شيء وبهذا تكون المناعة في المجتمع ، أما إذا طمَّ الفساد أيضاً في المجتمع ؛ فلا النفس تملك رادعاً ذاتياً ، ولا المجتمع فيه رادع ؛ هنا لا بد أن تتدخل السماء ، وتأتي دعوة الحق بآياتها ، وبيناتها ، ومعجزة الرسول.

هنا يقف أصحاب الفساد - وتكون نفوسهم أمَّارة بالسوء - موقفاً يناقضون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمَّارة بالسوء ، فتظهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ أي أنكم مطوقون في ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق في ذات المكان الذي تقيمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

---

(١) يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف ٢٠١] أي استقاموا وصحوا مما كانوا فيه قاله ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٩)

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر الضار حوله و فيه ؛ لأنه إن كان لأمر الضار في المكان الذي يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون بقاءه أو يستطيع هو أن يهجر المكان . لكن إن كان محاصراً بالضرر من حوله ومن المكان الذي يحيا فيه ، فإلى أين يذهب ؟

ويريد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن ظاهرة النفاق متفشية ؛ منها ما تستطيعون أيها المؤمنون معرفته بمعرفة حركات المنافقين وسكناتهم ولحن قولهم وتصرفاتهم [1] ، ومنها أمر دقيق خفي لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه يعلمه ؛ ولأنكم غير مسلمين لأنفسكم ، ولكم رب يعلمكم ما لا تعلمون فاطمئنوا ؛ فسوف يفضحهم لكم ونتيجة هذا العلم أنكم ستررن فيهم العقوبات ؛ فيأتي فيهم لقول الحق . ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ [2] ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هم إذن سيعذبون مرتين في الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستر نفاقه أن يفضح نفاقه ؛ولذلك خطب رسول الله ﷺ فقال : "قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق" [3]

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار » أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٩٣) والبزار (٨٥ - كشف الأستار) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٢) « فيه عبد الملك بن قدامة الجمحي ، وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه الدارقطني وغيره »

(٢) إحداهما في الدنيا والأخرى في القبر بعرض ما يعذب به في الآخرة

(٣) عن ابن مسعود الأنصاري قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم ثم قال ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً » أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١١٢) « فيه عياش بن عياش عن أبيه ولم أر من ترجمهما » .

أو تأتي له مصائب الدنيا . ولقائل أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً ؟

ورد بأن المصائب تأتي للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتي للمنافق لإبادته فالمؤمن حين يصاب ؛ إما أن يكفر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به [1] لكن المصائب حين تصيب المنافق فهي مغرم فقط ؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يقال :

إن المصاب ليس من أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو من حرم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذي أجراها عليه حكيم ، ولا يجري عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ؛ فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب

أو أن العذاب مرتين ، غير الفضيحة بنصفهم ، فيتمثل في محاولتهم أن يظهروا بمظهر الإيمان والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبب للنفس ؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرغماً ، ويشعر أنه قد خسر المال لأنه لا يؤمن بإله ؛ لذلك فمصيبته كبيرة وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له في ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب .

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا .. (٨٥)﴾ [التوبة]

---

(١) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٢) و أحمد في مسنده (٦/ ٤٢) والترمذي في سننه (٩٦٥) وقال : حديث حسن صحيح .

أو أن يكون العذاب في الدنيا هو ما يرونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويرى المُعَرْعِر الملائكة مصداقاً لقوله الحق .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال]

وكل هذه ألوان من العذاب في الدنيا .

والإسناد - كما نعلم - في استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن في الزمن الأول - زمن حياته - يُعزِّيه في مصابه الزمنُ الأخير ، وهو زمن آخرته

أما حين يصاب الكافر أو المنافق في زمن حياته ، فلا شيء يعزيه أبداً ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع في شيء من خيره سبحانه .

ويأتيه الزمن الثاني ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين . إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون في الآخرة أما عرض العذاب فهو في القبر [1] كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك [2] . ومن دام الإنسان يرى الشر الذي

---

(١) وذلك من نحو قوله سبحانه ﴿ وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب ﴿٤٥﴾ النارُ يُعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب ﴿٤٦﴾﴾ [غافر] قال ابن كثير في تفسيره (٤ ، ٨١) استدل بالآية على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البرزخ ، وليس فيه دلالة على اتصال نارها بأجسادها في القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، وأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث الرصية » .

(٢) عن ابن عمر قال قال ﷺ « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٧٩) ومسلم في صحيحه (٢٨٦٦) واللفظ لمسلم .

ينتظره ، أليس هذا عذاباً ؟

إنه عذاب مؤكد .

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو قال الحق : " نعذبهم مرتين " فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص في أن من يصيبه عذاب ، فقد ينتهي حسابه لكن قوله " ﴿ سَنُعَذِّبُهُم ﴾ يؤكد لنا كلما قرأناه أن العذاب متصل .

ويُنهي الحق الآية الكريمة بقوله .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ مثلها مثل ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ أو ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ و نحن نقول مرة : " يُرْجَعُونَ " وأخرى "يَرْجِعُونَ" ، فكأن النفس البشرية تألف جزأيها في قولنا : "يَرْجِعُونَ" ، أم قولنا : " يُرْجَعُونَ" ففي الكلمة قوة غيبية تدفعهم ألا يتقاعسوا

وهكذا نجد المعذَّب إما مدفوع بقوة عُليا ، وإما أن توجد فيه قوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجبه هذا التصرف ، ويستقبل نفسه بالتوبيخ وبالتعنيف ؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتي من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقضي حياتك معها في أمر بالسوء ، ثم حين يأتي العقاب فأنت تقول لها . " اشربي أيتها النفس نتيجة ما فعلت " .

إذن فالمعذَّب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يدفع بذاته .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومثلما قلنا من قبل إن هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك العذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم والعذاب العظيم يأتي إما بأسباب وإما بمسبِّب ، وعذاب الدنيا كله

بأسباب، فقد يكون العذاب بالعصا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة و ضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، و المعذَّب في الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإذ قسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب في الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عظيم [1] .

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وقوله الحق : ﴿ وآخَرُون ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ومِنْ أهْلِ المَدِينةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ، فهل يظلون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من يتوب إلى رشده ؛ ليجد أن موقفه مخز حتى أمام نفسه ؟ لأن أول ما ينحط المنافق إنما ينحط أمام نفسه ؛ لأنه نافق ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من يواجهه ؛ فيحتقر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا الموقف ، ويرغب في حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجح الإيمان ، ويتخلص من النفاق ؛ بأن يعترف بذنوبه

وبذلك يصبح ممن يقول الحق عنهم : ﴿ وآخَرُون اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : ممن لم يُصِرّوا على النفاق [2] ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون من الإقرار . والإقرار بالذنب أنواع ، فهناك من يقر بالذنب إفقة ، وآخر

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » أخرجه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)

(٢) اعترافهم وتوبتهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك

يقر الذنب في صفقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربت فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربته ، أي أنه عرف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب من يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله قال فيهم ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيء فهو التخلف عن الجهاد والإنفاق .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واختلف العلماء . هل هذا الاعتراف يعتبر توبة أم لا ؟

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال ﴿ اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ ثم قوله : ﴿ عسى [1] الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾ أي : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات توبة وليست توبة ، فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة في المستقبل فلنر هل هذا كان منه محفة أن يفصح أم موافقة لمنهج الله [2] ؟

إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فتكون التوبة مرجوة لهم .

وكلمة ﴿ خلطوا ﴾ تؤدي معنى جمع شيئين كان متفرقين ، وجمع الشيئين أو الأشياء التي كانت متفرقة له صورتان ؛ الصورة الأولى : أن يجمعهم

---

(١) عسى فعل جامد دال على الترجي . وإذا أسند الفعل إلى الله تعالى فمعناه أنه وعد بإنجاز الأمر المرجو أنه بالغ حتماً ، وعسى من أفعال الرجاء وتستعمل على أوجه أكثرها وجهان : الأول أن يذكر بعدها اسم ظاهر ، والوجه الثاني : أن يذكر بعدها المصدر المؤول

(٢) فإن كان موافقاً لمنهج الله كان القبول من الله

على هيئة الافتراق ، كأن تأتى بالأشياء التى لا تمتزج ببعضها مثل. الحمص واللب والفول ، وتخلط بعضها ببعض فى وعاء واحد ، لكن يظل كل منها على هيئة الانفصال ، فأنت لم تدخل حبة اللب فى حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شىء واحد ؛ لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاى باللبن ؛ لأنك بعد أن تجمعهما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .

إذن. فهم حين خلطوا العمل الصالح والعمل السَّيِّئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السَّيِّئ مزيجاً واحداً. لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً.

وقوله سبحانه . ﴿ عسى اللَّهُ أن يَتُوبَ عليْهِمْ ﴾ كلمة ﴿ عَسى ﴾ معناها الرجاء [1] وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شىء محبوب. والرجاء يخالف التمنى ؛ لأن التمنى هو أن تحب شيئاً وتتمنى أن يكون موجوداً ، لكنه لا يأتى أبداً، مثل قول الشاعر:

ألا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخبِرُهُ بِما فَعَلَ المَشِيبُ

إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث . إذن: فإظهار الشىء المحبوب له لونان : لون يتأتى ، ولون لا يتأتى ، فالذى يتأتى اسمه (رجاء) ، والذى لا يتأتى تسميه (التمنى) ، مثل قول الشاعر:

لَيْتَ الكَوَاكِبَ تَدْنُو لِى فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لَكُمْ كَلِمَا

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣١٦٩) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أعراب فهى عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة » وقال ابن كثير (٢/ ٣٨٥) . « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين » - والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

فالشاعر يتمنى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث . أما الرجاء فهو أمل يمكن أن يحدث ، والرجاء له منازل ومراحل بالنسبة للنفس الإنسانية فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول: «عسى فلان أن يمنحك كذا» ، فأنت هنا مُترجٍّ ، وهناك مترجًّى له، هو من تخاطبه ، ومترجًّى منه ، وهو من يعطى ، فهذه ثلاثة عناصر .

لكن أنك ولاية على من يمنح ؟ لا ، لكن إن قلت . عسى أن أمنحك أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمنحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق وحين تقول : « عسى أن أمنحك » فقد تقولها فى لحظة إرضاء للذى تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شىء يغير من نفسك ، أو حنث ! لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء .

لكن عندما تقول . « عسى الله أن يمنحك » ، فأنت ترجو له من الله ، وهو القادر على كل شىء ولا تؤثر فيه أعيار ، أما إذا قال الله عن نفسه: « عسى الله أن يفعل » ، فهذا أقوى وسائل الرجاء .

إذن: نحن أمام أربع وسائل للرجاء أن تقول : « عسى فلان أن يمنحك » أو أن تقول . « عسى أن أمنحك أنا » ، أو تقول : « عسى الله أن يمنحك » وقد يجيبنى الله ، أو لا يجيب دعائى ، لكن حين يقول الحق: « عسى أن أفعل» فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا : الرجاء من الله إيجاب.

﴿ عسى اللهُ أن يتُوب عليهِمْ ﴾ ، فهذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما توبة [1] العبد فمسألة تقتضى الندم على ما فات ، والرجوع إلى منهج الله ،

(١) تاب : رجع عن المعاصى ، وتاب إلى الله رجع إليه بالطاعة بعد المعصية ، وتاب الله عليه وفقه للتوبة وقبلها منه - قال تعالى . ﴿فمن تابَ مِنْ بعدِ ظُلمه وأصلح فإنَّ اللهَ يتُوبُ عليْه ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة]

والعزم على ألا يعصى الله فى المستقبل . أما توبة الله فهى تعم أنواع التوبة، فتشريع الله للتوبة رحمة بمن ارتكب الذنب ، ورحمة بالناس الذين وقع عليهم لسلوك الذى ستوجب لتوبة فإن تُبْتَ ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لا ستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروره. لكن حين يشرع الله لتوبة ؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكانية عوده للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب بغيره.

فإذا قَبِلَ الله التوبة ، يقال : « تاب الله على فلان »، فلله إذن أكثر من توبة، ولذلك حين نقرأ قوله الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسبحانه قابل التوب إذن : فالتوبة ثلاث مراحل تشريع للتوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة والتوبة رجوع عن شىء ، وهى بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعفو ويرجع عن لعقوبة [1]

ويُنهى الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلحّ عليك حب الانتقام منه ؛ لأن الضرر أتعبك ، لكن أيُتْعِبُ أحد ربه بالمعصية ؟ لا ، لأنك إن

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى شرح اسم الله (التواب) « هو الذى يرجع إلى بسير التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يظهر لهم من آياته ، ويسوق إليهم من تنبيهاته ، ويطلعهم عليه من تحويضاته وتحذيراته ، حتى إذا اقدموا تعريفه على عوائق الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه ، فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول » المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى (ص ١٢٣) ط . مكتبة القرآن

كنت قد أصررت بأحد فإن أصررت بنفسك ، ولم تضر الله سبحانه ؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضرر بذنبك[1] ، وإنما الذنب لحقك أنت

فحين يقول سبحانه ﴿ غَفُورٌ ﴾ فهو غفور لك ، و﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بك .

والمصائب أو الكوارث نوعان ، نوع للإنسان فيه غريم ، ونوع بصيب الإنسان ولا غريم له فإن مرض إنسان فليس له غريم في المرض ، أما إذا سرق إنسان فالنص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التي فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم فهي تحتسب عند الله ، ويقال . إن المصيبة التي ليس فيها غريم هي التي تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

هنا يؤكدها ؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هناك إهاجة على الشر.

أما قوله سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

فلم يؤكدها ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها ؟ ولذين عترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا ليس لنا عذر ، ولم يحتلقوا أعذاراً ؛ لأنك تعلم أن هناك أناساً لم يعتذروا ، وأناساً آخرين

---

(١) عن أبي ذر عن النبي ﷺ في الحديث القدسي « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل و حد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد في مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) والترمذي في سننه (٢٤٩٥) وابن ماجه (٤٢٥٧) .

اعتذروا بأعذار صادقة ، وآخرين اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ أى : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو ؛ فهؤلاء تاب الله عليهم فى نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال فى الغزوة فى تبوك التى تخلفوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمله بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلى فيه ركعتين[1] فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم سوارى المسجد وهى الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا و كانت أعذارهم كاذبة لكنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تحلهم وترضى عنهم فقال ﷺ . «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ؛ رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين »[2] فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومنهم : أبو لبابة .

ولذلك من يذهب بزور المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة سميها " أسطوانة أبى لبابة" وهو أول من ربط نفسه على السارى ، وقلده الآخرون . وهذا يدلك على أن المؤمن حين تختمر فى نفسه قضايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك المرأة التى زنت ، والرجل الذى زنا ، واعترفا لرسول الله ليرجمهما[3] ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهب

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) ضمن حديث طويل عن كعب بن مالك فى توبته من تخلفه عن غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ . وأخرجه مختصراً أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٥) وأبو داود فى سننه (٢٧٧٣)

(٢) انظر سبب نزول الآية فى تفسير القرطبى (٤/ ٣١٦٨) وأسباب النزول للواحدى (ص ١٤٨)

(٣) الرجل هو ماعز بن مالك الأسلمى ، أخرج قصته البخارى فى صحيحه (٦٨١٥) ومسلم (١٦٩١) وفى بعض طرق مسلم أن ماعزاً قال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . أما المرأة هى الغامدية أخرج قصتها مسلم (١٦٩٥) .

كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول . « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم»[1] .

وكون أبي سابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت في نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسي كي أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً في الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعتذروا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذي شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب ؟ وجدوا أنهم في أثناء غزوة تبوك وقد كانت في الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا والله ، إن المال هو الذي شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، و لابد أن نتصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هي صدقة الكفارة

وهؤلاء قالوا للرسول ﷺ : خذ هذا المال الذي شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

هذه هي الصدقة غير الواجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هي صدقة الكفارة .

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ أمر بالمرأة فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت ؟ فقال « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٩٦) وأحمد في مسنده (٤/ ٤٤٠)

وقوله الحق : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعني أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم ، أحرجوا شيئاً من المال الذي وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ... ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تضمين له ، حتى يتحرك في الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شيء ينموه ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التي ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق اطمئن إلى أن كل شيء سيريد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرف [1] ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ... ﴿٥﴾ ﴾ [النساء]

لأن السفيه [2] لا يصح أن يتملك ؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شيء ،

---

(١) وهذا ما يعرف بالحَجْر ، قال ابن كثير في تفسير ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] « ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل فضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحَجْر عليه حَجَر عليه » (١/ ٤٥٢)

(٢) السفيه هو ناقص العقل سيء التصرف يقول الحق. ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴿٥﴾﴾ [النساء] أي ، لئلا يسيئوا التصرف فيها فهم أو نقص عقولهم ، ويقول الحق أيضاً ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ... ﴿١٣٠﴾﴾[البقرة] حملها على الجهل والطيش

فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذى يملكه ليس ماله إنما هو مالكم ولكن إلى متى ؟ فيأتى القول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء]

أى : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية

والحق فى هذه الآية يقول :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمَّنهم على عرقهم ، وأمَّنهم على ما يملكون ؛ حتى لا يزهد أحد فى الحركة ؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال ؛ لفضّ الناس بالحركة . وإذا فض الناس بالحركة ؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يريد على حاجات الناس ملكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك ، والتملك أمر غريزى فى النفس ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك .

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه فى التصرف أو عدم رشد ؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه . لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصىّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصىَّ : إياك أن تتعدى فى ملكية هذا المال ؛ لأن الذى جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال ، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما . ﴿٥﴾﴾[النساء]

فإياك أيها الوصي ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ ولم يقل . « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضي الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل [1] والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه ؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحروم . فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم

وفي آية أخرى قال الحق

﴿والذين في أموالهم حق معلوم ﴿٢٤﴾ للسائل والمحروم ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج]

و«الحق المعلوم » هو الزكاة المفروضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثاني فهو حق أيضاً ، ولكن الذي يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما في سورة الذاريات:

﴿إن المتقين في جنات وعيون ﴿١٥﴾ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴿١٦﴾ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴿١٧﴾ وبالأسحار هم يستغفرون ﴿١٨﴾ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

---

(١) الحق المعلوم هو الزكاة المفروضة ، و الحق الغير معلوم هو ما ترك لاختيار النفس في العطاء للوصول إلى مقام الإحسان بقدر كرمه مع الله

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ؛ لأن صاحب المال داخل في مقام الإحسان [1] ، وهو المقام الذي يلزم الإنسان فيه نفسه بشيء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلي العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر. لكن إن وجد في نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل في مرتبة الإحسان

وكذلك يؤدي المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم في أن يدخل في مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقاً لكنه غير معلوم ؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر.

ووقف العلماء رضي الله عنهم هنا وقالوا : إن قوله حق . ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعني اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدي ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعني أن المال إن هلك فليس للفقير شيء ، ولكن لأن المال مال الغني فحق الفقير محفوظ في ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغني لو لم يؤد الزكاة في ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغني ضامن لحق الفقير.

---

(١) حَسُنَ الشيء صار حسناً جميلاً قال تعالى ﴿ وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ﴾ [النساء] أي صار رفيقاً حسناً - ؛ وأحسنُ ؛ أفعل تفضيل ، مؤنثه ؛ الحسنى ؛ قال الحق :﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه (١٨) ﴾[الزمر] - وقال. ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى (١٠) ﴾ [النساء] - أي . المنزلة التي هي أحسن المنازل ، والإحسان هو الكرم بالخلص والعطاء الخالص ، والإحسان إلى الوالدين إكرامهما وهو أعلى مقامات القرب إلى الله

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ؛ لأن الذنب الذى فعلوه واعترفوا به تسبب فى تقذير أنفسهم بالمعصية ، وما داموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية [1] ، فهم فى حاجة أن يُطَهَّرُوا بالمال الذى كان سبباً فى عدم ذهابهم إلى الغزوة

وانظر هنا إلى ملحظ « الأداء البيانى » فى القرآن ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للنبى ﷺ ، ويقول. ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر: آخذٌ هو رسول الله ﷺ ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج

وما دام الأمر لرسول الله ﷺ ، فهذا الأمر ينسحب بالتالى على كل من وَلِىَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول: ولكنها صدقة وليست زكاة. ونقول : ما دام الله هو الذى أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً، والآية صريحة ، وتقتضى أنه مادامت هناك ولاية شرعية ، فولى الأمر هو الذى يأخذ من الناس ويؤدى للفقراء ، أو لأوجه الصرف التى شرعها الله [2] ، لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده أحداً من مُسَاوٍ له ، أما إن أخذ من الوالى وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن

---

(١) أى جعلوا أنفسهم محلاً للوم والتقبيح . وقد أخرج الإمام مالك فى موطئه (ص ٨٢٥) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله . فإنه من يبدى لنا صفحته نُقِم عليه كتاب الله »

(٢) ومصارف الزكاة قد بينها سبحانه فى قوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة] ، وقد سبقت خواطر فضيلة الشيخ وإلهاماته عند تفسير الآية . ولولى الأمر الذى يطبق شرع الله أن يأخذ من أموال المسلمين لإقامة صرح العدالة فى المجتمع مصداقاً لمفهوم الآيات

الحق سبحانه يريد أن يحمي أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلاني يعطى لهم زكاة ، فيعاني أولاد الأحد من المذلة أمام أولاد المعطى ، ويعيش أبناء المعطى في تعال لا لزوم له . إذن : فحين يكون الوالي هو الذي يعطى فلن يكون هناك مُستعلٍ أو مُستعلَى عليه .

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية ، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال ، فهنا يصبح على كل إنسان أن يراعي محيط ديه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال ، ومال مُعْطَى ، ومعطَى له هو الفقير .

وعلى من يعود قوله الحق ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ ؟ السطحيون في الفهم يقولون . إنها تطهر من تأخذ منه المال ، وتزكّي المال الذي تأخذ منه لكن من يملك عمقاً في الفهم يقول مادامت هناك في هذه الآية عناصر ، فضروري أن يعود التطهير [1] والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكي المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكي المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتزكي المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء .

القذارة أمر عارض على الشيء الذي نغسله ونطهره ، وتنمية له بشيء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكي عناصر الفعل كلها والتطهير لمن يعطى ، له معنى معه ، والزكاة لها معنى معه : لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل في ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال

---

(١) طهُر يَطْهُر من باب كَرُم ونصر - طُهراً وطهارة زال عنه الدنس والقذر حسياً ومعنوياً ، وطهرت النفس سلمت من الآفات الخلقية ونزهت عن النفاق وعن الحقد وعن كل الرذائل قال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا (٦) ﴾ [المائدة] هذا في الحسيات وقوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١٠٣) ﴾ [التوبة] تنزه قلوبهم وأنفسهم من الآفات الخلقية ، وهذا في المعنويات

أما كيف تنمّي صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كي تعطي المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن نصنع ، وبذلك تُنمّي تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون في ماله شبهة ، هذ من ناحية صاحب المال

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تطهره.

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذي يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحي يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ؛ فالزكاة التي تعتبرونها نقصاً تنمّي ، والربا الذي تعتبرونه ينمّي إنما يُنقص ، والحق يقول

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ (١) الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ .. ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة]

إذن ، فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو في الواقع نقصٌ ، كيف ؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى ورق الموارد الإيجابي ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب» ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة .

---

(١) ممحقه من باب فتح انقصه ، أو أبطله ، أو أهلكه قال تعالى : ﴿ ويمحق الكافرين ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران] أي يهلكهم وقال. ﴿ يمحقُ اللهُ الربا ﴿٢٧٦﴾ ﴾[البقرة] أي ينقصه أو يهلكه ، نقيض ما فعل بالصدقات .

ورزق السلب يتمثل في أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائة ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر .. !! من ناحية المال.

والحق يقول:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم]

وكيف تكون الصدقة تطهيرا للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج ؟ ونقول: إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذي النعمة ؛ لأنه وصله بعضٌ من المال الذي عند ذي النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه.

والفلاحون في ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضا من الخير الخارج من أرضها ، وساعة أن تمر بحدها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن للمجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ؛ لأنه في مجتمع إيماني. إذن: فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ راجع لكل العناصر في الآية.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: ادع لهم بالخير؛ ولذلك كان النبي ﷺ كلما أتاه قوم بأي صدقة قال: « اللهم صَلِّ عليهم » فأتاه

أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صلِّ على آل أبى أوفى »[1] ، هذه هى لتزكية القولية التى يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطى ، ويجدّ ويجتهد من ليس عنده ؛ ليسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أى. اطمئنان لهم ، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذ لا أجدّ فى حياتى وأجتهد ؛ حتى أصير بتلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

ويُنهى الحق الآية بقوله . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه ﴿ سميعٌ ﴾ لكل ما تعتبره قولاً ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

و﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هى : همزة استفهام ، « لم » حرف نفى ، و«يعلم» وهو فعل . فهل يريد الله هنا أن ينفى عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها « همزة الاستفهام الإنكارى » و لإنكار نفى ، فإذا دخل نفى على نفى فهو إثبات ، أى «فليعلموا ».

---

(١) متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبى أوفى

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول . إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿هُوَ﴾ ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : " ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة " ولم يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتي بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل ، لكن حين تقول فلان هو الذي يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعني أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذي يعني الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة .

لذلك قال الحق : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ...﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة ؟ لا ، بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله . ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن ، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذي يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها ؛ وهو واضح في قصة سيدنا إبراهيم حين قال

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : "إنهم أعداء" ، بل جمعهم كلهم في عصبة واحدة وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾.

و﴿إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً متفرداً، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة في قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل في نوعين اثنين.

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل في العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أي : أن الله سبحانه ليس عَدُوًّا لإبراهيم عليه السلام، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام . أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أي . لايعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثني

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال . ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب وأضاف :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] [الشعراء]

ولم يقل . " الذي خلقني يهديني" ، بل ترك "خلقني" بدون "هو" وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن "هو"

---

(١) إن الأفعال التي لا تصدر إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وليس للمخلوق فيها دخل لم يأت بضمير التخصيص ، مثل قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴿٧٨﴾ ﴾[الشعراء] أما إذا كان الفعل يدعي البعض أنه فاعله فإن الأسلوب القرآني يرد عليه بضمير الاختصاص ؛ لأن الهداية من الله ، وليس للعبد دخل فيها إلا بالقبول والالتزام .

لا تأتي إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعي أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل " الذى هو خلقنى " .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذى لا يقول به أحد غير الله لا يأتي فيه الضمير . لكن الأمر الذى يأتي فيه واحد مع الله ، فهو يخصَّص بـ" هو " تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فليس لأحد أن يُدخل أنفه فى هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجيء الاختصاص - إذن - كان فى مجال الهداية بمنهج الحق . لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر " أنا أصنع القوانين التي تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضى على آفاته ، ونقول " لا ، إن الذى خلقنا هو وحده سبحانه الذى يهدينا بقوانينه .

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتي فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعَى فتأتي فيه (هو) . وقوله سبحانه .

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل ؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتي له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله ؛ لذلك جاء بـ﴿هُوَ﴾ ، فأنت إن سبت كل ورق يأتي به أبوك ، لانتهيت إلى مالم يأت به الأب ؛ لأن كل شيء فيه سببٌ للبشر ينتهى إلى ماليس للبشر فيه أسباب ، فكل شيء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[الشعراء]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذى يشفى ، وينسى أن الله وحده هو الشافى ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدى الطبيب؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَامَ عنْكَ فَأىُّ طِبٍّ نَافِعٍ ... أوْ لم يَنَمْ فالطِّبُّ مِن أدْنَابِهِ

فقد يعطى الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض. وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر فى الشفاء لله ؛ حتى لايظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه. ثم يقول سيدنا إبراهيم :

﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ... ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء]

ولم يقل : "هو" يميتنى ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن يقول "هو يميتنى" ، ونقول : انتبه إلى أن الموت غير القتل ، فالموت يتم بدون نقض للبنية ، والقتل لا يحدث إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء]

وأيضاً لم يقل : "هو يحيينى" ؛ لأن هذا أمر خارج عن أى توهم للشركة فيه ، فقد جاء بـ "هو" فى الأمور التى قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان :

﴿وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء]

لم يأت أيضاً بـ "هو" ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله [1].

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه :﴿ ومن يغفرُ الذنوب إلا اللهُ ..﴾ [آل عمران:١٣٥]

إذن . فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون «هو» ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجيء بـ «هو»[1]

وهنا يقول الحق: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وظاهر الأمر أن يقال .ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة «من» عباده ، ولكنه ترك «من» وجاء بـ «عن» والبعض يقولون: إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتي «من» بدلاً من «عن». ونقول: لا، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغني عن حرف آخر؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبِل الله التوبة، فقد تجاوز الله عن العقوبة؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ أي: متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة.

وهكذا جاءت «عن» بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذي قَبِل التوبة ، وهو الذي تجاوز عن العقوبة.

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ صحيح أن الله هو الذي قال للرسول : ﴿خُذْ﴾ ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و«يأخذ» هنا معناها « يتقبل » واقرأ قول الحق

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ...﴿١٦﴾﴾ [الذاريات]

أي : متقين ما آتاهم الله ومثال هذا ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التي لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة

---

(١) وهذا يتلاقى مع ما ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣١٧٦) . ، قوله تعالى «هو» تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال إن الله يقبل التوبة ؛ لاحتمل أن يكون لعبد رسوله قبولاً منه ، فثبت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبي ولا ملك ؛

لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة. و لمعدن الذى يعطى الصلابة هو الذى يتأكسد ، فتصدأ الفضة ؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم. فلما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ سألها: ما هذا ؟ قالت: إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت : كأنى رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع فى يد الفقير تقع فى يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذى يأخذ الصدقة .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . كل هذه الآية نفى لظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبلَتْ ، ولكن الذى يقبل التوبة هو الله ، والذى يأخُذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلّنا رسول الله ﷺ ، وقالوا : خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك حداً فاصلاً بين ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه

قد ولد الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون في الخفية بل ستكون في العلن أيضاً، أما أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال: ﴿فسيرى اللَّهُ﴾. أما الأمور التي تحتاج لفطنة [1] النبوة فالرسول ﷺ بمعرفته سيراها بنوره في سلوككم أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تحاذعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمَّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذي يعلم

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ أي : اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم في المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو اتيَّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه في عاديات الأمور [2].

---

(١) لأن للرسول صفات تليق به وهي العصمة والأمانة والبلاغ والفطانة

(٢) عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » . أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٨) والحاكم في مستدركه (٤/ ٢١٤) وصححه وأقره الذهبي وكذا أخرجه ابن حبان (١٩٤٢ - موارد الظمآن) . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » رواه عن خمسة من الصحابة - فيما وقفت عليه - وكلها لا تسلم من مقال ومنها حديث أبي سعيد الخدري عند الترمذي في سننه (٣١٢٧) وقال . غريب ليس مصعب بن سلام . وللحديث طرق وروايات أخرى

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهي ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائي يملك أن يثيب أو أن يعاقب . وأنكم راجعون إليه لا محالة . وإذا كنتم في الدنيا تعيشون في الأسباب التي يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصي ، فهناك عالم الغيب الذي يملكه الله وحده :

﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

إذن : سيعامل التائب معاملة جديدة ، ومادام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التي طرأت عليه فأذنب ؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان .

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أما عالم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل وسبحانه لا يجازي على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولذلك يُنهي الحق هذه الآية بقوله :

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم في السواري ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن

جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السوارى ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ولا عترفوا بذنوبهم ؛ لذلك يجىء قوله الحق:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها:

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع [1] . وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل

---

(١) كعب بن مالك الأنصارى شاعر مشهور شهد بيعة العقبة الثانية وتخلف عن غزوة بدر وشهد ما بعدها ثم تخلف فى تبوك توفى عام ٥٠ هـ فى زمن معاوية (الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/٣٠٩)

أما هلال بن أمية الأنصارى فقد شهد بدراً وما بعدها ، مات فى خلافة معاوية ، وهو الذى ظهر صدقه فى قذفه لامرأته بقوله (الإصابة ٦/٢٨٩) . أما مرارة بن الربيع الأنصارى ، فهو صحابى مشهور شهد بدراً أيضاً (الإصابة ٦/٧٦)

شيء . وقد قصَّ واحد منهم حكايته [1]، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : «وما كنت في يوم من الأيام أقدر على المال والرحلة مني في تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتي الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول: ﴿ وآخرون مُرْجَوْن لأمْرِ اللَّهِ﴾

و﴿ مرجَوْن ﴾ أو «مرجَئون» والإرجاء هو التأخير . أي: أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله ﷺ لم ينشيء في الدولة الإسلامية سجناً يُحرَك فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه في مكان فهذا جائز لكن الكمال في أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه .

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد في السوق أو في المسجد .

وكان أحدهم يتعمد أن يصلي قريباً من النبي ﷺ ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبي له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أني أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم. وهكذا عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع . وكذلك

---

(١) هو كعب بن مالك ، قال : « لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعّر (أي أميل) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول في نفسي . أنا قادر على ذلك إذا أردت . فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فلم يرل ذلك يتمادى بي حتى اسرعوا وتفارط الغزو . » الحديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذى يصعب التحكم فيه. وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتى الله بأمره.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾

هذا بالنسبة لنا – إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم لكن الحق سبحانه وحده هو الذى يعلم مصير كل واحد منهم.

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يَبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكن ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم فى ذاتهم ، ولمن يشهدونهم.

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليأدبوا الأدب الذى ندبهم به المجتمع الإيمانى ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفى هذا التأديب.

وإذا أُدّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب.

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتى قول الله فيهم:

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يفصل لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين [1] ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ و ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «مناهم التوبة» ، مثل قوله:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [التوبة]

وقول الحق

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهم اثنا عشر من المنافقين اتخذوا مسجداً ضراراً ؛ مضارة لأهل مسجد «قباء» وكفراً ؛ لأنهم سوء بأمر أبي عامر الراهب ، ليكون معتلاً له يقوم فيه من يأتي من عنده ، وكان قد ذهب ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبي ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلون في قباء ، وإرصاداً وترقباً لمن حارب الله ورسوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴿٧﴾ ﴾ [التوبة] أي . قبل بناله ، ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين من المطر وحر، الشمس ، والتوسعة على المسلمين ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الجلالين] بتصرف

وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ويقولون عنها : «محالف [1] التوبة» ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون - كما قلنا - مستعارضون في ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر . والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفياً ، ومجهوداً عقلياً ، ومجهوداً حركياً ، فهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالو كلاماً ، وإذا لقو الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم في قوله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم :

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) ذكرت مادة يحلفون في سورة التوبة في سبعة مواضع هي

- ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ [التوبة ٤٢]
- ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون﴾ [التوبة ٥٦]
﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة ٦٢]
- ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ [التوبة ٧٤]
﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم﴾ [التوبة ٩٥]
- ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم ..﴾ [التوبة ٩٦]
- ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى..﴾ [التوبة ١٠٧]

وكذلك وردت في مواضع أخرى من القرآن :

في سورة النساء :

﴿ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقا﴾ [النساء ٦٢]

وفي سورة المجادلة :

﴿ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ [المجادلة ١٤]

- ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾ [المجادلة ١٨]

وهكذا تُكْبَت ملكات لسانهم فى أن يقولوا وقت أن يكونوا مع المؤمنين، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنَفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً، وهذه مسألة متناقضة؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [التوبة]

أى. لو أنهم يجدون مكاناً أميناً، لا يراهم فيه المؤمنون، لنفّسوا عن أنفسهم، وسبّوا النبى، وسبّوا المؤمنين، وقالوا ما يريدون، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان، إنهم يتمنون لو وجدوا ملجأ يلجأون إليه، أو مغارة يدخلون فيها؛ لكى يُنَفِّسوا عن أنفسهم؛ إذن ﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (١)، لكنهم لا يجدون.

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ...﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة]

نحن نعلم أن كلمة «مسجد» فى عمومها هى مكان السجود، وفى الخصوص هى مكان يحتز للسجود وللصلاة فقط، فإن أردت المعنى العام، فكل الأرض مسجد (٢)، وتستطيع أن تصلى فى أى مكان قبصير

---

(١) جمح الفرس: انطلق بعدو لا يثنيه شئ، أو غلب راكبه فجرى كما يريد، قال تعالى ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧] أى مروا خوفاً وفزعاً إلى أى ملجأ لا يردهم شئ، كالخيل الجامحة.

(٢) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى: كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة». متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين [1] ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلى فى الفصل الدراسى أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو فى أى مكان تزاول فيه أسباب الحياة

وبذلك يصبح المكان الذى تصلى فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال : «حجر ليكون مسجداً» ، فلا تباشر فيه أى عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد - بالمكان - ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن أنفسهم فى صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنو غُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء .

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شىء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحى الفلانى مسجداً ، ولم نُقم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة ؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين .

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهره صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية فى الإيمان ؛ لأنك حين ترى المسجد وليس

---

(١) مكَّنَ من باب كَرُمَ - مكانة فهو مكين ، ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر قال تعالى ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف ٥٤] أى : عظيم ثابت المنزلة ومَكَّن له فى الشىء ثبته قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص ٥٧] أى : حرماً ثابتاً ، وأمكنه من عدوه نصره عليه ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال : ٧١]

فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار[1] .

إذن . فـ«المسجد» بمعناه الخاص هو المكان الذى يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شيء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبى ﷺ حين رأى واحداً يشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رد الله عليك ضالتك »[2] . لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون فى حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم فى مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن ثقافتهم بمظهر من مظاهر الطاعة ، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ، وإن فعلنا نحن نصلى فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم متلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن نتنفس عن أنفسنا .

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلى معهم فى المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله ﷺ وأوضح

---

(١) هذا يتلاقى مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٨٠) « قال علماؤنا لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنائه مثلا يتصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً ، إلا أن تكون الجملة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ وكذلك قالوا لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثانى ، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه ، واللغة تقول ضرار يضراره مضارة وضراراً مفاعلة بين اثنين ﴿لا تضارّ والدة بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾[البقرة ـ ٢٣٣] وإحداث مسجد كهذا ضرار بجميع المسلمين وجماعة للتفرق

(٢) عن أبى هريرة قال قال ﷺ « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب

لهم: إننا فى حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلى فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستدرفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التى توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم فى ذلك.

ومعنى «الضرار» من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم فى كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين فى المسجد الذى يصلى فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون فى مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه: ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إذن: فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن تصلى الصلوات فى أى مكان ، وحتَّم أن نصلى جميعاً يوم الجمعة فى مكان واحد ؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقى كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ والإرصاد[1] هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم فى المكان الفلانى لرصد فلان ، أى: أنهم أناس يرقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب

(١) أرصد أعد وجهز ، قال تعالى ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ [التوبة:١٠٧] أى : أعدوه لأعداء الإسلام الذين كانوا ولا يزالون يحاربونه ، فمسجد الضرار كان مأوى لمن يريد أن يكيد للإسلام .

الحب. والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة في عداء رسول الله ﷺ [1]، وهو الذي طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو «أبو عامر الراهب» وقد سماه رسول الله «الفاسق».

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر في الجاهلية، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتي به ليدعو لهذا الدين ويتزعم من يتبعونه. وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا في المدينة، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء في المدينة وزالت رياسته؛ عاداه رسول الله ﷺ، حتى قال له في أحد: ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتَ معهم. وحين تمكن الإسلام في المدينة مر إلى مكة، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف، فلما أمن أهل الطائف، لم يجد له وطأً فذهب إلى الروم «بالشام». ثم كتب للمنافقين أن أعدّوا مسجداً؛ لأني سآتي لكم بقوة من ملك الروم؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة [2].

إذن فهم قد بنَوْا ذلك المسجد ضراراً، وكفراً، وتفريقاً، وإرصاداً، أي: ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذي سيذهب إلى الشام ويأتي بجنود لمحاربة الله ورسوله. ورغم أنهم قد فعلوا ذلك، فقد امتلكوا جرأة الطلب من رسول الله أن يصلي معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلي

(١) من هذا ما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية في غزوة أحد (٣/ ٨٠) «وقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون؛ وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً» انظر أيضاً تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧)

(٢) قصة نفاق هذا الرجل وعداته لرسول الله ﷺ مذكورة في أسباب النزول للواحدي (ص١٤٩)، وتفسير القرطبي (٤/ ٣١٨٣) وابن كثير (٢/ ٣٨٧، ٣٨٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٨٠) وهو والد صحابي جليل هو حنظلة غسيل الملائكة، استشهد يوم أحد وهو جنب فغسلته الملائكة.

فيه الناس ما دام رسول الله ﷺ قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذي يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد.

وقد يتغافل رسول الله ﷺ عن المنافقين بعض الشيء لحكمة ؛ فهم قد أحدثوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه[1] ؛ لذلك فرسول الله ﷺ كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ؛ لذلك أراد أن يحمي الإسلام من لسان من لم يعلم ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله ﷺ «مالك بن الدُّخْشم» و«عامر بن السكن» ، و«وحشيّ» قاتل حمزة ، و«معن بن عدي» ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا في موضعه مكان «القمامة» ، وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فأسرُّوها في نفوسهم.

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل ، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لابد أن تضعه في مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإصرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم . لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين في العداوة للإسلام ؛ لذلك كان لابد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول :

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يقول الناس إن محمداً يقتل أصحابه ، وقد ورد هذا في حديث جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبي قال أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال ، يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ ، « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٠٥) ومسلم في صحيحه (٢٥٨٤) .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذوني إنه بسلوكه بما يدل على نفسه ، ويأتي القرآن في سورة ثانية فيقول :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم [1] ، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً.

والحق سبحانه يقول هنا

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ ، وكلمة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق في محاربة رسول الله بغرض أن يؤدوه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه ﷺ

وفي هذا الأمر أمثلة كثيرة، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

أليس هذا القول يدفع في خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذي يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل ، ويأتي قوله الحق :

---

(١) وفي هذا يقول رب العزة عنهم ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ [التوبة ١١٠] يقول ابن كثير في تفسيره « أي شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع السيئ أورثهم نفاقاً في قلوبهم »

﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ .. (٩١) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا يعني أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف . وهكذا ضمن الله ورسوله ﷺ . وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها [1] .

وأيضاً حين يأتي القرآن بشيء في نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوه بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما في نيتهم ، ومن عيبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن .

ويتمثل ذلك في أحد المواقف التي يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم : إنكم سوف تحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون في القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا في أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ من النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك في قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فكيف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ؛ وهم بهذا العمل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت « كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿والله يعصمك من الناس . (٦٧) ﴾ [المائدة] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٤٦) واستغربه ، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية (٦/٢٠٦) والحاكم في مستدركه (٢/٣١٣) وصححه

وهنا يقول الحق: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع. وهم قد أقسموا وقالوا ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولتيسر على المعذورين والمرضى، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه [1]، ولكن حكم الله ينزل ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

فهل قوله الحق: ﴿لَا تَقُمْ [2] فِيهِ أَبَدًا﴾ معناه أن يظل المسجد قائماً ولا تقام فيه صلاة؟ هل ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ صيغتها النهي، أي لا تُصَلِّ فيه، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً؛ لأنه لن يكون له وجود؟

---

(١) قال ابن إسحاق في السيرة: «كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فيه، فقال: إني على جناح سفر، وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه» [سيرة النبي لابن هشام ٤/ ٥٣٠]

(٢) قام يقوم: نهض معتدلاً دون عرج، ويستعار للاعتدال في السلوك والأخلاق، وقام بالمكان مكث فيه على أي حال مثل أقام، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة ٢٠] أي توقفوا عن المسير ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ۝﴾ [الروم] أي: تقع وتتحقق، وقوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ۝﴾ [الجن] أي: نهض واجتهد في الدعوة إلى الله، وهنا النهي منصب على أن الصلاة لا تقام فيه؛ لأنه لن يكون له وجود.

إن قوله الحق سبحانه يعني أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ إذن. فالمسألة ليست في بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول [1] فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبون أن يتقذروا ؛ لأنهم لقابل لمن يحبون أن يتطهروا.

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شيء تنبسط له النفس وتحفّ لعمله.

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، فقال رسول الله ﷺ: فهل مع ذلك من غيره؟»

وهنا قال أهل قباء. «لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء [2] ، وكان لواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة ؛ فيخفف من استخدام المياه ؛ لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار [3] ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : «ولا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة».

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا شيء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه. ولشاعر يقول.

---

(١) هو مسجد قُباء، وهو أول مسجد بني في الإسلام، بنى محل مسجد النبي ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٥٥) والدارقطني في سننه (١/ ٦٢) والحاكم في مستدركه (١/ ١٥٥) (٢/ ٣٣٤) وصححه. قال البيلقي: سنده حسن بكر فيه عتبة بن أبي حكيم ليس بقوي.

(٣) هي ثلاثة أحجار يستنجي بها من الغائط ، عن عائشة أن النبي ﷺ قال «إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزيء عنه» أخرجه أحمد (٦/ ١٠٨ ، ١٣٣) وأبو داود في سننه (٤٠) والنسائي (١/ ٤١ ، ٤٢) والدارقطني في سننه (١/ ٥٤) . فأهل قباء كانوا يضيفون الماء بعد هذه الأحجار الثلاثة حجراً بعد الآخر، وذلك لشدة حرصهم على الطهارة

أنتَ الحبيبُ ولكنِّي أعُوذُ بكَ ... مِنْ أنْ أكُونَ حَسِباً غيرَ مَحْسُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهي تأخذ قمة الإبعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهي بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهي بل تزداد اشتعالاً .

إذن : فحين يكون الحب متبادلاً نجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو «الحب في الله» ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب في الله.

والحق سبحانه يقول في قصة فرعون وموسى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم ، فهذا الاحتمال لو كان قد جاء في بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تعقيل الكافرين به [1] ، فآل فرعون هم من يربون موسى ؛ ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

ولكن موسى عليه السلام لا يجامل في الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار في ميزان الحق ، وقد

(١) وفي هذا يقول سبحانه ﴿ وقالت امرأت فرعون قُرَّت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾ [القصص : ٩]

تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه:

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

ويقول سبحانه في مجال الحب المتبادل:

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحبة الحب بحب زائد [1]، وهم يردون على تحبة الحب منه سبحانه بحب زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ القرآن تجد قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

لم يأت سبحانه هنا بـ «ال» التعريفية ؛ لأنها لو جاءت لانحصر السلام في لون و حد. فأنت حين تقول. لقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت لقيت رجلاً فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً.

والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال:

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم]

---

(١) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)

لأنه يريد أن يكثر السلام. وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم]

وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك «سلام عليكم»، وأنت ترد. «وعليكم السلام». لماذا؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام مني يكون عليك وعلى غيرك، أما ردُّك «وعليكم السلام» فيعني أنك خَصَصْتَه بهذا السلام

وهنا الآية التي نحن بصدد خوطرنا عنها زادت في التحية حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وهذا لأن الذي يحب أن يكون طاهراً دائماً، قد أنس بفيوضات الله عليه [1]، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته في كل لحظة، ولا تنتهي إمداداته على الخلق أبداً، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم.

إذن: فقد جاء الإيمان ليريحنا لا ليتعبنا، كما أنه سبحانه يصف نفسه [2].

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة]

---

(١) لأنهم تحولوا عن النجاسات حساً ومعنى، وتحلوا بالطهر والعبادة، فتجلى الله عليهم بفيضه ونوره

(٢) وذلك أن اليهود وصفوا الله سبحانه بأنه بخيل لا ينفق فقالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ...﴾ [المائدة: ٦٤] وقد أخرج الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان يرفع ويخفض». أخرجه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)

أى. يطمئن الحق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية. فصحِّح جهاز استقبالك ؛ بألا ترجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية ؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال [1]، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسّية ، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه ، وكلماته ، وحسن استقباله وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته . وقد تجد إنساناً أبيض اللون ، لكن ليس فى وجهه نور ؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه.

وكيف تأتى الفيوضات؟ إنها تأتى بتنقية النفس ؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية ، فعليه أن يبحث فى جهازه الاستقبالى . وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعى ، فمحطات الإذاعة ترسل ، ومن يملك جهاز استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعى ، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها.

ولذلك قال الحق:

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى ، والحديث الشريف يقول:

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [2].

---

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال. «والذى نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن كمثل النخلة أكلت طيباً ووضعت طيباً» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩)

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى.

والليل قد ينتهي عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً ولا تنقبضان أبداً.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

وقوله ﴿أَلَمَنْ﴾ استفهام (٢)، وكأنه يقول: وكيف تسوون بين مسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخِذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين ورصاداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عنده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق :﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ (٣) بُنْيَانَهُ﴾ مجد كلمة « بنيان» وهي مصدر؛ «بنى» «بنياناً» ، لكن أطلق على الشيء المبني ، فنقول . إن هذا البنيان جميل ، أو نقول مثلاً: إن طراز هذا البنيان فرعوني.

إذن : هناك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذي ينشأ من هذه

---

(١) على شفا جرف . على حرف بئر لم تُبْنَ بالحجارة . هار . هائر متصدع أو متهدم فانهار به سقط البناء بالباني

(٢) جاء الاستفهام هنا بالهمزة، وهي ترد لطلب التصور والتصديق، بخلاف هل، فإنها للتصديق خاصة. وسائر أدوات الاستفهام للتصور خاصة (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/١٤٦)، والاستفهام هنا استفهام معناه التقرير ، أي تقرير أن من أسس بنيانه على تقوى من الله خير ممن أسس بنيانه على شفا جرف هار

(٣) أسس بنيانه أقامه على أساس قوي وعلى قواعد راسخة

العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعى[1] ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده «بنيانة» مثلما نقول: «رمان» ، ومفرده «رمانة» ، و«عنب» ومفرده «عنبة» ، وأيضاً «روم» مفرده «رومى» فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن: يُفرق بين الواحد والجمع ، إما بالياء وإما بالتاء.

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا فى مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا فى المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء . ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهنا ثلاث كلمات: شفا ، وجُرف ، وهَار . والشفا مأخوذ من الشَّفَة ، و«الشفة» حرف الشىء وطرفه . وسكانُ سواحل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، ونجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذى ليس له قاعدة وأسفله منْحور.

و«شفا جُرُف» أى طرف سيهار ؛ لأنه «هار» أى غير متماسك، فتكون الصورة أن الماء ينحر فى الساحل ، فيصنع شُقة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها «شفا جُرُف».

وقد قال القرآن فى موضع آخر:

---

(١) اسم الجنس الجمعى: هو ما له مفرد يشبهه فى لفظه ومعناه معاً، ولكن يمتاز المفرد بزيادة تاء التأنيث فى آخره أو ياء النسب . قال الفيروز آبادى فى «بصائر ذوى التمييز» (ص ٢٧٧) . «البنيان» واحد لا جمع له . وقال بعضهم جمع واحدته «بنيانة» على حد «نخلة ونخل» وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾

[آل عمران]

إنها حفرة في النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مرعب .

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليأخذوا منها الماء ، كانوا يضعون في جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أي جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هار ، وهكذا كان مسجد الضرار ، ينهار بمن فيه في نار جهنم .

ويذيل الحق الآية ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم كانوا ظالمين بالنفاق ؛ لذلك لم يَهْدِهم الله إلى عمل الخير ؛ لأن الله لا يهدي الظالم . وسبحانه يقول في أكثر من موضع بالقرآن :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول عز وجل :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

والهداية - كما علمنا من قبل - قسمان . هداية الدلالة ، وهي لجميع الخلق ويدل بها الله الناس على طريق الخير ، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه ،

فهم أحرار ، فلله هدية شملت الجميع، وهي هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهي هداية المعونة.

ويقول الحق بعد ذلك.

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً[1] فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

البنيان الذي بنوا هو مسجد الضرار ، وأر دوا به ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن يصلي فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة[2] وأن يرسموا الصلاة فيه.

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿لا تقم فيه أبدا﴾ وأرسل ﷺ بعضاً من صحابته[3] ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه ﷺ بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، وكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسيّة.

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسيّة ، فالإنسان قد يتحرز من

(١) ريبة ـ شكاً ونفاقاً في قلوبهم.

(٢) ذريعة أي وسيلة وتوصلاً لهدف معين

(٣) منهم ـ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي. أما مالك فقد شهد بدراً ، وأما معن بن عدي بن الجد حليف الأنصار فقد شهد غزوة أحد (انظر الإصابة في تمييز الصحابة)

النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التى تخامر [1] القلوب والعقائد والعواطف فهى التى تسبب للإنسان الشقاء

وهنا يقول الحق: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصار موقعه موضع القمامة، بقى أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله ﷺ العقاب ، وظلوا فى شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ بسوء، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت.

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثانى فى استبقاء الحياة، أما العضو الأول فى استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة . فالمخ فى الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة.

وكذلك النخاعات التى تتحكم فى إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة . ونرى فى الحفريات أن الجماجم هى أبقى شىء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته.

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول: ليس لى رغبة فى الأكل ، وهذا ليس إلا تعبيراً علمياً لما حدث فى الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب : خالطها واعتزج بها

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المخ» مصاناً.

ولذلك نجد القرآن حينما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه:

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]

أي: أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شيء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات في الذبول ؛ لأنها تعطي حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم نجد الساق تجف لأنها تعطي حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتي قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً.

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهي الأشياء التي تنشأ من المحسّات ، وتتكون في الفؤاد[1] لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهي من الاقتناع بفكرة حتى تستقر في القلب

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره في قلوبهم ، ولن ينتهي منهم أبداً إلا بشيء واحد هو ﴿ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا

(١) القلب هو مضغة الدم في شرايين الجسم وعروقه هذا تعريف المادة ، والفؤاد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴿٤٦﴾ [الحج] وقوله: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿٢٤﴾ [محمد] ويطلق القلب على الفؤاد ، كما يطلق الفؤاد على القلب فهما متلازمان كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار مناقشة المسائل، ثم يكون الاختيار هي البدائل وينتهي بالإقناع .

أو . ﴿ إلاَّ أن تَقطَّع قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً.

وهذا تهديد لهم بأن سيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما سيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود التوبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم ينشرون فى الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب

ثم يقول سبحانه : ﴿ واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شىء فى مكانه .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوَّض الإيمان وعوَّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتُعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً.

فيقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ[1] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾

يقول العلماء.. كيف يشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهو الذى خلق الأنفس وهو الذى وهب المال ؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوصح به. إنه مالك بحيث إذا احتاجه أح لك فى الدين ، فأنا أقترضه منك، ولم يقل: «أسترده» فسبحانه لقائل:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ، ووهبهم الأنفس أعلى أنهم ملكهم حقاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن ، ولذلك يقول التى عليه الصلاة والسلام «إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هى الجنة».

أى : اجعلوا ثمنها غالياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ . وكلمة ﴿اشْتَرَىٰ﴾ تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع. وإذا كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان فى الولى على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندى

---

(١) الشراء والاشتراء : التملك بالمبادلة والعوض، وشَرَى يَشْرِى ، بمعنى باع وبمعنى اشترى ، والشرى يعطى شيئاً ويأخذ بدله شيئاً ، فهو بائع وهو مُشْرٍ، وجاء شرى بمعنى باع فى قوله تعالى : ﴿وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف] أى : باعوه وجاء اشترى بمعنى أخذ السلعة ودفع الثمن فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴿١١١﴾﴾ [التوبة]

شيء وأنا ولي على يتيم، فأشتري هذا الشيء بصفتي ، ثم أبيعه بصفتي الأخرى ، فالشخص لواحد يكون هو الشاري وهو البائع [1] ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشتري».

وما الثمن؟ يأتي التحديد من الحق. ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن الذي لا يمس ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التي لا نهاية لها ، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وحينما جاء الأنصار في بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال له عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ما شئت

قال. «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

مادا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال: «الجنة» ؛ لأن كل شيء في الدنيا ثمنه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» [2] وبمجرد

---

(١) هذا يجوز عند الإمام مالك بشرط ألا يحابي نفسه في الشراء من مال اليتيم أو البيع إلى نفسه انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ٣٣٤)

(٢) حينما نزلت هذه الآية . وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطي في أسباب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبري من مرسل محمد بن كعب القرظي ، وكذا أورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٩١)، والقرطبي في تفسيره (٨/ ٣١٩٣)

عقد الصفقة العهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار [1]، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه ودروته ، وقد يقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة لكنه ﷺ حين قال: «الجنة» ، فمن مات يدخلها.

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتي من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ؛ لأن الذي يقدح في وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفي به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ.

إذن: الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحيّ لا يموت ، لذلك يقول في هذه الآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ويقول في آخرها :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ و«وَعْد» مصدر، فأين الفعل؟ إننا نفهمها: أي وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذي يملك وهو وعد حق. والقرآن حين يأتي بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقّاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه:

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

هذه قضية قرآنية ، حدثت من قبل و ثبتت في الكون.

وماذا بعد أن اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ هما بحدد الحق المهمة أمامهم:

---

(١) كانوا الثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم سعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، وأبو مسعود الأنصاري ، والبراء بن معرور ، وسعد بن عبادة ، والمرأتان هما . نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و«قَاتَلَ» من «فَاعَلَ» ، و«قَتَلَ» غير «قَاتَلَ» . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن «قَاتَلَ» تقتضي مفاعلة ، مثلها مثل «شَارَكَ زيدٌ عَمْراً» . وكل مادة «فاعَلَ» و«تفاعَلَ» توضح لنا الشركة في الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول . ولذلك تجد في أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ المفاعلة في واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية في الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى .

فمثلاً : الرجل الذي سار في الصحراء التي فيها حيّات وثعابين ، ولم يُهِج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان لم تُمِتْ لا تهيجه فهو لا يفرز سماً ؛ لأن سم الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً .

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه ، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد «سالمها» ، والشاعر يقول :

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَدَما ... والأُفْعُوان [1] والشُّجَاعَ الشَّجْعَمَا [2]

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن « لأفعوان» منصوب ، وأن «الحيات» مرفوعة ، إذن فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالصيغ منصوبة ، وكذلك الشجعم لما في الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها .

---

(١) الأفعوان . ذكر الأفاعي . ونلوث « أفعى » وهي الحية
(٢) الشجاع الشجعم الثعبان الضخم

وهما يقول الحق.

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ ﴾ فمن يقاتل ، إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفي قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ، [1] ويقول : «فَيُقْتَلُونَ ويَقْتُلُونَ»؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة. وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، [2] وإذا ما جاء المؤمنون في جانب ؛ والكفار في جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن ، فحين تقتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول : « فيقتلون ويقتلون ».

أو : أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا في أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة.

وكنا نعرف قصة الصحابي الذي قال لرسول الله ﷺ : أليس بيني وبين الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلوني ؟ قال له : «نعم» فأخرج الصحابي تمرة كانت في فمه ، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة [3]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣١٩٤) « قرأ الحسن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف بتقديم المفعول على الفاعل وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول» .

(٢) عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٤٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٥٨٥) واللفظ لمسلم .

(٣) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له . أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال في الجنة فألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله

﴿وعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن﴾، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة، وهو وعد من الحق في التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان.

وكل دين في وقته له مؤمنون به، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه إذن فالقتال في سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين، لكنها لم تكن عامة عند الرسل، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتدخل لعقاب أهل الكفر، وكان الرسول يبلِّغ، فإذا لم يستجبْ له قومه؛ عاقبهم الله سبحانه، والقرآن يقول.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... ﴿٤٠﴾﴾[1] [العنكبوت]

ولم تأتِ مسألة القتال في سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام[2] أن يقاتلوا في سبيل الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة]

إذن: فهذا وعد من الله في التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام، وطلبوا بالقتال في سبيل الله، وكذلك في الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه

---

(١) هذه أربعة أنواع من العذاب «الحاصب» وهي ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد» و«الصيحة» التي أخذت قوم «ثمود» فقضت عليهم. و«الخسف» الذي عاقب الله به قارون و«الغرق» الذي قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام

(٢) كان هذا بعد سيدنا موسى بما يقرب على الألف عام، والنبي هنا الذي طلب منه قوم بني إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله هو: شمعون أو صموئيل، قاله السدي ومجاهد ووهب بن منبه وهو ما رجحه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٠٠)

السلام ، وأخيراً في القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ [1].

أو: أن هذا الوعد خاص بأمة محمد ﷺ ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشري. وبهذا يكون الوعد في التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد ﷺ ، فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل قد بُشِّر فيه بهذ الوعد للأمة المسلمة. والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه في آخر سورة الفتح:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

إذن فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً. ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار

وبذلك يُطرِّع المؤمن نفسه ، فهو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين

(١) قال القرطبي (٤/ ٣١٩٤) في تفسير الآية: هذا إخبار من الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام، وقد قال عز وجل على لسان سيدنا موسى. ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة ٢١] إلى أن قال ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة ٢٤].

يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز.

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

وتتابع صفات المؤمنين في قوله سبحانه:

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

وهم في ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله.

ثم يصفهم سبحانه:

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور بشع من وجوههم؛[1] لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

أي: أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجيء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التي لا توجد في اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقي أرواحهم بالقيم الدينية ، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن نبي الله ﷺ قال «إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة». أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٩٦) وأبو داود في سننه (٤٧٦٦). وقال بعض العلماء: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. انظر ابن كثير (٤/ ٢٠٤)

هل تجد فيه أى شيء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية.

أما فى الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم يفسد حين تأتى لمادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية[1] تدافع عنها ، فيأبى القوى الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل فى البناء الاجتماعى.

إذن . نحن فى حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم، وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية، لذلك ستأتى أمة محمد وهى تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود.

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتى فى أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة فى الحياة.[2]

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ[3] يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

---

(١) جمع الإسلام بين عقل المادة بالتحطيط وعقل الروح بالتهذيب، ومن هنا يكون الانسجام بين طاقة الروح وطاقة المادة ، وطاقة العقل ، فرسالة الإسلام هى عقل القيم ، يقول الحق ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

(٢) يقول سبحانه ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد]

(٣) شطأه فرعه يقال : أشطأ الزرع إذا نبت وما أخرجه أول الزرع وتأزر قوى بعضه بعضاً استغلظ فاستوى على سوقه صار غليظاً وقويت واستحكمت بنيته

ومن حق المسلمين أن يقولوا. أيها الكافرون ليست لكم مادة تطعمون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركه حياتنا على ضوء منهجه في الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هي التي تحرس الحضارة، والمادة إنما تحرس القيم، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أي إنسان عن أن يطمع في فتنة المسلمين في دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال]

فالكفار إذا رأوك قد أعددتَ لهم يتهيبون.

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها، يقول الحق:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد، والذي يخرج عن هذا الارتباط أمران:

الأول. ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً، بل كان في نيته ألا يوفي، ولكنه أنام العهد حديعة حتى يستنيم له المعاهَد.

والأمر الثاني: أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه، فهو كاذب.

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنزَّه عن كل ذلك، ولا أحد أوفى بالعهد من الله.

فقد يُطعن في العهد والوفاء به عدم القدرة، لكن قدرة الحق مستوفية.

إذن: فالعهد الحقيقي إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامي ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؟ فالإجابة: لا أحد ؛ لأن الذي يقدح في مسألة العهد الحُلف والكذب وغير ذلك.

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتي إلا من ماكر ، وإذا سمع أي إنسان ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ثم أدار فكره في الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول . «الله» ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة ، والجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة.

ولهذا يقول سبحانه - ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ثم وعده الحق المبيَّن في التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هي الاستبشار بما باعه المؤمن لله. فالإنسان - ولله المثل الأعلى - لا يسجل إلا ما يكون في صالح قضيته، ولا يسجل للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ[1] على فلان ، فأنت الذي تحتفظ به وتحرص عليه ؛ لأنه يؤيد حقك.

والحق سبحانه يقول.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]

والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة في كل أمور الدنيا والآخرة، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذي صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذي خلقه الله لا يمكن أن

(١) الصَّك: الكتاب، فارسي معرب يقيد به الديون والأعطيات

تخرج عن قضايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾

قوله الحق : ﴿فاستبشروا﴾ مأخوذ من «البشرة» ، وهي الجلد عامة ، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق ، وهذا قد يُقبِضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إن الله اشترى﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور . والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿ فاستبشروا ﴾ أي : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً [1] .

﴿فاستبشروا ببيعكم﴾ وهل يستبشر الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة ، ويشتري ما يحتاج إليه ، فهت الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً ببالق .

﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذى أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم

(١) وعلى المؤمن أن يكون له نصيب من هذا في تعامله مع الناس ، فعن أبي موسى قال كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا» . أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٩٩) ومسلم (١٧٣٢) في صحيحيهما

يحتاج للمخالفة لأن وراءه بتعبه. لكن الحق سبحانه ليس في حاجة لأحد وهو غني عن الجميع، ولا يوجد أدنى مبرر يخلف الوعد أبداً.

وتأتي ﴿وذلك﴾ إشارة إلى الصفقة التي انعقدت بينكم وبين ربكم.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة في عرف العقل الواعي، كما تقول لابنك: «ذاكر لتفوز بالنجاح» وتقول للتاجر: «اجتهد في عملك بإخلاص لتفوز بالربح».

إذن: فهناك «فوز»، وهناك «فوز عظيم» والفوز في الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التي تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه [1]

ويقول الحق بعد ذلك:

[112]

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

---

(١) وهذه طبيعة الإنسان التي تطمح نفسه دائماً إلى الخلود وخلودها أنعم عليه به، وقد لمح إبليس فيه هذا فقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه]. فإبليس يمنيه بالخلد وبالنعيم الذي لا يزول ولا يفنى.

(٢) التائبون: من الشرك ولم ينافقوا في الإسلام. العابدون: الذين دلوا خشية لله وتواضعاً. الحامدون: الذين حمدوا الله على كل حال في السراء والضراء. السائحون: الصائمون. الراكعون الساجدون: المصلون. الحافظون لحدود الله: المنتهون إلى أمره. (راجع تفسير الطبري)

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة، فمن هم المقبلون عليها [1] ؟ إنهم التائبون . والتوبة: هي الرجوع عن أي باطل إلى حق.

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة. نجد ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف]

إذن . فالإيمان أمر فطري ، والكفر هو الذي يطرأ عليه ، وقلنا من قبل: إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الستر [2]،

---

(١) ليس فضيلة الشيخ هنا معنى هاماً في تفسير هذه الآية، فلن يقبل على الدخول في هذه البيعة إلا من توافرت فيه هذه الصفات، ولكن ليس على سبيل الشرط ، فقد ثبت في السنة أن هناك من استشهد ولم يركع لله ركعة ، وكذلك جاء في السنة أن الشهيد تغفر له ذنوبه مع أول قطرة دم (أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٣١) وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب (٢/ ١٩٤) وقد اختلف المفسرون في هذه الآية. هل هي متصلة بالآية قبلها أم منفصلة ؟ فاتصالها بها معناه أنه لن يدخل في هذه البيعة إلا القليل النادر، أما انفصالها فمعناه أن هذه أوصاف للكملة من المؤمنين الأقرب لبيع أنفسهم وأموالهم في مقابل الجنة انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١٩٧) .

(٢) الكفر على أربعة أنحاء. كفر إنكار بأن لا يُعرف الله أصلاً ولا يُعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق ، من لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له. . . فأما كفر الإنكار فهو كفر بالقلب واللسان . وأما كفر الجحود فهو أن يعرف الكفر بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس وأمية بن أبي الصلت ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل . وأما كفر النفاق فهو إقرار باللسان وكفر بالقلب نقله ابن منظور في اللسان (مادة . كفر)

فمن يكفر بالله - والعياذ بالله - إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيستره ، ثم يأتي من ينبه في الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التي طرأت على الفطرة .

و﴿التَّائِبُونَ﴾: منهم التائبون عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذي آمنوا به ، ومن هنا نشأت العبادة التي تقتضي وجود عابد ومعبود ، والعبدة تعني الانصياع من العابد لأوامر ونواهي المعبود .

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ والعبدة كلها طاعة تتمثل في تطبيق ما جاء به المنهج من «افعل» و«لا تفعل» ، وقد يتدخل المنهج في حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل في هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولي أمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذي يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح .

إذن . الأوامر والنواهي هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة .

إذن : فالذين تابوا عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أي : منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهي ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهي ، ولكنهم يصدقون قوله ﷺ: «حُفَّتِ الجنةُ

بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات »[1]

حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن في زمرة الحَامِدِينَ.

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله هو بالك ، فلا يشغلك كونه عبد سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً في بالك، والحق سبحانه يقول:

﴿ كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق]

لذلك يفكر المؤمن في الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة في بيت وأولاد وعمل.

و﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أيضاً لابد أن يستقبلوا كل قدر قدره عليهم بالرضا ؛ لأن الذي يُجري عليهم القدر ما دام لم يأمرهم بما لم يقع في اختيارهم - فهو حكيم ولا يُجْرِي سبحانه عليهم إلا ما كان في صالحهم. وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه :﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ... ۝٢٨٢ ﴾ [البقرة]

ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول ﴿ السَّائِحُونَ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) والترمذي في سننه (٢٥٥٩) والدارمي في سننه (٢/ ٣٣٩) عن أنس بن مالك قال النووي في شرحه لمسلم (١٧/ ١٧١) «فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسيء، والصبر عن الشهوات ونحو ذلك وأما الشهوات التي حفت بها النار ، فالمظنور أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهي ونحو ذلك، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسّي القلب أو يشغل عن الطاعات أو يخرج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك »

ومعنى «سائح» هو من ترك المكان الذى له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شيء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك ؛ لأنه لا شيء يشغله فى الكون عن المكوِّن ، ويقول الحق سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ...﴿١١﴾﴾ [الأنعام]

إذن: فالسياحة هى السير المشروع ، والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب فى الأرض [1] ليبتغى من فضل الله .

إذن فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهى خاصة بالذين يضربون فى الأرض ، وهم الرجال.

أما سياحة الاعتبار ؛ فهى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك فى وصف النساء:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ...﴿٥﴾﴾ [التحريم]

إذن : ﴿سائحات﴾ هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التى تكون فى صحبة لزوج الذى يضرب فى الأرض.

وقيل أيضاً: إن السياحة أطلقت على «الصيام» ؛ لأن السياحة تخرجك عما ألفتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألفتَ من

(١) الضرب فى الأرض السفر لطلب الرزق والتجارة يقول سبحانه ﴿وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله﴿٢٠﴾﴾ [المزمل]

طعام وشراب وشهوة[1].

إذن: لقدرٌ المشترك بين الرجال والنساء هو في سياحة الاعتبار وسياحة الصوم.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي: المقيمون للصلاة، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة، مع أن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة، وأما القيام فقد يكون في غير الصلاة، وكذلك القعود. إذن: فالخاصيتان هما ركوع وسجود؛ والحق يقول

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي[2] لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران]

أي: صلي مع المصلين، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة في الصلاة.

ثم يقول سبحانه. ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو حيثية تحصن الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس، فالحق سبحانه يقول.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...(١١٠)﴾ [آل عمران]

فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا

---

(١) قيل للصائم. «سائح» لأن الذي يسيح معبداً يسيح ولا زاد معه إنما يطعم إذا وجد الزاد، والصائم لا يطعم أيضاً فشبهه به سمي سائحاً. نقله ابن منظور في اللسان

(٢) القنوت: أداء الطاعة في خضوع وخشوع مع الإقرار بالعبودية لله.

المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مرارل له [1]. إذن: فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير ، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه.

ويقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تعرف المعروف الذي تأمر به ، وأن تعرف المنكر الذي تنهى عنه ؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص في معرفة أحكام الله ، ومعرفة حدود الله حلاً وحُرْمة ، أما أن يأتي أي إنسان ليُدخل نفسه في الأمر ويقول : أنا آمرٌ بمعروف وأنا أنهى عن منكر ، هنا نقول له لا تجعل الدين ، ولا تجعل التقوى في مرتبة أقل من المهن التي لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ و«الحدود» جمع «حد» وتأتي الحدود في القرآن على معنيين: المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر، وتلك يردفها الحق بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ... ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد، أما المعنى الثاني. فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك: لا تتعداها، بل يقول سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بَشِّرْ هؤلاء

---

(١) عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يُجاء برجل فيطرح في النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون. أي فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول. كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه» أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم بلفظ مقارب (٢٩٨٩)

ويقول الشاعر

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذين قد يصلون أو يصومون ظاهراً. وكلمة ﴿وَبَشِّرِ﴾ و«استبشر» و«البشرى» و«البشير» كلها مادة تدل على الخبر السار الذى يجعل فى النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تعبص بشرته بالسرور.

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ، ومن حقوق هذه الأبوة على الأباء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أولى من قرابة الدم ، وأولى من عاطفة الحنوّ والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أولى بأن يكون الإنسان بارّاً به من أن يكون بارّاً بالأب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه البتَّ فى الإسلام نفسه

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله ﷺ ، فقال ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ ، وإذا كان النبى ينهى ، فالمؤمنون من باب أولى ليس لهم الحق فى ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم آباء النبى إن كانوا غير مؤمنين.

وكلمة ﴿مَا كَانَ﴾ تختلف عن كلمة «ما ينبغى» فساعة تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن

تفعل ، ولكن حين يقال «ما كان لك أن تفعل» ، أي : أنك غير مؤهل لفعل هذا مطلقاً.

ومثال ذلك أن يقال لفقير جداً . «ما كان لك أن تشتري فيديو» ؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر . «ما ينبغي لك أن تشتري فيديو» أي عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذي يجب أن يمنع الشراء إذن: فهناك فرق بين نفي الإمكان ، ونفي الانبغاء.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

أي: ما كان [1] للنبي ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك والكفر ، ولو كانوا أولي قربى . فهذا أمر لا يصح [2] .

وحتى لا يحتج أحد من المؤمنين بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه جاء الحق بالقول الكريم

---

(١) قوله «ما كان» يأتي في القرآن على وجهين

- النهي . نحو قوله تعالى ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ۝٦٠﴾ [النمل] ، وقوله ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ۝٥١﴾ [الشورى] .

- النهي . نحو قوله تعالى ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ۝٥٣﴾ [الأحزاب] ، وقوله ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ۝١١٣﴾ [التوبة]

(٢) مما جاء في سبب نزول هذه الآية أنه : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ يا عم قل . لا إله إلا الله . كلمة أشهد لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت الآية ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ۝١١٣﴾ [التوبة] أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤) .

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن
مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ
تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]

﴿حَفِيًّا﴾ أي: أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه في استغفاره لأبيه [1].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ويأتي الحق سبحانه بالحيثية الموحية، بأن إبراهيم له من صفات الخير، الكثير جداً، لدرجة أن الله خالقه يقول فيه:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

أي: أن خصال الخير في إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة في إنسان واحد، ولا في اثنين ولا في ثلاثة، بل خصال الخير موزعة على الناس كلها، فهذا فيه صفة الأمانة، وثان يتحلى بالصدق، وثالث يتميز بالشهامة، ورابع موهوب في العلم، إذن: فخصال الخير دائماً يبثرها الله في خلقه، حتى يوجد تكافؤ الفرص بين البشر، كالمهن، والحرف، والعبقريات، والمواهب، فلا يوجد إنسان تتكامل فيه المواهب كلها ليصبح مجمع مواهب.

---

(١) حفياً: مبالغاً في الإكرام وإجابة حاجته على سبيل البر واللطف به. وقد جاء استغفار إبراهيم لأبيه في القرآن مرتين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم]، ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء] ولكن هذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله.

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خصال خير كثيرة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: فيه عليه السلام من خصال الخير التي تتفرق في الأمة. وبعد ذلك يعطينا الحيثية التي جعلت من سيدنا إبراهيم أمة، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل، فإذا أعطاه الله أمراً فهو ينفذه بعشق [1]، لا مجرد تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره، بل هو ينفذ التكليف بعشق، واقرأ قول الله سبحانه:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]

أي أتى بها على التمام، فلما أتمهن أراد الله أن يكافئه، فقال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]

فهو إذن مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة، أي أنه يشترك مع الناس في أنه بشر، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس، حتى لا يقول أحد: إنه فعل الخير لأنه ملك، وله طبيعة غير طبيعة البشر، لا.. إنه واحد من البشر، قال فيه الحق سبحانه:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]

أي: أسوة وقدوة، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من الجنس نفسه فلا تكون من جنس مختلف، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة؛ حتى لا يقول أحد: وهل أنا أستطيع أن أعمل مثل عمله؟ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عرض هذه القضية:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) العشق هنا أعلى مراتب الحب.

فحين تعجَّب بعض الناس [1] من أن ربنا قد بعث من البشر رسولاً أنزل الحق هذا القول وأضاف سبحانه.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فما دُمْتم أنتم بشر فلا بد أن يرسل لكم رسولاً منكم لتحقق الأسوة، لهذا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ولنَرَ كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكاليف بعشق، فلننظر إلى قول الحق سبحانه.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ... ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة]

ومعنى رفع القواعد أي إيجاد البعد الثالث، وهو الارتفاع؛ لأن البيت الحرام له طول وهذا هو البعد الأول، وله عرض وهو البعد الثاني وبهما تتحدد المساحة أما الارتفاع فبضربه في البعدين الآخرين يعطينا الحجم، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذي يبرز الحجم، وقد قال بعض المسطحيين: إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة، لا لم يبن الكعبة، بل رفع القواعد التي تبرز حجم الكعبة؛ بدليل أنه حينما جاء هو وامرأته هاجر ومعها الرضيع إسماعيل عليه السلام قال:

---

(١) جمع الله ذكر هؤلاء للتعجيب في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ..(٣٧) ﴾
[إبراهيم]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفلها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين « المكان » و« المكين» فالذى فعله إبراهيم هو إقامة « المكين» أى المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أى شىء سنصلى ؟ إلى أن نقيم المكين إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليست للمكين

ويقول الحق عن البيت الحرام :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ...(٩٧) ﴾ [آل عمران]

وآيات جمع ، وبينات جمع ، ولم يأت من الآيات البينات إلا « مُقَامُ إِبْرَاهِيمَ »

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ... (٩٧) ﴾ [آل عمران]

أى : أن « مقام إبراهيم » هو مجموع الآيات البينات ؛ لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانات التى تساعده فى الرفع ؛ لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوى ما تطوله اليدان ؛ لذلك فكر سيدنا إبراهيم وتدبر وجاء بحجر ليقف فوقه ليطيل فى ارتفاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه ينفذ التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفى هذا آيات واضحة على أن الإنسان

إذا كلف أمراً فعليه ألا يفقد الأمر لينهى التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدى ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن يزيد فيه ، وبذلك يؤدى «الفرض» والزائد على الفرض وهو « النافلة» .

ونحن هنا فى قضية الاستغفار ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلاَّ عن مَّوْعِدَةٍ وَعَدها إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدُوٌّ لِّلهِ تبرأ مِنْهُ إنَّ إبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

وهنا وقفة توضح لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذى يكثر التوجع والتأوه على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سوف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشغل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله فى بعض عباده للتسرية عن عباد له آخرين [1] .

ولذلك يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك [2] أو يتوجع

أى . أنه إذا أصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فإما أن يساعده فى مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه فى تعبه لمصيبته ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة فى النفس البشرية

فإبراهيم ﴿ أوَّاهٌ ﴾ ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له ؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يصنع طبع إبراهيم عليه السلام فى التأوه

(١) ومن معانى الأواه أيضا كثير الدعاء والتضرع إلى الله موقناً بالإجابة . انظر اللسان (مادة " أوه).
(٢) يسليك . يكشف عنك همك .

فى موضعه لصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن لك به ، فالمسألة ليست فى الطبع ، ولكن فى رب الطبع الذى أمر بذلك.

وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء فى العالم كله ؛ لأنها مسألة تسبب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ،بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو لله ومحمد ﷺ من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : « إنى خيار من خيار من خيار » ؟

ولو فهمت قول الحق . إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففى هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر إذن ففى سبه ﷺ أحد أعداء الله ، وفى ذلك نقض لقوله ﷺ : « خيار من خيار من خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » .

ولهذا نريد أن نصفى هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب ؟ الأب هو من نَسَلَكَ وأنجبك ، أو نسل من نسلك . إذن هناك أب مباشر و أبوه يعتبر أب لك أيضاً إلى أن تنتهى لآدم ، هذا هو معنى كلمة « الأب» كما نعرفه ، لكننا نجد أن القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدى ، وأغنى السور بالتعرض لهذه المادة « سورة يوسف » ؛ لأن مادة « الأب» جاءت نماني وعشرين مرة خلال هذه السورة ، فمثلاً نجد فى أوائل سورة يوسف، قول يوسف عليه السلام

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ... ﴿٤﴾﴾

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبي يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ [1] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ... ﴿٦﴾﴾ [يوسف]

والأبوان المقصودان هما إبراهيم وإسحق عليهما السلام، ثم قال الحق من بعد ذلك: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ [2] إِلَىٰ أَبِينَا ..﴿٨﴾﴾

[يوسف]

ثم جاء قولهم الحق على لسان إخوة يوسف. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف]

وفي نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف:

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ...﴿٩﴾﴾ [يوسف]

ثم يمهد إخوة يوسف للتخلص منه، فيبدأون بالحوار مع الأب:

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف]

وبعد أن ألقوه في غيابة الجب [3]، وعادوا إلى والدهم:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف]

---

(١) يجتبيك يختارك ويصطفيك لنبوته وتأويل الأحاديث هو تفسير الأحلام والرؤى

(٢) يقصدون أخا يوسف من أمه راحيل، واسمه بنيامين

(٣) الجب: البئر وغيابته أي قعره، في منهبط منه

وكانت هذه هي المرة الثامنة في ذكر كلمة أب في سورة يوسف ، ثم تأتي التاسعة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ... (١٧) ﴾[يوسف]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريانه من المحسنين ، وأن عندهم رؤى يريدان منه أن يفسرها لهما فقال لهما :

﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ... (٣٧) ﴾ [يوسف]

ويسند ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول .

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آبائه : إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام.

ثم خرج يوسف من السجن [١] وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته للتجارة فعرفهم ، ويحكي القرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ... (٥٩) ﴾ [يوسف]

وقال أيضاً :

---

(١) رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تظهر براءته مما نسب إليه تجاه امرأة العزيز ، لذلك قال لرسول الملك ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾[يوسف] وتم له ما أراد ، فقالت النسوة : ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وقالت امرأة العزيز ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾ [يوسف] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ (٦١) ﴾ [يوسف]

ثم عدوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيهم الأصغر معهم [١]، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن آتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر خارج عن إرادتهم، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة [٢]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ [٣] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ [٤] إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ [٥] (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ... (٧٥)﴾ [يوسف]

قالوا - ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾ [يوسف]

قال يوسف

﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ... (٧٩)﴾ [يوسف]

---

(١) المراودة: المراجعة وطلب الإذن منه برفق.

(٢) ردت أنهم قالوا لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٠): «وظاهر أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير».

(٣) الميرة: هي الطعام يمتاره الإنسان أي يجلبه.

(٤) السقاية: هو إناء من فضة كانوا يكيلون الطعام به، ويرى الشرب به، ويسمى أيضاً الصواع.

(٥) العير: القافلة، والعير القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام. قال تعالى ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: أيها القوم الراحلون.

(٦) زعيم: كفيل.

ويأمرهم سيدنا يوسف عليه السلام :

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ [يوسف]

ويعودون إلى أبيهم الذى يعاتبهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا . . . (٨٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . . (٨٧) ﴾ [يوسف]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال لهم . ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (٩٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين. ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ [1] (٩٤) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ [2] وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ . . . (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وما بينهما فى كل ذلك آيتان اثنتان . الأولى هى قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف]

---

(١) تفندون أى تكذبونى وتتهمونى بالخرف وضعف الرأى والعقل

(٢) العرش سرير الملك

وإسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث. وحين قال يوسف

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ [1] ءَابَآئِى ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف]

و« آبائى » جمع أب وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال :

﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ . . ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف]

ويعقوب هو أبو يوسف ، وإسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ، إذن : فإبراهيم أب ، وإسحق أب ، ويعقوب أب وهكذا نرى أن كلمة «الأب» تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت فى سورة البقرة تجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ... ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ، وإسماعيل أباً ، وإسحق أباً ، ولكن إسماعيل أح لإسحق ، إذن فقد أطلق الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا نرى أنه إذا ألحق بكلمة « أب» اسم معين هو المقصود بها ، فالمعنى ينصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت من غير تحديد الاسم ، فهى تنصرف إلى الأب المباشر فقط

واحق يقول فى شأن إبراهيم مع أبيه

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ...﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) الملة الشريعة والدين

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحدده بـ« آزر »[1] ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك ؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا ؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم

إذن : قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذى انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذى حير الكثيرين.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ[2] حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]

و« الحليم» هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً[3] عن الذنب .

وقد شغل صحابة رسول الله ﷺ بإخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام ؛ لأن منهج الإسلام نزل فى « ثلاثة وعشرين عاماً» . وليس من المفروض فيمن آمن أن يأتي بكل أحكم

(١) آزر ، اسم أعجمى . وقد اختلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمؤرخون على أن اسم أبيه « تارح» وبعضهم قال « تارخ» وبعضهم قال إنهما اسمان له كما للكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً والبعض قال ، إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر فى هذا : تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤)، وابن كثير (٢/ ١٤٩)، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤)، ولسان العرب (مادة آزر) وقصص الأنبياء عبد الوهاب النجار (ص ٩٣ – ٩٦)

(٢) أواه ، كثير الدعاء والتأوه خوفاً من الله

(٣) الحلم ، الصبر ، و« الحليم» صيغة مبالغة من الحلم، اى : كثير الحلم ، و« الصبور» صيغة مبالغة من الصبر أى ، كثير الصبر ، و« الصفوح» صيغة مبالغة من الصفح أى كثير الصفح ، والصفح هو العفو والمغفرة

الإسلام عند بداية إيمانه ، بل قد يكون قد آمن فقط بالشهادة ، فاعتبر مسلماً . ومثال هذا مخيريق اليهودى [1] الذى لم يصل ركعة واحدة فى الإسلام ؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالى كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً لأنه لم يمكث زمناً يتعلم فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذى مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذى مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائياً ، أيقال : إنه عاص أو كافر؟ لا ، إنه مسلم ، والذى مات قبل أن يعلم أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً [2] وشىء الحق أن يبين للمسلمين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحى

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة]

وهذا يوضح ما نعرفه فى عرف التقنين البشرى أنه لا جريمة إلا بنص ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فنحن لا نعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذى يعاقب عليه ، وأن يكون النص المحدد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل

إذن . لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . والذى لم يبلغه

---

(١) مخيريق النضرى لإسرائيلى من بنى النضير ، أسلم واستشهد فى أحد ، وكان غالياً وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة انظر الإصابه فى تمييز الصحابة (٦/ ٧٣) وسيرة النبى (٣/ ٨٨)

(٢) عن ابن عباس قال « وُجِّه نبى ﷺ إلى الكعبة قالوا يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] وأخرجه الترمذى فى سننه (٥/ ٢٠٨) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٦٩) وصححه وأقره الذهبى .
قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١/ ٩٨) « الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس » وذكر أسماءهم ، ثم قال « فهؤلاء العشرة متفق عليهم »

النص ، لأنه مات قبل أن يوجد النص ؛ لا نأخذه بالعقاب ؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوي ، إنما الرجعية فقط عند البشر ، ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : ﴿إلا ما قد سلف .. ﴿٢٢﴾﴾ [النساء]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استووا بالذي يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها ؛ لذلك جاء قوله الحق .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وهذه الهداية هي هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وقفوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

ومادة لـ(م.ل.ك) يأتى منها « مالك » ، و« مَلَك» ، و«ملْك» ، ومنها «مُلك» ، ومنها « ملكوت» ، و« المَلَك » هو ما تملكه أنت فى حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معك ويملك غيرك ، فهذا هو المَلِك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون فى الأمور الظاهرة . وأما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية

مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

وساعة ترى « تاء المبالغة » فى مثل « رهبوت» ، و«عطموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك فى الحياة ؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون فى ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شىء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شىء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ، فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

وفى هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة :﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ ﴾ و ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ﴾ ، وإيتاء الملْك فى أعراف الناس خير ، ونزعه فى أعراف الناس

شر ، وإعزاز الناس خير ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله بيده « الخير والشر » وإنما قال في كُلّ : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

إذن . نحن يؤتي الله إنساناً مُلْكاً ؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله في الخير . وحينما ينزع الله منه الملك نقول له . لقد طغيت وخفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعه الله منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعدلك حقاً . وإن أذلهم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا إذن فكلها خير

﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً [1] ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن المملوك راعى الله في كل أموره لرقق عليه قلب مالكه . ولذلك يقول لنا في الحديث القدسي : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدي ، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعوني أعطفهم عليكم » .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادث له حكمة [2] في الوجود .

---

(١) الملك العضوض : هو ملك شديد فيه ظلم وقهر وهي من صيغ المبالغة . والعضوض : جمع عضٌّ وهو الخبيث الشرس وسُمِّي هذا الملك عضوضاً لأنه يعض الناس .

(٢) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والعلم والنبوة والقرآن والإنجيل قال تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١١٥) ﴾ [البقرة]

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم[1] ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربي به المملوكين ، وسبحانه لا يربي الأشرار بالأخيار ؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون[2] ؛ وقلوبهم تمتلىء بالرحمة ؛ ولذلك يعلمها سبحانه

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ۝١٢٩ ﴾ [الأنعام]

والخير لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجري كل شيء بعلم الله ؛ لأنه سبحانه له ملك السموات والأرض وهو الذي يحيي ويميت ، فإياك أن تُمتَحَن في غير مخالفة أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمي نفسه من اختيار الله في كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمن من الله ويّاً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يأتي لنا بالأمر الذي يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال . ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وقال بعض العلماء في قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه « يحيي الجماد » ، و« يميت الحيوان» ؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هي الحس والحركة التي نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال . قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب » قطعة من حديث أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم في مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) . وصححه ووافقه الذهبي ، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا ، وفي بعضهم خلاف .

(٢) التربية هنا بمعنى التأديب والزجر ، وهذا ملمح دقيق جداً ، بالله سبحانه يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ [النور] .

هى ما أودعه الله فى كل ذرة فى الكون ، مما تؤدى به مهمتها ، ففى ذرة الرمل حياة ، والخيل فيه حياة ، وكل شىء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ... ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن . فالحياة مقابلها الهلاك ، وفى آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت وإذا قال الحق سبحانه

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص]

إذن . فكل شىء قبل أن يكون هالكاً كان حياً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمى الهائل فى المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التى ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن . فكل شىء فى الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أى حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة

بعد ذلك يقول الحق .

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهي أيضا رحمة بالمذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان في المعاصي بمجرد انحرافه مرة واحدة، وإذا استشرى في المعاصي فالمجتمع كله يشقى به ، إذن : فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن يفعل الذنب ، وبمن يقع عليه الذنب ، وقبول التوبة رحمة أخرى بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة.

والحق هنا يقول . ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وعطف [1] على النبي ﷺ ﴿ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ﴾ ، فأي شيء فعله رسول الله ﷺ حتى يقول الله : ﴿ لقد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟! ونقول : ألم يقل الحق سبحانه له .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين واستأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن العزوة [2] ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا [3] .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) العطف هو إشراك شيئين أو أكثر في حكم ما.

(٢) هي غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وقد كانت في شهر رجب عام تسع من الهجرة، وقد كانت في شدة حر وجدب وعُسْر يسمى المدينة بها الظلال والأشجار وقد طاب الثمار، ولذلك كانت امتحاناً عسيراً لرزل القلوب، وتراوحت ردود الأفعال تجاه الاستجابة بالنفير على حسب الإيمان الذي يسكن القلوب.

(٣) خبالاً : المراد أصابوكم بالفساد والضعف والاضطراب وعدم الثبات أمام الأعداء.

إذن : فرسول الله ﷺ كان بالفطرة السليمة قد تخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد أن يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام بها ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة في اليوم ؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفىء مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام» وأنت في هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل في منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه [1] .

وحين سمح النبي ﷺ لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب ؟ إنهم لو اشتركوا في الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأي عمل ، إذن . فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبي الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ... ﴾ [التحريم]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين فقال «ما هذا؟ قالوا: لزينب تصلي فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال «احلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فقعد». أخرجه البخاري في صحيحه (١١٥٠)، ومسلم في صحيحه (٧٨٤).

والنبى ﷺ لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله . لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبى ﷺ ، وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم [1] الأعمى يسأل رسول الله فى أمر من أمور الدين ، وكان ذلك فى حضور صناديد قريش [2] ، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ؛ فنزل القول الحق :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيمانى ، ولن يجادل مثلهم يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار لرسول ﷺ الأمر الصعب الذى يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ۝٤٣﴾ [التوبة]

ثم جاء هنا فى الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه ؛ فلا تحرُّج [3]

---

(١) المشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال عمرو أما أمه أم مكتوم فهى عاتكة بنت عبد الله أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين استخلفه رسول الله على المدينة ١٣ مرة أثناء خروجه فى الغزوات . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٢٨٥)

(٢) صناديد قريش عظماؤهم ، وعنى القوم فيهم وهم هنا عقبة بن ربيعة والحكم بن هشام (أبو جهل) والعباس بن عبد المطلب ، وقد كان يرجو إسلامهم وقد أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ فجعل يقول . أرشدنى وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . فجعل النبى يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول «أترى بما أقول بأساً ؟» فيقول لا فعنى هذا أنزل ﴿عبس وتولى ۝١ أن جاءه الأعمى ۝٢﴾ [عبس] أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٣١) وقال حديث غريب وابن حبان (١٧٦٩ – موارد الظمآن)

(٣) وقد قال بعض العلماء . إنما ذكر النبى ﷺ فى التوبة ؛ لأنه ما كان سبب توبتهم ذكر معهم . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٠٤)

وهذه المسائل التى حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ويزيغ : يميل ، أى : يترك ميدان المعركة كله ! لأنها كانت معركة فى ساعة العسرة ، ومعنى لعسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌ ، وليس عندهم رواحل [1] كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثانى ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذى توالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها يمصها يستحليها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحليها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان لبعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : «حتى إن الواحد ما كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير». كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب فى العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن . فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تبأ بالخواطر التى كانت فى نوايهم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبى خيثمة [2] الذى بقى من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل لرجل بستانه فوجد العريشين [3] ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد

---

(١) رواحل : جمع راحلة ، وهى كل بعير قادر على مشقات السفر ، سواء كان ذكراً أو أنثى

(٢) هو عبد الله بن خيثمة الأنصارى السلمى ، شهد أحداً ، وبقى إلى خلافة يزيد بن معاوية . انظر الإصابة (٧/ ٥٣) وانظر (٤/ ٦٣)

(٣) العريش : شيء يشبه الخيمة تكون داخل البستان مظلله بسعف النخيل .

طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلَّى ، فمسّته نفحة من صفاء النفس ؛ فقال : "رسول الله في الفيح - أي الحرارة الشديدة جداً - والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا في ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير [1] ، والله ما ذلك بالنَّصَفَة لك يارسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ . فقال صحابة رسول الله : يارسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبِل . فنظر رسول الله ﷺ وقال : «كن أبا خيثمة» [2] ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى قوله الحق

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [3] مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٧) ﴾ [التوبة]

وفي واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال :

---

(١) وثير : ناعم . يقصد الوسائد والفُرش التي فرشت داخل العريش
النَّصَفَة : الإنصاف والعدل . زمام الراحلة : الحبل الذي يُقاد به البعير .

(٢) قصة أبي خيثمة وردت تامة في السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق (٤/ ٥٢٠) وذكر ابن هشام أبياتًا لأبي خيثمة في هذا

لما رأيتُ الناسَ في الدين نافقوا ... أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكرما
وبايعتُ باليمنى يدي لمحمدٍ ... فلم أكتسب إثماً ولم أهش محرما
تركتُ خضيباً في العريش وصرمةً ... صفايا كراماً بسرها قد تحمما
وكنتُ إذا شكَّ المنافقُ أسمحتْ ... إلى الدين نفسي شطرهُ حيث يمّما

خضيباً : المرأة قد خضبت يديها باختاء . صرمة : مجموعة من النخل
صفايا : قد تحملت بالتمر . بسرها : التمر قبل أن يطيب
تحمما : أي أخذ في الإرطاب ؛ فاسود
وقد ورد قوله ﷺ : «كن أبا خيثمة» في حديث توبة كعب بن مالك عند مسلم في صحيحه (٢٧٦٩)

(٣) العسرة : من النفقة والظهر والزاد والماء .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ... (١٠٦) ﴾ [التوبة]

وما دام الله قد قال: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى : ما بَتَّ الله سبحانه فى أمرهم بشىء ؛فلا بد من الانتظار إلى أن يأتى أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتى قول الله وتاب أيضاً على الثلاثة [1] الذين خلفوا ، فى قوله سبحانه :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يقل لهم أحد هنا . إنما (خُلِّفُوا) معناها لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر فى غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار .

---

(١) الثلاثة هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذي يجلس فيه ، ويسبب له الضيق، لعل الضيق ينفك [1] . ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق في كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها ، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذي يحيطهم قد عَمَّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي : ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتوانى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فكان كعب بن مالك [2] يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر [3] عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه

---

(١) ينفك : يتخلص منه الإنسان . ومنه « فك الرقبة » أي : تخليصها من العبودية والرق . قال ابن الأعرابي : فك فلان أي خلص وأريح من الشيء . [لسان العرب : مادة : فكك]

(٢) كان كعب بن مالك يجالد الناس ويخرج للناس يتلمس منهم أن يكلموه ، أما صاحباه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فقد لزما بيتهما ، أما هو فيقول : « كنت آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عني »

(٣) تسوّر : تسلق الحائط حتى علاه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص]

وبعد ذلك يتصاعد الأمر في عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نسائهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ بألا يقربوا نساءهم[1] هكذا بلغ العزل[2] مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً في المجتمع ، ثم في الأقارب ، ثم في خصوصيات السكن وهي المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأنا أستأذنك في أن أصنع له ما يقيمه ، قال لها : «ولكن لا يقربنك» . قالت : والله يا رسول الله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله سمح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له : اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك .

قال . إن هلالاً رجل شيخ ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب ؟ والله لا أذهب له أبداً .

وظل الثلاثة في حصار نفسي ومجتمعي لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفي هذ تمحيص[3] لهم ، فكعب بن مالك – على سبيل المثال – يقص عن حاله قبل العزوة قائلاً «لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك العزوة ، والله ما جمعت قبلي راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة» . أي : أنه لم يكن له عذر يمنعه

بعد ذلك يجيء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتي واحد من جبل سلع

---

(١) وفي هذا يقول كعب : «حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستبطأت الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربها»

(٢) وهو ما يسمى بالعزل العام اجتماعياً واسرياً ونفسياً

(٣) تمحيص : ابتلاء واختبار وتخلص من الذنوب . وقد بلغ البلاء بهذا بكعب أن تلقى خطاب يعث له كتاباً يقول له فيه : «قد بلغت أن صاحبك – يقصد محمداً – قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك» . فألقى به كعب بعد قراءته في النار

فيقول: يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآناً وأنه تاب عليك.

قال كعب: فلم أجد عندى ما أهديه له لأنه بشّرنى إلا ثوبىّ فحلعتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ

وقال. يا رسول الله ، إن من تمام توبتى أن أنحلع من مالى - الذى سبّب لى هذا العقاب - صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ [1]

إذن. فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء، وإعطاء الأسوة بغيرهم فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق.

﴿وظنّوا ان لا ملجأ [2] من الله إلا إليه...(١١٨)﴾ [التوبة]

أى : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يجير من نفسه. كيف ؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً؛ ولذلك نقول: أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ [3] إلى الله ليحميك من الله . فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتتمثل صفات الجلال فى أنه : قهار ، وجبار ، ومنتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات وفى الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فالمجال فى هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الجلال ، ولا يمنع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال.

---

(١) فعاد له رسول الله ﷺ « أمسك بعض مالك فهو خير لك » فقال كعب. فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر والحديث بطوله أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩)

(٢) ملجأ بالعمل والملاذ والمجير

(٣) اللجوء يكون إلى صفات الجمال للحماية من صفات الجلال ، وهنا يكون اللجوء إلى الله ليحميك من الله

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله: «أعوذ بك منك»[1]

أي أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك، فلن يحميني من صفات جلالك إلا صفات جمالك.

ولذلك حينما جاء في الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ:

«فإذا ما كانت آخر ليلة من رمضان تجلّى الجبّار بالمغفرة».

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية، فكيف يتجلّى الجبّار بالمغفرة؟ ألم يكن من المناسب أن يقال: «يتجلّى الغفّار»؟ ونقول. لا؛ فإن المغفرة تقتضي ذنباً، ويصبح المقام لصفة الجبار، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلطتها، وكأننا نقول: يا جبار أنت الحق وحدك، لكنا نشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك. هذا هو معنى: «يتجلى الجبار بالمغفرة».

وقد سمع الأصمعي[2] - وهو يطوف - مسلماً عند باب الملتزم، يقول. اللهم إني أستحي أن أطلب منك المغفرة؛ لأني عصيتك، ولكني تطلّعتُ فلم أجد إلهاً سواك.

فقال له: يا هذا، إن الله يغفر لك لحُسْنِ مسألتك[3].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأحمد في مسنده (٦/ ٥٨، ١٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

(٢) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعي، أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، مولده ووفاته في البصرة عن ٩٥ عاماً، وتوفي عام ٢١٦ هـ. الأعلام للزركلي (٤/ ١٦٢).

(٣) ومما يروى أيضاً عن الأصمعي في نفس هذا المعنى أنه سمع أعرابياً يدعو الله وهو يقول: هربت إليك يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب، أحملها على ظهري، لا أجد شافعاً إليك إلا معرفتي بأنك أكرم من قصد إليه المضطرون، وأمّل فيما لديه الراغبون. انظر: الأمالي لأبي علي القالي (١/ ٣٢)

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ والتوبة أولاً - كما عرفنا في تشريعه ، ثم تأتي التوبة بالقبول ، وقوله ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أي : أنها تصح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .

ويُنهي الحق الآية بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فلا توَّاب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وساعة ينادي الحق عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا (١) بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء]

والحق سبحانه يُبيّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب في إيمانه ، فيطلب منه الحق «دوام الإيمان» . فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب ، فالمطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالإيمان ، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهنا يقول العارف بالله . إن الإيمان إما أن يطلب على جهة الهداية ، وإما على جهة الدلالة ، وإما على جهة المعية ، فإيمان الهداية بالإدراك ، وإيمان الدلالة بالاتصاف مع المدركات ، وإيمان المعية بالاختيار ، فالنداء إذا تكرر مطلوبه فهو مقامات عالية ، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال] .

وكلمة ﴿اتَّقُوا﴾ تعني: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية، ويتساءل البعض: هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين ربه وقاية؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون في معيَّة الله. وهنا تأتي ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال. إن قوله سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية، مثلما قال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]

لأن النار من جنود صفات الجلال، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال.

وهنا يقول الحق: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وفسر بعض العلماء قوله: ﴿وَكُونُوا مع الصَّادقين﴾ بمعنى كونوا من الصادقين، أي: أن «مع» هنا بمعنى «من» والمقصود أن يعطي هذا القول معنى إجماليّاً عاماً. لكني أقول: هناك فرق بين ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ و«كونوا من الصادقين»، فقوله الحق: ﴿وَكُونُوا مع الصَّادقين﴾ أي: التحموا بهم فتكونوا في معيَّتهم، وبعد أن تلتحموا بهم يأتي الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين.

ويقتضي الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية، فأيُّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هي نسبة ذهنية، مثل قولك: «محمد زارني»، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء إلى ذهنك أن تنطقها، وهذه «نسبة ذهنية». ومن يسمعك لا يدري بها، ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذي تدري بها، فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب؛ علم أن نسبة ذهنية جاءت في ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية. فحين قلت: «محمد زارني بالأمس»؛ جاءت في ذهنك قبل أن تقولها، فلما سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين؛ نسبة سمعها عن نسبة عندك.

وحين يمحّص السامع هذا القول؛ يعلم أن هناك واحداً في الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك، وخبرته معك دائماً أنك صادق، إذن:

فالصدق [1] هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع. أما إذا قلت . إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر ، فهذا يعني أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب إذن فهناك «نسبة ذهنية» و«نسبة كلامية» و«نسبة واقعية». فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية، فذلك هو الصدق، وإن لم تتطابق يكون الكذب.

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة، والفيصل في هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما نقول مع الواقع أم لا ؟ . أما إن قلت لك: «زُرْ فلاناً» فهذه نسبة إنشاء ؛ لأن الواقع يأتي بعدها ، لا قبلها.

وهذا يقول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ والصدق هو الخَلَّة [2] التي تجمع كل الإيمان ، ولنر التطبيق لذلك في قصة الرجل البدوي الذي ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ، إن فيَّ خلالاً ثلاثة لا أقدر على التخلِّي عنها أبداً ، أما الأولى فهي النساء، وأما الثانية فهي الخمر ، وأما الثالثة فهي الكذب ، وقد حتتك يا رسول الله . لتختر لي خصلة [3] من الثلاثة وتقوِّيني عليها. وأعاهد ربنا عليها. فاختار رسول الله ﷺ للأعرابي أن يتوب عن الكذب ، وأن يتحلَّى بالصدق ، فقال له . كن صادقاً وما عليك. وحين أحب الأعرابي أن يشرب كأس خمر ؛ تساءل : وماذا إن سألني النبي ﷺ أشربت الخمر ؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة ، قال لنفسه : « وماذا إن سألني ﷺ وكيف أخبره نفسي بصفة لا تليق بمسلم ؟ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهذَّب سلوكه . وحين سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم

---

(١) أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع فهو الصدق ، وإذا خالفت النسبة الكلامية الواقع كان الكذب ، وهذا ما ذهب إليه علماء البلاغة والمنطق

(٢) الخلة الصفة والخلق ، جمعها خلال

(٣) الخصلة : الخلة والصفة جمعها خصال وخصلات

فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال. لا [1]. لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الحازمه ، وهكذا نجد أن الصدق هو الرأس الأمر كله»

وقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي : لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أعمالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف]

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ [2] أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... ۝١٧٧ ﴾ [البقرة]

ولنتنبه إلى الملاحظ الدقيقة في هذه الآية، فقد قال الحق هنا: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ... ۝١٧٧ ﴾ [البقرة]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلماذا إذن ذكر ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ ؟ أقول . لقد ذكر الحق هنا المال الذي ينفقه المؤمن دون أن يكون مفروضاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً، فهذا فوق الواجب [3]

ثم يقول سبحانه :

---

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً
(٢) البر : هو الخير والإحسان ، وهو الإيمان الصادق وفعل الخيرات
(٣) الزكاة: فرض ، وإيتاء المال تصدقاً : فضل ، والخير لمن جمع بينهما

﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء[1] والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]

هذه هي صفات من صدقوا، وهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطر عنها قد صدقوا واتقوا

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]

وقد جاء الحق بصفة «الصدق» هنا؛ لأن المجال هو الحديث عمن تخلف عن الغزوات، وكذب في الأعذار التي افتعلها؛ لذلك يأتي التوجيه السماوي أن ادخلوا من باب الصدق[2].

يقول الحق بعد ذلك:

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ[3] ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿١٢٠﴾ ﴾

---

(١) البأساء: أي في حال الفقر. الضراء: في حال المرض والسقم. حين البأس: في حال القتال ولقاء الأعداء.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٧) والبخاري في صحيحه (٦٠٩٤).

(٣) الظمأ: العطش. والنصب: التعب. والمخمصة: المجاعة. يطئون: يدوسون.

والحديث هنا فيه رجوع إلى الذين تخلفوا عن الغزوة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : « ما كان لك أن تفعل كذا » أي . أنك تنفي القدرة على الفعل ، أما إن قلت «ما ينبغي» أي عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله.

وهنا يقول الحق : ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ وبعضهم قد تخلف عن رسول الله ﷺ في العسرة.

ثم يقول سبحانه. ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ وهنا حديث عن نوعين من الأنفس. أنفس من قد لوا بالتخلف، ونفس رسول الله ﷺ ، وأنت إذا قلت «رغبت»، معناها :أنك ملتَ ميلاً قلبياً، فإن قلت «رغبت في» كان الميل القلبي إلى ممارسة الفعل وفيها التفاعل، أما إن قلت: «رغبت عن» وفيها التجاوز، هذا يعني أن الميل القلبي يهدف إلى الابتعاد عن الفعل. إذن. فحرف الجر هو الذي يحدِّد نوع الميل النفسي.

وقوله الحق .﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي :أنهم زهدوا في أمر صدر عن رسول الله ﷺ وفضّلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ﷺ ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك؛ لأنكم ما دمتم آمنتم بالله، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليكم من نفوسكم [1] .

ولذلك نجد سيدنا عمر رضي الله عنه لما سمع أن النبي ﷺ قال . « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» [2]، فقال :يا رسول الله ، أن أحدث عن أهلي وعن مالي إنما عن نفسي ، فلا

---

(١) عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» أخرجه البخاري في صحيحه(١٦) ومسلم(٤٣)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٣٣) وفي إسناد أحمد ابن لهيعة ولكن تابعه جرير عن وهرة بن سعيد وباقي الحديث عند مروي بالمعنى

وهكذا كان صدق عمر رضي الله عنه ، فكرر رسول الله ﷺ القول . « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» . فعلم عمر أن رسول الله ﷺ حزم في هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطلوب ليس حب العاطفة، إنما هو حب العقل، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل، فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتي بالتكليف.

وعلى سبيل المثال : فأنت تحب ابنك بعاطفتك، حتى وإن لم يكن ذكياً، لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكياً وأميناً وناجحاً. وضربنا المثل من قبل وقلنا : إن الإنسان قد يحب الدواء المرّ ؛ لأن فيه الشفاء ، والإنسان لا يحب هذا الدواء بعواطفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله ؛ لأن هذا الدواء قد يكون السبب في العافية ، وإن لم يجده في الصيدليات يغضب ويشكو ، ويسرّ بمن يأتي له به من البلاد الأخرى.

إذن : فالذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة أو ممن حولهم ما كان لهم أن يتخلفوا ؛ لأن هذا يناقض إيمانهم في أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا في رسول الله ﷺ عن أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله ﷺ إنما يأتي لهم بالخير [1].

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب ضيق البصيرة ، سيأتي لهم بالشرور ،

---

(١) وفي هذا يقول رب العزة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . (٢٤) ﴾ [الأنفال] أي يُحيي دينكم وقلوبكم . وقد روى البخاري في صحيحه (٤٦٤٧) عن أبي سعيد بن المعلّى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجب ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي فقال ﷺ : ألم يقل الله عز وجل . (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ثم قال ﷺ: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج ، فذكرت له فقال ﷺ هي الحمد لله رب العالمين ، السبع المثاني ».

وإن جاء لهم بخير فغيره موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حبهم لرسول الله ﷺ عن أنفسهم يأتى لهم بالخير الثابت الدائم الذى يتناسب مع قدرة الله سبحانه

ثم يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ و﴿ذلك﴾ إشارة إلى حيثيات الترغيب التى يأخذون بها لجزاء الطيب من الحق سبحانه بأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم فى جيش العسرة لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير ، ويصفى الماء الذى فى معدته ليبُلَّ ريقه ، وريق زملائه

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ والنَّصَب : هو التعب ، وكانت المعركة فى جو حار مرهق.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أى: المجاعة، وقد كانوا يأكلون التمر الذى أصابه الدود، والشعير الذى انتشر فيه السوس. وإن كانوا قد عانوا من كل ذلك فهو فى سبيل الله القادر على أن يمُنَّ عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه فى سبيل نصرته

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويزحزحونهم عن هذا المكان ، وينزلون إلى الوديان والبساتين التى يمسكها الكفار ، فهذا أمر يغيظ أهل الكفر ، إذن: فهم حين يطأون موطئاً، فهذا يغيظ الكفار.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أى يأخذون من عدوٍّ منالاً ، والمعنى : أن يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسران ، حينئذ يأخذون الجزاء الخيِّر من الله ، وكل ما حدث أن الظمأ والنصب والمخمصة ووطء موطىء يغيظ الكفار والنيل من عدوهم نيلاً كل واحدة من هذه الأحداث لها جزاء يحدده الحق : ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾.

إذن: فالذين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد

خسروا كثيراً؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه من عمل صالح جزاءً لكل حادث قبله مَنْ خرجوا مع الرسول ﷺ [1].

ويُنهي الحق سبحانه الآية. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله اجرهم أبداً

ثم يأتي بأحداث أخرى غير الظمأ والنصب والمخمصة ووطء الموطىء الذي يغيظ الكفار ، والنَّيل من عدو الله نيلاً ، فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

كل شيء - إذن - محسوب، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا، فالله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا وسيجازيهم عليه، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا لوديان ليلحقوا برسول الله ﷺ في غزواته، فالله سبحانه يكتب لهم الخير وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين ؛ ليلحقوا بالسرايا التي يبعثها رسول الله ﷺ لنشر الدعوة.

وجاء قول الحق.

---

(١) هذه الآية تقتضي وجوب النفير على أحد المسلمين ، وقد قال بعض العلماء إنها منسوخة بالآية الآتية بعد ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة .. ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة] . وقال قتادة كان هذا خاصاً بالنبي ﷺ ، إذا حرا بنفسه ليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ، فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة وقال آخرون إنها محكمة قال القرطبي : قول قتادة حسن ، بدليل غزوة تبوك انظر : تفسير القرطبي (٤/٣٢١٧)

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد في قوله سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة]

كانت تلك هي الحيثيات التي ترغّب الناس في الجهاد ترغيباً يحرجهم عمّا ألفوا من العيش في أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم ، لأن الثمن الذي يتلقونه مقابل ذلك الجهاد ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية.

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغّب في الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعضهم ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله ﷺ وحده ، ورسول الله ﷺ يستقبل وحي الله.

واستقبال وحى الله يقتضى وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة فى الجهاد ، فبيَّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه فى الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحى بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحى بماله، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التى يبذل فى سبيلها الغالى والرخيص

لكن يبقى أمر آخر، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعنى الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يوحى به الله.

إذن فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله ﷺ أولا ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً؛ ليسيحوا به فى البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هى استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلِمون ؟

إذن . فلا بد أن يحافظ المسلمون على أمرين . أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام [1] بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد فى سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ تستقبلوا من رسول الله . فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال: ﴿ وما كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾

(١) لأن الجهاد فى سبيل الله لملاقاة العدو فرض بدوافعه وبمقتضى حال الدعوة ، أما الجهاد الإعلامى فهو مطلوب حتى قيام الساعة ، فهو جهاد موصول ما دام هناك باطل يناهض حقاً

وساعة تسمع «كان» منفياً فاعلم أنها جحود بهذه المسألة ، أي ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافه ، أي : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد.

و﴿كَافَّةً﴾ مأخوذة من كف الشيء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول: «أريد أن أكفف الثوب» معنى هذا أن الخائط حين يفصل القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكفها حتى لا يتفكك نسيج الثوب ، إذن فمعنى كلمة ﴿كَافَّةً﴾ : جميعاً.

ولنا أن نتساءل: لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله؟

نقول. نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله في الأرض ، ولكن الذي يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلِم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتي في زمن رسول الله ﷺ من منهج السماء حين ينزل على رسول الله ﷺ.

إذن . فلا بد من أناس يسمعون وحي السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض[1] جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ وفي هذا نفي أمر فيه انتفاء أي . لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله ﷺ منهم.

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ نشأ في أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قوي يسحر ، وكان في هذه الأمة أناس كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله ﷺ لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن

---

(١) إن الإعلام الذي هو جهاد له صفة الاستمرارية ؛ لأن وسيلة إقناع دائمة لتدعيم قيم السماء لتعليم أرض الأرض ، ولا يكون الجهاد بالسيف إلا بعد الإقناع والتصادي في الباطل لطمس معالم الحق. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١٨)﴾ [الأنبياء]

يقلل من فصاحة رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ... ﴿٦٩﴾﴾ [يس]

اى أنه ﷺ كان يستطيع أن يتفوق فى ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأنه لا ينبغى له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً ﷺ مُرْتاض [1] على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجىء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده.

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة ، ولم يسمعوا منه شعراً ، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد

وقوله الحق : ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أى : لا يصح أن يكون هذا الأمر ، رغم استعداد محمد ﷺ لذلك ، وكان من الممكن أن يُعلِّمه ربه الشعر وفنون القول ؛ ولذلك حينما قال أناس إن القرآن من عند محمد ، جاء القول الحق مُبلِّغاً محمداً :

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. ﴿١٦﴾﴾ [يونس]

وقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة .

ومن الذى يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أى : فى العقد الثانى من العمر ، ولا أحد يؤخر ظهور عبقريته .

---

(١) مرتاض : أى معتاد على فنون الشعر ، قد ذللت له القوافى والبحور والأوزان والنحو ليظم ما شاء ، وهذا لا ينبغى لرسول الله ﷺ ، وإلا كان موضع طعن فى القرآن

إذن: فرسول الله ﷺ حينما نزل عليه القرآن بالترغيب في الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين؛ فجاء قوله الحق:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

وفي هذا القول الكريم محافظة على أمرين؛ أمر استقبال وحي الله، وأمر الإعلام به، وبذلك يتنوع الجهاد، طائفة تستقبل، وطائفة تُعلِّم وترسل؛ لأنهم لو تركوا الرسول ﷺ جميعاً، فكيف يصل الوحي من الرسول ﷺ إلى المؤمنين؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً في المدينة فمن الذي يسيح في الأرض معلماً الناس؟ أما إذا بقي الرسول ﷺ والمؤمنون معه، في فترة لا قتال فيها، فهذا أمر مختلف؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط.

وكذلك إن خرج رسول الله ﷺ إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحي من الله موجود معهم، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود

إذن: فالمشكلة كانت في حالة عدم وجود رسول الله ﷺ مع الخارجين للجهاد، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد، وظل رسول الله ﷺ في المدينة، فعليهم أن ينقسموا قسمين قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله، وقسماً يخرج إلى القتال.

حين كان الرسول يخرج إلى القتال فالمهمة تسمى غزوة، وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية بـ «السَّرِية»[1].

---

(١) كان عدد الغزوات التي خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غازياً سبعاً وعشرين، وقد قاتل بنفسه في تسع منها، هي: بدر، وأحد، وبني المصطلق، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف. وبلغ عدد بعوثه أو سراياه سبعاً وأربعين؛ وقيل: بل نحواً من ستين

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة [1].

وقد خرجت المهمة القتالية عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتي تحدث في الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل و ستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمي تلك المعركة بـ «السّرية» بل هي غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً.

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان في المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات: إن مات فلان في القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان فلان يخلفه [2] ، أي : أنه ﷺ قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ

وهي الحملة القتالية الوحيدة التي خرجت بهذه التعليمات، من بين مئيلاتها من الحملات المحددة التي لم يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين، وكأنه ﷺ كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال.

ثم وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان الرسول ﷺ في المدينة والتفت الصحابة فسمعوا رسول الله ﷺ يتكلم ؛ قال: أخذ الراية فلان

---

(١) هي غزوة مؤتة ، ومؤتة هي قرية من أرض البلقاء من الشام من أعمال دمشق ، وكانت تسمى أيضاً جيش الأمراء

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٤٢٦١) عن عبد الله بن عمر قال « أمّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد ابن حارثة فقال رسول الله ﷺ : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة قال عبد الله : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وسبعين من طعنة ورمية »

فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتل ثم قال: وأخذها بعده فلان ، وكان ﷺ يقصّ المعركة [1] وهو فى المدينة فقالوا: لم يقل ذلك إلا لأنه شهد.

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله ﷺ وهو جالس فى المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا: شهدها رسول الله ؛ وما دام قد شهدها رسول الله ﷺ فهى غزوة.

ونعود إلى الآية التى يقول فيها الحق:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ... ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة]

وساعة تسمع كلمة «لولا» فلك أن تعرف أن فى اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، فـ«لو» و«لولا» و«لوما» و«هلاّ»، هى - إذن - ألفاظ واردة فى اللغة ، وإذا سمعت كلمة «لو» فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين. شىء امتنع لامتناع شىء ، مثل قولك. «لو كان عندك زيد لجئتك» وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجىء زيد ، فكلمة «لو» حرف امتناع لامتناع، وتقول: لو جئتنى فى بيتى لأكرمتك. إذن: فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت.

وتقول. « لولا زيد عبدك لجئتك» أى: أنه قد امتنع مجيئى لك لوجود زيد إذن فـ«لولا» حرف امتناع لوجود. ونلحظ أن «لولا» هنا جاء بعدها اسم هو «زيد» ، فماذا إن جاء بعدها فعل ، مثل قولك: «لولا فعلت كذا» ؟ هنا يكون فى القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴿١٢﴾﴾ [النور]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ فقال أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب وإن عينيه لتذرفان ، ثم أخذها خالد من غير إمرة ، ففتح الله عليه ، وما يسرنى أنهم عندنا أو قال : ما يسرهم أنهم عندنا أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١١٤)

ومثل قوله: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... ﴿١٣﴾﴾ [النور]

ومثلها أيضاً «لوما» مثل قوله الحق:

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر]

وأيضا قولك: «هَلاَّ». فهى أيضاً تحضيض مثل قولنا «هلا ذاكرت دروسك» ؟ وأنت بذلك تستفهم بـ(هل) ، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ) ؛ لتحثه على المذاكرة . أو قولك: «هلا أكرمت فلاناً ؟» وهى هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً [1].

والأسلوب هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ ثم يأتى الحث على أن ينقسموا إلى قسمين فى قوله : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ ، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد. والقسم الثانى يظل مع رسول الله ﷺ وهو يستقبل منهج السماء.

وقوله الحق : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فيه كلمة ﴿نَفَرَ﴾ وهى من النفور لكنها استعملت دائماً فى مسألة الخروج للحرب ، مثل قوله الحق:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ [2] إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا . . ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة]

ولماذا يجىء الحق بالنفرة فى الجهاد ؟ نقول: لأن الذى يعوق الإنسان عن

---

(١) الأدوات الثلاثة (لولا – لوما ، هلاَّ) لا يليها إلا المضارع ظاهراً أو مقدراً . فإن دخلت على ماض خلصت زمنه للمستقبل ، بشرط أن تفيد التحضيض ومنه الآية التى معنا ، ومثلها قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون] وانظر . النحو الوافى لعباس حسن.

(٢) اثاقلتم . تثاقلتم وأخلدتم إلى الأرض ، فتباطأتم عن تلبية النفير خوفاً على أنفسكم وأموالكم انظر . لسان العرب.

الجهاد حبه لدَعَته [1]، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، وإذا ما خرج للقتال شَقّ ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة]

وفي ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يبركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله ؛ لذلك يتمنى المؤمن الحق من الذي يملكه ، ويذهب لثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحديد في أنهم سمّوا الجهاد نفرة ، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل : ما الذي يجعلني أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر ؟

فلما جاءت ﴿فلولا نفر﴾ فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد، ولتلقى طائفة من المؤمنين؛ لتسمع من رسول الله الوحي، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ، هنا يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التي تتفقه في الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله في المدينة ؟

ونجيب: إن قوله الحق : ﴿فلولا نفر من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ نجد فيه كلمة ﴿فِرْقَةٍ ﴾ وهي الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف. فمثلما نسمي في الجيوش «الفرقة الأولى» و«الفرقة الثانية» و«الفرقة الثالثة» ، ثم نقسم الفرقة الواحدة إلى : «جماعة الاستطلاع» و«جماعة التموين» و«الشئون المعنوية» ، ونجد كلمة ﴿طَائِفَةٌ ﴾ وهي تعني «بعض الكثرة» [2].

---

(١) النُّقْلة : ترف العيش والراحة .

(٢) الطائفة : الرجل الواحد إلى الألف . والدليل على أن الواحد يقال له طائفة لأنه أصل الجميع قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴿٩﴾ ﴾ ثم قال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات] .

وما دام الحق قد قال. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهذا يعني أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين، إحداهما تنفر، والأخرى تبقى لتتفقه في الدين. إذن: فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائي كل ينفر لمهمته.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ فمن يجلس مع رسول الله ﷺ ليستمع إليه، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه ﷺ من وحي، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول في المدينة، والقتال، وكل طائفة تؤدي مهمتها.

وهناك من العلماء من رأى رأياً آخر، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها، وقال: إن من بقي مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة، ولأنه يأخذ من الرسول ﷺ علماً جديداً، يتبادله مع المقاتلين في ساحة القتال بعد أن يعودوا، فالمقاتلون في ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة، وتهدم العدو، والمعجزات التي رأوها من رسول الله ﷺ كنبوع الماء من بين أصابعه في حال قلة المياه عند العطش[1].

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقي العلم أخبار الوحي والفقه، وهكذا يتكافأ المؤمنون في المهام، وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

وما تقدم هو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد؟ نقول: إن الجهاد إعلام بمنهج الله في الأرض،

(١) قال جابر بن عبد الله: كم كنتم يوم الحديبية؟ قال: كنا ألفاً وخمسمائة، وذكر عطشاً أصابهم، قال: أتى رسول الله ﷺ بماء في تور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا وسقينا وكفانا، قال: قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف كفانا كنا ألفاً وخمسمائة. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/١١٥).

والإعلام بمنهج الله في الأرض بمقتضى المنهج المعلوم من السماء الذي يوضح مصير المجاهدين، ومصير المتخلفين وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التي حول المدينة؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام، وأيضاً أن يأتي آخرون من البلاد الأخرى لِيَتَعَلَّمُوا أمر الدين، ويعلموه لأهاليهم

ويكون قول الحق - ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة؛ ليجلسوا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا، ويتفقهوا في الدين؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم، ويعلموهم أمور الإيمان.

إذن. فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج، وهو رسول الله ﷺ، فهو ﷺ يعلم من يأتون إليه من أي مجتمع؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم، ويبلغوهم مطلوبات المنهج، وهذه مسألة بعيدة عن القتال.

إذن تكون النفرة للتفقه في الدين على أي معنى، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التي تتفقه؛ لتعلّم الطائفة التي تجاهد، أو الطائفة التي تجاهد تتفقه بالمعجزات و بالأحداث التي حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التي لم تخرج للقتال.

أو أن المعنى هو الأمر الثاني الذي لا قتال فيه، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ، وقد سماها الحق «نفرة»؛ لأنها جهاد في البحث عن المنهج وتعلمه، وهي نفره النفرة؛ لأن النفرة للجهد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المرسل من الله.

وقوله الحق : ﴿ فلولا نفر من كُلِّ فرْقةٍ ﴾ علمنا منه أن الفرقة هي الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله ﷺ ، ويعودان للبلاغ عنه ﷺ نكون أمام حصر من شاهدين اثنين بأن النبي قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم : هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله ﷺ أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين؟

وقد جاءت الآية صريحة في أنه ﴿فلولا نفر من كُلِّ فرْقةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليفقههم في الدين ، ويؤدي البلاغ عن رسول الله ﷺ.

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا : إن الذي نفر ليس فرداً من الفرقة، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف لا واحد، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة.

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، فلما بعثت بعثة في أي بلد متقدم ؛ لتأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب، ويلهو، فهو لم يحقق النفرة لا بد إذن من أن يستوعب كل واحد في البعثة أنه قد جاء للتفقه [1].

والفقه في اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أي أمر تفهمه : فقهتُ الأمر

---

(١) تطلب العلم وتتعلمه آداب ، منها أن يكون لوجه الله ، لا تطلب سمعة أو غيره ، عن كعب بن مالك قال قال ﷺ : « من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٤) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٨٦) شاهداً ، وابن أبي الدنيا في الصمت (حديث ١٤١) والعقيلي في « الضعفاء الكبير » (١/ ١٠٤) فيه إسحق بن يحيى تكلموا فيه من قبل حفظه

الفلانى فإن فهمت فى الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت فى العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذى غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه فى الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل»

إذن. الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحَ يعنى فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذى يحدد الصواب والخطأ ولا يقال : «الفقيه» إلا لمن فَقُه وهناك فرق بين فَقِه وفَقُه . فَقُهَ فى دين الله ، أى : أصبح الفقه عنده ملكة ، وساعة تسأله فى أى موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكة عنده ، والملكة . الصفة التى ترسخ فى النفس من مزاولة أى عمل ؛ فيسهل أداء هذا العمل . وكذلك الفقه. وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ «فهم شيئاً». أما فَقُهَ فمعناها: صار الفقه عنده مَلَكَة

وقوله الحق . ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أى: ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم: من بعد ذلك مَلَكَة عندهم.

ولكنْ ماذا إن نفروا لشىء آخر مثلما يتفر واحد من البدو ليسأل جماعته: إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون: نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هى التفقه فى الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لايطلب جاهاً ، أو رئاسة ، أو وظيفة ، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ، وليبذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أى : يتجنّبون مايضرُّهم.

وحين ندقق فى هذا الأمر نجده عدة مراحل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ هذه هى المرحلة الأولى ، ثم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾ هذه هى المرحلة

الثانية وهي التفقه ، أما الثالثة فهي ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ ، ومن تفقه لغير هذا فليشر إليه بالبنان مثلا [1] ؛ نقول له. أنت من الذين قال الله فيهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف]

إذن. فالتفقه يكون للدعوة بشيراً وإنذاراً؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

يقتضنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى. ولك أن تساءل لماذا - إذن - جاء الحديث عن السرية والتفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب- شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم في حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التي يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد في سبيل الله.

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس في آيات الجهاد إلى قسمين: فرقة تنفر، وطائفة منها تبقى مع رسول الله ﷺ . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تتعلم وتعلِّم [2] ، وتتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح

(١) البنان الأصابع مفردها بنانه ومنه قوله تعالى ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴿٤﴾﴾ [القيامة] قال الفارسي أي نجعلها كخف البعير فلا يتمكن بها في صناعه نقله ابن منظور في اللسان

(٢) فهم من التعليم والتعلم هي ما يعبر عنه حديثاً بالتوجيه المعنوي ، والتوجيه المعنوي أساس الانطلاق الإيماني نحو ما يريده الله سبحانه لدعوته

الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار

﴿ يـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ وهذا يعني أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين ، وهناك قوم أبعد منهم ، والحق قد قال

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة]

إذن ، فهناك أولويات في القتال ، وقتال الكفار القريبين منك فيه تأمين لمعسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم ، فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد ؛ فتتفق مع العدو القريب ، وتصنع الاثنان حولك «كماشة» بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمي ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب.

إذن : فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب ، ولا تعارض بين قوله الحق : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ ؛ لأن معنى ﴿ كَافَّةً ﴾ أي : جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية . فخذ القريب منك ؛ لتضمه إليك ، ومتى ضممته إليك نقصت أرضاً من عدوك ، وأصبح رائداً فيك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده ، فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار : اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهي تنقص من تحت أقدامكم [1] ، وما ينقص من

---

(١) قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد] . قال ابن عباس في تفسيرها : أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وهو الأولى في تفسير هذه الآية ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٢٠)

أرض الكفار يزيد في أرض الإيمان وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّئ على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد في مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته ، وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل في الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة ضد ، ويقال غَلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلَظَة [1] ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوك اضربه بقوة ، وبجرأة ، وبشجاعة.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة في حالتين اثنتين ؛ في حالة الإرسال منك ، وفي حالة الاستقبال منه ، فلا يكفي أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تحملُ على عدوك ، وغلظة تتحمَّل من عدوك

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيها الحق:

﴿اصْبِرُوا... ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران]

ولكنْ هَبْ أن عدوك يصبر أيضاً ، فيأتي الأمر من الحق.

﴿وَصَابِرُوا ... ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران]

أي: حاول أن تغلبه في الصبر . وحلَّ الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء

---

(١) قال الفراء : سمعت أهل الحجاز وبني أسد « غلظة » بكسر الغين . وبعض بني تميم « غُلظة » بضم الغين. وقال الزجاج : فيها ثلاث لغات غِلظة ، وغُلظة ، وغَلَظة انظر : لسان العرب مادة (غ ل ظ)

المعركة ، لأن العدو قد يستنيم [1] المؤمن ؛ لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ وَرَابِطُوا ... ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران]

أي: استقر أيها المؤمن في الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدّثته نفسه بالقتال مرة أخرى إذن: فالمعلطة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضي صبراً ، والتحامل يقتضي شجاعة ، فإذا ما كان في خصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصابره أي : تصبر أكثر منه ، وهي مأخوذة في الأصل من «نافس فلان فلانا . أي سابقه وحاول أن يسبقه» ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]

أي : تنافسوا في الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شيء مرة أو مرتين في اليوم ، وتحتاج إلى شيء آخر خمس أو ستّ مرات في اليوم . وتحتاج إلى شيء ثالث دائماً . فأنت في الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفي الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان .

وقلنا قديماً: إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التي في جسمه ؛ لذلك لم يُملِّك الحق سبحانه الماء مثلما مَلَّك

(١) يستنيم المؤمن . أي يتغير منه يومه أو غضه عن سلاحه ويقول عز وجل : ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴿١٠٢﴾ [النساء] فالغفلة عن السلاح والمتاع أثناء القتال هي حلم للكافرين يتحينون به أي فرصة لحدوثها ليميلوا على المؤمنين ميلة واحدة ، فيأخذونهم مرة واحدة

الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يمنُّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمورين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمِّي استنشاق الهواء وزفره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهي مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذي يضمن استمرار النفس في الحياة.

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشيء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله. وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة [1] لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي غلظة تحمل بها على العدو ، وغلظة تتحمَّل من العدو ، وأن تصبر ، وتصابر ، وترابط .

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فهل هذه بنفي الغلظة ، وأقول لنُفرق بين أمرين ، أمر الغلظة في أن تكون الحجة قوية ، وأمر الغلظة التي يتطلبها القتال ، أما المعايشة والمآكلة والملاطفة ، فهذه تحتاج إلى لين ورقَّة .

وقوله الحق ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة ، بل تعني أنك إن تَطَلَّبَ الأمرُ فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا. إن الله

---

(١) أصل الرباط من مرابط الخيل التي ترتبط بها في مواجهة الأعداء في الثغور والحدود مع العدو ، ففيه معنى التربص به والحذر من غدره . ومما ورد في فضل الرباط في سبيل الله « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٩٢) وأحمد في مسنده (٥/ ٣٣٩) والترمذي في سننه (١٦٦٤) عن سهل بن سعد الساعدي ويستعمل الربط في المعاني كقوله تعالى ﴿وربطنا على قلوبهم (١٤)﴾ [الكهف] أي ثبتنا قلوبهم وعززناهم على الإيمان وهم فتية أهل الكهف

لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على الذلة ، بل قال.

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

وقال:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]

وهُنا الحق الآية

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعدتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان ومثل هذا من يسلك مفاوز[1] أو صحارى مقفرة[2] أو طريقا موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق ، بجده يستعد بحمل سلاح ؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة.

أما النصر فهو من المدد الربَّاني من الحق سبحانه وتعالى. وما دام الله مع المتقين ، ولله معيَّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده ؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ لتنتبه إلى أن الداخل في الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً في المعسم ، فيدخل على الكافر بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجله مطية[3] هذا الكافر ، ويعتبرها معسماً .

---

(١) المفاوز : جمع مفازة ، وهي الصحراء المهلكة ، وسميت هكذا ؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فاز . قال ابن شميل : المفازة التي لا ماء فيها

(٢) مقفرة : خالية من الكلأ والناس

(٣) المطية : البعير أو الناقة يمتطى ظهرها أي : تركب . والجمع مطايا

لذلك يأتي التحذير في قول الحق سبحانه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلَّم لك و استسلم ؛ فستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة في مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيماني اللائق في إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هي العليا [1] وهنا تكون معيه الله لك ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ .

إذن . فالغلظة لا تعني أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ؛ فلا بد أن يوجد في طبعك اللين والمودعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له في الحرب شجاعة ، وفي السلم ودعة ، وخيركم من كان في الجيش كمياً وفي البيت صبياً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ؛ لأن ذلك وضع لطاقة في غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

أي . كونوا في حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن

---

(١) عن أبي موسى الأشعري أن رجلاً أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله » وفي رواية « هي العليا فهو في سبيل الله » . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤)

استعملها لله ؛ لتضمن أن تكون في معية الله[1]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قوله الحق : ﴿و إذا ما أُنزلت﴾ يعني : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك «نَزَلَ» و«أنزلَ» و«نَزَّلَ» ، و« أنزَلَ» للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزّله الحق نجوماً[2] فالتنزيل معناه : مواكبة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل – عليه السلام – على سيدنا محمد ﷺ .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل عليه السلام بالقرآن على رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفي آية أخرى يقول سبحانه .

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال . « المرء مع من أحب ، فأما من اتبع وجه الله ، وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من عراه فخر أو رياء وسمعة ، وعصى الإمام وأفسد في الأرض ، فإنه لم يرجع بالكفاف » أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٤) وأبو داود في سننه (٢٥١٢) والنسائي في سننه (٦/ ٤٩)

(٢) على حسب الحوادث

وهنا يقول الحق : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والسورة هي الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص ؛ أوله مثلاً : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وآخره تأتي بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ومأخوذة من السور الذي يحدد المكان[1]. وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن ؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن

ونتابع الآية : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ والمقصود بهذا المنافقون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وله أثر وفاعلية شرقية في صفاء النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له[2] ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أثرهم .

وهذا الأمر يسبب الاستعداد لتلقيه ؛ لأن المسألة في كل الأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل - ولله المثل الأعلى أنت تأتي بمطرقة مثلاً ، وتسرق قطعة حديد فترق وتريد مساحتها ، أما إن ضربت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة ؛ فلن تؤثر فيها .

إذن : فالطرق شيء وقابلية الطرق شيء آخر . وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، والمطلوب من القابل للشيء أن يستقبله بغير خصومة له نابعة من قلبه فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما في قلبه مما هو ضد

---

(١) فالسورة في التشريع الاصطلاحي هي قرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات ، وكل سورة معجزة وآية من آيات الله تعالى ، ومنها سور طوال ومنها قصار ، وبيع هذا قصورة مثل سورة الكوثر وهي ثلاث آيات لها نفس إعجاز سورة البقرة انظر تفصيل هذا في البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٦٣ - ٢٦٥)

(٢) من هؤلاء الوليد بن المغيرة الذي حاول منه الكفار أن يصف القرآن بأنه كهانة أو تخليط مجنون ، أو أنه شعر أو أنه قول ساحر فقال والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل سيرة النبي لابن هشام (١/ ٢٧٠)

القرآن ، ويضع القرآن وصده خارج قلبه وليسمع هذا وهذا وما ينفذ إلى قلبه بعد هذا فليصدقه لكن أن يستقبل القرآن بما في قلبه من كراهية القرآن ؛ فلن يتأثر به ، مثلما قال بعض المنافقين القرآن وقالوا. لم نتأثر به .

وسبب هذا أن هناك ما يسمى بالحيز ، وعدم التداخل في الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشيء ونقيضه ، فلا تملأ قلبك ببغضك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت القرآن ولم يؤثر فيَّ . هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، و جعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر في الاثنين لترى ما الذي يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول . إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعني أنك لم تنتبه إلى الفرق بين الفاعل والقابل ، ولم تنتبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالزجاجة ذات الفوهة الضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه ؛ لأن ضيق الفوهة لا يساعد الهواء الذي بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدخول ؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء ؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الزجاجة واسعة تسمح بخروج الهواء ودخول الماء ، وعند ذلك سترى فقاقيع الهواء وهي تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك في الحسيات، فما بالك في الأمور المعنوية وهي مثل الأمور الحسية .

إذن : فأخرج ما يناقض الحق من قلبك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استقبل الاثنين. لا يمكن لك في مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل[1] الحق . ويصف سبحانه المصرين على الكفر :

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى. ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] . فالقلب معلق بغير الله ، ويغير كلامه فلم يتدبروا

أي . أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليها ، وما في داخلها لايخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد حتم على قلوبهم ؛ فلن تنفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه ؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معان وقيم [1] ؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون نفسه صافية لين فيها ما يشوش على ما في القرآن من جاذبية وسلطان يؤثر فيه وتطمئن إليه نفسه

وبذلك حين قرأ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم قرأ القرآن فاستقر في قلبه [2] .

إذن : لا بد أن تخرج ما في ذهنك أولاً ؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سوره يستقبلها المؤمن بصفاء [3] . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم

---

(١) ومما يرويه ابن إسحاق من هذا في السيرة النبوية أن بعض كفار قريش خرجوا ليلة ليستمعوا خفية إلى القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلي في بيته ، وباتوا يستمعون له ، وكل منهم لا يعلم بالآخرين ، حتى إذا طلع الفجر انصرفوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا على عدم تكرار ذلك ، إلا أنهم عادوا للاستماع للقرآن عدة مرات وسأل أحدهم (الأخنس بن شريق) أبا سفيان أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ووجه الأخنس نفس السؤال لأبي جهل فرد عليه . ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً [انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥ – ٣١٦]

(٢) قصة إسلام عمر بن الخطاب أوردها ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ ، ٣٤٦) نقلاً عن ابن إسحاق

(٣) وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ .. ﴿٢٣﴾ [الزمر]

من يقول . ﴿أيُّكُمْ زادتْهُ هذه إيمانًا﴾ وتعطيت الآية معنى أنا أمام فريقين : واحد يقرأ ، والثاني يسمع ونفهم من سياق الآية أن الذي يتساءل مثل هذا السؤال إنما يوجهه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثي الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخْرجو الكفر أو بعضه من قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال فيهم الحق

﴿ومنهُم مَّن يستمعُ إليك حتَّى إذا خرجُوا مِنْ عندِك قالُوا للَّذينَ أُوتُوا العلْمَ ماذا قالَ آنفًا ..(١٦)﴾ [محمد]

ويقول :

﴿والَّذينَ لا يُؤمنُون فى آذانهِمْ وقْرٌ (١) وهُوَ عليْهِمْ عمًى ..(٤٤)﴾ [فصلت]

إذن الفاعل شيء ، والقابل شيء آخر هم سمعوا القرآن بدليل أن الحق يقول ﴿وإذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ﴾ وسياق الآية يوحي لنا أن هناك همساً من بعضهم . ﴿أيُّكُمْ زادتْهُ هذه إيمانًا﴾ وهذا الهمس يأتي بلهجة المستهزىء ، وقائل الهمس يعني أن سماعه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم ينقص ، وهو يهمس لمنافق مثله ، أو بضعيف الإيمان ﴿أيُّكُمْ زادتْهُ هذه إيمانا﴾ فيرد الله على القضية النصفية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين قسم كافر أو منافق ، وهذا القسم يزيده القرآن كفراً (٢) ، أما القسم المؤمن ؛ فاستقباله للقرآن يزيد من إيمانه (٣) .

---

(١) وقْر . ثقل في السمع ، وقيل . هو الصمم

(٢) ودليل في قوله تعالى الآتي بعد ﴿وأمَّا الَّذين فى قُلوبهِم مَّرضٌ فزادتْهُمْ رجْسًا إلى رجْسهِمْ وماتُوا وهُمْ كافرُون (١٢٥)﴾ [التوبة] .

(٣) مصداقاً لقوله تعالى . ﴿الَّذين إذا ذُكر اللَّهُ وجلتْ قُلوبُهُمْ وإذا تليتْ عليْهِمْ آياتُهُ زادتْهُمْ إيمانًا وعلى ربِّهِمْ يتوكَّلُون (٢)﴾ [الأنفال] .

إذن : الماعن شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ فقال بعضهم : إن الإيمان ينقص و يزيد ، وقال بعضهم . إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد . وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تشرب معركة بين عقلاء إلا إذا كانت جهة الفهم في الأمر الذي يختلفون فيه منفكة ، فمنهم من يذهب فكره إلى ناحية ، ومنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى [1] .

فالذين قالوا . إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فلحظة أن يتألق الإيمان في القلب ؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله و أن لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، وأن محمداً رسوله المبلغ عنه ؛ هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام علي كرم الله وجهه . لو انكشف لي الحجاب ما ازددت يقيناً

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد أو ينقص ، فقد قصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج ممن يصدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن في جزئيات التطبيق نجد من يعبق عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذي استقبل به الإنسان التكليف وهو التوحيد ، فلا يزيد أو ينقص . وهؤلاء المنافقون عندما قالوا ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ هل تداولوا ذلك سراً أم قالوه علناً ؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سراً وفضحهم الحق سبحانه ، وكان يكفي أن يعلموا أن الله

(١) الذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص نظروا إلى معنى الإيمان المعنوي أي التصديق والإقرار ، وهذا لا يحتمل نقصاناً أما الآخرون فقد نظروا إلى أن الإيمان تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح فالعمل بالجوارح يزيد وينمي معاني الإيمان في قلب العبد إن كانت في طاعة ، أما إن كانت في معصية فهي تنقصه بمعنى أنها تجادل ثباته في القلب . انظر في تفصيل هذا كتب علم الكلام والعقائد

يخبر رسوله ﷺ بكل ما يكتمونه ، ولكنهم احترموا اللجاجة [1] ؛ لذلك قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾

ويرد الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و' يستبشر' أى يملأ السرور بشوره ، فترى البريق ، والفرحة ، والانبساط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذى يفهم من الآية شيئاً جديداً ؛ يدخل على نفسه السرور ؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويزداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذى يكره أن ينزل حكم جديد من الله .

هذا هو معنى 'يستبشر' .

أما الآخرون فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

والرجس [2] : هو الشىء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية فالميتة مثلاً قذارتها حسية ؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم - كما نعلم له مجريان ؛ مجرى للدم قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتنقيه الرئة والكلى من

---

(١) اللجاجة : الجدال والمراء بغير حق لسان العرب مادة (ل ج ج)

(٢) الرجس . القذر والنتن حسياً ومعنوياً ، ويطلق على ما يستقبح فى الشرع ، والرجس والرجز معناهما واحد ، ويطلق الرجس والرجز على العذاب قال تعالى ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ (٧١) ﴾ [الأعراف] وقوله ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ (١٢٥) ﴾ [التوبة] يعنى ' قذرة معنوية ومعنوية وقوله ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ (١٣٥) ﴾ [الأعراف] أى : العذاب .

الأشياء الضارة التى تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة ويعد أن تتم تنقيته عن طريق الرئتين والكلى يصير دماً صالحاً .

وإذا مات الحيوان ففى فمه دمه الصالح ودمه الفاسد ؛ لذلك نحن نذبح الحيوان قبل أن نأكله ، ونضحى بدمه الصالح مع الفاسد ؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض ؛ ولذلك تعتبر الميتة رجساً . والخمر أيضاً نجاسة حسية ورجس . وهناك رجس معنوى ، ولذلك قال الحق .

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ (١) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة]

إذن : فهناك رجس حسى ، ورجس معنوى ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق الرجس على همسات الشيطان ووسوسته

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ .. (١١) ﴾ [الأنفال]

وهنا يقول الحق . ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ولأنهم يكفرون بالله وبآياته ؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركباً ، وهكذا نجد النسارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم الخسارة ؛ لأن كفرهم يزيد ، ويموتون على ذلك الكفر .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) الأنصاب : كل ما عُبد من دون الله من الأصنام والأوثان التى كان الكفار ينصبونها حول الكعبة لعبادتها والذبح عندها . أما الأزلام : فهى سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها " افعل " وعلى البعض الآخر " لا تفعل " فإذا أراد رجل السفر أو النكاح أتى سادن الكعبة وقال : أخرج لى زلماً ، فإن خرج به " افعل " فعل ، وإن كانت " لا تفعل " لم يفعل . انظر . لسان العرب مادة (ن ض ب)

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وقوله الحق : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ أى : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون فى كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فنجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اخرج يا فلان فإنك منافق »[1] . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله ﷺ يصفيهم كل عام مرة أو مرتين

الأصل فى الفتنة أنها امتحان واختبار ، وهى ليست مذمومة فى ذاتها ، لكنها تذم بالنتيجة التى تأتى منها ، فالامتحان - أى امتحان - غير مذموم ، لكن المذموم هو أن يرسب الإنسان فى الامتحان . إذن الابتلاء أو الفتنة[2] فى ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتى النتيجة على غير ما تشتهى ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم نفاقهم وكيدهم للمسلمين ، وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام ؛ لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا ليبالوا خير الإسلام ،

---

(١) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم ثم قال ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً " أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٦) " فيه عباس بن عباض عن أبيه ولم أر من ترجمهما "

(٢) لكلمة الفتنة معان كثيرة فى اللغة ، تدور كلها حول الاختبار والإيقاع فى امتحان بعد امتحان ليميز الطيب من الخبيث ، وأصلها مأخوذ من فتنة الفضة والذهب أى إذا أذبتهما بالنار لتخرب الردئ من الجيد ، ومنه قالوا لقوله تعالى ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فحبره ممدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن صار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله في الكون ، بل إننا نجد أن النبي ﷺ في بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبي ﷺ أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق الأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن يؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة "كن" وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أي كائن أمراً تسخيرياً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيب أن يأمر ؛ لذلك قال لنا . ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ شهادة الذات لذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لتهيب أن يبلغنا بالرسالة ، وبعد أن آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق :

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]

وظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

﴿قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ..(١٢٣)﴾ [التوبة]

إذن " في لبداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ لدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام ولم تتعد بالفعل ؛ حتى يأتي أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام في كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية في إرسال الكتب . كتاب لفلان وكتاب لفلان وكتاب لفلان [1] ؛ ليفهم العالم أن دعوة النبي ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة متعدية ؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هي أمته [2] .

أما محمد ﷺ فقد كانت لرسالته مراحل : آمن بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعددت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك في العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مؤتمنة على حمل الدعوة ونشرها في أي مكان ومعها حجتها وهي القرآن .

وشاء الله أن يختتم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذي يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً [3] ؛ حتى لا يقال عن

---

(١) بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجه كلاً منهم إلى وجهة ، وقال لهم : " إن الله بعثني رحمة وكافة ، فأدوا عني يرحمكم الله " أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٤/ ٦٠٧) عن ابن إسحاق .

(٢) وهذا مما خُصَّ به رسول الله ﷺ ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة " متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

(٣) قال رب العزة في هذا : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [الجمعة]

الإسلام أنه مجرد وثنية حضارية ، وجاء لهم منهج غلب الحضارات المعاصرة له فارس والروم في وقت واحد .

إذن - فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون تمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية [1] لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جمله وخيمته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة في أي مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل الأغنام والأنعام العشب ، ينتقل العربي مع جماعته إلى مكان اخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء ؛ ليعرف مسار الغمام وأين ستمطر السحب ، ثم يباح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلو كان لهم انتماء إلى وطن أو نسب أو مكان لصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة في الأرض .

والآية التي نحن بصددها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : كان لا بد أن يتوبوا أو يتعظوا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يحجب الإسلام وأنهم سينسحقون ويضمحلون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم نفسه ، ويرى مصلحته في الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) تبدّى الرجل : أقام بالبادية وقيل للبادية بادية لظهورها وبروزها انظر : اللسان (ب د و)

ومن قبل جاء قول الحق :

﴿ وإذا مـــا أنزلتْ سُـــورةٌ فـــمنهُم مَّن يَقُـــولُ أيُّكُمْ زادتْهُ هٰذه إيمَانًا...(١٢٤)﴾ [التوبة]

أى : أن هؤلاء المنافقين يشعرون بالضيق والحصر ، ويخافون أن يتكلموا ؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل بـ﴿ أيُّكُمْ زادتْهُ هٰذه إيمَانًا ﴾ فقد كان هذا السؤال يتعلق بالتكاليف ، أما في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فليس فيها تكاليف جديدة

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا بأعينهم ونظراتهم ، فكأن النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : ﴿ هلْ يراكُم مِّنْ أحدٍ ﴾ ، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن " فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد ؟ ومثلها مثل قولك : ما عندى من مال ؟ أى أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال، والقول الكريم أبلغ بالقطع من أن تقول: هل يراكم أحد .

إن قوله الحق :﴿ هلْ يَرَاكُم مِّنْ أحَدٍ ﴾ دليل على أنهم في خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول ؛ لأنهم لا يطيقون الاستمرار في الاستماع ؛ لأن منطق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر ؛ فينسحبون ، وينصرف كل واحد منهم ؛لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل

﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (١) ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

وقد قالوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ، فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه يستغفر الله عنها

وإذا ما أتت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه ؛ هتأتيه هجمة الإيمان فيخافها ، فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول من معنا لا تسمعوا هذا القرآن لماذا ؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، فإذا صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا من الأتباع أن يلغوا فيه ، أي : أن يشوشوا عليه :

﴿ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا عند سماع القرآن ؛ حتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب (٢) .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين :

﴿وإذا ما أُنزلتْ سُورةٌ نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ هل يراكم من أحدٍ ﴾ كانوا يقولون ذلك ؛ لأنهم كمنافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون أنهم متقدمون في تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء الصلاة في الصف الأول ؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما

---

(١) الغوا فيه : الغطرافيه ، أي : تكلموا بصوت عال ، بكلام فيهم مختلط وجلبة وضجة ، حتى لا يفهم منه احد شيئاً ، وتبقى قلوب أتباعهم في غطاء عن قبول هدى الله

(٢) وقد كان هذا دأب المشركين والكفار مع كل وحي يأتي من السماء ، مثل قوم نوح الذين قال عنهم ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح]

يقول المثل : يكاد المريب أن يقول خذوني وينظر بعضهم إلى بعض متسائلين : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ لأنهم لا يطيقون الجلوس إلى الرسول ﷺ أو إلى المؤمنين . وينهى الحق الآية :

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ وذلك نتيجة لانصرافهم نفسياً إلى النفاق ؛ فيساعدهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان ؛ فليذهبوا بعيداً عنه ، فالحق لم يصرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما ذنبهم ؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا ؟ لأنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي . لا يفهمون [1] .

والفهم أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعلم . فالفهم يعني أنك تملك القدرة على تَفَهُّم ذاتية الأشياء بملكة فيك ، لكن العلم يعني أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويعلمك . فأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك . ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟ ونقول : الذي لا يفهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلّموا ، وأصروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يأتي ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة .

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿٥﴾ [الصف] عن قوم موسى

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيّن لنا . إياكم أن تنفضّوا عن الرسول أو تغضبوه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدوّاً ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لترين عن ابنك خطراً إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود الشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذي أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجيء هنا للرسول ﷺ ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما

يؤهله للرسالة [1]، وبمجرد أن نزل عليه الوحي امتلك اندفاعاً ذاتياً لأداء الرسالة ، ولم يحتج من يدفعه لأداء الرسالة ، لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسول ﷺ المجيء ذاتياً ، ولكن هذا المجيء الذاتي ليس من عند محمد ﷺ في البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة " جاء" .

وكلمة ﴿ رَسُولٌ ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمة "جاء" تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول ﷺ نظرتكم إلى لأمور الشاقة التي تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل في إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالي نعمه عليكم حتى وأنتم في معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك [2]، فلا تشكك ولا تشكك وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت - ولله المثل الأعلى - تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعه معه قهراً عنه في بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدي ابنك ليعصيه الطبيب حقنة من الدواء الذي جعله الله سبباً للشفاء .

---

(١) لأن فطرته هي الخلق العظيم وتأدب بأدب ربه وعاش منفعلاً بالإيمان سمواً ، وبالعين تفكيراً في الله ، وبالنفس سكينة إليه وباحساسه حركه له ، وبالقلب توحيداً وحباً . فكان المجيء ذاتياً بحيث الله يقول الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]

(٢) وهذا حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وهو أمر يحبه الله من عبده ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) ويجب أن نفهم هنا أن الستر المقصود هنا ليس السكوت عن مجرد من هو مقيم على معصية ، بل هو ستر معصية وقعت من إنسان وانقضت

إذن . فلا يأخذ لأحوال مواردتها عليك ، ولكن خذها مواردتها ممن قدرها وقضاها ، وهو الحق سبحانه وتعالى

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ معان متعددة ، فمرة يكون معناه بـ"من جنسكم" ، مثلما قال الحق عن حواء :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ① ﴾ [النساء]

أي : خلق حواء من نفس جنس آدم البشرى . فلا يقولن أحد كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً ؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس ، ولذلك يؤكد ﷺ على بشريته أكثر من مرة وفي مواقع كثيرة [1] . والقرآن يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن فبشرية رسول الله ﷺ لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله ؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس ؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة . ولذلك قال سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . ⑥ ﴾ [فصلت] وقد أكد الرسول ﷺ على هذا المعنى كثيراً جداً ، منها :

- فعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال . إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣)

وعن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما أنا بشر ، وإني اشترطت على ربي عز وجل ، أي عبد من المسلمين سببته أو شتمته ، أن يكون ذلك له زكاة وأجراً » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٢) وأحمد في مسنده (٢ / ٣٩١ ، ٤٠٠)

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

وقوله الحق: ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنس العرب، ولم يأت به من الروم أو من فارس، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم. أو أن معنى ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من نفس القبيلة التي تنتمون إليها معشر قريش.

أو أن ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعني: أنكم تعلمون تاريخه، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض، كما تحمل أمانتكم من الأرض للأرض؛ ولأن هذا هو سلوكه، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض. ولقد سميتموه الصادق الأمين، والوفي، وكلها مقدمات كانت توحي بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم، فمجيئه كرسول إنما يرفع من ذكركم، ويعلي من شأنكم. فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة في البيت الحرام، وقد جاء محمد ﷺ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم، فإذا كنتم قبل بعثته ﷺ سادة البيت، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف]

فهو نبي للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها، لكن الله لم يشأ ذلك؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب، وهذا جعل العرب يعملون له حساباً، وخافت منها كل قبائل العرب في أنحاء الجزيرة العربية، وكانت لها مهابة هائلة؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة، وأثناء الحج تكون القبائل كلها في

أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أى قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف فى مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها

وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتى السيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

وأتبعها بقوله :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتى أمره فى الآية التالية :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد ﷺ رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة الجزيرة الذين تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته فى آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتى منها النصرة .

---

(١) كعصف مأكول : فيه معنيان أحدهما أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحب وبقى هو لا حب فيه والآخر ، أنه أراد أنه جعلهم كورق النبات الذى أكلته البهائم ثم راثته وكلاهما فى لسان العرب (مادة ع ص ف) .

هلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا . جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول :إنه رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هي التي حلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف ؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد ﷺ هو السبب في العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى :﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أي . مرسل من الله و﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشيء من عنده ، بل كل البلاغ الذي جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذي خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض وسبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

ويقول

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله في الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذي جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خبره قبل أن يأتي لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذي أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو ﷺ لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم . افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم في الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غباء الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

أى . إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا تروعها ، ولا بد أن نجعله ملكاً فى صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذن ؛ فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق :

﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم فى العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنفع الأسوة ؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أوالروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتى الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد ﷺ بالأنس والألفة ؛ لأنه من قريش التى لها بطون فى كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن . فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ؛ فستصحبوا كل هذه الأشياء؛ لترددوا على أنفسكم: هو بشر وليس مَلَكاً. هو من العرب

وليس من العجم . هو من قبيلكم التى نشأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر فى حق البشر أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكى هذه الآية : ﴿ مَنْ أَصْبَكُمْ ﴾ أى : أنه ﷺ بالمقياس البشرى هو من أدركم وأحسنكم [1] وذلك حينما جاء الرسول ﷺ بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها بمعجزة ؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتى له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاً منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضى .

وحينما قال لخديجة : " يأتينى ويأتينى ويأتينى " وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمت مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ، مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هى دونه فى العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زوج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففى فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التى تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُرَبِّت عليه

فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال ﷺ لخديجة لشكت فى قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القصة استعراضاً عقلياً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذى يأتينى رئى [2] من الجن . قالت

---

(١) لذلك اختصه الله بصفات حسية ومعنوية تجعله من أنفس خلق الله على الله ، يقول الحق ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝﴾ [الأحزاب] .

(٢) رئى من الجن تابع يدأله الإنسان من كثرة رؤيته له . وقد تكون من الرأى أى أنه صاحب رأيه وانظر اللسان (مادة رأى)

له " إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً "[1].

إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة

وكذلك أبو بكر رضي الله عنه ، حينما قالوا له إن صاحبك يدعي أنه رسول قال أهو قالها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره[2]

وبعد ذلك يقول الحق ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ وكلمة ﴿عزيز﴾ أي لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أي نادر الوجود . وقد تقول لإنسان " قد تكون وزيراً " فيصمت رجاء ، لكن إن قلت له " ستصبح رئيس وزراء " فيقول هذه مسألة مستعصية وكبيرة على بعض الشيء .

إذن " فالعزة تأتي لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل والعزيز - هو الأمر الذي يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : "عز عليّ أن أصل إلى قمة الجبل " ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أي شاق عليه أن يعنتكم بحكم ، فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتي لكم بالأحكام

---

(١) ذلك أن رسول الله ﷺ بعد ما جاءه جبريل في غار حراء ، رجع إلى السيدة خديجة ترجف بوادره فقال " زملوني زملوني " فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة " أي خديجة مالي " وأخبرها الخبر فقال " لقد خشيت على نفسي فقالت له " كلا أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق " أخرجه البخاري في صحيحه (٣) ومسلم (١٦٠) عن عائشة بوادره اللحمة التي بين الكتف والعنق دلالة على شدة الفزع . زملوني غطوني تحمل الكل أي : تنهض على الضعيف واليتيم وغير القادر على الاكتساب تقري الضيف : أي : أنك كريم جواد تطعم الضيف نوائب الحق حوادث الخير والشر

(٢) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال عن أبي بكر " هل أنتم تاركو لي صاحبي ؟ " (مرتين) إلى قلت " يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت " . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٧٦)

لكى تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبى ﷺ « مثلى كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها . قال فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبونى تقحمون فيها [1] » .

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفسكم أو من أنفسكم أو يحبكم حباً يعز عليه أن تكونوا فى مشقة . إذن . فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأى فيها ، وذلك هو القانون التربوى الذى يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » لا تذهب إلى المكان الفلانى ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت من أبيك الذى تعرف حبه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر وانظر إلى والدك الذى تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى بأن تسمع كلامه

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات فى الدين تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أجلد

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) بروايات متعددة ، عن أبى هريرة ومعنى (أخذ بحُجَزكُم) أى . آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم الحجزة هى معقد الإزار ، وهى السراويل موضع التكه

فى الآخرة ؛ لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يرهق حقاً ويتعب [1].

ولذلك يقول الحق فى تصوير هذه المسألة بقوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ [2] نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تورد ثماراً

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً احرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وازرع ؛ كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك. ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر ، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لغبة [3] الضياع.

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أن يجرى للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن

---

(١) ومن دقيق ما نقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٦/ ٤٦٤) عن أبى حامد الغزالى فى الفرق بين تهافت الفراش على النار وتهافت العصاة على الوقوع فى النار أنه قال : (التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عندها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبداً)

(٢) باخع نفسك أى مكثر فى لومها وقهرها

(٣) اللغبة من كل شىء عاقبته وآخره .

هذا الشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو ممن تعز عليه وممن تحبه وممن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك : فعليك أن تقبل ولا تسيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك.

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء - مثلاً - فهو يرد عنك مصارف الشر ؛ لأنك إن اجتهدت في عملك ؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرَّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عامياً يلخص الحكمة التي تقول «من يأكل لقمتي فليسمع كلمتي»

وهنا يقول الحق ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم﴾ ومعنى الحرص: أن يحوطكم بالرعاية ؛ حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر ولذلك قلنا : إن الرسول ﷺ قد صوَّر هذه المسألة بقوله ﷺ . «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الحشرات والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار - أي أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار - وأنتم تفلتون من يدي »[1]

والحق يُسَرِّي عن رسوله ﷺ فيقول

﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم ... ۝٦﴾ [الكهف]

ويقول الحق أيضاً لرسوله

﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ۝٣﴾ [الشعراء]

---

(١) هذه رواية عند مسلم من حديث جابر (٢٢٨٥) ، وقد سبق تخريجه من حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم

فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى إتقان العمل في الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة في الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه ﷺ ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد في الآخرة ، ولذلك قال الحق

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء]

أي : إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخشع

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منفعة . وسلب المضرّات - دائماً - مُقدّم على جلب المنافع ؛ فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقدم على العمل لدرء[1] ما يضر ، ثم ننجز لعمل النافع.

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت في حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذي يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذي يزيد من الارتقاء.

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّي : هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة

---

(١) الدرء : الدفع والإبعاد

ومثال آخر: هب أنك ترى إنساناً يغرق أمامك في البحر، فهل توبخه؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله؟

إنك تنقذه أولاً، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً، وحتى إن عاقبته فهو يقبل منك العقاب أو النهر[1]؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت.

والحق يقول: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾﴾

[آل عمران]

إذن: فمراحل الفوز أن يُزحزح الإنسان أولاً عن النار، ففي هذا سلب للمضرة، وجلب للمنفعة، وإن ظل الإنسان في موقعه لا هو في الجنة ولا هو في النار؛ فهذا هين أيضاً. وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله.

وإذا كانت هذه هي بعض من خصال الرسول ﷺ: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، و﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، و﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، و﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ[2]﴾، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول.

وقوله الحق: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ نرى فيه الوصف بـ«الرءوف» والرأفة هي سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة، و«رحيم» هو الذي يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين

---

(١) النهر: الزجر والإغضاب.

(٢) والآية الكريمة تعطي الوداد مع الله ومع رسوله ومع النفس والود عين القرب.

الوصفين [1] ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾ [النحل]

إذن فالرسول ﷺ لا يسلك بي عنده ؛ من يسلك برأفة مستمدة من رأفة العلي الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مستمدة من رحمة لعلي الأعلى وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً ﷺ بعضاً من الصفات التي عنده ، فكما يبلغكم المشقات في التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات في لرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝٨٢ ﴾ [الإسراء]

ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أي. أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتي لنا بالمنفعة بعد ذلك وهي الرحمة

وقوله الحق :﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا القول خلاصته : إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله ﷺ ؛ فاعلموا أن ما جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهي بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم [2] .

---

(١) وقد أورد القرطبي في هذا قول الحسن بن الفضل لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ فإنه قال . ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم (١٢٨)﴾[التوبة] ، وقال ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم (٦٥)﴾[الحج] . انظر [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٢٨]

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » أخرجه البزار (٣٥٣٢ – كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قاله الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٤)

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا في حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التي كانوا يقومون بها لأنفسهم؛ فالثري الذي كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذي كان يبني بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبني له ، وكل الأعمال التي تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه، صار يستأجر من يقوم له بها، فما بالنا بالآخرة حيث نعيش في رضا الله وبأسرار كلمة ﴿كُن﴾ .

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء في هذه السورة بمشقات التكليف ، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بأن الرسول ﷺ يتميز بكل المواصفات المرجية من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التي تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم.

فإن استمعوا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم في معسكر الإيمان، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن – يا رسول الله – أنك منصور بهم؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك [1] وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد [2] هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله:

---

(١) تولوا : أعرضوا ورفضوا الهدى والتولي من أسماء الأضداد أي أنها تحمل معنى وضده قال تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد] أي إن تعرضوا عن الإسلام ويقول سبحانه ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم . ﴿٥١﴾﴾ [المائدة] أي من يتبعهم ويناصرهم .

(٢) الركن الشديد : القوي الذي لا يعلوه من التجأ وركن إليه ومنه قوله عز وجل عن نوح عليه السلام ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴿٨٠﴾﴾ [هود] وقد قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على نوح لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٢) والترمذي في سننه (٣١١٦) من حديث أبي هريرة

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ولم يقل الحق لرسوله . «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله »[1] لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل في إعلانك لهم ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيماني بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ، فسوف يعاقبه الله.

وحين تعلن : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التي سوف تأتي بعد إعلانك ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ستؤكد أن حسبك في مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى أنت تقول «حسبي نصرة فلان» ؛ لأنك تثق في قدرة فلان هذا، ولكن القوة في الحياة أغيار ، وحين تقول . ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه في هذا أو في غيره

وقل : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ برصيد ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، و ﴿ لَا إِلَٰهَ ﴾ نفي ، و ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثبات ، إذن : ففي هذا القول ﴿لا إله إلا هُو﴾ نفي منطقي مع سلب ، وإثبات منطقي مع الإيجاب ، وهما نفي أيِّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[2] شاعر باكستان الكبير ، فقال :

إنَّما التوحيدُ إيجابٌ وسلبٌ ... فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءْ

إيجاب في ﴿إِلَّا هُوَ﴾، وسلب في ﴿لَا إِلَٰهَ﴾، فيهما للنفس عزم ومضاء، أي . هما للنفس قطبا الكهرباء، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله.

---

(١) «حسب» اسم بمعنى كاف . وحسبي الله ، أي : يكفيني الله

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامي جاهد بقلمه ونفسه في سبيل الإسلام وتحرير بلاده . وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس في المؤسسات العلمية ، وهو باكستاني المنشأ إسلامي الوطن ، عالمي الفكر - ترجم له في مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوي شعلان

والناس - كما نعلم - ثلاثة أقسام: قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً، وهم الملاحدة، وقسم ثان يقول: إن هناك الله الذي يوحده المسلمون؛ لكن له شركاء يتعوننا عند الله. وقسم ثالث يقول بوحدانية الله.

وساعة نقول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هو﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله، وأثبتنا أن لا شريك له، وأثبتت ألا إله غيره، وسبحانه يقول:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا أمر طبيعي، ويمكن أن نعرفه بالحساب، ولذلك جاء بـ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب واحسبها فلن تجد إلا الله. وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدي رسولك، الذي أبلغك البلاغ الكامل عن الله، وأن تتوكل عليه سبحانه.

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو، والواجب يفرض عليك أن تعمل في مَعيَّته سبحانه، ومعيّة الله مرحلتان: الأولى يأخذ الأسباب التي أمدّ بها خلقه، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود.

وترى - مثلاً - الناس وهي تحتاج إلى المياه؛ لأنها ضرورة للحياة؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر؛ لأن المياه التي تأتي من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه، ولماذا؟ لأن المخزون من ماء المطر الذي كان يأتي من أعالي الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء؛ لتجري إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر.

وإذا جفَّتْ الآبار المحيطة بنا، هل نيأس؟ لا؛ لأن ربنا بيَّن لنا: ارفعوا[1] أيديكم لربكم. إذن: فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة له والإيمان به تجدون الإجابة مع الرشاد

المسبب، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه، ويلجأ إلى الله فيرده.

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب، ويقول: أنا متوكل على الله، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها، وبعد ذلك يقول. ليس لي ملجأ إلا أنت سبحانك، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

والمضطر. هو من استنفد أسبابه، وليس له إلا الله. لكن أن يقول إنسان: أنا أدعو الله ليل نهار وأسبّحه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً، ولا يستجيب الله لدعائي [1]. ونقول لمثل هذا القائل: أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب، خذ بالأسباب التي خلقها الله، أولاً، ثم ادعُ بعد ذلك ولا تدعُ إلا إذا استنفدت الأسباب؛ فيجيبك المسبِّب؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب، فحين تمتنع الأسباب؛ تلجأ إلى الله. ولو كانت الأسباب تعطي كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب، والحق سبحانه يقول.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده، فترى من يحرث ويبذر ويروي ويرعى، ثم يقترب الزرع من النضج، وبعد ذلك تأتي موجة حارة تميته، أو ينزل سيل يجرفه إذن: خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً في بالك، وهنا يصح توكلك على الله.

---

(١) من آداب الدعاء ألا يستبطئ الداعي استجابة الله لدعائه، فتجده يمل ويدع الدعاء، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصلح لعبده، فقد يدعو العبد بما يظن أنه خير له، ويكون علم علام الغيوب أنه شر له، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال يقول قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحديث

وكثير من الناس يخطىء فى فهم كلمة «التوكُّل» ، وأقول : إن التوكل يعني أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التى خلقها سبحانه فى كونه ، فإن عَزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله . ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثل تجده فى حياتنا حين يقول الابن لأمه : «ادعى لى حتى أنجح» وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هى : «ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة» ، وهى بذلك تدل ابنها على ضرورة الأخذ بالأسباب.

إذن فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التى مَدَّتها يد الله إليك. فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه وكن شديد ترجع إليه.

ومثال آخر . إذا كنت سائراً فى الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك فى البيت أو فى البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان فى البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان فى البيت عشرة جنيهات وفى البنك مائة جنيه ؛ فمن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن . فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب[1] . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

---

(١) يقول عز وجل :﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق] .

وكان من الممكن أن يعبّر الحق الأسلوب في الآية فيقول: توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق، ستجد أن الإنسان إن قال: «أنا اعتمدت عليك» فقد تعطف قائلا . «وعلي فلان وعلى فلان» لكن قولك: عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق، مثلما تقول في الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي . لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه .

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذي استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت في الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذي استقبلك ، وأصبح هذا الكون مسخراً لك، وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفي قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك. ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ، وليست في قدرتك ؛ فالشمس مُسخَّرة لك ؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس في قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك .

وربك ورب الكون الذي استقبلك سخر لك ما ليس في يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذي يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذي يدير كل هذه الأشياء فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبِّبات العطاء في ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أي ظاهرة كثير .

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم، هو رب الكون الذي استقبلك وسخر لك ما في يدك وما ليس في يدك، وما وراء المرئيات من

عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء، وكل ما في الكون ملك لله.

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف [1] ، فحين تبني دوراً واحداً تصنع له لسقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فلمباني تهبط ، وبنيت السقوف حتى تحمي الجدران من عوامل التعرية.

وقول الله سبحانه : ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ معناها . استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً في ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

العرش، إذن، رمز السيطرة، وفي حياتنا – ولله المثل الأعلى – نجد أن الذي يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ في تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛ حتى تستقر له الأمور، ثم يجلس بعد ذلك على العرش.

إذن فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك الأعلى.

وسبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴿٧﴾ ﴾ [غافر]

وساعة تسمع كلمة «العرش» حذها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل في حيِّز قدرته ، وفي حيِّز ﴿كل﴾ ، كما يستقر الأمر

---

(١) العرش : المُلْك ، واستوى الملك على عرشه . أي : ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله تعالى ﴿ ولها عرش عظيم ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] ومنه أيضاً سقف البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها معان تدل على استقرار الأمر وثباته . انظر اللسان (مادة عرش)

للملك المحَسِّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور هذا ما نراه في الأمور الدنيوية ؛ فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]

أي: أن الأمور قد استتبت له وهكذا نجد أن كلمة «العرش» وردت في عروش الدنيا ، وفي عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا [1] ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينقص عليه شيء ولا يخرج من ملكه شيء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة «كن» ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفي أذهان الناس عروش الملوك التي نراها في حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ:

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [2] ﴿٢٣﴾﴾ [النمل]

أي: بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشري ؛ لذلك نفهمه في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

---

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه

(٢) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت

سُورَةُ يُونُسَ

بسم الله الرحمن الرحيم

وتبدأ سورة يونس [1] بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من آيات القرآن، ولكن المختلف فيه: أهي آية من كل سورة؟ أم نزلت بين السور للفصل والابتداء؟

وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وقد وردت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في أوائل مائة وثلاث عشرة سورة، ومرة واحدة في صلب سورة النمل:

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل]

إذن فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة النمل بعض آية من القرآن، وآية من السورة، ومن قال من العلماء: إنها آية من كل سورة؛ يجهر بها في الصلاة، ويسميها الآية رقم واحد، والآية التي تأتي بعدها برقم اثنين. ومن قال: إنها نزلت للفصل بين السور، نقول له: إن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ للفصل بين السور؛ فما كانت لتأتي في سورة الفاتحة، لأن الفاتحة أول سور القرآن. ولكن صاحب هذا الرأي، يرى أنها جاءت ابتداء للقرآن تركاً.

ونحن نرى أنها آية من سورة الفاتحة، وقد حسبوها كذلك في طباعة المصاحف، حيث ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي الآية الثانية، ولكن في بقية السور لا ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) سورة (يونس) مكية عدد آياتها (١٠٩) آيات

وبعض آياتها مستثنى على اختلاف بين العلماء، فذكر ابن عباس أن منها ثلاث آيات مدنية هي آيات: ٩٤، ٩٥، ٩٦ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ... ﴿٩٤﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وقال الكلبي إنها مكية إلا قوله ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس]. ولكن ذهب الحسن وعكرمة وغيرهما إلى أن السورة كلها مكية

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ، بل ترقم الآية التى بعدها فى السور القرآنية برقم واحد

وقد اتفق جمهور العلماء على أنها هى آية من القرآن ، ولكنها ليست آية من كل سورة ، إلا فى الفاتحة . وفى بداية خواطرنا حول القرآن الكريم قلنا إن الإنسان يبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأنه حين يقبل على الأعمال ، فهذه الأعمال لا تستجيب لقدرته هو ، ولكن تستجيب له بتسخير القدر له ، فأنت تحرث الأرض ، وتضع البذور ، وتروى الأرض ؛ وبنت لك الحق الزرع صحيح أنك حرثت لكنك لم تزرع ؛ لأنك لا تعرف كيف وضع الحق سبحانه فى البذرة كلّ النبات الذى سوف يخرج منها ؛ ولذلك يقول الحق.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة]

وهناك أعمال للإنسان تستجيب له ، لا بقدرته عليها ، ولكن لأن الله شاء ذلك ، فليس لإنسان قدرة على الهواء ، ولا على العناصر التى فى الأرض . وأنت إن فكرت تفكيراً بسيطاً فى النبتة البسيطة الخارجة من البذرة أو من حبة الفول التى تضعها فى رطوبة الأرض سوف تلتفت لتجدها قد نبتت وخرج منها الربان [1] البسيط ؛ ليكوّن الجذور، فكيف لهذا الزبان البسيط الضعيف من قدرة تخرق الأرض ؟ وإن كانت الحبة فى جبل ، فهذا الزبان يدخل فى أى فتحة فى الجبل ؛ لينشق الجبل ، هذا هو لربان البسيط لنافه فى رؤية الإنسان.

وأنت أيضاً قد لا تعرف القدرة الموجودة فى الماء ، وهى قدرة هائلة

(١) الربان : أصله فى اللغة ربانى المقرب أى طرفا قريبه ، شبه به طرف النبتة الصغيرة الخارج من البذرة وانظر اللسان (ر ب ب)

لدرجة أنهم في الأزمان السابقة حين كانوا يريدون تفتيت الجبل الصخرى ، قبل اختراع «الديناميت» ، كانوا ينقرون ثقباً في الجبل الصخرى ، ثم يضعون فيه وتداً من الخشب ، ويدقون في هذا الثقب خشباً جافاً ثم يقطرون عليه مياهاً ، ولحظة أن يتشرب الخشب بالماء ينفجر الجبل .

وأنت حين تضع الحبة في الأرض ، فالحبة تخرج نباتاً بسيطاً ؛ لتتكون منها الجذور لتمتص الغذاء من الأرض ، أما قبل ذلك فكانت الحبة تضم الغذاء الذاتي اللازم لتنشئة الجذر ، ثم يشبك الجذر في الأرض . وترقّ ملقتا الحبة إلى أن تصيرا ورقتين خضراوين ، ولم يعرف الإنسان أسرار تلك المسألة إلا حديثاً ، فهي من الكونيات المسخرة للإنسان قبل أن يبحثها علمياً .

وأنت حينما تذهب لتزرع فإنك لا تزرع بقوتك ، بل بقدرة من سخّر الأرض لك ، وحين تأتي لتزرع وتقول : باسم الله أزرعك ، فهذا إقرار منك بأن الحق سبحانه هو الذي سخر لك الأرض لتزرعها ، وحين تريد حمل شيء ثقيل وتقول : باسم الله أرفعك ، فأنت تستمد قوة من الذي خلقك ؛ لأنك قد تأتي لرفع الشيء الثقيل فلا تصل الأوامر من المخ وقد تتعطل اليد .

إذن . فإن أقبلت على كل عمل ، فاقهم أنك لا تُقبل عليه بقدرة منك على العمل ، ولكن بتفضُّل المسخِّر للمنفعل لك . فادخل على كل عمل وقل : باسم الله أحرث ، وباسم الله أزرع ، وباسم الله أداكر ، وباسم الله أصنع ؛ لأنه هو سبحانه الذي سخّر لك كل شيء

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر»[1] .

---

(١) الأبتر الأقطع ، وهي صيغة أفعل تؤدي معنى المبالغة ، والبتر القطع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر] أي المقطوع الذكر . والمقصود أن العمل إذا لم يبدأ به ببسم الله أو بالحمد فهو مقطوع الخير وغير تام

لأنك إذا اعتمدت على قوتك ؛ فلن يتفعل لك شيء ، فكل شيء ينفعل ؛ لأن الله جعله منفعلاً لك ، إذن: فابدأ كل شيء باسم الله وفي أعرافنا السياسية يقول القاضي لحظة الحكم : «باسم الدستور حكمت بما يلي» أي : أنه يقر أنه لم يحكم بذاته ، بل باسم الدستور

إذن حين تُقبل على العمل باسم الله ، فكأنك تذكّر المنفعل لك بأنه لا ينفعل لك أنت ، وإنما ينفعل لمن خلقك وخلقه.

وسعة تقبل على أي عمل وتذكر واهبَ الطاقة لك ، وواهب الشيء المنفعل لك ، وواهب الحركة ، وواهب كل شيء ، تكون قد بَرِئت من حَوْلكَ ومن قوتك .

وهو يقول الحق ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وهما الرحمة بالخلق ، ليرفع عن العاصي الحرج في أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذي عصاه ، ويُذكّرك الحق بأنه ﴿ الرحمن الرَّحيم ﴾ .

وتبدأ الآية الأولى في سورة يونس :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ ﴾

و﴿الر﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة بـ ﴿الم﴾ و ﴿ الم﴾ في أول سورة آل عمران ، وفي أول سورة الأعراف ﴿المص﴾ وهنا ﴿الر﴾ في أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿الم﴾ و ﴿ المص﴾و ﴿الر﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شيء له اسم وله مسمى ، أن اسمي الشعراوي صحيح ، والمسمَّى هو صورتي . فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى في الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتي إلى الذهن « ما علاك » . وساعة تقول : « المسجد » يأتي إلى الذهن المكان المجهَّز للصلاة .

إدد فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أميّ ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلّم . وفى الإنجليزية نطلب ممن نتعلمها أن يتهجّى أسماء الحروف .

إدد فالكُلّ - كل متكلم - يعرف النطق بمسمّيات الحروف ولكن الذى يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلّم . وعرف أنك حين تقول : « أكلت » ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بدأت ، ﴿الٓمٓ﴾وهذه أسماء حروف ، لا مسمّيات حروف ، ومحمد ﷺ أميّ لم يتعلم ، فمن الذى علّمه أسماء الحروف ؟

هى ، إذن ، رمزية على أنه - بإقرار الجميع - أمى ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميم " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت[1] ، وهى نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن وقسمناها نحن إلى حروف مجهورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل لقرآن . وبالاستقراء نجد الأربعة عشر حرفاً التى تأتى فى فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف

---

(١) جمع بعض العلماء هذه الحروف المقطعة التى فى أوائل السور وحذف المكرر منها ، فكان مجموعها أربعة عشر حرفاً ، وكونوا منها جملة جاءت هكذا : نص قاطع حكيم له سر

وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الحروف على أقوال

١ - أنها مما استأثر الله بعلمه

٢ - أنها دلالة على أسماء السور .

٣ - أنها دلالة على أسماء الله تعالى وصفاته ، فالألف مفتاح الله ، واللام مفتتح اسمه (اللطيف) ، والميم مفتاح اسمه (المجيد)

من رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ [1] ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد :

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص]

ويقول سبحانه :

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق]

ويقول سبحانه :

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم]

إذن : ثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل . ﴿طه﴾ . ﴿يسٓ﴾ . ﴿طسٓ﴾ ، ﴿حمٓ﴾

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿الٓمٓ﴾ مثلما بدئت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت بـ ﴿الٓرٰ﴾ .

وثلاث سور تتفق في الألف واللام . وتختلف في " الميم والراء " . و﴿الٓرٰ﴾ في أول سورة يونس و ﴿الٓرٰ﴾ في أول سورة يوسف . و﴿الٓرٰ﴾ في أول سورة إبراهيم ، و﴿الٓرٰ﴾ في أول سورة الحجر

---

(١) هذه الحروف لها صفات بحسب طريقة النطق بها ، فمنها صفات لها أضداد مثل (الجهر ، الهمس) - (الشدة ، الرخو) - (الاستعلاء ، الاستفال) - (الانفتاح ، الإطباق) (الإصمات ، الإذلاق) . وكمثال لهذا أن الهمس هو ضعف الصوت عند النطق بالحرف فيكون فيه خفاء ، وهي الهاء ، الحاء ، الثاء ، الهاء ، الشين ، الخاء ، الصاد ، السين ، الكاف التاء ويجمعها قولهم « فحثه شخص سكت » وما عدا هذه الحروف فهي « حروف جهريه » أي فيها قوة في النطق بها . انظر تفاصيل هذا في كتاب « هداية القاري إلى تجويد كلام الباري » للشيخ عبد الفتاح السيد المرصفي (ص ٧٩ - ٩٣) عفر الله له ورحمه

وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿الٓمٓصٓ﴾ فى أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت بـ ﴿الٓمٓرٰ﴾ .

وهناك سور قد بدئت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت بـ ﴿حٰمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ .

ومرة يطلق الحرف أو الحرفان فى أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ، بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿طٰهٰ﴾ ، و﴿يٰسٓ﴾ أما فى سورة النمل فهى تبدأ بـ ﴿طٰسٓ﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتى خمسة حروف مثل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفى[1] وقد تأت آياته على نسق واحد ، ننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة " اسم " فى القرآن فى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتكتب من غير ألف[2] ، وهى ألف وصل ، أى : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما تكتب الآية الأولى من سورة العلق :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]

---

(١) توقيفى أى أن الله قد أوقف محمداً ﷺ على كل شىء فى القرآن من مواقع السور والفواصل بين الآيات وترتيب السور فى المصحف ، ولم يترك هذا لاجتهاد الرسول ﷺ ولا لاجتهاد الصحابة بل كان بلاغاً من الله إليه على لسان جبريل

(٢) وردت كلمة (باسم) فى القرآن ٤ مرات فى قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[العلق] ، و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فى ثلاثة مواضع [الواقعة ٧٤ ، ٩٦] ، و[الحاقة ٥٢] .
ووردت كلمة (بسم) بدون الألف ثلاث مرات فى القرآن [الفاتحة] ، وقوله : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۝٤١﴾ [هود] ، و﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل] بالإضافة إلى جميع مواضع البسملة فى بدايات سور القرآن إذا اعتبرنا البسملة آية فى أولها

ومثال آخر لو استعرضت في القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتي مرة من غير ألف [1] ، وكلمة " البنات " تجدها مرة بألف ومرة من غير ألف [2] ، كل ذلك ؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتابة كتابة ؛ لأنها لو كانت رتابه كتابة ؛ لجاءت على نظام واحد

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابه لما كتبوا « بسم » من غير ألف في موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ كتابة توقيفية ، أي : كما أمر الحق سبحانه [3]

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التي في ختام أي سورة مشكلة بغير السكون .

---

(١) كلمة « تبارك » وردت في القرآن ٩ مرات ، منها موضعان فقط بدون ألف في قوله تعالى ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام (٧٨)﴾ [الرحمن] ، وقوله ﴿تبارك الذي بيده الملك (١)﴾ [الملك] أما المواضع السبعة الأخرى فهي ﴿تبارك الله رب العالمين (٥٤)﴾[الأعراف] ، ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤)﴾ [المؤمنون] ، [الفرقان (١٠) ، (٦١) ، (٦٤)] ، [غافر (٦٤)] ، [الزخرف (٨٥)]

(٢) وردت كلمة البنات في القرآن ١٢ مرة ، منها ثلاثة مواضع بدون الألف وهي ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . (١٠٠)﴾ [الأنعام] وقوله ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون (٥٧)﴾ [النحل] ، وقوله ﴿ألكم الذكر وله الأنثى (٢١)﴾ [الطور]

(٣) هذا علم هام من علوم القرآن ، وهو علم مرسوم الخط ، تحدث عنه العلماء وبينوا دقائقه ، وهم على عدم ترك ما استقر عليه الأولون الأقدمون في قواعد الرسم القرآني ، وأن لهذا الرسم حكماً عظيمة تكلم فيها علماء انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٧٦ - ٤٣١) والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ١٤٥ - ١٦٦) .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتى : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة بعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عِضِينَ﴾ [1] فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كله موصول ، فليس فى القرآن من وقف واجب [2] ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهى بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فنحن لا نُسكِّن الحرف الأخير فى أى سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها

وحتى فى الحكم التجويدى إن وجد إقلاب نطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهار [3] نطقه ظهراً ؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول إذا كان القرآن قد بنى على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التى بدئت بحروف المعجم تبنى على طريقة المعجم فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول " ألم " .

---

(١) عضين ، أى أجزاء متفرقة ، ومنه قوله تعالى ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾ [الحجر] ذكر المفسرون فى الآية أقوالاً أخرى منها ، أن أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض

(٢) أى أنك تجد نهايات الآيات متحركة وليست ساكنة ، وكذلك نهايات السور ، وإلا فهناك وقف لازم هى داخل بعض الآيات مثل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)﴾ [الأنعام]

(٣) الإظهار والإقلاب حكمان من أحكام تجويد القرآن عند النطق بالنون الساكنة أو التنوين

- أما الإظهار فهو إذا وقع بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الحروف الحلقية أى التى مخرجها من الحلق وهى الهمزة ، الهاء ، العين ، الحاء ، الغين ، الخاء ، عندها يجب الإظهار ، أى إظهار النون الساكنة والتنوين عند ملاقاتهما بحرف من هذه الأحرف

أما الإقلاب فهو أن تأتى باء بعد النون الساكنة أو التنوين فتقلب النون والتنوين ميماً مع إظهار الغنة ، ومثال هذا : ﴿ أَنبِئُونِي ۖ (٣١)﴾ [البقرة] ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾ [التغابن]

ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن حروف القرآن التي بدئت بها السور يجب أن ننطقها كما هي ، فننطق " ألف" ثم نقف ، ونقرأ " لام" ثم نقف ، ونقرأ "ميم" ثم نقف ؛ لأن هذه الحروف جاءت هكذا ، وعلمها جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ هكذا ، حتى لا نقول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمة عند الله سوء فهمتها أنت الآن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأي هفوة ؛ ليدخلوا منها للتشكيك في القرآن ، ولكن أسمعتم رغم وجود الكافرين الصناديد أن واحداً قال . ما معنى ﴿الم﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن في القرآن ، بل اعترفوا بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿الم﴾ بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطعنوا في القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

وأيضاً صحابة رسول الله ﷺ وهم أهل حرص على المهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى ﴿الم﴾ ؟ لم يحدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، ومن لم يقبله العقل فهو لا يرفضه[1] مع استراحة النفس له .

---

(١) عن علي بن أبي طالب قال : « لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود في سننه (١٦٣) والدارقطني في سننه (١/ ١٩٩)

وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا [1] نساء بنى إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى [2] لها الله ما جاء خبره فى القرآن .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

هات أىَّ أُمٍّ و قُلْ لها . حسن تحافين على وليدك فرميه فى البحر ، طبعاً لنْ تنفذ أى أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن تحول أم موسى إخفاء موسى بأى وسيلة .

أما أن تلقيه فى البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل ، ولكن هذ أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحى ، فلا يأتى الشيطان ليعارضه أبداً ؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه ؛ لأن الآيات وردت

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ..﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

---

(١) استحياء النساء أى : الإبقاء عليهن أحياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] وكان هذا على سبيل الإهانة لبنى إسرائيل والاحتقار والخوف من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف أن يظهر فيهم ويكون سبباً لهلاكه وخراب دولته

(٢) مادة الوحى وردت فى القرآن فى ٧٥ آية من كتاب الله - راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : صـ ٧٤٦ ، ٧٤٧

والوحى فى اللغة الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام و لكلام الخفى ، وكل ما ألقيت إلى غيرك والصوت يكون فى الناس ، وأوحى إليه بعثه وألهمه ، ومنه الإعلام فى خفاء ، والبعث والأمر والإيحاء والإشارة والتصويت شيئاً بعد شىء ويرد الوحى لغير إعلام الله لأنبيائه مثل قوله تعالى . ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل] والوحى هنا بمعنى الإلهام ، أما الذى بمعنى الإعلام فهو الوحى الخاص بالأنبياء والرسل

وكأن هناك تمهيداً يعلّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

والكلام هنا كلام عَجَلَة ؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

وأصدر الحق أوامره إلى العدوّ أن يأخذه ؛ ليربيه :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

إذن : وارد الرحمن لا يأتي له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿ الم ﴾ بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : " اقرأ لتستنبط " ؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذي يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد ؛ فتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً ينقصك ليشرى ؛ لذلك في قراءة التعبد تأخذ اللفظ بسر الله في النفط ؛ فليس كل قارىء للقرآن متخصصاً في اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير من أمي ، يريد التعبد بالقرآن . إذن - فليأخذ القرآن بسر الله فيه .

---

(١) التابوت الصندوق .

(٢) اليم يطلق على ما كان ماؤه مدجحًا ، أو البحر الكبير العذب الماء ، والمراد به هنا نهر النيل بمصر وساحل اليم شاطئه

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الجيش يضع كلمة اسمها: " كلمة السر " ، وهذه الكلمة قد لا يكون لها معنى ، ولكن لا أحد يتحرك أو يخرج أو ينضم إلى المعسكر إلا إذا قالها . ولتكن الكلمة "عدس" على سبيل المثال ، ومن يعرفها يعرف أنها منجية من الموت ، وساعة يعود مقاتل إلى كتيبته وينطق بكلمة "عدس" ، هنا يعرف حارس بوابة المعسكر أنه منهم ، أما من لا يعرفها فقد يُقتل . ومن يقولها ، إنما ينطقها بسر من لقنه إياها .

وقد فهم العربي القديم عن الحروف التوقيفية في أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر [1] يقول :

* ألا هُبِّي بِصحْنِك فاصْبحينا *

ويقول :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فَنجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا [2]

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربي القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام في أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع ؛ قد يكون ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام ؛ فتنبهه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوعب كل ما قلت [3] .

---

(١) هو عمرو بن كلثوم أبو الأسود ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ، ولد في شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ، توفي نحو عام ٤٠ قبل الهجرة من أشهر شعره معلقته (الأعلام للزركلي ٥/ ٨٤)

(٢) هذه الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها (١٠٣) ، وهي من بحر الوافر

(٣) فـ « ألا » هنا حرف استفتاح يفيد التنبيه ، ويدل على تحقق ما بعده ولها أربعة معان أخرى هي التمني والاستفهام عن النفي والحث والتحضيض والتوبيخ والإنكار

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيىء الأذهان لـ ﴿الٓمٓ﴾ ، حتى تسمع ، ثم تأتي الآيات الحاسمة للمنهج من بعد ذلك ؟

وما المانع في أن يفهم أن النبي الأمي لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل العلم لا تنتهي إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند البشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم لبشر ، وسبحانه قد شاء أن يعترف من معاني كلماته لكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفته لا تتناهى في الكمال ، فإن عرفت كل مدلولاته ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له [1] .

ولماذا لا نفهم أن القرآن الذي بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزة محمد ﷺ هو من جنس ما نبغ فيه قومه ؟ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه . ويقول لهم : هاتوا مثيلاً له ، ولن تستطيعوا [2] ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم في الكلام لقالوا : لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا .

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التي يتحدثون بها ، وبالكلمات التي يعرفونها في لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التي تبنى منه

---

(١) يقول تعالى ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا (١٠٩)﴾ [الكهف] ، ويقول ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . (٢٧)﴾ [لقمان]

(٢) وفي هذا يقول تعالى ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (٢٣)﴾ . البقرة] ، ويقول سبحانه ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (١٣)﴾ [هود] .

الكلمات وهى الحروف ؛ بل بالمعانى والنسق [1] الذى جاءت به الحروف ؛ فالمادة الخام - وهى الحروف - واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم هو الله .

وضربنا من قبل المثل لتقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل فى النسج .

وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف مسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاً منهم نوعاً واحداً من الغزل ؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتينا بأحسن منها [2]

---

(١) النسق من كل شيء : ما كان على طريقة نظام واحد

(٢) قد يقول قائل : ولكن الواقع أن القرآن الكريم به ألفاظ أعجمية كثيرة مثل : آبارين ، أبّ ، أرائك ، إستبرق ، أكواب ، أساور ، اجبت ، وغيرها كثير ذكرها الزركشى فى البرهان (١/ ٢٨٧ - ٢٩٠) والسيوطى فى الإتقان (٢/ ١٠٥ - ١٣٠) وذكر فيه (١١٨) كلمة أعجمية بين حبشية ونبطية وسريانية ورومية وفارسية وعبرانية وقبطية وهندية . نقول : اختلف العلماء فى هذه الكلمات ، فمنع الشافعى وابن جرير والقاضى أبو بكر القول بأن فى القرآن كلمات أعجمية مستدلين بقوله تعالى : ﴿ قرآنا عربيا . ﴿٢﴾ [يوسف]

وقال آخرون بوقوع الكلام الأعجمى فيه وأن هذا لا يعنى أنه ليس قرآناً عربياً ، فهذه الكلمات اليسيرة لا تخرجه عن كونه عربياً

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وقعت للعرب ، فعربتها (أى : الكلمات) بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق .

لذلك شاء الحق أن يأتي القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد للغة العربية مواقرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول ﷺ سمعوا الحروف التي في أوائل بعض السور وقبلوها . والحق سبحانه يقول .

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [يونس]

و﴿تِلْكَ﴾ : إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هي التي تشير إلى شيء مثل قولنا : هذا وذا ، أو تلك ، وهذا . إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا . هذا العلم جميل ، أما قولنا تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما «الكاف» : فهي حرف للخطاب ، فالتاء . إشارة للآيات وهي مؤنثة ، و«الكاف» في ﴿تِلْكَ﴾ . للمخاطب ، وهو محمد ﷺ . فالله يقول لرسوله : تلك الآيات يا محمد .

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق .

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ (١) مِن رَّبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص]

و«ذَانِكَ» : إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ...﴿١٢﴾ ﴾ [النمل]

ويقول الحق أيضاً

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ...﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) البرهان . الحجة الفاصلة البينة ، والدليل القوي الواضح

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه. وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين، ولكنه يشير إلى التأويل بـ «ذا»[1].

وحين دعت امرأة العزيز النسوة؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً، وقالت: اخرج عليهن، ولأنه مفرد مذكر، وهن جماعة إناث، فالعبارة تأتي بخطاب جماعة الإناث، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت:

﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ..(٣٢)﴾ [يوسف]

و «ذا» إشارة إلى سيدنا يوسف، و«كن» خطاب للنسوة. والقرآن حين يخاطب جماعة يقول:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ... (٢٣)﴾ [فصلت]

إذن: فهناك فرق بين الإشارة والآيات، فالـ «ت» إشارة للآيات، والآيات مؤنثة، والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله ﷺ.

والآيات - كما عرفنا من قبل - جمع آية، والآية[2] هي الأمر

---

(١) من العبارات النحوية الذائعة نصيب عن باب الإشارة ما يقال: (اسم الإشارة من يشير إليه، والكاف من يخاطبه) وتتضمن هذه العبارة الأمرين الآتيين:
الأول: أن أسماء الإشارة يراعى في لفظها ما يشير إليه - مفرداً أو مثنى أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً.
الثاني: أن حرف الخطاب (الكاف وما تفرع عنها) يراعى في لفظها المخاطب - مفرداً أو مثنى أو جمعاً، مذكراً أو مؤنثاً.
فالكاف حرف لمجرد الخطاب لا موضع له من الإعراب، فهي إذن حرف للخطاب لا للمخاطب، وهكذا يصفها المعربون (النحو المصفى ص ١٥٦ - ١٦٤).

(٢) الآية العلامة الواضحة والمعجزة؛ لأنها علامة على صدق الرسول، والآية العبرة الدالة على العظمة، والآية هي القرآن سميت آية؛ لأنها معجزة أو جزء من المعجزة قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً (٥٠)﴾ [المؤمنون] أي: معجزة دالة على قدرة الله وعظمته، وقوله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (١١٨)﴾ [البقرة] أي: معجزة خارقة للعادة، وهناك آيات كونية يرجع إليها في كتاب الله، وتجمع الآية على آي وآيات، وكلها تدور حول العظمة والقدرة لتوحيد الخالق وعظمته.

العجيب ، وكل منا يسمع من يقول إنها آية فى الحسن أو آية فى الجمال ، أو آية فى الفن ، أو آية فى الروعة.

فالآية إذن هى الشىء العجيب ، أو الشىء الذى بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة. وتطلق الآيات إطلاقات متعددة: فهى إما أن تكون المعجزات التى أمدَّ الله بها رسله ؛ ليثبت صدقهم.

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾ [الأعراف]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة فى الكون مثل قوله الحق

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ .. (٣٧) ﴾ [يس]

وقوله سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

إذن: فالآية إما أن تكون شيئاً فى الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التى جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم فى البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن.

إذن. فالآيات تطلق على ثلاثة أمور. الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية تصدق الرسول ﷺ فى البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدى للمشركين أن يأتوا بمثلها.

---

(١) قالوا لآل فرعون لموسى ، فعاقبهم الله فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم

(٢) انسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجاً لا يبقى معه شىء من ضوئه ؛ لأن النهار مكوَّر على الليل ، فإذا ما ضوؤه بقى الليل غاسقاً قد غشى الناس ويسلخ الله النهار من الليل أى : يخرجه منه.

وهنا في قوله الحق: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المراد بها: الآيات القرآنية [1]، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية، وخالق المعجزات؛ وهو منزل القرآن؛ فلا تعارض بين الآيات؛ لأن مصدرها واحد.

وقوله ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]

وكلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ معناها: الذي يضع الشيء في موضعه الدقيق بحكمة، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتي به من مضرة

وله المثل الأعلى أقول: إنك قد تصل إلى الشيء، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى، لكنه قد يؤدي إلى شيء أضر، وهذا هو السبب في اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية.

إذن: فهذه حكمة؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذي قد يأتي منه أثر ضار، بل يكتب معه دواء آخر يخفف من ضرره، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبي.

وفي أوائل الخمسينات، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع، واخترعوا مادة اسمها «د. د. ت» لمقاومة الحشرات، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضي على الحشرات، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية

(١) المعروف عليه عند النحويين أن اللام في تلك للبعد، وعلى هذا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه هنا هو الكتب السابقة على القرآن. وذهب آخرون إلى أن اللام هنا ليست للبعد، وأن تلك بمعنى هذه، وعلى هذا تكون (تلك) إشارة إلى آيات القرآن؛ لأنه لم يجر ذكر للكتب المتقدمة، ولأن الحكيم وصف للقرآن، ودليل هذا ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... ۝١﴾ [هود].

الأخرى ، والآن تُرفع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة. قد يأخذ منه ظاهرُ النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع.

إذن: فالحكمة [1] تعني أن تضع الشيء في موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد.

وقد أمرنا الله المبهج في الكتاب لنقود حياتنا إلى كل صلاح. فإن طبقناه ؛ فسوف يأتي منه كل نفع ، ولن يأتي لك أي ضرر ، وضربنا المثل في المعطيات التي أعطاها الحق لنا في الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها. وهو القائل:

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ... ﴿٧﴾﴾

[النحل]

أي. أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية - وقد كانت البشرية تحمي أمتعتها فوق الحمار أو البغل - وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التي تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فصلات الحمار أو البغل ، التي تفيد في خصوبة الأرض.

---

(١) الحكمة: الصواب و السداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل. قال تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة] والحكيم: ذو الحكمة والرشاد الذي يتقن كل أمر يتولاه من حكم يحكم حكماً فهو حكيم. والحكيم من أسماء الله الحسنى قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ..﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة]

إذن فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما ، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حمل البضائع ، ونتخلص مما تسببه من ضرر. وهكذا نعرف أن الحكمة هى. وضع الشىء فى موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ولقائل أن يقول: وما معنى قول الحق: ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هل الكتاب يفرده له حكمة ؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟ ويقول: إن معنى ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أنه الكتاب الذى يمتلىء بالحكمة الصادرة من الله، أو الكتاب الذى أنزله الرب الحكيم. وكلمة «حكيم» على وزن «فعيل»، ومثلها مثل «كريم» و«رحيم» وتأتى مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة فعيل [1]، وموضعها هو الذى يبين لنا ذلك

ومعنى كلمة «الْحَكِيمِ» يتضح لنا من سياقها. فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ؛ والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ؛ ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كل قضايا الإيمان. وقمة العقيدة التى يحكم فيها القرآن هى لا إله إلا الله. ومن يفعل عكس ذلك هو الضالم ، وسبحانه القائل.

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو حاكم فاصل فيها [2]

---

(١) صيغة فاعل تصاغ للدلالة على اسم الفاعل من الفعل الثلاثى المتصرف ، وقياساً على هذا فإن فعل (كرم) مثلاً تصاغ منه صيغة اسم الفاعل (كارم) وكذلك (بخل) يصاغ (باخل) وهذا يدل على معنى طارىء غير ثابت ، أما إن كان المعنى ليس طارئاً حادثاً وإنما هو دائم ، فيجب التصرف بتغيير صيغة «فاعل» الدالة على الحدوث إلى أخرى دالة على الثبوت كأن يقولوا كريم ، بخيل. ومن هذا أيضاً حكيم ، فهى صيغة لها ثبوت ودوام فى حق الله ، ولذلك عبرت الصيغة من «فاعل» إلى «فعيل» انظر: (النحو الوافى ٣/ ٢٤٢)

(٢) القرآن حكيم ؛ لأنه صادر من أحكم الحاكمين

فإن قلت : «محكم» تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : «حاكم» فهو الفاعل وهو يحكم في قمة العقيدة «لا إله إلا الله» ، وهي شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ...﴿١٨﴾﴾[آل عمران]

وساعة يفصل القرآن في هذه القضية ، فهو يحكم فيها حكماً عدلاً يبين وجه الحق في قمة العقائد . وهو حاكم في الأفعال ؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حداً فاصلاً في الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم في الأخلاق

إذن : «حاكم» تعني ما يبين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة.

و«حكيم» : إما أن تكون بمعنى «فاعل» وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه ، فصار «محكماً» ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فعل تكون بمعنى «حاكم» وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين : فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتي الحاكم ؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً في أمر القمة التي اختلف الخلق فيها ؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال . إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال : الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن ؛ ليفصل في هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيَّن . يا من تقولون : لا إله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون . إن الإله له شركاء مع الله ؛ أنتم كذابون ، بل هو إله

واحد ، وهذا أول حكم فى قضية القمة.

وما دام الحكم فى قضية القمة قد صح ؛ إذن: فالاستقبال للمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك ، أو ينافضه ، بل هو إله واحد ، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة فى التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً فى الأفعال ، فقد يختلف الناس فى تقييمهم لعمل واحد . فهذا يقول " فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن ، فيأمر به ؛ ويحدد العمل القبيح ؛ فينهى عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام[1]

إذن. فالقرآن حكم فى العقائد وفى الأفعال وفى ذوات الأشياء حلاً وحُرْمة ، وهو يحكم أيضاً فى قضية هامة تلى قضية الحكم فى قمة العقيدة ، وهى صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذى يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم فى هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول فإن عجزتم ؛ فالرسول نفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم.

وسواء أكانت «حكيم» بمعنى «فاعل» أم بمعنى «مفعول» فقد دلتنا على أنها تعنى وضع الأشياء فى نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضارة أبداً.

ثم يقول الحق بعد ذلك:

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه: ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿٢١٣﴾ [البقرة] فالحكيم هنا بمعنى حاكم ، أى أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

ما هو العجيب [1] - إذن - في أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذي تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحشية في آخر السورة السابقة من أنه:

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أي: من البشر، ومن العرب، ومن قبائلكم، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل حلقه، فما العجيب في أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد اتهمتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحي من الله، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم، وأنكم في كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام.

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم في بناء الكعبة، وقالت كل قبيلة: نحن أولى بأن نضع بأيدينا أهدس شيء في الكعبة، وهو الحجر، حين ذلك اختلفت القبائل، فما كان إلا أن حكّموا أول داخل؛ فشاء الله أن يكون

---

[1] الشيء العجيب، غير المألوف للناس، والآدمي إنما يتعجب من الشيء إذا عظم موقعه عنده، وخفي عليه سببه، وقد تعجب المشركون من قضايا لم تستطع عقولهم استيعابها، واحتاج الأمر من القرآن أن ينهى العجب عن هذه القضايا، وأن يدلل على عكس ما في أذهان هؤلاء المشركين، أما القضايا فهي:

١- قضية توحيد الله سبحانه، فقالوا: ﴿ أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب ۝٥ ﴾ [ص]

٢- قضية إرسال رجل منهم أي من البشر، فقالوا ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ... ﴿٤﴾ ﴾ [ص]

٣- قضية البعث، فقالوا: ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ۝٥ ﴾ [الرعد]

أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة [1] ، ولم يكن قد نزل عليه وحي بعد ؟ إنها الفطرة التي جعلته أهلاً لاستقبال وحي الله فيما بعد ، فماذا صنع ؟ ليبهي هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هي الفطرة السليمة . ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التي كان يصوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ، قال : «إن كان قد قالها فقد صدق»

من أي أحداث جاء حكم أبي بكر ؟ أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول . فقد جربه في كل شيء ووجده صادقاً ، وجربه في كل شيء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد ليصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله ﷺ : يأتيني كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التي في حياته لا توحي بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل

(١) كان محمد ﷺ يبلغ من العمر حينذاك ٣٥ سنة ، أي : قبل بعثته بـ ٥ سنوات ، وكانت القبائل من قريش قد اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه ، وأعدوا للقتال ، وتحالف بنو عبد الدار وبنو مخزوم على الموت ، ووضعوا أيديهم في جفنة مملوءة دماً ، وبقي الأمر هكذا أربع ليال أو خمساً ويروي ابن إسحاق في السيرة (١/ ١٩٧) أن قصي قريش حكومة محمد في هذا الأمر أن «أبا أمية بن المغيرة» قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقض بينكم فيه فصنعوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلم إليّ ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الركن (أي الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغ به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه »

الكَلّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً»[1] وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط[2] في الإسلام.

وقوله سبحانه : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعني : التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقي ألا يكونوا قد تعجبوا ؛ لأنك حين تتعجب من شيء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، فلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتتساءل ما الذي جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاً لا تصدق به أن أحداً من الموجودين في إمكانه أن يصنعها والمثال على ذلك نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشيء الذي يفوق تصوره . وقد يتعجب من شيء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]

---

(١) حديث بدء الوحي عن عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري في صحيحه (٣ ، ١ ومواضع أخرى) ومسلم في صحيحه (١٦٠)

- كانت السيدة خديجة بهذه المقولة قد لخصت رسالة الرسول في كلمات " تعيش مشاكل الناس ناصراً للمظلوم مساعداً للمحروم تحمل الكل

وصلة الرحم ارتقاء بالأرحام والأقرباء وهو دفء الإنسانية ، يعيش فيه المجتمع بوجدان الجماعة وحنان الإخاء وإنصاف المظلوم هو اعتدال الموازين العدل ، والقول هو الإسلام ، وبهذا صدق قول الشيخ فإنه أول قضية تستنبط رسالة الإسلام من حالة الرسول قبل تمام الوحي .

(٢) الاستنباط في الفقه هو استخراج الفقيه للأحكام الشرعية من بطون الأدلة باجتهاده وفهمه ومنه قوله تعالى ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ﴿٨٣﴾﴾ [النساء] والاستنباط في اللغة استخراج الماء من قعر البئر إذا حفرت

أي: قولوا لنا: كيف قبلتم لأنفسكم الكفر؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة.

وهنا يقول الحق:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

وهنا نتساءل: كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

أليس هذا هو المطلوب في الرائد، فكيف تعجبون؟[1].

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب، ونحن نتعجب من عجبكم هذا

وحين تتعجب من العجب؛ فأنت تبطل التعجب.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

أي. أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً؛ لأنه أمر منطقي وطبيعي.

ثم ما هو الوحي؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحي هو الإعلام بخفاء. وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك: يا بني اسمع كذا، وافعل كذا. هذا إعلام واضح. وهناك إعلام بخفاء، كأن يدخل عندك ضيف؛ ثم يسهر خادمك - مثلاً - عن تحيته، فتشير للخادم إشارة؛ تعني بها أن

(١) روى ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكما قاله المشركون: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٥٢) وتفسير القرطبي (٤/ ٣٢٣٢) وابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٦)

يُسرع بتقديم لتحية للضيف ؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بحفاء .

والحق سبحانه وتعالى يوحي إلى الجماد ، فسبحانه يقول . ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة]

أي : أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفياً ؛ وهي قد فهمت بطريقه لا نعرفه .

وسبحانه يوحي للحيوانات، فهو القائل

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ[1] ... ﴿٦٨﴾﴾ [النحل]

وأنت لا يمكنك أن تقول : أن سمعت الله وهو يوحي للنحل ؛ لأن الوحي إعلام بخفاء ، وهو سبحانه أعلم بالطريقة التي تم بها هذا الوحي ، والنحل قد فهم عنه سبحانه ، ولا شأن لك بذلك ، فلا تسأل عن كيفية هذا الوحي ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل]

أي . أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز .

وسبحانه يوحي للملائكة وهو القائل :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ... ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال]

ويوحي الحق سبحانه إلى غير الرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى

---

(١) قال الزجاج : جائز أن يكون سمي نحلاً ؛ لأن الله عز وجل جعل النحل أعسل الذي يخرج من بطونها

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ... (٧)﴾ [القصص]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً

إذن: فسبحانه يوحي للجماد، ويوحي للحيوان، ويوحي للملائكة ويوحي للصالحين من غير الأنبياء، ويوحي للأنبياء وللرسل

والوحي - كإعلام بخفاء - يقتضي مُعْلِماً، وهو الحق سبحانه وتعالى، ومُعْلَماً، وهو إما: الأرض، وإما النحل، وإما الملائكة، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء، وإما إلى الرسل والأنبياء.

وقد يأتي الوحي من غير الله، فسبحانه يقول: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف[1] القول غروراً[2] ... (١١٢)﴾ [الأنعام]

إذن: فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً.

ويقول الحق: ﴿إنا أوحينا إليك ... (١٦٣)﴾ [النساء]

والموحى إليه هو محمد رسول الله ﷺ، وهو وحي خاص بالرسول، فلا تقل: أنا لم أسمع ماذا أوحي إلى محمد، ولا أعرف كيف نزل

---

(١) زخرف: الزخرف: الزينة، والمراد هنا: التمويه والتزوير، وزخرف القول غروراً: أي حسن القول بتزيين الكذب

(٢) الغرور: ما غرك من إنسان وشيطان وغيرهما، والغرور: الشيطان ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور (٣٣)﴾ [لقمان] والغرور: الأباطيل، ويجوز أن يكون الغرور جمع غارّ، مثل شاهد وشهود. والغرور: الدنيا ومتاعها، والغرور: الإغراء بالوعد الكاذب والتمنية ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦)﴾ [الانفطار] و﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا (٣٣)﴾ [لقمان] والغرور: الخداع وتزيين الشر والمعاصي، وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرة: عرضهما للهلكة من غير أن يعرف. والغرر: الخطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغرر، وهو مثل بيع السمك في الماء والطير في الهواء. والتغرير: حمل النفس على الغرر

الوحى [1] ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، وبلغه أن يعلن ما أوحى إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحى من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقه من القوىّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتى بمحوّل يتحمل طاقة لقوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربى حين ينقل الكهرباء من مصدر طاقه عالى الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذى نضيئه فى المنزل ليلاً ليتير بالقدر المناسب كيلا يرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية «وتّاسة» . إذن فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوى ؛ ليضىء لمصدر الطاقة الضعيف .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى يوحى للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقى المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ فى الارتقاء بما يسمح لها بالتلقى عن الله ، وتستطيع أن تتلقى بالبشر ؛ وهذه خاصية الملك .

ورغم هذا أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول الله ﷺ فى أول تلقيه للوحى ، وكان ﷺ يعرق حتى يتفصد [2] العرق من جبينه ، وإذا انصرف

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣)

(٢) تفصد العرق أى سال العرق من جبينه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخارى .

عنه الوحي قال: « زمّلوني. زملوني »[1] ويرتعد

وكان الصحابة يقولون: كان إذا نزل الوحي على رسول الله ، وهو قاعد ؛ وقد تكون ركبته على فخذ أحد الصحابة ، فيجد الصحابي ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول ﷺ ، وإذا نزل الوحي ، والرسول يركب مطية فهي تئط منه[2]

إذن : كان الوحي يُتعب رسول الله ﷺ ، وبعد أن يُسرَّى عنه التعب[3] ، تبقى له حلاوة ما أوحي إليه ؛ فيتشوّق ثانية للوحي.

وقد شاء الحق أن يشوّق النبي ﷺ للوحي ، فيفتر[4] الوحي لمدة من الزمن. وحين اشتاق النبي للوحي ؛ كان ذلك يعني أنه قد شحن نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحي ؛ بما فيه من تعب.

ولله المثل الأعلى دائماً ، فمن أنت الجهد المبذول في رحلة إلى من تحب ، أثناء المطر ، والأرض موحلة[5] وملبدة بالشوك ، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب.

وشاء سبحانه أن يُرغّب رسوله شوقاً إلى الوحي ، رغم ما فيه من جهد ؛ لأنه التقاء ملَك ببشر ، وهذا التقاء يكون على صورتين : إما أن

---

(١) المراد بالتزميل هنا طلب الحماية وإذهاب الخوف والروع والرعدة التي ألمت بجسمه مما رآه ؛ من طول لف جسمه بالثياب وتغطيته ورمل السرير أعضاءه ، ورمله في ثوبه أي لفه والترمل الملتف بالثوب ، وقد ترمل بثيابه أي تدثر وفي حديث قتلى أحد « زملوهم في ثيابهم » أي لفوهم فيها أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة

(٢) تئط الناقة تئن من ثقل الركبان عن أسماء بنت يزيد قالت إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق على الناقة أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٥٥) .

(٣) يسري عنه يتحسر أي يذهب عنه

(٤) فتر الوحي انقطع والفترة ما بين كل نبيين ، وفي الصحاح ما بين كل رسولين من رسل الله - عز وجل - من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة . ومنه قوله تعالى . ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴿١٩﴾ [المائدة]

(٥) أرض موحلة أي أصابها الوحل ، وهو الطين الرقيق الذي ينتج من أثر مطر أو ماء يصيب الأرض

ينقلب الملَك إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله ﷺ ؛ لأن عمليه لتحويل جاءت في الأعلى بينما يظل رسول الله ﷺ كما هو ، مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبي ﷺ ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم انصرف السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال . «هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم» [1]

هذه هي الصورة الأولى في الوحي ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبي ﷺ

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله ﷺ ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد ﷺ ، وكان التحول يقتضي عملية كمعاونة نفسه بجهد ؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه . «زمّلوني»

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحي فترة من الزمن وقال الكافرون من العرب : إن رب محمد قد قلاه [2] وهذا غباء منهم ؛ لأنهم

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال ﷺ «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان ؟ قال «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ومسلم في صحيحه (٨) والشاهد من الحديث أن جبريل أتى رسول الله ﷺ في صورة بشرية ، فلم تكن شاقة عليه ﷺ

(٢) عن جندب البجلي قال أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون قد ودّع محمداً فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى (١) والليل إذا سجى (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣)﴾ [الضحى] أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩٧) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) وقال حديث حسن صحيح وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٢) من الطريق الذي أخرج مسلم من الترمذي حديثه إلى جندب ، بلفظ «فقال المشركون : ودع محمداً ربه»

اعترفوا أن لمحمد ربّا ، وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف [1] وعناد ، وأرادوا بذلك أن يسببوا النقص لمحمد ﷺ ، فقالوا: إن الله قد قلى [2] محمداً.

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحي عن محمد ﷺ هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربّا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله ﷺ

ولو قاصيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذي عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له: أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحده ، ولا مكان يُحيِّره؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان به. والأحداث هي عند البشر ، فهم من يستقرون في المكان ، ويتوالى عليهم الزمان

والزمان الذي يحدث فيه أي حدث اسمه «ظرف زمان» [3] ، والمكان

---

(١) الصَّلف: مجاوزة الحد في الادّعاء والتكبّر

(٢) قلاه: كرهه غاية الكراهة ؛ فتركه. والقِلى: البُغض

(٣) الظرف: هو الرمس أو المكان الذي وقع فيه الحدث، ويسميه النحاة «المفعول فيه» أي أن الحدث أو الفعل قد وقع (أو يقع - أو سيقع) في رمس ما، ومكان ما

الذي يحدث فيه الحدث اسمه «ظرف مكان»؛ وظرف المكان ظرف قارّ [1] ثابت، بينما ظرف الزمان غير قارٍّ، بل هو حال، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً؛ ويأتي المستقبل ليكون حاضراً، ثم يصبح ماضياً.

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التعاقب بين المستقبل والحال والماضي، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف، فالليل يأتي والنهار خلفه [2]؛ لأن النهار جعله الله ضياء؛ للحركة والكدح والعمل، وجعل سبحانه الليل ظلاماً؛ للسكون والراحة، فإن لم ترتح بالليل؛ لا تقوى على العمل في الصباح، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له [3].

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحي بهذا الشكل، فحين جاء الوحي لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ، ثم فتر الوحي ليستريح ﷺ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحي من بعد ذلك

وحين قال الكافرون: إن ربَّ محمد قد قلاه، ردّ عليهم الحق سبحانه

---

(١) قار: مستقر ثابت. ومنه أيضاً القرار بمعنى الاستقرار، كقوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. (٦٤)﴾ [غافر]

(٢) قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (١١٤)﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١١٥)﴾ [البقرة] قال ابن كثير في تفسيره (١/٢٠١): «أي: هذا يجيء، ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة» ويقول سبحانه أيضاً ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] أي: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعباده عباده به عز وجل، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل. وقال مجاهد وقتادة: خلفة، أي: مختلفين، أي: هذا بسواده، وهذا بضيائه.

(٣) يقول تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢)﴾ [الإسراء] وهناك آيتان على توحيد الله وأن نهذا الكون إلهاً واحداً، ولنسأل بقول رب العزة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

وتعالى. ﴿والضُّحَىٰ [١] ۝١ واللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ [٢] ۝٢ ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَىٰ ۝٣﴾ والضحى ضحوة النهار وهي - كما قلنا - للعمل والحركة، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار، لكنه غير ذلك، بل هو مكمل له ويساعده

إذن: فمتور الوحي لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية. وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتي يعترف بها كل إنسان، مؤمنهم، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله [٣]، بل شاء بفتور الوحي أن يعطيه طاقة تزيد من حركته، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الوحي. وبذلك أعانه الحق على مهمته. وفي هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا: إن رب محمد قد قلاه، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحي أن تكون كالليل سكوناً، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذي استغل به الوحي.

---

(١) أقسم الله بالضحى والليل إذا سجى؛ لأن عظمة الأمل تتجلى فيهما، وذلك لاستقبال العطاءات الإلهية قائلاً ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] وهذه حميه ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى] ثم العطاء ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى] فمه الرعاية ثم القيام له الدليل على العطاء قائلاً ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ ووجدك ضالا فهدى ۝٧﴾ ووجدك عائلا فأغنى ۝٨﴾ [الضحى] ما دمت أعطيت هذه المعطيات البلاث فأطلب منك ثلاثاً ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ وأما السائل فلا تنهر ۝١٠﴾ وأما بنعمة ربك فحدث ۝١١﴾ [الضحى] وبهذا يكون انشراح الصدر

(٢) سجى: سكن وأظلم واشتد. والليل إذا سجى: إذا سكن بالناس أو إذا لبس الناس. وسَجْوُ الليل: تغطيته للنهار. وسجا يسجو سجواً، وسجّى يسجّي وأسجى يُسْجِي: غطى شيئاً ما. والسجية: الغطاء

(٣) تأمل هذا المعنى الذي أشار إليه فضيلة الشيخ في القسم بالضحى محل الحركة والكد والنصب ثم بالليل محل السكون لتجديد الطاقة، ومطابقة هذا لنزول الوحي وجهد النبي في استقباله ثم انقطاعه لتجديد طاقة الرسول ﷺ. وقد أضاف ابن القيم منحى مكملاً لهذا المعنى في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» فقال: «تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الوحي الذي والاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع محمداً ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل هي ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه» نقله السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (٤/ ٥١).

وبعد أن تتجدد حبوبه ﷺ يأتي الوحي من جديد ؛ لذلك قال الحق

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾

[الضحى]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه في سورة الشرح - ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [1] ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ .

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحي وعودته هي عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها متناقضة ويقولون : (ظلمة وضوء) ، و(ليلٌ ، ونهارٌ) والحق أنها متكاملة

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون حَلّ عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يفهموا أن الذكر متمم للأنثى ، وأن الأنثى متممة للذكر

وهنا يقول الحق. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

والإنذار - كما نعلم - هو الإخبار بشيء يمكن أن تتلافاه أما البشارة [2] فهي لإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه . وأنت تنذر من يهمل في دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفي المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب .

إذن : فالإنذار يعني أن تحث الإنسان على ألا يفعل أو يُقْدِمَ على

---

(١) الوزر: الحمل الثقيل أنقض ظهرك أثقلت حمله

(٢) البشارة لفظها لا تكون إلا بخير ، أما البشارة المقيدة تكون بالشر كقوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران] ويكون على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية.

ما يضره والتبشير يعني أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ ليال ما يحبه. والأمور في الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب.

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

فنقول: إن كلمة «الإنذار» كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين في صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال.

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذي يأتي بالضُّرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرْء [1] المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة [2]

ولحظ الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس: هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة. وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة «الناس» ، وأرادوا أن يدخلوا من خلالها إلى متاهات التشكيك في القرآن ، وقالوا: إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له.

وأم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هي سورة «الناس» حيث يقول الحق: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ

---

(١) الدَّرْء: الدفع يقول تعالى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٢ ﴾ [الرعد] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥١٠): أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً.

(٢) المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشرع الأساسية. والتي دل الاستقراء على أنها خمس ضروريات لا بد منها، وهي: حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال. فكل تشريع أو حكم يحفظ أحد هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يضر بها فهو مفسدة.

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [1] ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ [2] وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ [الناس]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة «الناس» في كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولأنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة «الناس» في كل موقع هو معنى مختلف وضروري؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة في القرآن أن تكون جاذبة لمعناها، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له.

والمثال أيضاً في كلمة «الناس»؛ هو قول الحق سبحانه ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

فهل كل الناس تتلقى الحسد؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن. فقوله الحق: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

إنما يعني أن هناك أناساً حاسدين [3]، وآخرين محسودين. ولا تكون كلمة «الناس» عامة شاملة لكل الأفراد إلا في حالة الحكم العام.

---

(١) خنس يخنس خنوساً وخناساً: انقبض وتأخر. والوسواس الخناس للتخيّن للفرص فساعة ضعف النفس ينقض، وساعة عزيمة النفس ينقض، وهو الذي يوسوس في صدور الناس من الإنس والجن، وهو إبليس يوسوس في صدور الناس، فإذا ذكر الله خنس، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه (مقدم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس». أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/٢٧٨) وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٨) ضعف إسناده ابن حجر في الفتح (٨/٧٤٢) وقال: «فيه عدي بن أبي عمارة، وهو ضعيف» وقيل إن له رأساً كرأس الحية، يجثم على القلب، فإذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس، أي: ابتعد كمن صدم أو أصابه شيء أبعده. والوسوسة: هي الإيحاء بالشر.

(٢) الجنة: هم الجن، سموا بهذا لاستتارهم عن أعين الناس، ومنه: جنّ عليه الليل؛ أي: ستره، ومنه الجنين؛ سمي بهذا لاستتاره في بطن أمه.

(٣) حسد من باب نصر وضرب - حسداً: كره نعمة الله على غيره وتمنى زوالها، وقد يسعى ليزيلها. قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق]. أي: إذا حاول أن يزيل نعمة الله بمختلف الوسائل ونظرات الحاسد سببها الحقد. القاموس القويم للقرآن الكريم، ص ١٥٣.

والمثال هو قوله الحق: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .. ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس، من لَدُن [1] آدم، وآدم هو أبو الناس

ولا بد - إذن - أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم، وأن الذي وضعه هو من غير الناس، فالذي وضعه هو بأمر من الحق سبحانه، فلا يقولن أحد: إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذي وضع البيت الحرام؛ لأن مهمة إبراهيم - عليه السلام - كانت هي رفع القواعد من البيت؛ لأنا لو قلنا: إن ابراهيم - عليه السلام - هو الذي بنى البيت؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [2] مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده في الرفع والبناء، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب في العمل.

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً [3]؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]

وهذا يعني أن البيت كان موجوداً قبل ذلك.

---

(١) لَدُن: ظرف زمان، والمراد: من زمن آدم عليه السلام

(٢) القواعد: جمع قاعدة وهي السارية وأساس البناء.

(٣) كان عُمُر إسماعيل عليه السلام وقت رفع القواعد مع أبيه إبراهيم ١٣ سنة، أما كونه كان رضيعا فهو من الإسرائيليات المتلفاة عن أهل الكتاب.

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا : إن إبراهيم – عليه السلام – هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم: وماذا عن الخلق البشرى من لدن إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ؛ أليسوا ناساً ؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرَّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله

وكلمة الناس إذن عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة في مواقع أخرى ، مثل قوله :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء]

وأما سورة «الناس» التي قال بعض المستشرقين : إن فيها تكراراً . فالأمر ليس كذلك ، بل هيأ لهم ذلك عجزهم عن امتلاك ملكة فهم اللغة

وحين تتدبر كلمة «الناس» بالاستقراء [1] الدقيق في هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ [الناس]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذي أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق.

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه؛ فهو سبحانه يقول:

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ ﴾ [الناس]

أي. أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار في أشياء؛ ومنع عنهم

(١) الاستقراء : الدراسة مع التفكير الدقيق في الفص ؛ للوصول إلى المعنى المراد منه . وفي الاصطلاح : تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية . (المعجم الوسيط)

الاختيار فى أشياء ، ولم يقل سبحانه «مليك النَّاس» ؛ لأن هذا القول يعنى أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين فى الأمور التى هى مَنَاط للتكليف [1] ، وغير مختارين فى أمور هى ليست محلاً لهذا [2] .

وأقول لأى واحد ممن تمرّدوا على الإيمان؛ فكفروا بالله ؛ أقول: أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقياً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التى تصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له: لا ، لن أمرض

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله ؛ لأن الأحداث [3] ستنال من كل إنسان ما قدره الله له.

إذن: فكل إنسان هو مملوك لله. وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ ﴾ [الناس]

وأن يقول : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ ﴾ [الناس]

و«الناس» فى الآية الأولى هم المربوبون ، والناس فى الآية الثانية هم «المملوكون لله» فلا أحد يخرج عن قدرة الله فى الأمور القهرية.

وتأتى «الناس» فى الآية الثالثة: ﴿ إِلَـٰهِ النَّاسِ ۝٣ ﴾ [الناس]

---

(١) مناط للتكليف أى محل وموضع للتكليف مثل «الإيمان» أو عدمه ثم مقتضيات هذا الإيمان ولوازمه وشروطه. وهى أشياء جعل الله الإنسان مختاراً فيها ، هله أن يؤمن أو يكفر. فإذا آمن فعليه أن يلتزم بمقتضيات هذا الإيمان، وهو وإن كان ملزماً بهذا إلا أن له الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل ، ويترتب على هذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة

(٢) أما الأمور التى يكون الإنسان فيها مجبراً غير مختار فهى التى تتعلق بوجوده فى هذه الحياة من زمن ميلاده ومكانه والظروف المحيطة به وبرزقه وهيئته وغير ذلك من هذه الأشياء

(٣) الأحداث حوادث الدهر وحدثانه أى: نوبه وما يحدث منه، واحدها حَدَث؛ والحدث من أحداث الدهر شبه النازلة والرزء والمصيبة

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذى يقيك مما ستأتى به الآية الرابعة .﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس]

والآية الخامسة ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس]

والوسواس الخناس: هو الذى يزين لك أفعال الشر فى أدنيك، وهو خنّاس ؛ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك . «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [1]» وهو يوسوس فى صدور الناس الموَسْوَسِ إليهم.

وهكذا نجد أن كلمة «الناس» قد جاءت؛ لتعبر عن المربوبين ، والمملوكين ، والمألوهين ، والموسوس [2] إليهم ، وأن من يوسوس قد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس.

إذن: فليس هناك تكرار بين جاءت الكلمة الواحدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه.

والمثال من حياتنا ولله المثل الأعلى - قد أكون معلّماً مديراً واختارتنى الكلية لتى أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم فى الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة «الطلاب» لها معنى مختلف فى كل موقع.

---

(١) الشيطان . فَيعال من شَطَنَ إذا بَعُد، وهو كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب والشياطين . الخبيث .

والرجيم الرمى بالحجارة . رجمه يرجمه رجماً، فهو مرجوم ورجيم، والرجم اللعن ؛ ومنه «الشيطان الرجيم»، أى المرجوم بالكواكب، صُرِفَ إلى فعيل من مفعول. والرجيم الملعون، المرجوم باللعنة، المُبْعَد المطرود. والرَّجيم. ما رُجِمَ به، والجمع رُجوم . والرُّجْم والرُّجوم النجوم التى تُرمى بها الشياطين . ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴿٥﴾ [الملك]

(٢) الوسوسة والوسواس فى اللغة الصوت الخفى الذى يشبه الهمس وهو أيضاً صوت الحلى (وهو حُلى المرأة)

والحق يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ [1] عِندَ رَبِّهِمْ ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

والحديث موجه لمحمد ﷺ وهو الرسول الخاتم.

إذن: فالمراد بإنذار الناس هنا: هم جميع الناس.

وما المقصود بقوله : ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ...﴿٢﴾﴾ [يونس]

إن القدم [2] كما نعرفه : هو آلة السعي إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء؛ فتقول: فلان له يد عندي ، أو تقول: أنا لا أنسى أياديك عليّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها يديه.

إذن فكل جارحة [3] لها ظاهر في الحركة ؛ وفي الأعمال. فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك في العطاء ، والأذن في السمع ، والعين في الرؤية. وهكذا يكون معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدّوا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك

---

(١) قدم صدق: كل ما قدمت من خير. قال ابن قتيبة: أي: أن لهم عملاً صالحاً قدموه. وقدم الصدق المنزلة الرفيعة والسابقة. ويقول ذو الرمة

وأنت امرؤ من أهل يَبْرِينَ دارُه ... لهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ ومَفَاخِرُ

(٢) القدم: ما يطأ الأرض من الرِّجل وجمعه أقدام. قال تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال] وهنا بث روح الشجاعة في نفوس المؤمنين. وقد يأتي اللفظ عن طريق الكناية في قوله تعالى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن] كناية عن شدة العذاب. والقدم يستعمل مجازاً مرسلاً للمآثر والمكارم التي يقدمها أهل الخير كقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ .. ﴿٢﴾﴾ [يونس]

(٣) جارحة جمعها جوارح، والمراد بها: أعضاء الجسم. وهي مأخوذة من الجرح بمعنى الكسب. جَرَح الشيء: اختزنه كسبه. كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام] ويقول سبحانه ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية] جرحتم كسبتم واجترحتم اكتسبتم

يا محمد أن تبشرهم بالجنة . ، ذلك أن لهم سابق قدم ، سعى إلى الخير ، وهو قدم صدق.

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه «قدم كذب» ؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب.

قدم الصدق إذن - هو سابقة في الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق. والصدق - كما نعلم هو الخصلة التي لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنحى عنها ، فهذا يعني التنحّي عن الإيمان. وحينما سئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال . نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال. نعم ، فقيل له أيكون المؤمن كذاباً ؟

فقال : لا [1].

إذن: فالصدق هو جماع الخير . وعلى الصدق تدور الحركة النافعة في الكون

وحين يصدق التاجر في ثمن الأشياء ؛ ويصدق العامل في إخلاصه للعمل ؛ ويصدق الصحفي في نقل الخبر ، ويصدق كل فرد في المجتمع ، مما يتكامل المجتمع وينسجم ؛ لأن الفساد في الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذي يخل بحركة الحياة

لذلك أتى الله بكلمة الصدق في القرآن في أكثر من موضع ، فهو القائل . ﴿ ولقد بوأنا [2] بني إسرائيل مبوأ صدق ...﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً

(٢) بوأ أنزل وسكن والمبوأ: المكان الذي أنزلهم الله تعالى فيه

فحين قالوا . ﴿ لن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، [1] فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتي الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ [2] صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

أي . اجعل لي ذكراً حسناً فيمن يأتون من بعدي ، فلا يقال في تاريخي كلام كذب ، وألا يخلع عليَّ الناس ما ليس فيَّ

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ [3] ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي [4] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

---

(١) هؤلاء هم بنو إسرائيل بعدما خرجوا من مصر وأنجاهم الله من فرعون وجنوده ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً لهم ، فقالوا ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

(٢) اللسان معروف وهو في تجويف الفم يحرك الطعام ويكيف الصوت ويتوجه . قال تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القيامة]

واللسان أحد حواس الذوق والنطق قال تعالى ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [البلد] واللسان . اللغة قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] ولسان صدق السمعة الطيبة والذكر الحسن

(٣) الفصال الفطام والمعنى أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذي يُفصَل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها ، أي فطمته وفصل المولود عن الرضاع يفصله فصلاً وفصالاً وانفصله فطمه

(٤) أوزعني ، أي . ألهمني ووفقني إلى أن أشكر نعمتك

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد صدق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه.

ولذلك قال الحق لنا : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف]

إذن : لا بد لك أن تسبق أي وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تَعد ؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه في الغد في مكان ما لتتحدثا في أمرٍ ما.

ونقول : أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ هذا هو أول عنصر قد يُفقد ؛ ثم أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثاني الذي قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذي من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك في هذه المسألة ؟

إذن . لا تجازف بأن تعد بشيء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له ، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر ، وقل :

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف]

إذن : فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً ، ولا تخرج [1] الأشياء مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء ؛

(١) مصداقاً لقوله تعالى ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت . ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان] ، وقوله ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]

لأنه باقٍ ولن يتغير رأيه ؛ لأنه ليس حدثاً نتعبر بل بيده كل شيء وهو على كلِّ شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]

هكذا وعد الحق عباده المتقين [1] بأنهم سوف يقعدون في حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر وسبحانه يقول : ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ... ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء]

أي : أدخلني في هذه البلدة مدخل صدق للغاية التي لا أستحي من أن أقولها ، لا أن أدخل مغرض أمام الناس وأنا أخفي غرضاً آخر ، وكذلك أخرجني منها مخرج صدق.

إذن : فكلمة الصدق دائرة ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ و﴿مَقْعَدَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وكل هذا يُحبب في الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ، وفضائلها ، وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق [2]

ومنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

أي: أن لهم سابقة فضلٍ عند ربهم يجازيهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى

---

(١) عن هؤلاء المتقين التي وردت السنة بأنهم في مقاعد صدق عند الله عز وجل ، المقسطون ، فعن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٢٧) والنسائي في سننه (٨/ ٢٢١)

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) .

منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ونقول : إن الرسول ﷺ حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فاتَّهموا بعضهم رسول الله ﷺ بأنه ساحر [1] .

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً [2] ، لأن لباقة السامع ستنتهي إليها ، فلا يريد أن يكرر القول وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له : لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب من دوننا ما يُعَلِّمُه لنا ، ألم يُعلِّم الغراب كيف يوارى سوأة الميت ؟

---

(١) اختلف الكافرون فيما بينهم في الوصف الذي يريدون إطلاقه على محمد ﷺ لتشويه صورته أمام وفود الحجيج القادمة في الموسم فأرادوا أن يجتمعوا على رأي فيه ، أورد ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) : «اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، ولتنهى الأمر على القول بأنه ساحر رغم التناقض فيما بينهم

(٢) الحذف هو نوع من أنواع الإيجاز ، ويكون حسناً لقرينة الدلالة عليه ، أو بقصد به تعديد أسباء ، فيكون في تعداده طول وسآمة ، فيحذف ويكتفي بدلالة الحال ، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها

﴿فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ...﴿٣١﴾﴾ [المائدة]

ويقول قابيل : ﴿يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة (١) أخي فأصبح من النادمين ﴿٣١﴾﴾ [المائدة]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خيراً ، لا بد أن يسعى للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان . ﴿أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ (٢) بنبإ يقين ﴿٢٢﴾﴾ [النمل]

ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴿٢٨﴾﴾ [النمل]

وتتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴿٢٩﴾﴾ [النمل]

فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته ؛ جمعت قومها ؛ لتخبرهم وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التي إن رُويت تكون تكراراً ، ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة ؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقي كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً

---

(١) السوأة في اللغة . العورة والسوأة الفرج قال تعالى ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما . ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف] وقال ﴿بدت لهما سوءاتهما . ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف] وقال ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف] والمراد بالسوأة هنا جسم الميت (دليل)

(٢) سبأ اسم بلدة باليمن كانت تملكها بلقيس ، وهي مدينة تعرف بمأرب عربية من صنعاء

وسبأ . اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ؛

إذن · فقوله الحق · ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم ﷺ أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة.

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التي إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء في لقطة أخرى في قصة سبأ ، فبعد أن التمس الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم ؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن [1] ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها [2] ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل]

---

(١) قال سبحانه: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل]

(٢) وذلك أن بلقيس قالت لقومها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل] ثم جمعها رد سليمان على هديتها حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل] حينئذ قالت بلقيس ، قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك ؟ وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ثم أغلقت عليه الأبواب . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦٣)

إذن فهو قد علم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وماداموا قادمين في الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادي ؛ ولذلك لم يتكلم الإنس العادي ، لكن الذي تكلم جني غير عادي ، ذكي ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ [1] مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات [2] . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ [3] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

ألم يكن مثل هذا لقوي يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحمل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة في تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام .

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

---

(١) العفريت الشديد القوي وقد يكون من الإنس أو من الجن وقيل : إن اسمه كوزن وإنه كان كأنه جبل من ضخامة جسمه وقوته.

(٢) قال السدي وغيره. كان سليمان يجلس لعامة للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس

(٣) هو آصف بن برخيا كاتب سليمان، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم قيل. إنه قال: يا ذا الجلال والإكرام وقيل إنه قال يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها. قاله مجاهد فيما نقله ابن كثير عنه في تفسيره (٣/ ٣٦٤)

وهكذا حذف التفاصيل التي يسهل معرفتها ، والتي وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس .

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلَّغهم رسول الله الإنذار ، هما قال الكافرون: ﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرٌ[1] مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد إنه ساحر[2] . ولنسأل ما معنى كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو الذي يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛ وهي ليست بحقيقة .

وبذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهي العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً ؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون[3] فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها تتغير .

---

(١) وردت الآية بقراءتين . فقد قرأها ابن محيصن والكوفيون عاصم وحمزة والكسائي « لساحرة » وصفاً لرسول الله ﷺ وقرأها الباقون (لسحر) وصفاً للقرآن نقله القرطبي في تفسيره (٤١/ ٣٢٣٣) والقراءتان مؤداهما واحد

(٢) اتهم الكفار القرآن بأنه سحر في بضع آيات من القرآن.
﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ]
﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزخرف]
- ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف]
* وفي آيات أخرى اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر
﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴿٤﴾ ﴾ [ص]

(٣) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء الحقير دون غيره ، ولذلك قال تعالى ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

والسحر يقتضي ساحراً ، ويقتضي مسحوراً ، ويقتضي عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التي تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف]

أي سحروا لأعين التي ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشيء المسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة - معجزة موسى - ليست كذلك ؛ لأنها لا تُغير من الرائي ، بل تغير من [1] حقيقة الرئي فعلاً وقد دلّنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ [3] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّة تسعى :

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرّ هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذي سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة . ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه]

---

(١) السحر هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخييل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشيء بقدرته ، والسحر يطلق على الشيء الجميل تلوّناً مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحراً » ومن الشعر لحكمة » وقد يكون السحر نجاسة من الحواس فيقال عنه سحرة وكلامه ساحر ، وقد يكون بالتناسق العام في المخلوقات التي أبدعها الله

(٢) ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴿١٨﴾﴾ [طه] أي أخبط بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي . تفسير ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٤٥)

(٣) مآرب أخرى مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك

إذن : فلم يكن هناك سحر في عيني موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعليّ في حقيقة العصا فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا ؛ لأنها ستعود - بإذن الله - إلى سيرتها الأولى . والدليل على أن التغير قد حدث في حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا في منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه]

وهنا موسى عليه السلام التحدي ، ونجد القرآن يصور المسألة فيقول ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

وقوله . ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يعني . أن الحبال والعصي لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان ؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهي أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن - فالساحر [1] يرى الشيء على حقيقته ، والمسحور هو الذي تتغير رؤيته إلى الشيء ، فيُخيَّل إليه أنه شيء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد . إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه علمهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا .

﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه]

ولم يقولوا : آمنا بموسى .

---

(١) الساحر اسم فاعل . قال تعالى ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه] والمسحور والمُسَحَّر من به صرع أو جنون يظن الناس أنه من عمل السحر ، والسحر صيغة مبالغة مصداقاً لقوله تعالى ﴿بِأَلْفِ مُسَحَّرٍ عليم ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء] والسحر الجزء الأخير من الليل حتى مطلع الفجر وجمعه أسحار قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران] .

إذن . فالتخييل إنما يحدث في عيني المسحور. أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، سحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب في غير مسألة الوحي إلى الرسول ﷺ .

أي : كان عليكم أن تروا هذه المسألة العجيبة ، وهي خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها [1] ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذي خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون مُعَد لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أي شيء آخر .

---

(١) القرآن الكريم مشحون بالآيات التي تدعو إلى التفكر والتأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما ، يقول عز وجل ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠) فذكر إنما أنت مذكر (٢١) ﴾ [الغاشية] .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا . هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت في الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أي دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذي صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب ؟

وهذا الكون قد أعدّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس في متناول قدرتك ، وسخّر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق أنا خلقنا السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذي خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها [1]

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض .

وقد ضربنا مثلاً ، فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا

---

(١) وقد أكد رب العزة سبحانه هذا المعنى في كثير من الآيات فمثلاً سبحانه وتعالى في سورة النمل ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ [النمل] وقال تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] .

لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هى ، ثم بعثت بخادمك ؛ ليسأل من كانوا فى زيارتك ، وقالوا كل واحد منهم - إن حافظة نقوده لم تضعْ منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هى حافظة نقودى . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل فى الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن يجب أن نصدق أنه الخالق

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسَخَّراً [1] أفلا تتركون له حرية أن يختار رسولاً منكم إليكم ؟ فما وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن . هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون فى ضيق ؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبى طالب [2] .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتى بما جاء على ألسنتهم - ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) مسخراً أى مذللاً ومقهوراً لخدمة الآدميين ، ومنه قوله تعالى - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم] .

(٢) بل بالله المشركون فى هذا ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ، فنزلت ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ... ﴿٢﴾ ﴾ [يونس] نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢)

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا.

فالعداوة هي لرسول الله ، وهي عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذ ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً

إذن : فلماذا لا تعشون أنفسكم في مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذي هاجر وترك عليَّ بن أبي طالب ؛ ليرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتي القول والفعل.

وهنا يقول الحق ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴿٣﴾ ﴾ [يونس]

وفي موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه :﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التي دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما. وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ (١) عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : لا شك عندكم في أن القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون في مسألة

(١) يقصد بالقريتين هنا مكة والطائف واختلفت الأقوال في تحديد هذين الرجلين، فقيل إنهما الوليد ابن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي وقيل إنهما عتبة بن عمرو بن مسعود، وعتبة بن ربيعة. وقيل ابن عبد يالين. والمقصود أنه رجل كبير من أي البلدتين كان. انظر ابن كثير (٤/١٢٧)

أنه جاء على يد محمد ﷺ ، وتميتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه وأنتم في هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا في قسمة الله ورحمته في أن يُنزِل الوحي على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه.

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا في الرحمة العليا من الله في أن يختار رسولاً ؛ ليبلغكم عنه. وتتناسون أنكم في هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة في الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه[1] ، فكيف لكم إذن - أن تطمعوا في تقسيم الأمر العلوي وهو رحمة الله العليا في أن يرسل رسولاً.

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ .

وساعة تسمع كلمة «رب» ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، وبذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول . «فلان رب هذه الأسرة» أي : أنه المتولي تربيتها ، وكلمة «الرب» بمعناها المطلق تنصرف إلى الله[2] ، فهو

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب» أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم في مستدركه (١/ ٢٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال رجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف

(٢) الرب في اللغة يطلق على : المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم والصاحب ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل . وإذا أطلق على غيره أضيف ، فيقال رب كذا، مثل رب الإبل، رب الضيعة انظر لسان العرب.

الخالق الذى خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْم [1]، وهو بهذا الوصف ربٌّ لكل خلقه . المؤمن والكافر ، والصالح والعاصى.

ومادام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذى استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذى يعطى كل مخلوق الرزق الذى كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس [2] الكون وأسبابه أن تعطى له أو لا تعطى ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ، أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطى هذا المخلوق الرزق.

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، يوفر له الحق النجاح فى الأسباب

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار فى أمور الدنيا ، ويتساءلون . لماذا يتقدم الكفار فى أمور الدنيا ونتأخر نحن ؟ أقول لهم . لقد أخذوا من عطاء الربوبية فى الأسباب ، وأنتم لم تأخذوا من عطاء الربوبية. وعليكم أيها المسلمون أن تأخذوا بالأسباب ، وهى عطاء الربوبية ، حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا فى موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقِرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به

إذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمن به . إذن هناك فارق بين

---

(١) العَدَم، والعُدْم، والعُدْم فقدان الشيء وانعدامه وهذه المادة لم ترد فى القرآن، بل جاء بمعناه مثل قوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً (١) ﴾ [الإنسان]

(٢) نواميس الكون . الأسرار التى أودعها الله فى الكون، من قوانين تنظم حركة أجرائه ومكوناته والناموس أيضاً صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره. ومنه الناموس جبريل؛ لأن الله تعالى خصه بالوحى والغيب اللذين لا يطلع عليهما غيره.

عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل فى «افعل» و«لا تفعل» ، وعطاء الربوبية المتمثل فى الأمور المادية وهى شركة بين كل الناس المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

إذن . فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك فى الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة فى أن يفرض عليك ما يخالف دينك .

وهنا يقول الحق سبحانه . ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ... (٣) ﴾ [يونس]

أى . أن الذى ربَّى ، هو الذى كلَّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه .

ثم يقول سبحانه . ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣) ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿ستة أيام﴾ هذه وردت فى كل آيات القرآن التى تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهى فى سورة فصلت

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ (١) وَتَجْعَلُونَ لَهُ

---

(١) «يوم خلق الأرض من جملة الأربعة بعضهم ، والمعنى فى تتمة أربعة أيام ، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجبل والشجر فى الآية وما بعدها ، ويوم الخميس و جمعة لخلق السموات قاله أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣ وانظر ابن كثير (٤/ ٩٣)

أندادًا [1] ذلك رب العالمين ﴿٩﴾ وجعل فيها رواسي [2] من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها [3] في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿١٠﴾ [فصلت]

وهذه ستة أيام

ثم يقول سبحانه: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴿١١﴾ فقضاهن [4] سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]

وهكذا يكون للمجموع ثمانية أيام، وهذا هو الفهم السطحي؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بحصر الخلق في ستة أيام. وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّله إلا العدد؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله، فالأرض خلقها الله في يومين، وجعل فيها رواسي، وبارك فيها، وكل مخلوق إذن هو تتمة للأول، فاليومان الأولان إنما يدخلان في الأربعة الأيام، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين، فصار المجموع ستة أيام.

إذن. فالزمن تتمة الزمن. ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يومًا.

إذن؛ فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها. والسر في ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف في سرعتها عن سرعة الدورة التي

(١) الأنداد: جمع ند، وهو المثيل والنظير والمثل. والأنداد: الأصنام المعبودة من دون الله.

(٢) الرواسي: الجبال الثابتة الراسخة. وقد تحدث رب العزة عن حكمة خلق هذه الجبال فقال سبحانه ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] أي لئلا تتحرك بهم وتضطرب، فلا يصلح لهم عيش عليها.

(٣) الأقوات: جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والمقصود به الرزق مطلقاً.

(٤) قضى الشيء: قضاء: صنعه وقدره. فقضاهن هنا بمعنى: خلقهن وعملهن وصنعهن وطبعهن وأحكم خلقهن.

تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة، ودورته حول الشمس سريعة .

إذن : فكل كائن له نظام.

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم في اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار . ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ... (١٨) ﴾ [سبأ]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة والحساب الفلكي يسمى الليل والنهار يوماً.

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوما للآخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾ [الحج]

ويقول الحق في موضع آخر : ﴿ تَعْرُجُ (١) الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ (٢) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) ﴾ [المعارج]

إذن . فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن

---

(١) تعرج أي تصعد . عرج يعرج عروجاً . وفيه ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج] : المعارج ، المصاعد والدرج . قال قتادة : ذي المعارج أي : ذي الفواضل والنعم . وقيل معارج الملائكة هي مصاعدها التي تصعد وتعرج فيها . وقال الفراء : ذي المعارج من نعت الله ؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك . والقراء كلهم على التاء في قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ (٤) ﴾ [المعارج] إلا ما ذكر عن عبد الله ، وكذلك قرأ الكسائي

(٢) للمفسرين في لفظ الروح في الآية هنا عدة أقوال هي :

١ - جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام (أي : الملائكة المذكورين قبله)

٢ - اسم جنس لأرواح بني آدم ، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء

٣ - خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناساً

كوكب إلى آخر. وما أظهره الله لنا في القرآن من الأرصاد يدل على اختلافها، لا على التعارض والتناقض [1].

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ثم استوى على العرش﴾ ووقف العلماء عند كلمة «استوى» [2] طويلاً، واستعرضوا القرآن كله؛ ليحصروها في كتاب الله؛ فوجدوها قد جاءت في اثنتي عشرة سورة: البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد.

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هي «الأعراف» يقول الحق ﴿الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى [3] الليل النهار يطلبه حثيثا [4] والشمس والقمر والنجوم

---

(١) واليوم الذي كألف سنة: أي كل يوم من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة، ونص عليه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «الرد على الجهمية».
أما اليوم الذي كخمسين ألف سنة ففيه أربعة أقوال:
١ - المراد به مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة.
٢ - مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله آدم العالم إلى قيام الساعة.
٣ - المراد به يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

(٢) سئل الإمام مالك بن أنس: استوى كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقوله عز وجل: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ [القصص] قال أبو منصور: كلام العرب أن المجتمع من الرجال والمستوى الذي تم شبابه وذلك إذا بلغ ثلاثا وعشرين سنة، ويحتمل أن يكون بدوء الأربعين نهاية الاستواء وكمال العقل. [اللسان: مادة (سوا)]

(٣) غشيت الشيء تغشية إذا غطيته، وغشيه الأمر وتغشاه واغتشيه إياه: يعني تعالى ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف] قال الليحياني: وقرئ (يغشى) وقرئ في الأنعال ﴿يغشيكم النعاس..﴾ [الأنعال] و(يغشاكم)، و(يغشيكم)، وغشاه كل شيء ما تغشاه كغشاء القلب والسرج والرحل والسيف ونحوها. وغشيه يغشاه غشيانا إذا جاءه، وغشاه تغشية إذا غطاه. وغشي الشيء إذا لابسه، قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [الليل] وقال: ﴿والشمس إذا يغشاها﴾ [الشمس]. [اللسان: مادة (غشا)]

(٤) حثيثاً: أي مسرعاً حريصاً. ورجل حثيث ومحثوث: حادٌ سريع في أمره كأن نفسه تحثه. والحثُّ: الإعجال في الشيء، وقيل: هو الاستعجال. وحثه وأحثه: أي حضه وشجعه على فعل شيء. [اللسان: مادة (حثث)]

مُسخَّرات [1] بأمره ألا له الخلقُ والأمرُ تبارك اللهُ ربُّ العالمين ﴿٥٤﴾ [الأعراف]

ومادام الله سبحانه هو الذى خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولاً ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذى خلق ، ثم جاء ليفتئت [2] فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذى خلق ، وهو سبحانه الذى أرسل الرسول ﷺ .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق . ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أى : استتب له الأمر

ثم تأتى آية سورة الرعد . ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد]

أما الصفات التى توجد فى البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هى فى البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود. ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

ومعنى هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له علم بأنك تقرأ الآن فى التفسير ، وفى أى مكان تقرأه ، والذين من حولك يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلمُ الله يساوى علمك وعلمَ مَنْ حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو

---

(١) النجوم مسخّرات : جاريات مجاريهنّ ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لنا هو الانتفاع بها فى بلوغ مآربنا ، والاقتداء بها فى مسالكنا ، والتسخير : التذليل. [اللسان : مادة (سخر)]

(٢) يفتئت : يستبد ويكذب

علم أزلىّ [1]، علم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ، لذلك فأنت إذا علمت شيئاً ، وَعَلِمَ الله شيئاً ، فعلم الله يناسبه ، وعلم البشر يناسبك. وأىُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وأىُّ صفة من صفاتك نسبية ؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلى ، وأنت فى هذه الحياة مجرد حدث محدود العمر بين قوى الميلاد والموت.

فالله غنى ، وقد تكون أنت غنياً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك لا يمكن أن يُقاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعله ليس كفعلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كستواتنا ، بل فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأن الذى يُفسد الفهم أن يقال : «استوى» بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل للسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شىء ، والاستواء : يعنى التمكن. وسبحانه القائل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ [2] أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ﴿١٤﴾﴾ [القصص]

إذن : فاستوى : تعنى بلوغ تكوين الكمال فى الذات. والإنسان منا وهو صغير – قبل البلوغ – إنما تنقصه بعض من درجات النضج فى الجهاز العصبى ، وكذلك فى الجهاز التناسلى ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال : (استوى) أى: صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته ويقال عن الثمرة : إنها استوت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح]

أى . نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطى من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها.

---

(١) الأزلُ هو القديم ومنه قولهم هذا شىء أزلىّ ، أى قديم وقيل إن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : لَمْ يَزَلْ ، ثم نُسب إلى هذه لم يستقم إلا بالاختصار ؛ فقالوا يَزَلىّ ، ثم أبدلت الياء ألفاً ، لأنها أخف فقالوا أزلىّ

(٢) المقصود هنا موسى عليه السلام ، أى لما اكتمل تكوينه ، وقيل إن هذا يكون عند سن الأربعين

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق : ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ [1] ... ﴿٤٤﴾﴾ [هود]

أي : استقرت على الجبل واستتب الأمر

إذن : فكل استواء لله يجب أن يؤخذ على أنه استواء يليق بذاته ، وصفاته ، التي قد يوجد في البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

وفعْل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا في حديث الإسراء [2] : إن لكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبي ﷺ في أنه قد أسري به ، قالوا : أتدَّعي أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ [3] وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة .

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين - الذين يدعون المعاصرة والفهم - يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح ؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد ؛ لذلك قالوا : «أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ،

---

(١) الجودي موضع ، وقيل جبل ، قال الزجاج هو جبل بآمد ، وقيل جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام

(٢) أسْرَيت وسَرَيت إذا سرْت ليلاً يقول تعالى ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴿١﴾﴾ [الإسراء] وأسرى بعبده ، سَيَّر عبده ، وأسراه ، وأسرى به بمعنى واحد ويقول تعالى . ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ [الفجر] معنى يَسْرِ : يمضي أو يُسْرَى فيه وقد حدث الإسراء برسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنة ، وقيل بسنة عشر شهراً

(٣) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس عند ذلك الأمرُ بيِّن ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ (سيرة النبي لابن هشام ٢/ ٤) والإمرُ : هو الشيء العظيم العجيب المنكر

وتدّعى أنك أتيتها في ليلة ؟» بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس في رؤيا أو حُلم [1] ؛ لأنه لا أحد يكذّب رؤيا أو حُلماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة

ونقول لمن يدّعي أن الإسراء إنما تَمّ بالروح : افهم جيّداً أن رسول الله ﷺ قال : «أسري بي».

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، فلا تأخذ الإسراء بالقانون البشري ، ولكن بالقانون الإلهي.

والزمن في مسألة الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد ﷺ والقرآن يقول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴿١﴾﴾ [الإسراء]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أي أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا في بال البشر من المسافات والقوة وغيرها.

ولقد ضربنا مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل « إفرست » ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل

وهكذا ولله المثل الأعلى - فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد ﷺ .

ونحن في مجالنا البشري تختلف قدراتنا في قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية في

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال «لما كذبني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر ، فجلا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٧٧) ، والبخاري في صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠) بوصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس باباً باباً وبافذة بافذة وأعمدته والطريق إليه. وهذا لا يمنع أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل

أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها في ساعتين . ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها في نصف ساعة

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالك بقوة القوىّ ؛ أيكون معها زمن؟ طبعاً لا .

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح . ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ [1] . ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون]

أى . بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأنت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها.

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ... ﴿٣﴾﴾ [يونس]

يعنى . أن الأمور قد استتبت وتمت . وهكذا نفهم أن كل شيء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه في إطار : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

وأن كل صفة من صفاته يأتى تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطى حقيقة المعنى ؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر .

والشاعر أبو تمام [2] حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التي اشتهر بها بعض القوم ، «فحاتم» على سبيل المثال كان قمة الكرم.

---

(١) الفُلك السفينة ، تُذكّر وتؤنث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع. قال تعالى ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء] ، وقال ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر] ، وقال ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة] وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ... ﴿٢٢﴾﴾ [يونس]

(٢) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صيرفياً لخالد توفى (٢٣١ هـ) عن ٥١ عاماً

و«عنترة» [1] هو قمة الشجاعة ، و«الأحنف بن قيس» [2] قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إقدامُ [3] عَمْرٍو في سَمَاحَةِ حاتِمٍ في حِلْمِ أَحْنَفَ في ذكاءِ إيَاسِ

وهكذا صار الخليفة مجمع فضائل ، لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ، وذكاء إياس ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار . وقال أحد الشعراء :

وشبيهه امتدَّاح في البأس [4] والنَّدى [5] بمنْ لو رآهُ كان أصغرَ خادمِ

ففي جَيْشِهِ خمسُونَ ألفاً كعَنْتَرٍ وفي خَزَائِنِهِ ألفُ ألفِ حاتِمِ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى «سينية» ، أي: أن آخر حرف في كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى ، وقال:

لا تُنكِروا ضَرْبِي له مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً [6] في النَّدَى والباسِ [7]

فالله قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لنورِهِ مثلاً من المِشْكَاةِ [8] والنَّبراسِ [9]

---

(١) هو عنترة بن شداد ، أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، من أهل نجد ، أمه حبشية اسمها زبيبة . توفي نحو ٢٢ قبل الهجرة

(٢) هو الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، يضرب به المثل في الحلم ، ولد في البصرة (٣ ق هـ) وأدرك زمن النبي ولم يره ، توفي بالكوفة (٧٢ هـ) عن ٧٥ عاماً

(٣) الإقدام . هو المضيّ إلى الأعداء بجرأة وشجاعة .

(٤) البأس . الشدة في الحرب ورجل شديد البأس . شجيع

(٥) الندى . السخاء والكرم والجود

(٦) مثلاً شروداً خارجاً عن المألوف والعادة

(٧) الباس هو البأس حذفت همزتها لضرورة الشعر

(٨) المشكاة . كوة في جدار البيت ليست بنافذة ويعرف في قرانا بـ«الطاقة» ، مع نطق الطاء همزة .

(٩) النبراس : المصباح والسراج والشاعر هنا يقصد قوله تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة .. (٣٥)﴾ [النور]

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ...(٣٥)﴾ [النور]

فهذا مثل توضيحي للبشر. وشاء الحق ذلك ليعطيك مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك. ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول عن الجنة : « فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر[1] على قلب بَشَر »[2].

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود وحين تسمع فأنت تسمع مرئي غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول في وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال ؛ لأنه ﷺ علم أن اللغة هي ألفاظ تعبر عن معان ، والمعاني توجد أولاً ثم يأتي لها بالألفاظ ، ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيح باللغة

وهكذا نكون قد استوفينا فهم قوله الحق . ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا تأخذ الاستواء على المعنى الذي يدل على مكان محيِّز ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً في مكان ؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات

---

(١) خطر : الخاطر : ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر ، والخاطر : الهاجس ويقال : خطر ببالي وعلى بالي كذا إذا وقع ذلك في دلك وهمك ، والجمع : خواطر

(٢) عن سهل بن سعد الساعدي قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون (١٦) فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (١٧)﴾ [السجدة] أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبي حازم عن سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبي حازم به وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي

ثم يقول بعد ذلك . ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شيء موضوعاً في مكانه بحكمة والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هي التي تضع كل شيء في مكانه بحكمة وصفة الإرادة هي التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه. وصفة القدرة تبرز المراد لله

إذن فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم ومن المنطقي أن يدبر الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق السموات وخلق الأرض. واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يسري بـ «كن». وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدبر سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه

أما أمور الماديات فقد ظهرت في خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء. وما في الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه في قوام حياته ، وهو سبحانه الذي خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون خليفه والسيد.

إذن . فالإنسان هو الذي طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزِّل الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة في هذه الأمور المادية

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لايُحسب في نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد ؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام]

---

(١) قوله سبحانه ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين اجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون (١٢٤)﴾ [الأنعام] جاء رداً على من قال الله سبحانه فيهم ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله . ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام]

إذن : فقوله : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ جاء ليؤكد نَفْي التعجب من أن يكون الوحي لمحمد ﷺ : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ﴿٢﴾﴾ [يونس]

وعلتنا أن الله هو ربكم وهو الذي خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق. وإذا كان هو سبحانه الذي خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون ؛ لذلك اختار الرسول المناسب ؛ ليحمل منهج القيم للإنسان في «افعل كذا» و«لا تفعل كذا». ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهي من المباحات.

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذي قال الله فيه «افعل» قليل ، والذي قال الله فيه «لا تفعل» قليل ؛ ولذلك نجد المباحات أكثر من «افعل» وأكثر من «لا تفعل»[1].

ومع دوام سبحانه هو الذي شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله ؛ لأن الكون المدين المخلوق لله في غاية الدقة وفي غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطي ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطي نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أي غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شيء داخل في نطاق القدرة في النواميس العليا ؛ مُحكم ؛ ولا خلل فيه[2].

---

(١) إنك تجد أن المحرمات منصوص عليها في القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] ولذلك يعارف الفقهاء على قاعدة فقهية هي الأصل في الأشياء الإباحة.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب» أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم في مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبي وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف.

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشيء الذي لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشيء الذي للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعني ذلك أن كل أعمال الإنسان تعاني من الخلل ، لكن الأعمال التي تعاني من الخلل هي الأعمال التي يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله ولو احترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها، كما استقامت لنا نواميس الكون العليا [1]

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذي لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل عناية في الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بعناية الدقة ؛ فحذوا منهج الله في الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله.

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً في الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حداً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعاني من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله.

ويخطىء مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع في المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة في ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج . فكل هذه هي رءوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْقَ منهج الله ، فالصلاة هي إعلان الولاء لله خمس مرات في اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ،

---

(١) قال سبحانه وتعالى ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٤١)﴾ [الروم] والفساد هنا قد يكون النقص في الزروع والثمار على البر وأخذ السمن عصباً في البحر فيه كان يعرف بأعمال المعصية ، وقد يكون خللاً يحدث في البيئة

والزكاة إنما هي من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد.

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر. ولنأخذ الصلاة مثلاً فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقي حياتك ؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلي!

إذن فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطعم ما لم يكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه لأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث.

إذن ، فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهكذا تجد أن كل الأعمال التي تُسهِّل لك العبادة هي أعمال واجبة. والمثال . أنك حين تصلي تحتاج إلى سَتْر عورتك ؛ لذلك تشتري القماش ليُفصَّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التي تنتج القماش وتصنع الثياب هي أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو النيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك. وهكذا تجد أن كل الأعمال التي يتم الواجب بها هي أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر شرعي ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدي إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح

والمثال الذي أضربه دائماً هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ،

والغُسْل من الجنابة[1] وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً ؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذى ملأ النهر ، وأعليْتَ الماء فى حزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق[2] ومصحات المياه ؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه . وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادى ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق فى أى قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام[3] التى يرغب فى بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شىء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه وهكذا ألقى الله الخواطر فى قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشترى ما يحتاجه من إنتاج غيره .

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب فى بيع أرضه وقصره ، ويرغب فى الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادى الإلهى ، الذى يوزع العباد فى الأماكن التى تليق بكل واحد

---

(١) الجنابة : بزال الرجل ماءه من جماع أو نوم ، وسُمِّى الرجل جُنُبًا لأنه يجتنب الصلاة والقراءة حال جنابته ويجب عليه الاغتسال غسل جنابته وله كيفية ذكرتها سنة رسول الله ﷺ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يُفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يأخذ الماء ، فيدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات ، ثم أفاض على سائر جسده ، ثم غسل رجليه» أخرجه مسلم فى صحيحه (٣١٦) والبخارى فى صحيحه (٢٤٨) بنحوه .

(٢) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد [المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية]

(٣) الأنعام هى الإبل والبقر والغنم ومثلها المعز ، ومعنى المشية النماء والماشية أى التى تنمو وتكثر ، وقد ورد الأنعام وجه به القرآن ٤٢ مرة ، بل نزلت سورة باسمها وهى سورة الأنعام

منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة في مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه . وهذا هو التدبير الإلهي على أحسن ما يكون

وقد تجد - مثلاً - الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تصر به على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً في الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالعمل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه مسألة تتعلق بالجهاز العصبي للإنسان ، فهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى [1] ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر - رضي الله عنه - وكان «أصيبط» [2] أي . يعمل بيديه الاثنين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق . فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين . وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قد أنزل المنهج

---

(١) المقصود به هنا من خُلق هكذا لا يستطيع أن يستخدم يمينه ، أما الذي يستطيع استخدام يده اليمنى ولكنه يأكل أو يشرب أو يرتدي بشماله ويعطيها على اليمنى فقد خالف استحباب استخدام اليد اليمنى لذي وردت به سنة رسول الله ﷺ ، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢٠) وأحمد في مسنده (٢/٣٣٢٨)

وعن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال : «كل بيمينك» قال لا أستطيع قال لا استطعت ما منعه إلا الكبر قال فما رفعها إلى فيه . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢١) فهذا الرجل استكف أن يطيع رسول الله ﷺ في مثل هذا الأمر لا أن عنده عسراً خلقياً أو شرعياً يمنعه ، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ ، فشُلّت يده

(٢) الأصيبط : هو الذي يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه . ذكره ابن منظور في لسان العرب (مادة : صبط)

ليُحسِّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل ذلك يدخل ضِمْن تدبير الأمر .

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة «أمر» تجد أنها كل شيء يمشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول «شيء» إلى قول «أمر» ؟ ؛ لأن كل شيء لا يوجد في الوجود إلا بـ «كن» وهي أمر وسبحانه القائل :﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها .

وإذا ما سأل سائل : ولماذا أتَّبع المنهج؟ أقول إن الحق شاء أن يحقق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية [1] قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى ؛ أنت مقهور في التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم ؟

إذن : فمن رحمة سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية في المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ، كأن تشتري من البائع الفلاني ، أو بائع غيره ، وأنت مُخيَّر في أن تختار أصناف الطعام التي تهواها .

---

(١) الإرغام : حملك على ما لا يقدر أن يمتنع عنه . والرَّغْم : القسر والإجبار .

والمباحات في الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية في الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى بـ«افعل» و«لا تفعل» ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذي تحيا فيه . وإنْ مارسْت أيها الإنسان حريتك في الأمور المباحة على أي لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون .

وقد شاء الحق سبحانه - أيضًا - أن تكون مقهوراً في بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت حُرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى في الأمور المباحة ؛ فلا مانع لذلك . وكل البشر يختلفون .

وأراد سبحانه أن يحمي الإنسان والكون ؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : ﴿ ولو اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ [1] لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ...(٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به [2] ، فسبحانه يحكم في مُلْكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلي أو الجزئي

---

(١) هوى النفس : إرادتها ، والجمع : أهواء ، والهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه ، قال تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى (٤٠) ﴾ [النازعات] أي : نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من المعاصي ، ومتى تُكُلِّم بالهَوَى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنْعت بما يُخرج معناه ، كقولهم : هوًى حسنٌ ، وهوًى موافقٌ للصواب .

(٢) نواميس الكون : أسراره ، والناموس في اللغة : صاحب سر الملك أو الرجل الذي يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره .

للشمس أو القمر [1] بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون.

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله، فخذوا منهج الله في حياتكم؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون.

ولذلك قال سبحانه: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ... (٣) ﴾ [يونس]

ويضيف: ﴿ما من شفيع [2] إلاَّ من بعد إذنه﴾ وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله ﷺ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله، مصداقاً لقوله الحق: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ. (١٨)﴾ [يونس]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة. فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير في أمر ما. والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه، وما لا ينفعهم إن عبدوه، وأقروا أن مثل هذه الأصنام إنما تشفع لهم، والشفاعة من الشفع، والشفع ضد الوتر. والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين، فيكون الوتر رقماً فرديّاً [3].

---

(١) الكسوف: احتجاب نور الشمس، أو نقصانه؛ بوقوع القمر بينها وبين الأرض. وهو للشمس كالخسوف للقمر.

(٢) شفيع: صيغة مبالغة من (شافع) وهو الذي يشفع أي يطلب العفو لشخص آخر، والشافع: الطالب لغيره. والجمع: شفعاء. قال تعالى: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها (٨٥)﴾ [النساء]

(٣) الشفع: خلاف الوتر، وهو الزوج. تقول: كان وتراً فشفعته شفعاً. وشَفَعَ الوتر من العدد شفعاً أي صيره زوجاً. والشفيع من الأعداد: ما كان زوجاً. تقول: كان وتراً فشفعته بآخر. قال تعالى: ﴿والشفع والوتر (٣)﴾ [الفجر]. قال الأسود بن يزيد: الشفع هو يوم الأضحى والوتر يوم عرفة. وقال عطاء: الوتر هو الله، والشفع خلقه. وقال ابن عباس: الوتر آدم شُفِع بزوجته. وقيل في الشفع والوتر: إن الأعداد كلها شفع ووتر.

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذى يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتى بآخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد [1] لفرد بواحد آخر ؛ لينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً

وكان الكفار على عهد رسول الله ﷺ يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ . ﴿٣﴾﴾ [يونس]

لأن الشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة. والذى يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب.

إذن . فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر فى الشفع ، والأمر فى المشفوع له ، فهما مختلفان. وأنت - على سبيل المثال ؛ لا تأتى بإنسان يسير فى طريق وتوسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كنت لك حاجة عند أى منهما ، بل تأتى بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن فى أن يكلِّم المحافظ أو الوزير فى أمور الناس.

وإذا كان هذا هو الحال فى الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا

---

(١) الاعتضاد : التقوّى و الاستعانة ، واعتضدت بفلان : استعنت به ، والمعاضدة : المعاونة ، وهى مأخوذة من العضد ، وهو الساعد ، أى ما بين المرفق إلى الكتف ، والعضد : القوة ؛ لأن الإنسان إنما يقوى بعضده ، سميت القوة به ، قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص].

بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه ﴿ما من شفيعٍ إلاَّ من بعدِ إذنِه ... (٣)﴾ [يونس]

وفي سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ من ذا الَّذي يشفعُ عندهُ إلاَّ بإذنِه (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تنفعُ الشَّفاعةُ إلاَّ منْ أذن لهُ الرَّحْمنُ ورَضِيَ لهُ قولاً (١٠٩)﴾ [طه]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضًا من الله

أما المشفوع له فقد قال الحق

﴿ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لمنِ ارْتَضى . (٢٨)﴾ [الأنبياء]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهي معروفة.

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضي عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة، وله نقاط ضعف في حياته؛ قد تكون كثيرة، وقد تكون قليلة، فإذا جاء في نقطة الضعف وأذنب ذنباً، فعليه أن يزيد من فعل النقاط القوية التي تُكتب له بها الحسنات؛ لأن المعيار هو : ﴿إنَّ الْحَسَنَاتِ (١) يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... (١١٤)﴾ [هود]

---

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن الحسنات هنا بمعناها المطلق أي : فعل الخير مطلقاً ، وذهب بعضهم إلى أن الحسنات هنا المقصود بها الصلوات الخمس ، واستدلوا بحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٨) ومسلم (٢٨٣)

فابعد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت [1] الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا لإتقان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له في الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرَمُ العالم من الحسنات التي يجيدها ذلك الإنسان . ويحكي لنا الحديث النبوي الشريف عن الرجل الذي لقي كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقي الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه [2] ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل ليناقش الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله ؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل [3]

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له ﷺ ، وكذلك في المأذون له في الشفاعة ،

---

(١) ملكوت الله : سبحانه وعظمته . والملكوت : ملك الله خاصة ، قال تعالى ﴿بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ [المؤمنون] قال أبو إسحاق : ملكوت كل شيء معناه : القدرة على كل شيء .

(٢) الخف : النعل يلبسه الإنسان في قدمه .

(٣) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقي الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٤٤) ومسلم في صحيحه (٥٩٠٩) .

حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه [1] ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحس إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحس اتباع سنة الرسول ﷺ ، ويحس معاملة المؤمنين ، ويحس الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع في كرامة الشفاعة بعمل الخير وإخلاص النية

وإذا رأيت إنساناً محسناً في دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه في دينه قد ينفعك أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة يقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [2] [الفاتحة]

وكان الحق سبحانه قادراً أن يقولها « إياك أعبد وإياك أستعين » ولكنه شاء أن تأتي على صورتها تلك ؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل فائتيها ، فيتقبل من عباده أعمالهم مما يعمر لبعضهم الأشياء المعية .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً في العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة واشتغاله بالعبادة قد ينفعك أنت

وساعة تتقي أمراً من رسول الله ﷺ وتجده شاقاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذي قد يشفع لك في الأمور التي لم تقدر عليها

---

(١) هذه الشفاعة مقيدة بألا تكون في حد من حدود الله ، وهذا ما دلت عليه السنة الصحيحة ، ففي عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتى به رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول الله ، الحديث . أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٨٨) والبخاري في صحيحه (٦٧٨٨)

(٢) مراد الشيخ أن العبادة أولاً ثم يأتي العون ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ودع هاجر وإسماعيل إلى البيت الحرام قال ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم] فالعبادة سبقت ، والعبادة وسيلة المعجزات والشفاعات وبالعبادة يأتي العون

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات ، وقد كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر في رؤيا ، فسأل الرائي سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا فعل الله بك يا بن الخطاب ؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لي . فسأل الرائي : بماذ ؟ أجاب سيدنا عمر : لأني رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه في عصفور يملكه ، وأحدث العصفور وأطلقته

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل بن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور لم تخص عمر لخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهي لرفع الدرجات .

وفي القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ[1] ... ﴿١٨﴾﴾ [البقرة]

والآية الثانية تقول : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ... ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن في القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة[2] لبيان لتي يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها ، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر في الآيتين محتمل

(١) عدل : فداء أو بدل
(٢) الملكة : صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل الملكة اللغوية

لوجهين ، فهناك نفس جازية هى التى تتشفع ونفس مجزىٌ عنها هى التى يُتشفع لها

والضمير الذى يأتى فى قوله الحق ﴿ولا يُقبل منها﴾ و ﴿ولا يُؤخذ منها﴾ و ﴿ولا تنفعها﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان ما إذ ما كان عليه شىء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرىء ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له ومرور أن يذهب صاحب المكانة إلى هذا الآخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتى فلان ؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : بدن سأدفع العدل، أى : ما يساوى قيمة ما كنت سأتشفع له فيه وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أى من النفسين.

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما مسجم مع عجزها .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول . ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره فى كونه نافذة .

وقوله سبحانه ﴿ ذَٰلِكُمُ﴾ أى : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ،

ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه ؛ لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأي فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا في ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً [1] . والعبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى اتوجُّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف [2] الإنسان من أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة في أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هي الدعائم التي تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهي له سبحانه ؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

---

(١) عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد في مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧)

(٢) يأنف : يكره .

ويقول الحق في آخر الآية: ﴿ أفلا تذكَّرُون ﴾ والذهن أو المخ كما نسميه فيه ملكات متعددة مثل: ملكة التخيُّل، وملكة الحفظ والاختزان، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلَكَةُ التذكُّر ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إلْفٌ[1] به، فطرأ عليك ما أنساك، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك، فهو يقول لك: تذكر يا أخي الأمر الفلاني، وهو لا يأتي لك بأمرٍ مجهول لم تعرفه أولاً، بل يأتي لك بأمر كان معلوماً لك، ولكنك نسيته

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيرة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً، وهذا الأمر لا تأخذه من الفلاسفة، بل من رجل الشارع، وراعي الشاة؛ فقد جاء في الأثر أن راعياً كان يسير في الصحراء فرأى بَعْراً[2] في الطريق، فقال: إذا كان البعر يدل على البعير، والسير يدل على المسير، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير؟!

والمثال من حياتنا اليومية: أن غسّالة الملابس الكهربيه - وهي لا تدل على شيء ضروري في الحياة، بدليل أن السابقين عليك كانوا يغسلون ملابسهم بدونها، فهي تمثل ترفاً، لا ضرورة - نجد الناس يعرفون من الذي ابتكرها، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل، ومثلها مثل المصباح الكهربي الذي يفسد بعد عدد معيّن من الساعات، ونجد التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التي تضيء الكون؟

---

(١) ألِفْتُ الشيء وألفتُه: لزمته، أو أنست به، أو اعتدته، فهو مألوف. قال تعالى: ﴿ لإيلاف قريش (١) ﴾ [قريش].

(٢) البَعْرة: واحدة البعر، وهو رجيع الخُفّ، والظلف من البعير.

بل ونجد في زماننا العالم الكافر وهو يمدُّ بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله ؛ حتى لا يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التي تضيء وتُدْفيء ، والقمر الذي يحدد الشهور ، والنجوم التي تدل الناس على الاتجاهات [1] ولا شيء في كون الله يحتاج إلى قطع غيار ، ألا نعرف بمن خلق كل ذلك ، ما هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكيته ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول ﷺ ليدلنا على أنه سبحانه الذي خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق . وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه ، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك .

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة « الكفر » نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعني : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارىء ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتي لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس في حركتها ؛ لذلك قد يعمل الإنسان متأسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس

فحين يُحرِّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

---

(1) مثلا الله سبحانه الكون بدلائل ربوبيته ووحدانيته وأنه الخالق سبحانه وهو البديع الذي أبدع الأشياء على غير مثال سابق ، وجعلها سبحانه ظاهرة للأعين

منها الشمس التي قال عنها سبحانه ﴿وجعل سراجا وقمرا منيرا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ] وقال عنها وعن القمر ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل ﴿٥﴾﴾ [يونس] وعن النجوم قال سبحانه ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام]

وحين يأمرك بغض بصرك [1] عن محارم جارك ، فهو يحمي محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول [2] : ﴿اذْكُرُوا ..﴿٣﴾﴾ . [فاطر]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدي إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يأت صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . ونجد أن الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، ونسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه في الكون مرة واحدة . لذلك جاء الرسل بالمعجزات التي تخرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذي خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ، بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية في الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التي يصممها البشر في بعض المعدات تتسبب في إحداث جمود ، فالعقل الإلكتروني ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يحفي منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يحفي ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿٣١﴾﴾ [النور]

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾[فاطر] ، فالنعمة موجودة أوجدها الخالق سبحانه في الكون ، وعرَّف الإنسان على الكون، ولكنه تعامل فاحتاج إلى التذكرة من خالقه

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا [1] الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

فما دام قبل للإنسان لا تكتم الحق إذن : فيه قدرة على الإخفاء

والوردة الطبيعية - على سبيل المثال - حيويتها في ذبولها على عكس الوردة الصناعية التي تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

أو ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى محل للصوف لتشترى قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقى ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه في أن الإنسان متى ، إن فعل ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

---

(١) التبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . التلبيس : كالتدليس والتخليط . إلباس الحق بالباطل : خلطه به ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام]

وإياكم أن تظنوا أن الله خلق لكم ، ثم خلق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم في الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شيء ، ولا أحد يقادر على أن يحتبس منه شيئا.

وفي الحديث القدسي . « يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلِم جعلتموني أهون الناظرين إليكم ».

وأنت في الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوي منتبه

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ (١) وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذي قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله (٢).

---

(١) حميم : ماء شديد الحرارة والسخونة.

(٢) وقد دلَّ القرآن على أن المؤمنين رغم طاعتهم لله إلا أنك تجدهم مشفقين من يوم القيامة وما فيه من أهوال وهذا لعظم إيمانهم بأن الله سريع الحساب وأنه سبحانه شديد العقاب ؛ ولأنهم يعملون الطاعات ويخافون ألا تقبل ، ويقعون في المعاصي ويخشون ألا يُغفر لهم . يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ونجد القرآن يقول مرة : ﴿يُرْجَعُونَ﴾ ومرة يقول : ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [1] ، فمن عمل صالحاً ، فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكفر ، فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ [2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ . [الطور]

وقوله سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴿٤﴾﴾ . [يونس]

وسُمِّي هذا المرجع في نفس الآية . ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .. ﴿٤﴾﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: ولكن الوعد يطلق على الأمر الذي سيأتي بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصي لن يرى في الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصي وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره في المستقبل ، ويحفزه ، وتترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعْداً والصيغة التي يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهي تعني تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾﴾ . [الفاتحة]

إذن فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصي أن يراجع نفسه قبل أن

---

(١) ورد قوله تعالى ﴿يُرْجَعُونَ﴾ في ستة مواضع من القرآن الكريم في آل عمران (٨٣) والأنعام (٣٦) ومريم (٤٠) والزمر (٤٤) والقصص (٣٩) وغافر (٧٧) .
* أما قوله سبحانه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فقد وردت ستة عشر مرة : [البقرة ١٨] ، [آل عمران ، ٧٢] ، [الأعراف ١٦٨ ، ١٧٤] ، [يوسف ٦٢] ، [الأنبياء ٥٨ ، ٩٥] ، [النمل ٢٨] ، [الروم ٤١] ، [السجدة ٢١] ، [يس ، ٣١ ، ٥٠ ، ٦٧] ، [الزخرف ٢٨ ، ٤٨] ، [الأحقاف ٢٧]

(٢) يدعّون يدفعون دفعاً عنيفاً والدَّعّ الطرد والدفع قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون] .

يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكروا طوال العام ، فالذى يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان ؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذى لا يذاكر قد يرجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً.

ويصف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصِفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بأن الحق هو الشىء الثابت ؛ فإن خُيِّل إليك فى بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة.

وسبحانه يقول:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا [1] رَّابِيًا [2] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [3] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ . [الرعد]

فحين ينزل المطر نجد كل واد يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القش يطفو ومعه الحشائش والأشياء التى لا فائدة منها ؛ لأن الماء فى لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذى ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة.

---

(١) الزَّبَد: هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه. وبحر مُزْبِد، أى: مائج يقذف بالزَّبَد. وزبد الماء: طفارته وقذاه. والجمع: أزباد.

(٢) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون على سطح الماء.

(٣) جفاء السيل: هو ما يقذفه من الزَّبَد والوَسَخ ونحوهما.

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يرعزع الحق الذى يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذى ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذى لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التى يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً

إذن : فالألم كالباطل ينبه جنود الحق ؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أى عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ فى الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ؛ للدفاع عن الإسلام .

وفى الأمراض التى تنتقل بعض الفيروسات ، تجد الأطباء وهم يُطَعِّمون الناس من نفس ميكروبات أو فيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن فالباطل جندى من جنود الحق ، كما أن الألم جندى من جنود العافية.

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ [1] جَمِيعًا ﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة ؛ لأنه القائل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء]

ولأنه أقوى مما خلق ، ومِمَّنْ خلق. ولا تخونه إمكاناته ؛ لأنه يملك الكون كله .

وكلمة «الرجوع» فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد أن تكون

---

(١) مادة رجع من باب ضرب يرجع رجوعا ، ورجع عاد إلى مكان منه قد بدأ ، فهو هنا لازم ، ورجعه غيره أعاده ورده متعد بنفسه ، ورجع بصره رده مرة بعد مرة فمن اللازم قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ .. ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] أى عاد ، ومن المتعدى ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة] أى أعادك ورده ، ومن المعنوى قوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك] - القاموس القويم ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

على شيء ثم تفارق هذا الشيء وبعد ذلك يرجع له ، فهي وجود أولاً ، ثم خروج عن الوجود ، ثم عودة إلى الوجود الأول . فإذا كنت في مكان ، ثم ذهبت إلى مكان آخر ، وترجع إلى المكان الأول ، فهذا هو الرجوع.

والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن - ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾. [ق]

كأنهم قد استبعدوا فكرة البعث ، وقالوا أيضاً : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا [1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، ﴿١٠﴾﴾ . [السجدة]

أي . أنهم تساءلوا : هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان [2] إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور [3] ؟

وجاء هنا قوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ليعيد أن الخروج إلى الوجود بالميلاد إلى الحياة ، ثم بعد ذلك خروج على

---

(١) ضللنا في الأرض أي ذهب أثرنا في الأرض وتحللنا بسبب تحلل أجسامنا .

(٢) الجثمان : الجسد قال تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾[هود] أي أجساداً ممتدة على الأرض

(٣) النشور : بَعْث الموتى يوم القيامة قال تعالى . ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾[عبس] أي : أحياه وبعثه وقال ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك] ومنه يوم النشور يوم القيامة

وقضية البعث والنشور إحدى أربع قضايا رئيسية كان الكافرون ينكرونها، ويحكي عنهم القرآن قولهم - ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء] ويقول سبحانه ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس] .

الحياة إلى مقبلها وهو الموت ، ومن بعد ذلك البعث.

وقد وقف الكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبيّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأمنتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر [1] ؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .. ﴿٤﴾﴾ [يونس]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك ؟ يأتي القول الحق : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق من عدم ، أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ . [مريم]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول :

﴿أَفَعَيِينَا [2] بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ [3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم وصوّر صفاتكم ، فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ .

---

(١) وفي هذا يقول سبحانه وتعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] قال ابن زيد ومجاهد : أيظن بنو آدم أنه يخلق سدى فلا يؤمر ولا ينهى ، وقيل أيحسب الإنسان أن يُترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث ذكره القرطبي في تفسيره (١٠ / ٧١٥٢) .

(٢) عَيِيَ الإنسان بالأمر عجز عنه

(٣) اللبس اختلاط الأمر ، والشك

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة [1] ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال .

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ... ۝٥﴾ [الحج]

أي : أرضاً ميتة وليس فيها أي حياة.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ [2] وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج]

إذن فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة. والحياة التي تراها أمامك ليست إلا دورة ؛ لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر.

وخذ مادة واحدة وهي المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد في حياته أيّ قدر من المياه ، تظل المياه كما هي ؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه.

إذن فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذي يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يبخر الماء ، وعملية التبخير هي

---

(١) قامت ضجة الفلاسفة على شبهات وافتراضات نشأت في عقولهم من استحالة البعث بعد الموت وأعطوا أمثلة ظنّوه تؤيد فكرهم السقيم منها من أكلته أسماك وحيوانات البحر أو أكله أسد أو وحوش مفترسة، وهي شبهات تقوم على أساس ما ذكره فضيلة الشيخ صفحة ٥٧١٤ عن مذهب الفلاسفة من أن الله قد خلق الكون ثم ترك عناصره تتفاعل بقوانينها الذاتية، أي - أن الله ليست له قيومية على كونه وقد رد القرآن على هذه الشبهات بوضوح بقول الله سبحانه عن خلق الله هذا الكون وقيوميته عليه وعلمه الذي يسع كل جزئيات الكون فلا تغيب عنه مثقال ذرة وهو سبحانه القادر الذي لا يخرج عن قدرته شيء وما دام الله قد خلق الكون من عدم، فإن إعادته بعد فنائه أهون عليه سبحانه، ويقول عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۝٢٧﴾ [الروم] ويقول تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة]

(٢) ربتْ : عظمت وانتفخت وزادت.

تقطير [1] للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها [2] لتعود مياهاً من جديد.

إذن فالماء له دورة ، تروى منه الزرع ، فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الزائد عن حاجته في عملية النتح [3] ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتبخر ، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخير هذه.

وأنت حين تُحضِّر كوباً من الماء المطر في الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث في الكون ملايين المرات ، ولا يدري بها أحد.

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطرة. ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقي (اليابسة) ؛ لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذي يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف.

مثلما تجيء أنت بكوب ماء ، وتضعه في حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إليها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد أن اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البحر

---

(١) التقطير : تنقية الماء وتصفيته مما قد يعلق به من مواد غريبة ضارة.
والتقطير : تحويل السائل إلى بخار بالحرارة ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان وذلك بجهاز التقطير (المعجم الوسيط)
والبخار : كل ما يصعد كالدخان من السوائل الحارة (المعجم الوسيط) وتبخير الماء : تسخينه حتى يتحول إلى حالته الغازية ويتصاعد على هيئة بخار

(٢) التكثيف : هو تعريض بخار الماء إلى سطح بارد لينكثف عليه ويبرد فيعود إلى حالته السائلة [بواسطة جهاز التقطير].

(٣) نتح : رشح ، يقال : نتح العرق من الجلد ، ونتح الإناء ما فيه ونتحه الحر ، ونتح الماء من النبات نتحه أي : خرج منه الماء الزائد عن حاجته [المعجم الوسيط (بتصرف)].

إذن ؛ الكمية التي خلقها الله من المياه كما هي ، لم تَزِدْ ولم تنقص ، تدور الدورة التي شاءها الحق ، وهكذا نرى أن الشيء يعود إلى أصله مرة أخرى ، ويمكن أن نرى ذلك في كل أوجه الحياة ، والحق سبحانه يقول

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (١) ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ ﴾. [الذاريات]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التي تحمل السحاب ، وتمطر كل سحابة على الموقع المحدَّد لها بأمر من الله ، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء ، الذي هو قوام الحياة ، بأن الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً.

تأمّل الوردة ، تجد لها نعومة ومصارة ؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية ، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح ، فإذا قصفتها تتساقط أوراقها وتجف ؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر ؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى ، وكذلك الرائحة تظل في أوراقها الذابلة إلى أن تنتهي ، وكذلك اللون ، ثم تخرج وردة جديدة.

إذن حياة كل كائن في الوجود والعالم في حركته ناشئة عن هذه الدورة ، فإذا كانت مائية حياتكم تدور ؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكوناتك ؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات ؛ بخروج الروح من الجسد ويُوارى الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض

(١) الذاريات الرياح ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه ذروا أطارته وأذهبته. قال تعالى ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ [الكهف] والحاملات وقرا : السحاب والجاريات يسرا السفن ، والمقسمات أمرا الملائكة وقد ثبت عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سمع سفيرا للكوفة ، فقال لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم عنها. فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① ﴾ قال علي رضي الله عنه الريح قال ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② ﴾ قال : السحاب قال ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ ﴾ قال السفن ، قال ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ ﴾ قال رضي الله عنه. الملائكة. [ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٢٣١]

لتصير تراباً ، فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز .

الحياة - إذن - احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء .

واقرأ القرآن بتبصر تجد قوله الحق :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق]

وهكذا يبيّن لنا الحق أن العناصر كلها موجودة في الكون ، قد تزيد في مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلي لكل العنصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوّن الكائنات [1] ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة في عددها ، فالزيادة في عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكَمّ لكل عنصر .

وقال العلماء : إن الستة عشر عنصراً هي : الأوكسوجين ، والكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين ، والمغنسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، وغيرها

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل .

هكذا يصدق قول الحق :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ . ﴿٤﴾ ﴾ [ق]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا : هب أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض . ألا تذهب عناصره إلى

(١) كل كشف هو من أسرار غيبه سبحانه ، وله ساعة ميلاد يتجلى بها الخالق على كل من يتعامل مع الكون بحثاً وتأملاً وانتفاعاً . وما دام القرآن خالداً فمدد الكشف سيظل وارداً ، وفي ورده انتفاع نحو المراد بقول الحق ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف]

كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أوغير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت في أجزائه ، إذن: فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات في إنسان اخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد ؟

وتقول. أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء. انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة في الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد في الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس . فهل هذا يغيِّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين الشخصيات وبين تكوين الشخصيات من العناصر .

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التي في الأرض تكفي كل الكائنات ، ويورعها سبحانه بالسبب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت في كيفية تكوين الكائنات .

مثال ذلك: أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هي القاعدة التي يريد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة .

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوي - في الكمية - ما يأكل ويشرب لَمَا كبر . ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوي

ما يدخل إليه ، ثم تأتي الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعني أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ فتنشأ النحافة .

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً [1] استطاع أن يعلم الداء الذي يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته [2] ومعها ما فُقد من الوزن ، وتتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء

إذن فلا تقل . إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتي بعناصر معينة ، ويأمرها بـ «كن» فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه .

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ، ليثبت عقدياً [3] وعقلياً ؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله في المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذي لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته [4] ؛ لا يمكن أن يستوي مع من

---

(١) الحذق : المهارة في العمل . تقول : حَذَق فلان في عمله فهو حاذق ما مر

(٢) مادة : عفا يقول مصادر اللغة عفا المنزل يعفو عَفْواً وعُفُوّاً وعفاءً أي : درس ، وعفته الريح يستعمل لازماً ومتعدياً . ومنه : عفا الله عنك أي : محا ذنوبك ، وعفوت عن الحق : أسقطته – وعافاه الله محا عنه الأسقام . والعافية اسم منه ، وهي مصدر جاء على فاعلة كناشئة – للصباح ص ٤١٩

(٣) عَقَدِيّ : نسبة إلى العقيدة ، والعقيدة : صيغة مبالغة من العَقْد . والعقد : العهد والإيمان . والعقيدة : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده . والعقيدة الدينية : يقصد بها الإيمان والاعتقاد في الدين ، كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل . والعقيدة الإسلامية هي الاعتقاد بصحة الدين الإسلامي وصدقه

(٤) يكبح شهواته : يتحكم فيها فلا تطغى عليه ، وهذا كالرجل الممسك بلجام فرسه أو دابته حتى لا تجمح منه ونفلت من قيادها . (لسان العرب مادة ك ب ح).

عبث [1] ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجازى بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج.

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف بـ«افعل» و«لا تفعل» ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسن جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه ؛ ولذلك قال الحق:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ... ﴿٤﴾﴾ [يونس]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً ، لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصي الشرير الذي شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب ، ولذلك لا بد من الإعادة ؛ ليجزي الله كل واحد بعمله بالقسط [2]. والقسط - كما أوضحنا من قبل - معناه العدل ، والمادة هي القاف والسين والطاء ننطقها مرة «القسط» بكسر القاف. وننطقها مرة أخرى «القسط» بفتح القاف والقسط «بالكسر» هو العدل ، والقسط «بالفتح» هو الظلم ، ولذلك تجد قوله الحق:

---

(١) وهذا هو ميزان العدل الذي يثاب به الطائع ويجازى به العاصي ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية]

(٢) قسط من أسماء الله تعالى الحسنى «القسط» هو العادل يقال أقسط يُقسط، فهو مُقسط إذا عدل. والقسط والإقساط: العدل يقال: أقسط ونسط إذا عدل قال تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام] وقال سبحانه ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء] وهو أقرم الموازين وقال عز وجل: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات].

ومن معاني القسط أيضاً: الحصة والنصيب، والميزان، والمكيال. وقسط الشيء: فرّقه وقسّمه.

أما القَسْط والقُسُوط فهو الجور والعدول عن الحق. [اللسان مادة (قسط)]

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن]

والمقصود بالقاسطين، الجائرون على حقوق غيرهم.

ونجد قوله الحق:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]

والمقْسطون هم العادلون بين الناس.

إذن: فهناك «قسْط» و«قَسَط»، وهناك شيء اسمه «قَسَط»[1] بالفتحين وهو الانحراف في الرِّجلين. إلا أن المستعمل في كلمه «قسْط» هنا مقصود به العدل، واسم الفاعل منها «قاسط» واستعملت في الجَوْر. وهي مأخوذة من لقَسْط لا من القِسْط، ونجد من أسماء الله «المُقْسِط»[2]، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل، أي. ابتدأ بالعدل أولاً، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسِط؛ لأنه هو الذي يرفع الجور فيحقق العدل.

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: جزاء منه بالعدل، وأيضاً يمكن أن نقول: إنه سبحانه يجزيهم؛ لأنهم عدلوا في العقيدة؛ لأن القرآن الحكيم كما نعلم - جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار في الأعمال

---

(١) الحطب: ما أعدّ من الشجر للإشعال لنار. والمراد أنهم سيكونون في عذاب شديد؛ إذ جعلهم الله في جهنم بمثابة الحطب للنار، زيادة في عذابهم، وتحقيراً لشأنهم.

(٢) لقَسَط: عيب في الرِّجْل، والرَّجُل القَسْطاء هي التي في ساقها اعوجاج حتى تتباعد القدمان وتنضم الساقان. [اللسان: مادة (قسط)]

(٣) اسم الله «المقسط» لم يرد به القرآن اسماً من أسماء الله تصريحاً، بل على سبيل الإشارة، قال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]، وهو من صفات الأفعال، وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) وأحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠١) وابن ماجه في سننه (١٩٥).

وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلم يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾. [لقمان]

إذن . فهم بعدلهم وقسطهم في أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذي هو ظلم عظيم [1] ؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدي الطويل ، وهم لم يظلموا الناس . ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم

وقد يقال : إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء [2] ، هذا هو عدل الله بالتشريع . أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل في هذه الآية ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام في قول الله سبحانه :

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] قال أصحاب رسول الله ﷺ وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ « إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ، ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢) وأحمد في مسنده (١/ ٣٧٨) .

(٢) يقول سبحانه وتعالى . ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام] ، وكان العدل والقسط يقتضي أن يكون جزاء الحسنة حسنة مثلها ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ، ولكن فضل الله ورحمته أن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وعلى هذا دلت أحاديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى قال « إن ربكم عز وجل رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة » أخرجه مسلم في صحيحه (١٣١) وأحمد في مسنده (١/ ٢٧٩) واللفظ لأحمد ومن دعاء العارفين اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك وبإحسانك لا بميزانك

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم]

فقال بعضهم إذا كان لإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها ؟ وكذلك هذا عن صلاة الجنازة ؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة [1] ؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها ميت ، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية ، لا فرض عين [2] ؟

ونقول: إن وجود اللام في قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ ﴾ يفيد الملك ، أي : الحق ، والآية تعطي الحق ولكنها لم تمنع الفضل ، أو نقول: هل نصلي على كل ميت ؟ نحن نصلي على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجازى بصلاتنا عليه ، أي : جزاء عمله

ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجيء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح

إذن : فالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم ؛ لأنهم حكموا في الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا صليتم على الميت فاخلصوا له الدعاء» أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤٩٧) وأبو داود (٣١٩٧) وفيه عنعنة ابن إسحاق ، قال شمس الحق في شرحه لسنن أبي داود (٨/ ٣٤٤) فلكن أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عنه مصرحاً بالسماع وصححه »

ومن الأدعية المأثورة الواردة في هذا ما ذكره أبو هريرة قال : «كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة يقول : «اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده» أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤٩٨) وأبو داود (٣١٩٩) وأحمد في مسنده (٢/٣٦٨) .

(٢) معنى فرض الكفاية أنه إن قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين ، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع أما فرض العين : فهو الفرض الذي يتوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عمله مثل الصلاة وغيرها من العبادات إذا انتفت الأعذار وتحققت شروطها في حق آحاد المسلمين

يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم.

وكلمة ﴿حميم﴾ مأخوذة من مادة «الحاء» و«الميم» و«الميم» وهي مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمُهْلِ (١) يَشْوِي الوُجُوهَ... (٢٩)﴾ [الكهف]

و﴿كالمُهْلِ﴾ أي أنه يغلي ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء ؛ فالنحاس مثلاً حين يغلي تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول:

﴿إنَّ شجرتَ الزَّقُّومِ (٢) (٤٣) طعامُ الأثيمِ (٣) (٤٤) كالمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

---

(١) المهل: النحاس المذاب أو الزيت المغلي. قال تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل (٨)﴾ [المعارج] [اللسان: مادة (مهل)] ومن معاني المهل أيضاً: الماء الغليظ مثل دردي الزيت. وهل: هو كالدم والقيح.

(٢) الزقوم: طعام أهل النار. قال ابن سيده: لما أنزلت آية الزقوم ﴿إن شجرت الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤)﴾ [الدخان] لم يعرفه قريش، فقال أبو جهل: إن هذا الشجر ما نبت في بلادنا، فمن منكم يعرف الزقوم؟ فقال رجل قدم عليهم من إفريقية: الزقوم بلغة إفريقية: الزبد بالتمر؛ فقال أبو جهل: يا جارية، هاتي لنا تمراً وزبداً نزدقمه؛ فجعلوا يأكلون منه ويقولون: أمهدا يخوفنا محمد في الآخرة؟ فبيّن الله تعالى ذلك في آية أخرى، فقال في صفتها: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعها كأنه رءوس الشياطين (٦٥)﴾ [الصافات] وقال الأزهري: افتتن بذكر هذه الشجرة جماعات من مشركي مكة، فقال أبو جهل: ما يعرف الزقوم إلا أكل التمر بالزبد، فقال لجاريته: زقمينا. وقال رجل آخر من المشركين: كيف يكون في النار شجر، والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن (٦٠)﴾ [الإسراء] أي: وما جعلنا هذه الشجرة إلا فتنة للكفار. ومن معاني الزقوم: كل طعام يقتل، والزقمة: الطاعون. [اللسان: مادة (زقم)]

(٣) قال الفراء: الأثيم الفاجر، وقال الزجاج: عني به هنا أبو جهل بن هشام. والأثيم صيغة مبالغة من الإثم، أي: كثير الذنوب. [اللسان: مادة (أثم)]

إذن : فدرجة غليان الجهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة.

وإذا نظرنا إلى كلمة «حمّام» و«استحم» ، فهي تعني أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور. الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام. والمسح أن تبل الشيء بالماء بدون أن يقطر منه شيء ، والغسل أن تُسَيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة بالماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت [1] فأنت تقوم لتتوضأ.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... ۝٦﴾ [المائدة]

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب في حالة عدم وجود الماء وهو التيمم [2] . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهي تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهي لا تنجسه ، فإن نجست فيكفي أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقي بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتي بماء حار ؛ ليذيب القذارة ويبقى المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة.

---

(١) الإحداث : خروج شيء من أحد السبيلين من غائط أو بول أو ريح ، وكل هذا يوجب الوضوء للصلاة

(٢) التيمم في اللغة هو القصد ، وفي اصطلاح الشرع هو القصد إلى الصعيد الطاهر وهو كل ما صعد على الأرض من التراب وغيره ، لمسح الوجه واليدين عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، وكيفية التيمم أن يقدم النية ثم يسمي الله تعالى ، ويضرب بيديه الصعيد الطاهر ، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين ، ومن السنة عند البخاري ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر أنه لمن تيمم بالتراب أن ينفض يديه وينفخهما منه ، ولا يعفر به وجهه

إذن. هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير ؛ وبين الاستحمام الذى هو للنظافة ونأخذ منه الحميم ، إذن: مادة الحاء والميم والميم فيها الحرارة [1] وفيها السخونة.

ويقول الحق هنا: ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم﴾ ، وكلمة ﴿شَرَاب﴾ تفيد الارتواء ، فلماذا جاء بها الله هنا ؟ إنها تصعد للعذاب ؛ لأن الإنسان يرغب فى الشراب ليرطّب جوفه ، فإذا ألهبه ما يشرب ، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا [2] يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ [3] الشَّرَابُ ...﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل فى صدر الآية ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ وهم يستشرفون للنجاة ، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾.

إذن: فـ ﴿والذين كفروا لهم شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى بسبب كفرهم وعرفنا أنهم كفروا بالقصديا العقدية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك.

---

(١) حم الماء يحم حما من باب فرح قال تعالى ﴿لهم شراب من حميم ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام] اشتدت حرارته فهو حميم أى ساخن شديد الحرارة ومنه الاستحمام للفعل والحمام للمكان والحمى معا ويطلق الحميم: على القريب الشفيق لأنه ذو حرارة وحدة قال تعالى ﴿فما لنا من شافعين ﴿١٠٠﴾ ولا صديق حميم ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء]

(٢) يستغيثوا يصرخون طالبين الغوث والماء من شدة العذاب والعطش، فيأتيهم الغوث (الغوث) عذاباً جديداً، ماء شديد السخونة كالزيت الحى يحرق وجوههم وهو غوث مناسب لأعمالهم السيئة وتفكيرهم وآثامهم فى الدنيا [اللسان مادة (غوث)]

(٣) بئس كلمة تطلق على كل ما يستحق الذم الشديد. [اللسان مادة (بأس)].

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ (١) لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التي خلقها لنا ، والتي جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام (٢) الحياة ؛ فالشمس هي التي تُنضج لنا كل شيء في الوجود ، وتعطي لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر المياه كما قلنا من قبل - لتنزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً (٣) ، يرتوي منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروي به الزرع.

والشمس هي الأم لمجموعة من الكواكب التي تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل لسنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم. فيقول الحق سبحانه هنا.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ ولو نظرت إلى لمعنى

---

(١) منازل القمر : مواضع تحركه ، أي مداره حول الأرض ومواقعه بين الشمس والأرض ، وتبعاً لتغير هذه المواقع تتغير صورته التي نراه عليها قال تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴿٣٩﴾ [يس] ، وقال سبحانه ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ﴿٩٦﴾ [الأنعام] ﴿٩٧﴾ [الأنعام]

(٢) قوام كل شيء : أي ما يقوم به وعماد كل شيء ونظامه ومنه قوله تعالى ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ﴿٥﴾ [النساء] أي : تقوم بها معايشكم من التجارات وغيرها

(٣) الفرات : الماء الشديد العذوبة ، يقال : ماء فرات ، ونهر فرات قال تعالى ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ﴿٥٣﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ﴿١٢﴾ [فاطر] ، وقال ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴿٢٧﴾ [المرسلات] . [المعجم الوسيط - مادة (ورت)] .

السطحي في الشمس والقمر لقلت إن الشمس تعطي نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرّق بين الاثنين ؛ فالشمس تعطي ضياء ، والقمر يعطي نوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل في أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حميمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم ؛ فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها .

إذن . فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضيء مثل الشمس أما القمر فضوؤه غير ذاتي ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهي تعكسه .

إذن . القمر مضيء بغيره ، أما الشمس فهي تضيء بذاتها . لذلك قال الحق هنا ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ .

وكلمة ﴿ضِيَاءً﴾ إما أن تعتبرها مفرداً مثل صام صياماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً وإما أن تعتبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض - جمعه حياض ، ومثل روض - جمعه : رياض . وكذلك جمع ضوء هو ضياء .

إذن كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجيء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ ؛ لأنه يحتمل هذه المعاني كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سبعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر ، وضوء أصفر ، وغيرها [1] .

(١) ضياء تصلح للإفراد باعتبار أن الضياء مصدر ألوان الطيف ، وتصلح للجمع باعتبار الألوان المنبثقة من الضياء . وهذه إشارة لأسرار الله في كونه .

إذن : فـ «ضياء» تعبر عن تعدد الألوان المخزونة في ضياء الشمس ، فإن قلت . ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيام ، فهذا يصلح في المعنى العام .

ولذلك كان القرآن ينزل بما تحتمله العقول المعاصرة لنزوله التي لا تعرف لمعاني العلمية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إني أرى الشمس حمراء حمة الغروب ، وأراها صفراء حمة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هي حمرة في الرؤية لطول الأشعة الحمراء ، وهي لا تظهر إلا حين الغروب حيث تكون الشمس في أبعد نقطة ، فلا يصل إلينا إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الألوان فهي تشع في الكون ولا تصل إلينا .

إذن . كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ ، إما أن تعتبرها جمع ضوء ، مثل سوط وسياط ، وحوض وحياض ، وروض ورياض ، وإما أن تعتبرها مفردة هذه صالحة للمعنى العام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلي ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا [1] وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا [2] وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان]

والسراج هو ما يعطي الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس.

---

(١) من معاني البروج الكواكب والنجوم والقصور ، وبروج (البراج) الفلك وهي اثنا عشر برجاً تبدأ بالحمل . قال تعالى . ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾ [البروج] وقال ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الحجر] ، وقال ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء] [اللسان مادة (برج)]

(٢) السراج المصباح الزاهر الذي يُسرج بالليل ، ووُصفت الشمس بالسراج؛ لأنها سراج النهار ، أي مصباحه ومصدر نوره قال تعالى. ﴿ وَجَعَلَ سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النبأ] ، وقال ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح] [اللسان مادة (سرج)]

وهنا يقول الحق : ﴿ هُوَ الذى جعلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ منازل﴾ ، وكلمة ﴿وقدَّرَهُ﴾ تعود فى ظاهر الأمر إلى القمر . لكن فى الواقع أن الشمس لها منازل [1] أيضاً ، وقال الحق . ﴿وقدَّرَهُ﴾ لأن هناك شيئاً اسمه «الحمل» [2] ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياء ، وجعل القمر نوراً

إذن فالحَمْل جاء بأمرين اثنين : جعل للشمس ضياء وجعل للقمر نوراً ، هذا الحمل نفسه جعله الله لنقدر به الزمن ، فهو صالح للاثنين : للشمس وللقمر ؛ لنعلم عدد السنين والحساب.

وفى العبادات نحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان [3] ؛ لنمارس عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج [4] ، وكذلك تحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة [5] ، وكل هذه التقديرات تخضع للهلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر

---

(١) قال تعالى ﴿وسخَّر الشَّمْسَ والقمر كلٌّ يجرى لأجل مسمًّى (٢)﴾ [الرعد] ، وقال ﴿والشمسُ تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨)﴾ [يس] ، وقال ﴿الشمس والقمر بحسبان (٥)﴾ [الرحمن]

(٢) جعل خلق أو صيَّر قال تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كلَّ شىء حىٍّ (٣٠)﴾ [الأنبياء] وقال ﴿فجعلهم كعصف مأكول (٥)﴾ [الفيل] وقال ﴿وجعلنا نومكم سُباتا (٩) وجعلنا الليل لباسا (١٠) وجعلنا النهار معاشا (١١)﴾ [النبأ] [اللسان مادة (جعل)]

(٣) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «الشهر تسع وعشرون، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٨٠)

(٤) شهور الحج هى شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة قال ابن عمر رضى الله عنهما أشهر الحج شوال وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة [فقه السنة ١/ ٤٦٢] وقيل شهر ذى الحجة بتمامه .

(٥) العدة مأخوذة من العدد والإحصاء، أى ما تعتصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء وهى أنواع بحسب حال المرأة، فإن كانت زوجة غير مدخول بها، فلها حالتان، إذا طُلِّقت فلا عدة عليها، أما إن مات زوجها فعليها العدة أربعة أشهر وعشراً أما إن كان مدخولاً بها، فإما أن تكون ممن يحضن ، فتكون عدتها ثلاثة قروء، وإما أن تكون ممن لا يحضن، فتكون عدتها ثلاثة أشهر أما عدة الحامل فهى بوضع الحمل، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها انظر تفصيل هذا فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٣٤١ - ٣٥٠)

﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون (١) القديم (٣٩) ﴾ [يس]

و«العرجون» هو ما نسميه «الساطة (٢)» التي تحمل «شمدريخ» ابلح، وكانوا يصنعون منها قديماً المكانس التي يكنسون بها بيوت البادية والريف، وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التي عاش فيها العربي القديم.

وفي أول كل شهر كلنا نرى الهلال كعلامة معبرة عن ميلاد الشهر، وهكذا تعلَّم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر، وبالنسبة للسنة؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣٦) ﴾ [التوبة]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلالياً. أما اليوم فيقدر بالشمس؛ لذلك فهي تدخل في تقدير المنازل. وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل «الجعل» لأمرين؛ مجعول الشمس، ومجعول القمر، مصداقاً لقوله: ﴿ وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾.

والحق - كما أوضحنا - هو الشيء الثابت الذي لا يتغير وحين نتأمل مسار الأفلاك (٣)، ومسار الشمس، ومسار القمر، لا نجد فيها خللاً، بل نجد مراصد الكفار تسجل مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس، وقد توجد الأرض بين القمر والشمس، ويتسبب هذا في ظاهرتي

---

(١) العرجون: العذق اليابس أو الغصن الجاف، قال ابن عباس: العرجون هو أصل العذق وهو المنحني من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى. والقمر في آخر الشهر يكون صغيراً ويشبه العرجون. [اللسان: مادة (عرجن)].

(٢) المراد بالساطة: جريد النخل اليابس.

(٣) الفلك: مدار النجوم. وفلك كل شيء: مُدَّاره ومُعْظَمه. قال تعالى: ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [الأنبياء]. [اللسان: مادة (فلك)].

لكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور تجدها عندهم غاية في الدقة.

﴿ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، بدليل أن تحديد الليلة الأولى في رمضان هو الميعاد الذي يبدأ فيه شهر الصوم ، ومن داموا قد حكموا بأن الليل هو الذي يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابل ؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل.

وجاء القرآن إلى القضية المتفق عليها وتركها ، وهي أن النهار لا يسبق الليل مثلما اعتقد العرب ، ونفى القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المخاطب – إذن– يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل.

وهكذا عرض الحق سبحانه للكونيات عرضاً رمزياً في القرآن ؛ لأنه لو جاء بالتوضيح العلمي لذلك لكذَّب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة إن الأرض كروية ، لعارض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما زلنا نجد من يعارض تلك الحقيقة في أواخر القرن العشرين ؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ، بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربي البسيط لها.

وما دام الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر – إذن ؟

ونقول : هل خلق الله الشمس مواجهة لسطح الأرض أولاً ، ثم غابت الشمس فجاء الليل ؟ كان هذا الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ،

ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، ودلك دليل على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون دلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض ؛ فيأتي النهار إلى القسم الذى كان ليلاً ، ويأتى الليل للقسم الذى كان نهاراً.

إذن . فالحق سبحانه حكى فى القرآن الكريم عن الأمور الكونية - التى سوف تستكشفها العقول بعد نزول القرآن - وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]

ثم يأتى التعليل:

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]

فالليل خلفة النهار ، ومعنى خلفة أى : يخلف غيره والمثال من حياتنا نجده فى دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقعاً ما - مدة ست ساعات مثلاً - وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثان ، وبدلك يخلف واحدٌ الآخر ، لكن من الذى بدأ المهمة الأولى فى الحراسة قبل أن يأتى إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة ؟

وكذلك الأمر فى الليل والنهار ، فبيّن الحق سبحانه أن الليل والنهار خلفه ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جاء النهار فى البلاد التى تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل فى البلاد التى تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار هكذا فَصَّل الحق سبحانه آياته

لنا ، وقال سبحانه : ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١).

ويقول سبحانه بعد ذلك.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

وهكذا بين الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليهما ﴿وما خلق الله في السَّمَاوات والأرض﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان.

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل في نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير.

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ؛ لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد في ذلك على إدامة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود . أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام

(١) فصل عن المكان من باب ضرب جَاوَزَهُ قال تعالى ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] والفصال الطعام ، قال تعالى ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] والفصل التمييز ويوم الفصل ، يوم القيامة وفصل الخطاب القول الصائب المميز بين الحق والباطل ، قال تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ] ، وفصل الشيء جعله أقساماً متميزة قال تعالى . ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾[الإسراء] وقال تعالى ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴿١٣٣﴾﴾[الأعراف] ، أي مبينات ومنه قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس] القاموس القويم ص ٨٢ ، ٨٣

يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الحائع يجد طريقه ليال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُملِّك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسى للحياة ؛ ولذلك اشتق منه لفظ النفس ، ونَفْس ، ونَفَس .

ولو نظرتَ إلى الهواء فى الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المبانى التى عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الحبال ، كل ذلك بفعل الهواء ؛ لأن تياراته التى تحيط بجوانب كل الأشياء هى التى تثبتها ، وإنْ تخلخل الهواء فى أى ناحية حول تلك المبانى والجبال فهى تهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذى يحفظ التوازن فى الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف [1] الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقة خالقٍ ، بدقة إله حكيم ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [2] ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) وتصريف الرياح تحويلها من جهة إلى جهة ، وتصريف الأمور إدارتها من حال إلى حال . والصرف رد الشىء من حال إلى حال . وصرف النقود تغييرها أو إنفاقها ، وصرف السجين أخلى سبيله ، وصرف القلوب - تحويلها من الهدى إلى الضلال كقوله تعالى . ﴿ صرف الله قلوبهم ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة] القاموس القويم جـ ١ ، ص ٧٤ ، ٧٥

(٢) قال ابن السكيت والأزهرى لواقح أى حوامل ؛ لأنها - الرياح - تحمل الماء و السحاب وتقلبه وتصرفه ، ثم تستدره . قال تعالى ﴿ وهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] [اللسان ، مادة (لقح) بتصرف] .

لكن إذا جاء بذكر ريح ففى ذلك العقاب ، مثل قوله.

﴿بريحٍ صرصرٍ [1] عاتيةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة]

ومثل قوله:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا [2] مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ ما استعجلتم به رِيحٌ فيها عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..﴿٢٥﴾﴾

[الأحقاف]

لأن الرياح تأتى من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهى تأتى من ناحية واحدة تتدهم [3] ما فى طريقها.

وهنا يقول سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس و القمر كآيتين مفصلتين ، ثم ذكر السموات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر فى الكون ، كل ذلك مجمل فى قوله : ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصل لذكر كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

---

(١) ريح صرٌ وصرصرٌ شديدة البرد والصوت قال تعالى ﴿كمثل ريح فيها صرٌ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران]. وصرّ الطائر صاح، وصرّ الباب يصر صريراً أصدر صوتاً عالياً ممتداً ، والصرّة الصيحة والصيحة والنفخة من الكبر والخوف وغيرهما [اللسان ، مادة (صرر)]

وعاتية : شديدة جداً والعاتى الجبار. [اللسان مادة (عتا)]

(٢) العارض السحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون [اللسان : مادة (عرض)].

(٣) تدمر تهجم بشدة حتى تمشى مَرْ وما فى طريقها [اللسان مادة (دمر) بتصرف].

والقرآن ليس كتاباً لبعد المسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء بـ«إن» وهي التي تفيد الشك في قوله : ﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ﴾ ؛ لأن أحداً مهما أوتي من العلم ليس بقادر أن يُحصي نعمَ الله في الكون ؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر ؛ لذلك لم يأت بـ«إذا» ، بل جاء بـ«إن» وهي في مقام الشك .

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضي التكرار ، ولم يقل الله سبحانه وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء بـ«نعمة» وحدة ، وهذا استقصيتَ ما في النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التي لا تُحصَى .

ويُنهي الحق الآية بقوله : ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات لإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثاني على المعجزة الدالة على صدق الرسول [1] ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة في الوجود [2] الدالة على عظمة الله سبحانه

وهذه الآيات خلقها الله لتُلفت إلى مُكَوِّن [3] هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان في انسجام مع الكون الذي أنشىء

---

(١) والآية بمعنى أنها معجزة من المعجزات الدالة على صدق الرسول قد جاء بها القرآن على لسان المشركين والكافرين فقال سبحانه ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴿١١٨﴾ [البقرة] ونحو قولهم ﴿ وقالوا لولا نُزِّل عليه آيةٌ من ربه قل إن الله قادرٌ على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٣٧﴾ [الأنعام]

(٢) وهي الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق وتدبير الكون وتسييره بنظام لا يختل ، وذلك نحو قوله تعالى ﴿ ومن آياته خلقُ السمٰوات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴿٢٢﴾ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴿٢٣﴾ ومن آياته يُريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٢٤﴾ [الروم]

(٣) والالتفات إلى المكون يقتضي مراحل ثلاث مرحلة الإدراك ، ومرحلة الاتصال ، ومرحلة الاختيار ، فإدراك الآية يجعلك تتعرف بها ، فإذا اتصلت اعترفت المكون توحيداً بحب وعبادة بصدق وانسجاماً بأخلاق ، وهنا تتم النعم بمحبة الله

من أجله ، بحيث لا يأتى له بعد ذلك ما ينقص هذا الانسجام ، فهب أن إنساناً ارتاح فى حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة شقاء وجحيم ، فما الذى استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التى تنتهى إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة ؛ لأن النعمة تعنى أن تنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا فى أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها لإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمةَ.

والحق - سبحانه وتعالى - يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا فى آيات الكون ؛ لأنهم حين ينظرون فى آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادوا فائدتين : الفائدة الأولى أن يعبدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذى خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب ، ولكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر فى الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما فى ايات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك :

---

(١) المُعْرِض يُعْرِض إعراضاً ، فهو مُعْرِضٌ ، والجمع مُعْرِضون . أعرض عن الشىء إذا ولاه ظهره وابتعد عنه [اللسان ، مادة (عرض) ، بتصرف]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكنك تعلن بتمنّيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال :

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً فأخبرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا ؟ طبعاً لا إذن : التمنى هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛ ومثل قول الشاعر .

ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لى فَأَنْظِمَها عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُم كَلِمى

وهذا غير ممكن .

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ ، فلماذا لا يرجون لقاء الله ؟ لأن الذى يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن لدى من يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك [1] .

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذى يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هى أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله

---

(١) الرجاء . الأمل المتوقع قريباً ، ضد اليأس . رجاء ، من باب نصر = يرجوه رجواً ورجاء توقعه مع إرادته إياه وسروره به . أو مع خوفه منه ، ويستعمل الرجاء بمعنى خوف ، قال تعالى . ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح] . وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا . ۝٧﴾ [يونس] أى لا يخافون لقاءنا أو لا يأملون لقاءنا ، فيعملون على هيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح ، والرجاء الناحية وجمعه أرجاء ومنه قول تعالى ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۝١٧﴾ [الحاقة]

بالاستشهاد خير مما يتركه من الحياة.

إذن فالذي يرجو لقاء الله هو الذي يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ، بأن يتقي الله في أوامره ، ويتقي الله في نواهيه ؛ ولذلك تمر على الإنسان أحداث شتّى ؛ وهي في مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغشُّ أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يكذّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات.

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة [1] في الموت ، فهو يستعرض كل صفحته فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهرَّ وجهه ، ولذلك يقال : «فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة» . وهذا كلام صحيح ؛ لأن الروح ساعة أن تُقبض فهي تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير.

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل في العافية ، فإذا أتى وقت انتهاء الحياة تُعْرَضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ؛ لأنه يستشرف ما سوف يلقاه من جزاء

وهذا مثل التلميذ حين يكون مُجداً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة ، فيجري عليه مطمئناً وإن كان غير مُجِدٍّ ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء مَنْ يحمل النتيجة.

كذلك الذين يرجون لقاء الله ، عملوا استعداداً لهذا اللقاء وينتظرون

---

(١) الغرغرة : تردُّد الروح في الحلق . [اللسان : مادة «غرر»] . ولحظات الغرغرة ووصول الروح إلى الحلق هي التي ينقطع عندها قبول التوبة، فعن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذي في سننه (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن غريب، والحاكم في مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (٢٤٤٩ - موارد الظمآن)

الجزاء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿ورَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا في الآخرة . وقد سمى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن سمعه ننصرف عنها ، فقال . ﴿بالْحياة الدُّنْيَا﴾ . ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هي الحياة العليا [1] .

والإنسان قد يبحث في عُمْر الدنيا ويقول إنها ستعمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت في هذه الدنيا .

إذن . فالدنيا بالنسبة لك هي مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقي إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهي تطول لغيرك؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مكْث الإنسان فيها ، وهو مظنون وغير متيقن ، وقد يموت وهو في بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المائة . فالذي يرضى بغير المتيقن قصير النظر .

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول:

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ [2] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

---

(١) عن المستورد بن شداد قال قال رسول الله ﷺ «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع؟» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨) وأحمد في مسنده (٤/٢٢٩ ، ٢٣٠) والترمذي في سننه (٢٣٢٣) وقال حديث حسن صحيح .

(٢) ذكر الله تعالى المتاع ، والتمتع ، والاستمتاع ، والتمتيع في مواضع من كتابه الكريم ، ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد والمتاع هو كل شيء يتمتع به ويتمتع به ويتزود ، والعطاء يأتي عليه في الدنيا قال تعالى ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [النساء] وقال تعالى ﴿تُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٣﴾﴾ [هود] . وقال تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف] وقال تعالى ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف] وقال تعالى ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء] وقال تعالى ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة] [اللسان مادة (متع) بتصرف] .

لاخرة إلاّ قليلٌ ﴿٣٨﴾ [التوبة]

وحتى إن قسْنا عُمْر الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فهي إلى فناء ، ومهما دامت إلى فناء ، فهي متاع قليل ، ومن يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل ؛ لذلك يُنهي الحق الآية . ﴿والذين هُمْ عن آياتنا غافلون﴾ عكس ما قال في الذين يعرفون قيمة العمل للآخرة

حين يقول الحق : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس]

والغفلة [1] هي ذهاب المعنى عن النفس ، فما دام المعنى موجوداً في النفس ، فاليقظة توجد ، والغفلة تذهب إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، واليقظة هي استقرار المعنى في النفس .

ونحن نعرف أن المعلومات التي يستقبلها الدهن البشري إنما تلتقطها بؤرة [2] الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة .

وإياك أن تظن أن الإنسان يعرف المعلومة من تكرارها مرتين مثلاً أو أكثر ؛ لأن كل الأذهان تتفق في أنها تلتقط المعلومة من مرة واحدة ، ويتميز إنسان عن آخر في قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يتزحزح المعنى إلى حاشية الشعور ؛ لتأتي المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفي بؤرة شعورك معنى آخر ؛ لا تثبت المعلومة ؛ لذلك تكرر القراءة مرة واثنتين وثلاث مرات ، حتى تصادف المعلومة خلُوّ بؤرة الشعور .

ومثال هذا : الطالب حين يحاول حفظ قصيدة ، فلو كان ذهنه مستعداً

---

(١) أغفلت الشيء : تركته عمداً وأنت به ذاكر . قال تعالى ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف] أي : أنهم كانوا في تركهم الإيمان بالله والنظر فيه والتدبّر له بمنزلة الغافلين ، أو أنهم كانوا عمّا يُراد منهم من الإثابة عليه غافلين [اللسان ، مادة (غفل)]

(٢) بؤرة الشعور : مراكز الشعور والإحساس والإدراك في المخ . وبؤرة كل شيء : مركزه [المعجم الوسيط مادة (بأر) ، بتصرف] .

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة.

إذن : الذهن كآلة الفوتوغرافيا ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ [1] فِي جَوْفِهِ ... ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب]

فإن كنت تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرِّغ ذهنك من أي معلومة ؛ لتأتي المعلومة الجديدة ، فتصادف خلاء بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها.

والمدرس الناجح هو الذي يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه ؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذي يؤدي عمله برتابة [2] وركاكة [3] تُصْرِف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يُلفت انتباه تلاميذه ويقطع الدرس ؛ ليسأل أي واحد منهم عمّا قال؛ فيستمع إليه التلاميذ من بعد ذلك بانتباه ؛ لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التي قيلتْ من قبل

والتلميذ المجتهد هو الذي يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور الذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ الفاشل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه.

مثال آخر : إن الفلاح الذي ينام على حافة بئر الساقية لا يقع في بئرها ؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلَّب على جنبٍ ما فسوف يقع في

---

(١) ويعبر عن القلب بالعقل المفكر ، ويستعمله القرآن بمعنى التعقل كثيراً لقوله تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] ، وقال ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف] أي عقول ، والقلب يرفض الثنائية في الفكر ، ومن هنا تتكون بؤرة الشعور في العقل المرجود والفكر الواحد

(٢) الرتابة السير أو النهج على نظام واحد لا يتغير [اللسان، مادة رتب]

(٣) الركاكة ، الضعف في اللفظ والأسلوب.

البشر [1] وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد ، يقوم كل واحد منهم في الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانبه ، ولكن إذا نام كل منهما في سرير منفصل ، فهو يستيقظ ليجد رأسه في ناحية وساقيه في ناحية أخرى ، وتسمى هذه عملية الاستصحاب واليقظة ، ويقال «فلان يقظ» وكلمة «يقظ» ضد «نائم» [2] ؛ لأن اليقظان يحتفظ بالوعي والانتباه.

إذن : فالغفلة هي ذهاب المعنى من النفس وانطماسه ، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون عنها لن ينتفعوا بشيء من هذه الآيات ، ثم تأتي لهم محصلة غفلتهم في الآخرة.

ويقول الحق سبحانه عنهم:

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

وأنت تقول : «أويت [3] إلى كذا» ، إذا كان هذا هو المكان الذي يعصمك من شيء [4] ، وهب يقول الحق . ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فإذا كان ذلك هو المأوى ، فلا بد أن ما خارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً . وهم يأوون إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات.

---

(١) وقد ورد نهي رسول الله ﷺ عن النوم على ظهر بيت ليس له حجار (أي سور يمنع سقوطه من على سطح البيت)، فعن علي بن شيبان قال قال ﷺ «من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه اللمة» أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٤١) وبمعناه عند أحمد في مسنده (٥/ ٧٩ ، ٢٧١)

(٢) اليقظة نقيض النوم، وقد تكون ضد الغفلة وعدم الفطنة، ويقال رجل يَقُظٌ ويقظ إذا كان متيقظاً في معرفة وفطنة

(٣) أوت عُدْتُ والمأوى اسم مكان (مفعل) من أوَى يأوي، والمأوى، المنزل، والمكان أي أن مكانهم ومنزلهم واستقرارهم يكون في النار، لقاء ما فعلوا من الذنوب والآثام وغفلتهم عن الحق وبيناته البينات [اللسان مادة (أ و ا) بتصرف]

(٤) ومثال هذا قول ابن نوح عليه السلام عندما عَمَّ الطوفان الأرض ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۝٤٣﴾ [هود] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل، وهم الذين آمنوا، ويعلّمنا أنه سبحانه، ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾.

والهداية كما قلنا من قبل معناها الدلالة على الخير، بالمنهج الذي أرسله الحق سبحانه لنا، وبه بيَّن الحق لسُبُلَ أمام المؤمن والكافر، أما الذي يُقبل على الله بإيمان فيعطيه الحق سبحانه وتعالى هداية أخرى؛ بأن يخصص أعباء الطاعة على نفسه، ويريده سبحانه هدى بالمعروف؛ لذلك قال سبحانه.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب؛ فيهوّنها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة؛ لتهون عليه مشقتها، ويمنده سبحانه أيضاً بالمعونة

يقول الحق سبحانه:

---

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» (١/ ١٧١): «الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين، فحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذلك فإنه يكون خاشعاً في الصلاة وفي غير الصلاة، بل في خلوته، وفي بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة» يشير الشيخ إلى أن القرآن هدايه، والرسول بسنته دليلها، والله المعين عليها، والوصول للمعية هو عين القرب من الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ (١)﴾

وما داموا قد آمنوا ؛ فسبحانه يُنزل لهم الأحكام التي تعبدهم في حياتهم وتنعمهم في آخرتهم ، أو أن لهدايته لا تكون في الدنيا بل في الآخرة ؛ فما داموا قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الجنة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم... ﴿١٢﴾﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ... ﴿٨﴾﴾ [التحريم]

أي : أن نورهم يضيء أمامهم أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا:

﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ (٢) مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا (٣) نُورًا... ﴿١٣﴾﴾ [الحديد]

أي . أن هذا ليس وقتَ التماس النور ، فالوقت - لالتماس النور - كان في الدنيا ؛ باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال.

---

(١) الباء في ﴿بإيمانهم﴾ تحتمل وجهين
١ - أن تكون سببية ، أي بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويحلصوا إلى الجنة
٢ - أن تكون للاستعانة، أي . أن يصبح إيمانهم نوراً يمشون به على الصراط انظر تفسير القرطبي (٤/٣٢٢٨) وابن كثير (٢/٤٠٨)
(٢) نقتبس نأخذ قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴿١٠﴾﴾ [طه] وقال ﴿سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴿٧﴾﴾ [النمل] والقبس : النار . و اقتباسها الأخذ منها والاقتباس من نور أهل الجنة دليل على شدة هذا النور وقوته [اللسان مادة (قبس) . بتصرف].
(٣) التمسوا اطلبوا والتمس الشيء وتلمسه طلبه. [اللسان : مادة (لمس)]

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم فى الآخرة

والآية تحتمل الهداية فى الدنيا ، وتحتمل الهداية فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين فى الآخرة فيقول : ﴿تجرى من تحتهمُ الأنهارُ فى جنّات النّعيم ﴿٩﴾﴾ [يونس]

وقلنا : إن الجنة على حوافّ الأنهار ؛ لأن الحصرة أصلب من الماء ، وكلما رأيتَ مجرى للماء لا بد أن تجد حصرة ، والجنات ليست هى البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه:

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ[1] ... ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]

ونجد الحق سبحانه يقول مرة:

﴿تجرِى تحتها الأنهارُ .. ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة]

ويقول سبحانه فى مواضع أخرى[2]:

﴿تجرِى مِن تَحتِهَا الأنهَارُ .﴿٢٥﴾﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يعطيك صوراً متعددة عن الماء الذى لا ينقطع، فهى مياه ذاتية الوجود فى الجنة لا تنقطع أبداً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

---

(١) عدن فلان بالمكان يعدن ويعدُن عدناً وعُدُناً أقام ومركز كل شىء معدنه، وجنات عدن أى جنات إقامة دائمة بمكان الخلد قال تعالى . ﴿جنّاتُ عدنٍ تجرِى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ﴿٧٢﴾﴾ [الله].

(٢) ورد قوله تعالى ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ ٣٥ مرة فى القرآن ، وقد وردت مرة واحدة ﴿تجرى تحتها الأنهار﴾

دعواهم : أي دعاؤهم .

وهل الآخرة دار تكليف؛ حتى يواصلوا عبادة الله ؟ لا، ولكنها عبادة لالتذاذ، وهم كُلَّما رأو شيئاً يقولون: لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما في الأرض كان يشبه تلك الثمار، لكنه ليس مثلها .

﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ... ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

أو يقولون : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يارب وبعد أن تأتي لك النعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجَأ بأشياء لم تكن في الحسبان من فرط جمالها ؛ فتقول : الحمد لله[1] .

إذن فأنت تستقبل النعمة « بسبحان الله » ، وتنتهي من النعمة « بالحمد لله » . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والذي يجعل للحياة الدنيا معنى، ويجعل لها طعماً ويجعل لها استقراراً ، أن يكون الإنسان في سلام . ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ؛ فلا مُهيِّجات ، ولا مُعكِّرات ، ولا يأتي ذلك إلا بعدم اصطدام في ملكات النفس ؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثاني ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، أي : لا مُنغِّص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد إحساس الإنسان بالاطمئنان

---

(١) إن استقبال النعمة بـ (سبحان الله) كلمة إعجاب لجمال يقودك إلى التنزيه والتوحيد والتمجيد فتتعلق بالتوحيد جمالاً وجلالاً وتنزيهاً ، وبعد تمام النعمة يكون النطق تلقائياً ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس] فأول الشيء إعجاب بتنزيه وآخره حمد يليق .

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ . فالسلام ورد في أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (١) (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ (٢) مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا هو السلام الذي له معنى ؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه: «سلام يورثك اطمئناناً ونفساً راضية» فقط ، بل هو سلام بالقول من الله ، وانظر أي سعادة حين يخاطبك الحق سبحانه وتعالى مباشرة. وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام. وهذا هو السبب في قوله:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا سلام الله ، ثم من بعد هذه المنزلة يأتي سلام الملائكة:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم ...(٢٤)﴾ [الرعد]

إذن ، يقول الحق هنا ، ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ نجد فيه كلمة السلام رمز الرضا والاستقرار في الجنة ؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التي تحبها في نفسك ، ولو كانت الناس كلها ضدك. لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعض ضدي ؟ وحين تجيب نفسك : «إنني لم

---

(١) فاكهون: ناعمون معجبون بما هم فيه من نعيم الجنة. قال تعالى: ﴿فاكهين بما آتاهم ربهم (١٨)﴾ [الطور]

(٢) الأرائك: السُّرُر أو الفُرُش والأريكة السرير في الحجلة من دون ستر ، أو هي كل ما اتُّكئ عليه من سرير أو فراش أو منصة. قال تعالى: ﴿متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا (٣١)﴾ [الكهف]. [اللسان، مادة (أرك) بتصرف].

أعمل إلا الخير» ؛ فأنت تحس السلام في نفسك. وإذ ما رحّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا صدّ ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ:

«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»[1] فيدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف ؛ قام واحد من الصحابة[2] ، وذهب إلى الرجل ؛ ليعلم ماذا يصنع ، وسأله ماذا تفعل حتى يبشّرك الرسول ﷺ بالجنة ؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابي . لماذا - إذن - بشّرك رسول الله ﷺ بالجنة ؟

قال الرجل . والله إني لأصلّي كما تصلّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكّي كما تزكون ، ولكني أبيت وما في قلبي غلٌّ لأحد.

هذا هو السلام النفسي ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس ؛ فلا تضيره الدنيا إن قامت ، و بعد ذلك يصعب أن يوجد سلامه مع

---

(١) ونص هذا الحديث أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه في يده الشمال فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال إني لاحيت (خاصمت) أبي، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال نعم قال أنس وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار «استيقظ» وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبد الله غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث الليالي وكدت أن أحتقر عمله قلت يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثَمَّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر، ما عملت فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال ما هو إلا ما رأيت؟ قال فلما وليت دعاني. فقال ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك في الزهد (٦٩٤)

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن العاص، صحابي من أهل مكة، كان يكتب في الجاهلية، ويحسن اللغة السريانية، وأسلم قبل أبيه، ولد ٧ ق هـ وتوفي ٦٥ هـ كان كثير العبادة، وقتال الأحداث وكان مشهوراً أنه يقرأ بسبعين. (الأعلام للزركلي ٤/ ١١١)

الله تعالى. ومن عنده سلام مع نفسه، ومع بيئته، ومع مجتمعه؛ فهو ينال سلاماً من الله سبحانه. ويقول لنا القرآن عن الذين يعانون من مأزق في الآخرة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (١) فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود]

هؤلاء هم الذين شقوا في النار، أما الذين سُعدوا ففي الجنة، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا - وهم أهل الأعراف؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام؛ فقد قال الله سبحانه:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٢) (٩)﴾ [القارعة]

ولم يقل الحق سبحانه لنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب؛ لأنه سبحانه قال في حديث قدسي:

«إن رحمتي غلبت غضبي»(٣)

ويبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول:

---

(١) قوله تعالى هنا ﴿بإذنه﴾ مُقيَّد لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا .. (١١١)﴾ [النحل]، فليس لنفس أن تتكلم أو تجادل عن نفسها إلا بإذن الله، ولا ينافي ذلك قوله تعالى ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات]، لأن في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها لا يؤذن لهم في الكلام، فيكفون عنه، وفي بعضها يؤذن لهم فيه، فيتكلمون. قاله أبو يحيى الأنصاري في كتابه (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) ص ١٩٣، ١٩٤

(٢) ثقلت موازينه: رجحت حسناته على سيئاته

في عيشة راضية: في الجنة. فإذا كانت العيشة راضية فالمُعايش لها مرضي عنه

خفت موازينه: رجحت سيئاته على حسناته.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: ساقط بأمّ رأسه في نار جهنم، وعبّر عنه بأمه يعني: دمامه

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم في صحيحه (٢٧٥١) وتمامه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» وفي بعض روايات الحديث: تغلب، سبقت

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف]

ويأتي أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه:

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ (١) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ (٢) .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم، وعرفوا الكفار بسيماهم، وجلس البعض على الأعراف؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]

أهل الأعراف - إذن - يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة، ويطمعون أن يغفر الله - سبحانه وتعالى - لهم.

ونحن في حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون قبل أن يحكم على المجرم بالإعدام ينخفض ورنه، ثم

---

(١) الأعراف في اللغة جمع عرف، وهو كل عال مرتفع؛ قال الزجاج الأعراف أعالي السور. والأعراف: أعالي سور بين أهل الجنة وأهل النار. وقيل هم أصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالحسنات، ولا النار بالسيئات، فكانوا على الحجاب الذي بين الجنة والنار [اللسان مادة (عرف) بتصرف]

(٢) السيماء العلامة يعرف بها الخير والشر. ومنه قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]، وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة] هذا في أهل الخير والفضل أما الأشرار فقال تعالى عنهم ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن].

يريد بعد الحكم ؛ لأن الأمر قد استقر. والذين يُشغلون بأن يعرفوا مكانهم في الآخرة ، أهو في الجنة أو في النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين.

﴿أن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف]

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة . ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تكون آخر دعواهم ، أي : آخر كلمة

فالواحد منهم يقول : أنا حمدت ربا على الشيء الفلاني والشيء الفلاني . وآخر حَمْد هو قمة الحمد ؛ لأنهم حمدوا الله على النعمة في الدنيا التي تزول ، ويحمدونه في الآخرة على النعمة التي لا تزول ، فلئن يوجد حَمْد على النعمة التي لا تزول فهو قمة الحمد[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ[2] فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ[3] يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

وهذه الآية تتناول قضية عقدية قد تكون شُغْل الناس الشاغل في الدعاء

---

(١) الحمد هنا الإيجاد ، والحمد على الإمداد في الدنيا ، والحمد على نعمة البقاء في دار الخلود وهي قمة الحمد

(٢) ذر : ترك قال تعالى ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح] [اللسان مادة (وذر) . بتصرف]

طغيانهم : مجاوزتهم الحدّ في الظلم والكفر والعصيان قال تعالى . ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة]

(٣) يعمهون : العَمَهُ التحيُّر والتردد في الضلال ، والعَمَهُ يكون في الرأي ، والعمَى يكون في البصر . قال ابن الأثير . العَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر . قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل]

لله تعالى، وقد لا يُجاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء، ويُحزنهم على أنفسهم، ويقول الواحد منهم: لماذا لا يقبل الله دعائي؟ أو يقع بعضهم في اليأس.

ونقول لكل إنسان من هذا الفريق: لا، أنت تدعو، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير، فنور أن الله سبحانه وتعالى قد أجابك في جميع الدعاء، فسوف يجيب دعاءك في الشر ودعاءك في الخير، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل لك دعاء الشر، كما تحب أن يُعجِّل لك دعاء الخير، لقُضي إليك أجلك وانتهت المسألة، وهناك من قالوا[1]:

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء، لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء.

إذن: فمن مصلحتك حين تدعو على نفسك[2] أو تدعو بأي وبال ألا يجيبك الله تعالى، وافهم أن لله تعالى حكمة في الإجابة؛ لأنه سبحانه

---

(١) هم بعض كفار قريش، قيل: إنه أبو جهل، وقيل: هو النضر بن الحارث بن كلدة. ودعاؤهم هذا دليل سفه وجهل وشدة عناد وتكذيب. وكان الأولى بهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه. ولكنه قال عنهم رب العزة: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت]، وحمل الله تأخير العذاب عنهم لعلة من فضائل رسول الله ﷺ عن قومه فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]

(٢) ثبت في صحيح مسلم النهي عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال: فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بعض بواط وهو يطلب للجدي بن صخر الجهني، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له: شأ لعنك الله. فقال رسول الله ﷺ: من هذا اللاعن بعيره؟ قال: أنا يا رسول الله. قال: انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعو على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

وتعالى مُنزَّهٌ عن أن يكون موظفاً عند الخلق ، ومَن يدعُهُ بشيء يجيبه عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه في تقرير لون الإجابة ؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد.

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء ؛ وأنت تعتقد أن دعاءك خير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التي تعلم كل شيء أزلاً [1] تكاد أن تقول لك . لا ، ليس خيراً. وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ؛ لأنه القائل سبحانه:

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]

إذن : فمعرفتك ليست نهائية في تقرير الخير والشر ؛ لذلك دَعِ الإلهَ الأعلى - وهو المأمون عليك - أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت في ظنك أنه الخير ، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين الخير والشر ، وفي المنع - أحياناً - عين العطاء [2] ؛ ولذلك يقول الحق.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾[الإسراء]

وقد تلحّ في دعاء لو استجيب لك ؛ لكان شراً. والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه في أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً. وأحياناً يأتي لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير. وهكذا تصحّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية.

---

(١) الأزل: القدم. قال أبو منصور: ومنه قولهم: هذا شيء أزلي أي قديم.

(٢) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يستجيب له دعوته، أو يصرف عنه من السوء مثلها، أو يدخر له من الأجر مثلها» قالوا: يا رسول الله. إذن نكثر. قال: الله أكثر. أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي في التلخيص. ومن أقوال الشيخ: المنع عين العطاء وقد يكون العطاء نقمة.

وقد قال الكافرون[1] لرسول الله ﷺ

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

ومن قالوا هذا القول هم العاص بن وائل السهمي ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث ، وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب ؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، ولم يتنبهوا إلى غباء ما يقولون ؛ لأنه إن كان لرسول الله ﷺ قدرة السحر ؛ فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً ؟

واضطربوا مرة ثانية ، وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، أو له طبيعة الشعر والكلام المسجوع ، والقرآن ليس كذلك . ولو أن جماعة غيرهم قالت مثل هذ القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسو أهل لغة ، أما هؤلاء فهم قوم أهل دُرْبة على الفصاحة والبلاغة ، وكانوا يعقدون أسواق الشعر والخطابة ، ثم اضطربوا مرة ثالثة ، وحاولوا الطعن في مكانة محمد ﷺ وهم يُقرّون بعظمة القرآن ؛ فقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال أبو جهل ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال] فنزلت ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال] أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٤٨) وكذا مسلم (٢٧٩٦) . وقال ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (٨/٣٠٩) «قوله : قال أبو جهل» ظاهر في أنه القائل ذلك ، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضي الباقون نسبته إليهم ، ولكن نسبته إلى أبي جهل أولى» .

(٢) القريتان المقصودتان هنا مكة والطائف . وقد اختلف العلماء في تحديد اسم الرجل العظيم المقصود فمن مكة الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة ومن الطائف ، عروة بن مسعود أو حبيب بن عبد يالين قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٢٧) - «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كانت» .

والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت في زمن النبي ﷺ مع الكافرين ؛ لا يقتصر في الحدث على ما وقع، ولكنه يعالج قضية عامة كونية إلى أن تقوم الساعة، ويجعل الحدث الحاصل في زمنه سبباً فقط ؛ ليعطي عموم الحكم في كل زمان وفي كل مكان. وإلا اقتصر الأمر على معالجة حدث وقع لشخص الحدث وشخص الحكم في القوم الموجودين مع رسول الله ﷺ وقد جاء القرآن للناس كافة، وجاء للزمان عامة، فلا بد أن تكون القضية المعروضة - أيّ قضية أمام رسول الله ﷺ من قوم عاصروه لها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب.

ويعالج الله سبحانه وتعالى في هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضيةً كونيةً ستظل إلى أن تقوم الساعة.

فقد دَعَوْا على أنفسهم:

﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

كما قال قوم عاد لهود:

﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف]

إذن : هم قد دعو بشرٍّ على أنفسهم

ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشرّ ؛ لأن الإنسان قد يضيق ذَرْعاً [1] بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ؛ فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به في

---

(١) الذَّرْع : الطاقة والقُدرة . وضِقْتُ بالأمر ذرعاً مثل ضعفت به ذراعاً؛ فأصل الذرع إنما هو بسط اليد، فكأنك تريد : مددت يدي إليه فلم أنَلْهُ . وضاق بالشيء ذَرْعاً وذراعاً أي ضَعُفت طاقته، ولم يجد مَخْلصاً، ولم يُطِقْه، ولم يَقْوَ عليه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿٧٧﴾﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة] [اللسان : مادة (ذرع) . بتصرف].

داته من ألم كمرض – مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمّلها ؛ فيقول «يارب ، أرحني يارب» ، وهو هنا يدعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه لقُضيت المسألة.

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل بعَجَلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشرّ منك على نفسك ؛ وفي ذلك رحمة منه سبحانه

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطيني ، فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشرّ على نفسك ، ولا يجيبك الله ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذَرْعا بمن حوله ، فيقول : فليأخذني الله ؛ لأستريح من وجوههكم ؟ هَبْ أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف ؟ وقد تجد من يقول : يارب أصبني بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها.

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشرّ لانتهت حياتكم إلى الفزع ، مثل هذه الأم التي تدعو بالمتناقضات فتقول لولدها – مثلاً : «ربنا يسقيني تارك» فتطلب السُّقيا بالنار ، رغم أن السُّقيا للرِّي ، والنار للحرارة.

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ؛ فيدعو على نفسه بالشرّ ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزّه الحق سبحانه وتعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [1] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ ، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم ؛ فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله ؛ فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شراً ؛ فمن مصلحتك ألا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك في الشر على نفسك ، أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب ؛ لأن الله لا يعجل بعجلة عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل :

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ [2] ... (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل :

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا :

---

(١) عجل يعجل - عجلا وعجلة : أسرع . قال تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾ [طه] وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه . قال تعالى : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠) ﴾ [الأعراف] وأعجله : حمله على العجل ، أي استحثه أو سبقه . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر : قدمه سريعاً ، قال تعالى : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ (١٨) ﴾ [الإسراء] واستعجل الأمر طلبه عاجلاً قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١) ﴾ [يونس] . القاموس القويم جـ٢ صـ٩٢٨

(٢) العَجَل والعَجَلة : السرعة . قال الفراء : خُلق الإنسان من عجل وعلى عَجَل ، كأنك قلت رُكِّبَ على العجلة ، بنيته العجلة ، وخلقته العجلة ، وعلى العجلة ونحو ذلك . قال أبو إسحق : خوطب العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذي يكثر الشيء : خُلقت منه . وقيل : إن آدم عليه السلام ، لما بلغ منه الروح الركبتين هم بالنهوض قبل أن تبلغ القدمين فقال الله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ (٣٧) ﴾ [الأنبياء] فأورثنا آدم عليه السلام العجلة . وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا (١١) ﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (١) ﴾ [النحل]

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ..(٣٢) ﴾ [الأنفال]

لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به ، وقُضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم.

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر ، فعليه أن يتحمّل تبعة [1] الطغيان التى تتمثل فى أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب ممن آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفى ذلك محاوزة للحد ؛ ولذلك فهم يعمهون فى هذا الطغيان ، أى : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت - لهم ولمن بعدهم - عجز الكفر عن مواجهة قدرة الحق.

وفى الحياة أمثلة - ولله المثل الأعلى - فهناك من يملك عدوه ، فيضربه ؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليداوم على إذلاله ؛ والقوىّ لا يقتل خصمه ، بل يؤلمه ؛ فلا يرفع الخصم رأسه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل ؛ لتتجمع عليهم سيئاتهم ، ويذوقون ويل [2] خصومة الإسلام فلا يرفعون رءوسهم ؛ لأن أهل الإسلام يردّون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف ييأس أهل الباطل من أنهم

---

(١) تَبِعَة الأمر : عاقبته ، وما يترتب عليه من أثر [المعجم الوسيط : مادة (تبع)]

(٢) ويل : كلمة عذاب تعنى حلول الشر ، والويل : واد فى جهنم ، وقيل : هو باب من أبوابها ، قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① ﴾ [المطففين] وقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮ ﴾ [المرسلات]

سينصرون على الحق بأى شكل وبأى لون. وهم مهما تحايلوا فى أساليب النكاية [1] فى الإسلام، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين.

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأن يهاجر، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل، فخرج ﷺ ولم يشعروا، وقال ﷺ: «شاهت [2] الوجوه».

وشاء سبحانه ذلك؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد ﷺ، لا بالمواجهة، ولا بشيت المكر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

١٢

يصور الحق سبحانه حال البشر؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله، ومنهج الإله؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله فى لحظات الأزمات، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك. وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر.

وفى قريتنا - على سبيل المثال - كان الذى يشرف على رعاية صحة

---

(١) نكى العدوَّ نكاية: أوقع به وهزمه وغلبه. والمراد بالنكاية هنا: أساليب أعداء الله فى محاربة الإسلام والتدبر عليه وعلى المسلمين، وهى أساليب مالها العشر بإذن الله. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف]. [اللسان، والمعجم الوسيط: مادة (نكى)]. بتصرف.

(٢) شاهت الوجوه: تَشُوهُ شَوْهاً: قَبُحَتْ. وفى حديث النبى ﷺ: أنه رمى المشركين يوم حنين بكفٍّ من حصى وقال: شاهت الوجوه. وفيه: قال لابن صياد: شاه الوجه. ويُقال للمخطئة التى لا يُصلَّى فيها على النبى ﷺ: شوهاء أى: قبيحة. [اللسان: مادة (شوه)]

الناس حلاق الصحة ، إلى أن تخرج أحد أبناء القرية فى كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق وهى أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مريض وهو يريد أن يذهب به إلى الطبيب ، هو - إذن - لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خدع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب.

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين فى لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر. وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة «يارب». وأنت تجدها من أعتى الفُجّار [1]، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ.

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا :﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾.

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون فى إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعو على نفسه بالضُّر ؛ مثلما قال المتنبى [2] :

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شَافِياً وحَسْبُ لمنايا [3] أن يكُنَّ أمَانِيَا

أى . يكفى أن يصل الإنسان إلى الدرجة التى يتمنى فيها الموت.

---

(١) الفجّار جمع فاجر وهو الكثير من المعاصى والسيئات والفجور أصله الميل عن الحق قال ابن شميل الفجور الركوب إلى ما لا يحلّ قال تعالى .﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥)﴾[القيامة] وقال ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾[الانفطار] [اللسان مادة:(فجر) بتصرف]

(٢) المتنبى شاعر من شعراء الدولة العباسية له باعه فى الشعر

(٣) لمنايا جمع مَنِيَّة وهى الموت. والمنى القَدَر، ومَنَى الله لك شيئاً أى قدّر لك ومَنَى الله عليك خيراً يَمْنِى مَنْياً. وبه سُمِّيت المَنِيَّة وهى الموت ؛ لأنها مقدّرة بوقت مخصوص. [اللسان، مادة (منى)].

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر في أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى ، وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً [1] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ [2] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ... ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر]

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾

ويقول سبحانه في موضع آخر:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [3] ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل]

إذن فالحق سبحانه يأتي بها مفردة مرة ، ومرة يأتي بها جمعاً . ومرة يأتي بها مفردة على ألوان شتى ، ومرة يأتي بها جمعاً بألوان شتى ، ومرة يذكرها في البر . ومرة يذكرها في البحر:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إذا ما أصابه ضرّ ،

---

(١) منيباً : راجعاً إلى الله بالتوبة . أناب إلى الله إنابة فهو منيب . أميل إليه تائباً وراجع إلى الطاعة . قال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزمر] ، وقال ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر]

(٢) خوّله الله نعمة : ملّكه إياها . وهي مأخوذة من التخويل وهو التمليك . والمراد إذا كشف الله عنه الضر ، ووهبه النعم سمى فضل الله عليه ورفع في المعاصي [لسان العرب - بتصرف]

(٣) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالتضرع والدعاء إلى الله [اللسان مادة ج أ ر]

ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه . ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله

والآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول . ﴿ دعانا لجنبه ﴾ أي : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قاعداً أَوْ قائماً ﴾ وهكذا تتناول الآية الإنسان في تصرفاته في الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلب ، بل يقلبه أهله ؛ ينام على جنبه ، وحين يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتي حركة القوة الثانية ؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشي ، ثم يمشي من بعد ذلك .

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿ دعانا لجنبه أَوْ قاعداً أَوْ قائماً ﴾ ، ولم تأت حركة المشي ؛ لأن المتحرك للمشي لا يصعقه الضر ، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب ، فقد يناله الضر .

وتلك هي مراحل النقض لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم نُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشي بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف . ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشي ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلبه أهله [1]

إذن . نقض كل شيء إنما يأتي على عكس بنائه ؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهي تنتهي بالعكس ؛ لأن النقض دائماً على عكس البناء .

---

[1] وهو القائل سبحانه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم] .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله في إخباره لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ (١) عَضُدًا (٢) (٥١)﴾ [الكهف]

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ... (٥١)﴾ [الكهف]

وهذا القول يدل على أن العقل البشري لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء. فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء في القرآن فقولوا . كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيف خُلقت السموات والأرض بغير ما جاء في كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتم ؛ لأن الله هو الذي خلق السموات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به . ويقول الحق سبحانه:

---

(١) ضَلَّ يَضِلُّ فهو ضالٌّ ، وأضلَّ فهو مُضِلٌّ ، والمُضِلُّ يكون ضالاً ولا يكتفي بضلال نفسه بل يُضِلُّ غيره أيضاً وأضلَّه جعله ضالاً ، والضلال . ضد الهدى والرشاد قال تعالى ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان] وقال . ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)﴾ [طه] وقال ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾ [آل عمران]

(٢) والعضُد من الإنسان وغيره الساعد وهو ما بين المرفق إلى الكتف والمراد بالعضُد هنا العون والمساعدة. قال تعالى ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ... (٣٥)﴾ [القصص]

﴿ وما كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف]

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه . ﴿ الْمُضِلِّينَ ﴾ ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا الإنسان كان في الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم ، لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال.

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأى هذا المشهد ؛ ليقول لنا. والخلق الذي به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأي نقض لشيء - كما عرفنا - إنما يأتي على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالي الهدم بعد ذلك ، فما بُني أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نَقْض كل شيء يأتي على عكس بنائه.

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفةً[1] ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى في التراب ، هذه مراحل الموت.

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح[2] ، وآخر مراحله في الإيجاد هي الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة في الموت.

---

(١) الجيفة : هي جثة الميت إذا انتنت وكان لها رائحة ، والجمع جيف وأجياف (اللسان : مادة جيف)

(٢) وفي هذا يقول سبحانه ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة] .

والله سبحانه وتعالى فى هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشى ؛ لأن الماشى عنده قدرة فلا ضرّ فى ذاته ، وإن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقِى الشىء على صلاحه المنتج المريح ، فى الذات أو فى الخارج

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة ، فليس عندك ضرّ ، لكن إذا حدث خلل فى أى عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة . هى ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً - مثلاً - فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدرى بها ويوم أن تدرى بها فهذا يعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف رائته إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول: «آه يا عينى» ، و«آه يا أذنى».

ونقول: إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أى عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدى أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة فيمن حولك تتمثل فى أن يحققو لك المتعة والصفاء بدون كدر وبذلك تظهر منعتهم لك [1]

وكل إنسان له كبرياء ذاتى ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

ولا يدل الإنسان إلا حين يعانى من آفة [2] ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإذ بدأت النعمة فى

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص

(٢) آفة عاهة، أو مرض، أو فساد، أو نقص، أو عيب. يقال: آفة الطرف العمى، وآفة العلم النسيان.

الانقباض عن الإنسان ؛ فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الرقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع

والإنسان لا يستغني إلا بما هو ذاتي فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يغتر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه [1] قد جرحوا من جاههم.

إذن: فلا داعي للغرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شيء ، وليس لك شيء ذاتيٌّ فيك أبداً ؛ لذلك يجب أن ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوبًا من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو يتنه . فلا داعي - إذن - لأن يغتر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع.

ولمثال : قد تكون عافيّتَ طيباً ، وهو الوحيد في المكان الذي تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتي لك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يحب إذن أن تعتز أو تتعالى على أحد.

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

والكافر ما إن يمسّه الضرّ ؛ حتى يقع في شر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذي يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين

(١) الجاه المنزلة والقدر قال تعالى ﴿ وكان عند الله وجيها ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان ؟

ونسيان الإنسان أمر وارد في تكوينه الفطري الأول [1] ؛ لأن الإنسان حين يعيش في محيط ما . فهو يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجي ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحرك أعضائه وخدمتها لبعضها البعض ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً وانظر إلى التعبير القرآني .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن فمن يَعْبُدْ غيرَ الله - سبحانه وتعالى - يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذي ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقي ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى في عالم الذر [2] ؛ حينما

---

(١) ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] ، فحبس الإنسان في تكوينه النسيان ، ولذلك تجاوز الشرع عن النسيان والخطأ وما استكره عليه الإنسان ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ١٩٨). قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي وحسنه ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٢) طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٩١م .

أما النسيان بمعنى التناسي والتغافل عن أوامر الله والالتزام بمنهج الله سبحانه فلا يتجاوز الله عنه بل يؤاخذ الإنسان به ، يقول عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام] .

(٢) عالم الذر : هو يوم نثر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها أمام سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ،[1] وقال لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

قلنا :

﴿ بَلَىٰ ... ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه .

وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريب من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي[2] ... ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

ويقول : كنت محتاطاً وقد رتبت أموري . ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أخْذَ عزيز مقتدر .

فإذا مسكم الضر ؛ فلن تجدوا من السيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ، ما يعنكم عن خالقكم ، وفي لحظة الخطر لا تستطيعون

---

(١) العهد الأول هو إشهاد ذرية بني آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله ربُّ الخلائق كلهم ، وهذا كان الإيمان بالوحدانية فطرة يسكن بها القلب ، ويطمئن معها العقل وتستريح النفس ، أما العهد الثاني فهو التكليف على يد الرسل في الفعل ولا تفعل ، وهو استناد للعهد الأول ، ويجمع ذلك كله قوله ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ . ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة] ومن هنا كان الأمر والنهي وعليهما مدار الحساب

(٢) أي أن قارون أنكر فضل الله عليه ، فيما أنعم عليه به من الأموال والكنوز التي قال الله عنها : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون في تلك اللحظة عهد الذر الأول ، وتعودون إليه سبحانه

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾

وقوله الحق : ﴿فلما كشفنا [1] عنه ضره﴾ يصور الضر وكأنه يعطى الإنسان ويلفه ، فلا منفذ له أبداً ؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطى كل الإنسان وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضر للجسم كله ؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه :

﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١١٢) ﴾ [النحل]

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد أعطون وحدها هي الجائعة ، بل كل ما في الأجسام جائع وخائف

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾

وكلمة ﴿مرّ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال. إن فلاناً مرّ عليّ ؛ مقابلها: وقف عندي.

ومفهوم من قوله الحق - إن هذا الذي مسّه الضر كان له وقفة عند الله سبحانه ؛ حين لفّه الضر ولم يجد معيناً له غير الله تعالى ، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه

---

(١) كشف الشيء يكشفه كشفاً أظهره أو رفع عنه ما يستره في المحسوسات ومعاني قال تعالى - ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم .. (٥٤)﴾ [النحل] كأن الضر غطاء ثقيل فوق الرؤوس كشفه الله وأزاله ، ومن الحسي قوله تعالى : ﴿وكشفنا عن ساقيها . (٤٢)﴾ [النمل] أما قوله تعالى : ﴿يوم يكشف عن ساق . (٤٢)﴾ [القلم] فهو كناية عن شدة الخوف والرعبة في الفرار ، وقوله ﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم .. (٥٦)﴾ [الإسراء] أي . إزالته وهو كشف معنوي . القاموس القويم . ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الضرّ وينسى الإيمان ؛ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ وكأنه قد نسي تدلّله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هي الصفاقة[1] .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهنا تأتي قضية ثانية ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتي في الكون كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذي زيّن لهم المرور بما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل .

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا[2] ... ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]

وقوله تعالى هنا

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [يونس]

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً والإنسان له عمل مكرَّر من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ، وإن كان القول مقابله لفعل ؛ فالاثنان عمل .

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية في عمومها ، وفي

---

(١) أصل مادة (صفق) التضعيف باليد ، والضرب الذي يُسْمع له صوت ، ومنه صَفَقَ الباب أي فتح الباب ثم إغلاقه مع حدوث صوت ومنه الصفقة للعهد والبيع والشراء ، ومن حديث رسول الله ﷺ «إن من أكبر الكبائر أن تقاتل أهل صفقتك» وهو أن يعطي الرجل عهدَه وميثاقه ثم يقاتله ؛ لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده في يد الآخر كما يفعل المتبايعان. (انظر : اللسان - مادة صفق) فالمادة من الممكن أن يخرج منها بمقصود فضيلة الشيخ من هذه الكلمة

(٢) المراد بالمرض هنا النفاق وهو خلق ذميم يصيب صاحبه بأشد الأضرار ، ويضر المجتمع كله ، ووصف النفاق بالمرض إذ إن المرض هو السقم وهو ضد الصحة وتمريض الأمور : توهينها وريح مريضة : ضعيفة الهبوب وكل ما ضَعُفَ فقد مرض. والرأي المريض ، أي فيه انحراف عن الصواب قال تعالى : ﴿فترى الذين في قلوبهم مَّرَضٌ يسارعون فيهم ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة] [اللسان مادة (مرض) بتصرف] .

خصوصها، وفي انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين: أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كُـلاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ﴾

فإياكم أن تسول [2] لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ،فلستم بدعاً عن سابق الخلق.

و﴿ ٱلْقُرُونَ ﴾ [3] . جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا

---

(١) المراد بالمجرمين : الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا وجُرْمُ الإنسان إذا عظم جُرْمه، أي أذنب قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ (٧٣) ﴾ [مريم] [اللسان : مادة (جرم)]

(٢) تسول لهم أنفسهم شيئاً : تُزيّن لهم الخطأ والتسويل : تحسين الباطل وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله قال تعالى: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ (١٨) ﴾ [يوسف] ، وقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ﴾ [محمد] [اللسان مادة (سول)]

(٣) القرن : الأمة تأتي بعد الأمة والقرن أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، وكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم يقال. القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك. والجمع القرون قال تعالى. ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٦) ﴾ [الأنعام] . وقال ﷺ «خيركم قرني (يعني أصحابي) ثم الذين يلونهم» ، يعني الذين أخذوا عن التابعين

في شيء تسميهم «قرنا» وقد يكون القرن في الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والعشر الذين يجتمعون في مائة سنة يسمونهم قرناً.

أو القرن جماعة يقترنون في شيء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد [1].

وقوله الحق ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فهل لو أمهلهم الله تعالى كانوا سيؤمنون ؟ لا ، فلله علمٌ أزليٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً.

والمثل من حياتنا وأعراف - ولله المثل الأعلى - بجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين ؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعي المهندس لدى يبني له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثري ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات.

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتي واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى في الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجري به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما في

---

(١) الأمد الغاية والأمد منتهى الأجل قال تعالى ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴿١٦﴾﴾ [الحديد] [اللسان مادة (أمد)]

الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً [1] ، فصمم المسألة على وفق ما علم .

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه - أزلاً وسبق في علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون .

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره . والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى في أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هي قمة الظلم ، لذلك قال سبحانه :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

وهم قد ظلموا في قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا في الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]

والواحد منهم ظالم ومظلوم في آن واحد ، لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطري ، وملكة النفع العاجل الذاتي . فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل ؛ تحرج النفس اللوَّامة [2] ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهي تطلب تحقيق

---

(١) الغيب : ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب . والعيب : ما غاب عنك ولا يجب عن علائم العيوب . قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣﴾﴾ [البقرة] . وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات] . [لسان العرب ، مادة (غيب) بتصرف]

(٢) اللوَّامة : صيغة مبالغة من اللائمة ، أي : كثيرة اللوم . والنفس اللوامة : هي التي تكثر من لوم صاحبها على أخطائه . قال تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة]

الشهوات فقط ، لأنها نفس أمّارة [1] بالسوء أما إن اطمأنت انتفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به وعملت ما قاله الله سبحانه ، فهى نفس مطمئنة [2] . ومن يظلم نفسه فهو الذى يتبع شهوات [3] نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً أجلاً [4] ؛ فيكون قد ظلم نفسه .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤيَّدين بالمعجزات ؛ ليبصّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال : ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ أى أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذى خلقهم وقد علم أزلاً أنهم لن يختاروا الإيمان .

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذى يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه - سبحانه - على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية .

والمثال - ولله المثل الأعلى - أنت فى البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم : إن طعامكم فى الثلاجة ؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن

---

(١) أمّارة . صيغة مبالغة من الأمر أى كثيرة الأمر والنفس الأمارة هى النفس المسيطرة والمتسلطة على صاحبها ، وقد ورد فى القرآن ذكرها فى قوله تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]

(٢) النفس المطمئنة هى التى اطمأنت بالإيمان ورضيت بربها وأطاعته ، فهى ثابتة وساكنة بالجزاء الحسن من الله سبحانه قال تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر] [اللسان مادة (طمن) بتصرف] . ذكر العارفون أن النفوس سبعة النفس الأمارة ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، والكاملة

(٣) اشتهى الشئ شهوةً أحبّه ورغب فيه والجمع شهوات قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران] .

(٤) الأجل نهاية الوقت والأجل الآخرة ، والعاجلة الدنيا وقال تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت] والأجل المسمى يوم القيامة [اللسان مادة (أجل) بتصرف]

تخرج أنت وزوجتك تقول لها: إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبناً وزيتوناً ؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن في الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهري.

لكن ما دام في الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا في القرآن قوله الحق:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾. [المسد]

وفي هذا حكم من الله تعالى بأن أبا لهب [1] سيموت كافراً ، وهذا حكم سُعْلَن ويُردَّد في الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله ﷺ ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار وقد آمن من الكفار الكثير ألم يسلم عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبي جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن ؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبي لهب.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمي أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب

وسبب نزول السورة التي ذكر فيها ، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقال «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا نعم قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب ألهذا جمعنا؟ فأنزل الله ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الذي كان للأمم السابقة التي أهلكت في القرون الماضية تجزي كل من يحدِّد كل شيء ؛ لأن القضايا في الكون واحدة فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهي الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿خلائف﴾ : جمع خليفة [1]، وهو من يَخْلُف غيره . والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى قادر ، وسميع ، وعليم ، وله كل صفات الكمال المطلق ، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّي أثر قدرتك إلى غيرك ، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّي قدرتك إلى سواك ، فإن كنت قوياً ؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً من قوتك . بل كل الذي تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك ، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً ؛ فأنت قد تحمله عنه ، وإن كان غير قادر على المشي ؛ فأنت تأخذ بيده ، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية ، فيظل هو عاجزاً ، وتظل أنت قادراً - كما أنت.

هذا هو حال الخلق: تجد غنياً وآخر فقيراً ، ويُعطي الغني للفقير من غناه ، ويُعطي العالمُ للجاهل بعضَ العلم ، لكنه لا يهبه مَلَكَةَ العلم ؛ ليعلم.

---

(١) وقد تجمع خليفة على خلفاء ، قال تعالى ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح . ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف]

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة لبعض قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية فى الأفلاك التى صنعها ولا دخل للإنسان فيها ؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته فى الأمور التى حوله ؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التى تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة وبذلك عدَّى له الحق سبحانه من قدرته ؛ ليقدر على الفعل ، ومن غناه ؛ ليعطى الفقير ، ومن علمه ؛ ليعطى الجاهل ، ومن حلمه ؛ ليحلم على الذى يؤذيه

إذن . فالخلق لا يعدّون [1] صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، وتظل الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً أما الواحد الأحد فهو الذى يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة ؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا ؟

إن الكون قسمان . قسم وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه وقد أقامه الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم فى أمره استقامة لا يتأتى لها أى خلل ، مثل . نظام الأفلاك والسماء ودوران الشمس والقمر والريح وغيرها ، ولا تعانى من أى عطب [2] أو خلل ، ولا يأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخُّل الإنسان.

---

(١) اعتديته فعلا ، وعدوته أعدوه : تجاوزته إلى غيره ، واستعديت الأمير على الظالم طلبت منه النصرة ، فأعداني عليه أعانني ونصرني للاستعداد طلب التقوية والنصرة - المصباح المنير صـ ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) العَطَب : الهلاك ، يكون فى الناس وفى غيرهم . وفى الحديث الشريف ذكرُ عَطَبِ الهَدْى ، وهو هلاكه ، وقد يُعبَّر به عن آفة تعتريه تمنعه من السير ، فيُنْحَر والمراد بالعطب هنا الفساد أو العيب أو الخطأ [اللسان : مادة (عطب) . بتصرف] . يقول سبحانه وتعالى : ﴿الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . ﴿٣﴾﴾ [الملك] .

وقسم آخر في الكون تركه الحق سبحانه للإنسان ، حتى يقيمه بالقوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً في كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان يداً ، أما الأمور التي ليس للإنسان فيها يد فهي مستقيمة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (١) ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن]

والمراصد تحدِّد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق : ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ؛ لأن الإنسان ليس له دخل في هذه الأمور.

وفيما لنا فيه اختيار علينا أن نتدخل بمنهج الله تعالى ؛ لتستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة في الأكوان العليا التي لا دخل لنا فيها .

إذن : فالذي يُفْسد الأكوان هو تدخُّل الإنسان - فيما يحيط به ، وفيما ينفع له ويتفعل به - على غير منهج الله ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٢) (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

---

(١) الحسبان . الحساب . والشمس والقمر بحسبان أي . بحساب وميزان حدَّدهما الله سبحانه فلا يعدوانها وقال الزجاج : «بحسبان» يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات . وقال أبو العباس : حسبان مصدر حَسَبَ يحسُبُ حساباً وحسباناً . وقال الأخفش وأبو الهيثم : الحسبان جمع حساب . قال تعالى ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا . . (٩٦)﴾ [الأنعام] [اللسان مادة (حسب) . بتصرف]

(٢) البيان . ما بُيِّن به الشيء من الدلالة وغيرها . وبان الشيء بياناً : اتضح ، فهو بيِّن . وكذلك أبان الشيء إبانة فهو مبين . والبيان الفصاحة والإفصاح مع ذكاء . والبيان . إظهار المقصود بأبلغ لفظ . قال تعالى ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾ [آل عمران] . وقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة] [اللسان مادة (بين) بتصرف].

أى: هذه الأكوان مخلوقة بحساب، وتستطيعون أن تُقَدِّروا أوقاتكم وحساباتكم على أساسها. ويقول سبحانه:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ [1] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن]

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا فى حركتكم فى الكون - كما استقامت لكم الأمور العليا؛ وازنوا كل الأمور بالعدل؛ فلا يختل لكم ميزان؛ لأن الذى يُفسد الكون أنكم تتدخلون فيما أعطى لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحركة على غير منهج الله. فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله فى «افعل» و«لا تفعل» [2]؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقد خلف الإنسانُ الله تعالى فى الأرض، فى أنه - مثلاً - يحرث الأرض ويسقيها؛ فيخرج له الزرع، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب. ولكن آفة الإنسان بغروره، حين تستجيب له الأشياء، فهو يظن أنه قادر بذاته، لا بأسباب الله.

والحق سبحانه وتعالى يُعطى بعطاء ربوبيته للمؤمن، وللكافر؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود، لكنه جلّ وعلا ميَّز المؤمن، لا بعطاء الأسباب فقط، ولكن بالمنهج، والتكليف المتمثل فى

---

(١) نَجَمَ الشيء: طلع وظهر. ويقال لكل ما طلع وبدا: نَجْمٌ. ولذلك اختلف المفسرون فى تفسير النجم فى الآية، فقال ابن عباس: النجم ما انبسط على وجه الأرض (يعنى: من النبات). وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. انظر لسان العرب - مادة (نجم) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠).

(٢) افعل ولا تفعل عليهما مدار التكاليف الشرعية من: الفرض، والواجب، والمندوب، والمستحب والحرام، والمكروه، والمباح.

«افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، فإن أخذ العطاءين من الله يبقَ له حسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثاني في «افعل» و«لا تفعل» ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلِّفة .

ومن يُرِدْ أن يأخذ حُسْنَ الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وعطاء الألوهية باتباع المنهج .

إلا أن آفة الخليفة في الأرض أنه يرى بعض الأمور مستجيبة له ؛ فيطغى [1] ، ويظن أنه أصيل في الكون . ونقول له : ما دمت تظن أنك أصيل في الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ، وعلى غناك . وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إنْ تمردت على أوامر الله بالكفر - مثلاً ، فلماذا لا تتمرد على المرض أو الموت ؟

إذن : أنت مقهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمور التي تنزل عليك بالأقدار ؛ لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التي لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه .

ولو ظن الخليفة في الأرض أنه أصيل في الكون ، فعليه أن يتعلَّم مما يراه في الكون ، فأنت قد توكِّل محامياً في العقود والتصرفات ؛ فيتصرف في الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل . فيلتفت مثل هذا المحامي إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة ؟ يقول الحق سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق] ومثال هذا : صاحب الجنتين اللتين قال عنهما رب العزة : ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ [الكهف] ولكنه طغى بنعمة الله فقال : ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف] .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فإذا كنتم قد خَلَفْتُم من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة في أن الله تعالى غالب على أمره [1] ، ولا ترهقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذي جاءوا به من الله . واتركوهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم في هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار في أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية [2] مقابل حماية المسلمين لهم.

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقى أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْره أحداً ، وحمى حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا في مجتمع تتكفّل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن- وينتفع بالخدمات التي يقدمها المجتمع المسلم-أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات.

---

(١) لقد حثَّ الله سبحانه الناس على النظر في عاقبة السابقين وما حدث لهم في أزمانهم، وذلك في آيات كثيرة من القرآن، منها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران] . و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف] . والله سبحانه قد حسم مسألة الصراع بين الحق والباطل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] .

(٢) الجزية : هي مبلغ من المال يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب، فرضها الإسلام عليهم في مقابل فرض الزكاة على المسلمين، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها، وهي تجب على من كان: ذكراً، مكلفاً، حراً. ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب. انظر: فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ١١٢ - ١١٣) .

وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمنع عنه هذه الخلافة.

إذن: فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبي ﷺ على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم تؤمنوا به فاتركوه ؛ ليعلن دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه ؛ لأن الحق هو القائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس]

وساعة تأتي لأمر يعلله الله بكلمة ﴿لِيَعْلَمَ .. ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة]

أو ﴿لِنَنظُرَ ... ﴿١٤﴾﴾ [يونس]

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التي للناس فيها اختيار ، وهو القائل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ [1] لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد]

وقد علم الحق سبحانه أزلاً كل شيء ، وإذا قال الله : ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهد وإقرار منك ؛ حتى لا يقول قائل: لماذا يحاسبنا الله على ما علمَ أزلاً ؟ بل يأتي الله سبحانه بالاختبار الذي يحدِّد للعبد المعايير التي تتيح للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصي أن يُحاسَب ويُجازَى.

---

(١) الميزان: العدل ، والميزان : المقدار ، والميزان: الآلة التي توزن بها الأشياء ، وجمعه: موازين . قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الشورى] . وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (وزن) .. بتصرف] .

راجع أصله وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ/ محمد الشرقاوي المستشار بالأزهر . والأستاذ/ عادل أبو العطا .